

مجلد دوم

فصل من التاج

الطبعة الأولى

مَجْدُ الْعَرَبِ الْمُنْعِمِ خَفَاجِي

قِصَصٌ مِنَ الْإِسْلَامِ

رَابِطَةُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى بالقاهرة — ١٩٥٤

حقوق الطبع محفوظة

المطبعة المنيرية بالأزهر

قصص من التاريخ

صور جديدة ، وقصص من حياة أشهر
المفكرين والأدباء في الشرق والغرب ، من القدامى
والمحدثين والمعاصرين .. ومنهم : ليلى الأخييلية ،
والمثنبي ، وابن هانيء ، وجوته ، وعبد العزيز
جاويش ، والتيجاني بشير ، والجارم ، والزين ،
وناجي ، وأبو شادي ، وسواهم .. وثائق جديدة
عن الأدب المعاصر ، وصور حية من شعر الوطنية
سبعة كتب في كتاب :

الكتاب الأول : قصة ليلى الأخييلية الشاعرة

» الثاني : قصة جاويش وجهاده الوطني

» الثالث : قصة ابن هانيء الشاعر الخالد

» الرابع : قصص من الحياة

» الخامس : قصة حياة المثنبي وطموحه

» السادس : قصص من الأدب

» السابع : قصص من الشعر المعاصر

المقدمة

هذا الكتاب :

قصص من التاريخ ، فصول كتبها في أوقات متباعدة ، وظروف متباينة ، ثم جمعتها ونشرتها في هذا الكتاب الذي أضعه اليوم بين أيدي القراء الأعزاء .

وأسلوب القصة له خصائصه ومميزاته المعروفة ، ومع ذلك فإنني في غنى عن القول بأن خصائص القصة توجد في بعض فصول هذا الكتاب وتختفي في القليل منها ، لأنني لا أقصد من القصة معناها الفني الخالص ، إنما أذهب إلى مدلولها العام ، أي إلى القصة وما يشبه القصة أو يقاربها ، بما هو تسجيل لتاريخ ، أو تصوير لحادث ، أو وصف لحياة ، أو تخليد لذكرى عزيزة ، أو تحليل لحياة أديب من الأدباء ، أو شاعر من الشعراء ، أو حديث عن مدرسة أدبية ، أو درس لخصائص الأدب في بيئة من البيئات ، وعصر من العصور .

وهذا الكتاب بوجه عام يتحدث عن شاعرة قديمة كان صوتها وأدبها ترجمانا للشعب ، فلم تنظم الشعر للبلق والنفاق والرياء ، إلا مضطرة وفي أحيان قليلة جدا ، وهي ليلي الأخيالية الشاعرة (٢٥ - ٨٠ هـ) التي لم يكتب عنها شيء حتى اليوم إلا القليل النادر ، ثم عن مجاهد وطني مشهور ، هو عبد العزيز جاويز وقصة جهاده الوطني والسياسي ، التي لم تنشر كاملة على الشعب في يوم الأيام ، والتي دونتها بالاعتماد على وثائق سياسية خطيرة مخطوطة ، لجاويز وبقلمه ، لا تزال محفوظة حتى اليوم عند أسرته . وأنا في غنى عن أن أقول إن ما كتبه عن جاويز يسجل تراثا قوميا ووطنيا عزيزا علينا نحن أبناء هذا الشعب الخالد ، الذي كافح الاستعمار كفاحا مجيدا طويلا شاقا .. كما يتحدث الكتاب عن شاعر قديم من الشعب وإن لم يعيش للشعب ، وإنما عاش للخليفة المعز ، وهو ابن هانيء الأندلسي المشهور ، لأن شعره له خطره من ناحية أخرى هي أنه وثيقة سياسية فريدة لسياسة الخلافة الفاطمية في دور نشأتها ، وإبان توسعها في النفوذ والفتح ، وعند فتحها لمصر عام ٣٥٨ هـ ، وشعره فوق ذلك صورة للحياة الفكرية وللعقيدة الروحية في العصر الأول من عصور الخلافة الفاطمية . وابن هانيء ظلله تاريخنا الأدبي فلم يكتب أحد عنه شيئا ، وظلله نقادنا القدامى خافوا عليه حيفا شديدا ، ومن أجل ذلك كله كان حريا بهذه الفصول التي كتبها عنه ، والتي جهدت

فيها أن أخضع الدراسة الأدبية لآسلوب القصة ، وأن أحرر أحكام النقد من مشيئة السياسة ... ويلى ذلك قصص منوع من الحياة ، ثم عرض لحياة أبي الطيب المتنبي وقصة طموحه وكفاحه وعصاميته وعبقريته ومواهبه الفنية ، وكيف وقف مع الشعب في عصره يندد بالطغاة ، ويعمم الثورة على الملوك ، ويدعو العرب إلى التحرر والعزة والكرامة ، ولم يكتب من قبل أحد من كتابنا وأدبائنا ونقادنا عن موقف المتنبي من الشعب العربي ، وعن دعواته السياسية الحرة الجريئة مثل ما كتبت .. وتنتقل المناظر الفنية في الكتاب إثر ذلك إلى مشاهد جديدة مختلفة ملونة بألوان متباينة ، ومخالفة في أسلوبها لآسلوب الفصول المتقدمة ، وفيها عرض لألوان من الأدب ، وحديث واسع عن الشعر الحديث والشعراء المعاصرين ، من أمثال : الجارم والزين وناجي والتيجاني بشير ودمر ومحمود شوقي الأيوبي وهارون هاشم رشيد وسواهم ، مع حديث طويل عن قصة ميلاد مدرسة أبولو الشعرية ، وأثرها في حركات التجديد في الشعر المعاصر ، وحديث أطول عن الشعر السوداني المعاصر ومذاهبه وخصائصه وعناصره وأعلامه ونماذجه ، ولعله أول بحث ينشر بهذه الجودة عن الشعر السوداني المعاصر ، وعن الشعراء السودانيين الشبان ، من أمثال : الفيتوري والجيلي وتاج السر ومحى الدين فارس وسواهم ، ممن نحوا في شعرهم منحنى الواقعية الحديثة ، وعرضوا في قصائدهم ألوانا زاهية من كفاح الشعوب الأفريقية في سبيل الحرية والديمقراطية والحياة والكرامة .

وفي ذيل الكتاب عدة دراسات أدبية ، نشرت في أوقات مختلفة عن بعض كتب أصدرتها قبل اليوم ، بأقلام متعددة ، وأعتقد أن نشرها يعطى القارىء صورة صحيحة عن آثار معاصرة ، دون التفات إلى أن هذه الآثار لى ، أو لأحد سواى .

وأعتقد كذلك أن جميع هذه الفصول كتبت لتحطيم الأغالال الفنية التى تعوق نهضتنا الأدبية ، وهى صورة كذلك للأدب المؤمن بنظرية « الأدب للحياة » ، المبغض لترف الفن للفن ، الواقف مع الشعوب ، يؤيدها فى كفاحها الرهيب وضراعتها الجبار وتوثبها للقضاء على الأغالال والقيود والأصنام . . . ووحدة الأسلوب والهدف أو الفكرة تلونها جميعا بلون متميز مشرق متحرر معبر عن شخصية الأديب العربى الذى يعيش اليوم فى غمار الحياة الصاخبة ، القلقة المضطربة التى لا تستقر على شيء

الأدب والحياة :

والأدب لم يعد اليوم ترفا وفنا خالصا ، وتصاوير مزخرفة منمقة ، وبلاغة أدبية

نقد في صوته

محضنة ، ولم يعد يقصد للترفيه والتسلية وقطع الوقت ، وليس الأدب مقصودا على إثارة الشهوات الجنسية ، كسب الجمهور القراء الفارغين التافهين ، وليس بخورا يحرق في مواكب الطغاة تمجيدا وتسليحا بحمدهم ، ولادعاية تنشر لتضليل الرأي العام وإلهائه وكسبه بجانب الديمقراطية أو الشيوعية ، فلم يعد لامثال هذه الآداب بيننا قيمة ؛ ولم يعد القارئ المثقف يؤمن بمثل هذا الأدب الأجوف ، ولم تعد أحكام النقد وفقا على طائفة من الكتاب والنقاد المضللين ، الذين ساروا في كل ركب ، ومشواتحت لواء كل موكب ، ووقفوا حياتهم على الدعاية لسياسة الغرب باسم الصداقة والأحلاف والديمقراطية في الشرق العربي .

ونحن نبدا عهدا أدبيا جديدا نخطم فيه هذه الأصنام الزائفة ، وهذه الأقلام الجوفاء ، وهذه الأغراض التي تاجرت بحريتنا الفكرية والأدبية ، وأخضعت الأدب لاهواء السياسة ومشيتها ، وأثرت على حساب الأدباء المساكين .

نحن نمقت هذه العصابات الأدبية المضللة ، التي قتلت النبوغ وحاربت الفكر . وضاعت ذرعا بمواهب الشباب من الأدباء فقبرتها ، وسخرت الأقلام للتسييح بحمدها بين الناس

ونحن نمقت هؤلاء الأدباء الكبار ، الذين لا يرون في الأدب إلا أنفسهم ، ويتعالون على الأدباء وعلى الشعب كأنهم أنصاف آلهة ، وكأنهم وحدهم أنبياء الفكر وقديسوه ونحن نمقت هؤلاء الكتاب المضللين الذين أساءوا إلى الأدب ، وبغضوا فيه الشعب والذين لا يكتبون إلا للخداع والتقوية على الناس . فهذا الشيء جميل ورائع في رأيهم إذا كان يدر عليهم مالا وربحا وجاها . وهذا قبيح نندم إذا كان لا يعود عليهم بغتم مادي موفور ، وهذا الكتاب قيم ونمقت في أحكامهم النقدية إذا كان صاحبه صديقا أو تلميذا أو مقربا لسبب من الأسباب ، وهذا الكتاب يخيف ونازع إذا كان صاحبه لا يمت إليهم بصلة من الصلات ولا سبب من الأسباب .

بل هم لم يفكروا في يوم من الأيام في عمل يعملونه لخير الأدب والأدباء ، لم يجمعوا الأدباء في جماعة أشبه بنقابة مثلا ، ولم يحموا المريض والمتعطل من الأدباء في يوم من الأيام ، ولم يقدموا مساعدة لأمرة أدب مات ، ولم ينشروا شيئا من آثار أدبائنا الراحلين ، ولا من آثار أدبائنا المعاصرين ، أو شبابنا الموهوبين . ولم يدعوا في يوم من الأيام لحفل يقيمونه تكريما لشاعر ، أو تخليد لذكرى أديب ، ولم يدعوا لحماية الفكر العربي وصيانة ذخائره ، ولم يكسروا جهودهم لنشر دائرة

معارف عن الأدب الحديث والمعاصر، وليسوى ذلك من الأعمال الضرورية لخدمة الأدب، ولم يحرصوا على تعزيز مكانة الأدب في الحياة المعاصرة.

ونحن نقول لأدبائنا وكتابنا ونقادنا الكبار في منتصف القرن العشرين : إن الأدب الذي أفسدت أحكامه ومقاييسه في الأذواق، وضلتم باسمه شعوبكم التي خلقها الله حرة عزيزة كريمة بين الناس، وجعلتموه وسيلة لكم للثراء والسلطان والمناصب الرفيعة، وسخرتم به العامة لمشيمة الطغاة والمستبدين، هذا الأدب قد تحرر اليوم من ربة العبودية التي قيدتموه بها دهرًا طويلاً، فلم يعد ملكاً خالصاً لكم، ولم يعد الأدباء المساكين من ضحاياكم أو رعاياكم، ولم تعد أحكام النقد الأدبي وقفاً عليكم وحدكم من بين الناس الذين رزقهم الله ذوقاً، ووهبهم ملكة، وآتاهم بلاغة وبياناً أصبح الأدب يدعو إلى الحرية والكرامة والحياة الطيبة للأفراد والجماعات والشعوب؛ الحرية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والكرامة التي تدع الإنسان مؤمناً بأنه لم يخلق عبداً لإنسان، وإنما خلق حراً يشعر بكرامته الإنسانية وقيمه الأدبية في المجتمع، والحياة الطيبة التي تتكافأ فيها الفرص، وتساوى فيها المواهب، ويجد فيها كل إنسان له عملاً لا تقا، وعيشاً شريفاً، ومستوى مادي مناسباً وعناية واحدة من الحاكمين، والتي تنعدم فيها الفروق بين الناس، وتقل فيها المشكلات أمام الفرد، فلا يضطر إلى الانتحار لأنه لا يجد الخبز لنفسه وأولاده، ولا يعيش متسولاً عالة على الناس، ولا يقعد به المرض أو الجمل عن أن يعيش وأن تحفظ عليه كرامته في وطنه.. يجب أن يكون الأدب اليوم صدى الحياة المدوي، وصوتها المجلجل في كل سمع، ولسانها المبرع عن آمال الإنسانية وآلامها وأفراحها وأحزانها وسعادتها وشقائها، وأن يعبر في وضوح عن حياتنا التي نحياها : حياة الفلاح في حقله، وحياة العامل في مصنع، وحياة الموظف في وظيفته، وحياة الفتاة التي نادينا بحريتها، وحطمتنا الأغلال دونها، ثم لم نعمل شيئاً في سبيلها، لتستطيع الاحتفاظ بحريتها الطبيعية التي تحميها لها الحياة، فلم نساعدها على العمل الشريف، ولا على الزواج المناسب، وعلى حياة الأسرة الهادئة، وتركناها وحدها في الميدان، تقضي حياتها محرومة من الزواج السعيد، والزوج الصالح، والأولاد الذين تتشوق في لطفة إليهم والوضوح والبساطة والجمال والصدق هي الخصائص الأدبية الأولى، والعناصر الفنية الأساسية لكل أدب جميل بليغ، ولكن خلود هذا الأدب وذيوه يتوقف فوق ذلك على أن يكون هذا الأدب إنسانى النزعة، رفيع الهدف والغاية، يعمل

- ح -

مساعدا لنواميس الحياة على التقدم والنهضة والازدهار والحضارة والحرية . .
ومن ثم فنحن لم نعد نؤمن بأدب الزلفى والنفاق والملق ، وندعو إلى أن يعيد
رجال التعليم النظر في كتب النصوص التي تؤلف لشباب اليوم ، وفي الموسوعات
العامة الأدبية التي تكتب حول أدبنا العربي القديم والحديث على السواء ، حتى
تكون محتوية على الألوان الرائعة الرفيعة ، والنماذج الحية المتحررة ، وعلى الكثير
من قصائد وأدب الحرية والوطنية والقومية ، وما أكثر ذلك كله في أدبنا القديم
والحديث جميعا .

ولطالما شكونا من محنة الأدب المعاصر اليوم ، وهذه الشكوى لامرية فيها ولا
ريب ، ولكن هذه المحنة نحن الأدباء المسئولون عنها أولا وقبل كل شيء ، نحن
الأدباء الذين كرهنا الناس في الأدب ، وأفسدنا بالأدب أذواقهم ، وجعلناهم
لا يقرأون إلا التافه من القول ، والمعاد المكرور من الآراء والمقالات والقصص ،
وعرضنا عليهم كتباً جامعة في الأدب تحتوي على أسوأ النماذج ، وأقبح الصور الأدبية ،
التي لا ينتجها إلا ذوق سقيم ، وفكر عليل ، نحن النقاد الذين مدحوا وذموا لا لوجه
النقد ، ولكن للأغراض والأهواء والشهوات ، نحن الكتاب الذين لا يكتبون إلا
إذا أخذوا الثمن من الشركات والحكومات وسماسرة الاستعمار ، نحن حملة رسالة القلم
الذين خنا أمانة هذه الرسالة ، فلم نكتب يوماً لندافع عن مظلوم ، ولا لندود عن
محرور ، ولا لنحمي حق إنسان يعيش بيننا في مجتمعا ، ولم نقف يوماً مع الشعب
لنصبح هاتفين : السيادة للشعب ، والحرية والمجد والسلطان له ، والكرامة وقف
عليه ، وأنتم أيها المترفون المنعمون بالجواهر والنفوذ ، أحقر في رأي الشعب من الذباب
وبعد فإني أقدم هذا الكتاب « قصص من التاريخ » إلى جمهور الأدباء ، راجياً
أن ينال حسن تقديرهم ، وكريم ثقتهم . . وما توفيقى إلا بالله ...

المؤلف

الكتاب الأول

ليلي الأخيالية الشاعرة

قصته

حياتها وشعرها

٢٥ - ٥٨٠ = ٦٤٦ - ٧٠٠ م

الإهداء

هذا أول كتاب يصدر عن « ليلي الأخيالية » الشاعرة (٢٥ - ٥٨٠) ، وهو صورة لمكانة المرأة ومنزلتها في الحياة العربية في القرن الأول الهجري ، ولأثرها الكبير في الأدب في هذه الحقبة الحافلة ، ويمثل مدى نشاطها الاجتماعي ، إبان ذلك العهد البعيد .

فإلى رجال الأدب ونقادهم ، وإلى فتيات الشرق وسيداتهن ، وإلى خصوم المرأة وأنصارها . . إلى هؤلاء وهؤلاء ، أقدم هذا الكتاب . .

بين الماضي والحاضر

تشيع في أرجاء الشرق العربي روح من الطموح والأمل ، والبطولة والعزة والإباء ، تملؤه ثقة بالنفس ، وإيماننا بالمستقبل ، ورغبة في الجهاد والكفاح ، لبناء مجتمع جديد ، يقوم على خير مافي حضارات الشرق والغرب من مقومات ، وعلى أعظم مافي الماضي والحاضر من دعائم وأصول ، وعلى أكرم ما يمكن أن يصل إليه الفكر البشري من جديد في شتى نواحي الحياة والتفكير والانتاج والفن ، وغير ذلك مما تقوم عليه النهضة ، وتتطور به أحوال الأمم والجماعات .

ولقد أسهم ماضينا الأدبي ، كما أسهم ماضينا الروحي والعقلي والسياسي والاجتماعي بقسط كبير من النشاط ، في سبيل خلق هذه النهضة الحديثة وتكوينها وتوجيهها وتقويمها ،

فكان الأدب العربي — ولا يزال — الداعي إلى الفضائل ، والمهذب للعواطف ،
والباعث على التأمل والتفكير ، والحامل على الاطلاع والفراة والتهديب والتثقيف ،
كما كان أداة قوية تبعث على الوحدة ، وصوتاسها ويايدعو إلى الحرية والكفاح والتقدم
والطموح والمجد .

وهذا سفر جديد ، يتناول بالبحث والدراسة ، وبأسلوب واضح مشوق ، ليلي
الاخيلية ، وحياتها وشخصيتها وأدبها وأثرها في المجتمع الاسلامي القديم ، ليكون لسيدات
الشرق وفتياته من حياتها أسوة كريمة ، تدفعهن وبالجيل الجديد في الشعوب الشرقية إلى
مجال العمل الكريم لخدمة المجتمع والانسانية . وهو أول كتاب يؤلف عن « ليلي
الاخيلية » وأدبها .

و « الاخيلية » هي صورة مشرقة لحياة المرأة العربية وتفسيها ، وجهادها في سبيل
خدمة المجتمع والشعب ، وخدمة الآداب والفنون ، وهي مثال خالد للعواطف الانسانية
المهذبة الكريمة ، من الحب والشرف والوفاء .

الحياة العربية في القرن الأول الهجري

عاشت ليلي في القرن الأول الهجري (٢٥ — ٨٠ هـ) ، حيث الدولة الاسلامية
الجديدة تكافح لنشر نفوذها الروحي والسياسي في سائر أنحاء بلاد العالم المعروفة
آنذاك ، وشاهدت الخصومات السياسية المشتعلة التي ثارت بين الأحزاب والجماعات
والعصيات ، حول الملك والخلافة ، أو العقيدة والمبادئ ، وانتصار بني أمية السياسي
وعملهم الجاد على استقرار الخلافة في أيديهم .

وصحب هذا النشاط السياسي الضخم نشاط عقلي واسع المدى ، فقد أخذت مكة
والمدينة ودمشق والقسطاط والبصرة والكوفة تبحث وتدرس ، وتعمل على نشر الثقافة
والمعرفة ، وأخذ بنو أمية يملكون لمجد العروبة والشرق والاسلام ، ويؤثرون
للحضارة الاسلامية في دمشق وسواها مجدها الخالد التليد ، ويرفعون للعلم والثقافة صروحاً
سامقة ، كانت منارة الانسانية وشعلتها المقدسة التي تبديد ظلمات الحياة البشرية في ذلك
العهد السحيق ، واشتركت في ذلك جميع العناصر والأشخاص من مختلف الطبقات
والاجناس والأديان ، فكان ذلك الكفاح الفكري والثقافي مما دعم صرح هذه
النهضة العظيمة ، وأساساً من أسس هذه المدنية القديمة الخالدة التي يعتز بها الشرق في
حاضره المتوثب ، واستمر المكفاح حتى آتى أكله في عصر الدولة العباسية ، بل كان
الميلاد الجديد للحضارة الاسلامية الباهرة .

وكان الشباب يعيشون في نجد وفيما يحيط بنجد من واد واسعة مترامية الأطراف ، عيشة فيها فراغ كثير ، أمضوه في تمثيل أعمال البطولة العربية ، وفي هذا الحب العذرى الذى يمتاز بروعته وقداسته والوفاء له واستعذاب العذاب والتضحية في سبيله ، وأمضوه في إنشاد الشعر الذى يمثل قصص البطولة والحب في حياتهم الهادئة . ولقد كان للمرأة العربية في البادية منزلة كبيرة ، فهي تسهم في الكثير من ألوان النشاط الاجتماعى والأدبى بقسط كبير ، هى جمال الصحراء وروعته ، ومغذية العواطف ، وموقظة المشاعر ، والمشاركة فى الأدب والشعر والبلاغة ، والتي تحمل أعباء الحياة وتقوم بها ، فتاة وزوجا وأما ، كما يحتملها ويقوم بها الرجال .

حياة ليلى الأولى

بيت ليلى :

وليلى هى بنت عبدالله بن الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية الأخيلى ، فارس الحدار بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة العامرى . . من بيت كبير له شهرته فى البطولة والشرف ، وفى الشعر والأدب ، ابتدئ بعبد الله والد ليلى ، وكان شاعرا وسيدا فى قومه ، ثم يصعد إلى عقيل رئيس العقيليين ، ثم إلى عامر زعيم العامريين ، وينتهى بقيس الأب الأول للقيسيين .

مجد القبيلة وليلى :

وتصور ليلى بطولة قومها وشجاعتهم وكرمهم فى قصيدة لها ، تقول فيها :

نحن الأخيلى لا يزال غلامنا حتى يدب على العصى مذكورا

تبكى السيوف إذا فقدن أكفنا جزعا ، وتعلمنا الرفاق بحورا

موطن قومها :

وكان قوم ليلى يعيشون فى البادية بنجد مما يلي المدينة ، فى وسط أحياء قبائل قيس وفروعها الكبيرة الضخمة ، من النيريين والعبيسيين والعقيليين ، وسواهم من القبائل التى لعبت دورا خطيرا فى حياة العرب قبل الاسلام وبعده .

وكانت الحياة فى البادية إبان ذلك العهد فى طور الاستقرار النسبى ، كانت القبائل العربية لا تزال على عاداتها الأولى من الرحلة فى قلب البادية ، وتغيير مواطن إقامتها حسب اختلاف فصول السنة ، طلبا للساء والعشب فى المكان القريب منها ، إلا أن القبائل الكبيرة كانت أكثر استقرارا وطمأنينة على حياتها ، لما كانت تتمتع به من

الجاء والنفوذ ، وعناية الخليفة ورعايته ، وبره بها وبأبنائها ، وقضائه لحاجاتها ومساعدته لها ماديا وأديبا ، لتكون ساعدا له ، ويداً من أياديه على أعدائه وخصه وكذلك عاش قوم ليلى ، فى أرض البادية وفى أرجائها القفار ، ينعمون به العيش الهادى ، ويفخرون بذكريات مجدهم الخالد ، ويعتززون بروح البطولة والشه والعهة التى ورثوها عن الآباء والأجداد ، ونمتها فى أنفسهم أرض الص والحياة فيها .

ميلاد ليلى :

وفى نحو عام ٢٥ هـ أو بعده بقليل ولدت ليلى ، فى نجد موطن قومها بالباء والمصادر التى بين أيدينا لا تتحدث عن شىء من ذلك ، ولا مما يتصل بحياة ونشأتها ، ولكننا نعلم أن لىلى شعرا فى رثاء عثمان بن عفان الخليفة المقتول عام فليس بعيد إذا أن تكون ليلى وهى من سار شعرها وروى حينئذ ، ليس بعيد تكون يومئذ فى سن العاشرة ، وأن يكون ميلادها نحو عام ٢٥ هـ أى بعد الفاروق عمر بن الخطاب .

ولدت ليلى فابتسمت لميلادها الصحراء ، لئذاداً بأنها ستكون شاعرة الص والناطق بلسان قومها ، بل بلسان البادية كلها . . نعم ولدت ليلى التى صارت فيما علماً من أعلام الأدب والشعر والبلاغة ، بل حديث الجزيرة العربية كلها ، بما لها من شخصية ممتازة ، ونشاط بعيد الأثر فى الحياة العربية .

نشأة ليلى :

وفى هذه الفترة العظيمة الخالدة ، وفى وسط البادية وأرجائها الفيح القفار ، موطن قومها بنجد ، نشأت ليلى الأخيلىة واستقبلت الحياة . . شاهدهت ليلى من مظاهر شرف آبائها قومها ، فلأها ذلك ثقة واعتزازاً بنفسها ، ثم خالطت البلاغات العربية المتدفقة على ألسنة الشعراء ، وفى حديث المتحدثين ، وسمرا الساء وفى كلمات البلغاء ، وخطب الخطباء ، فتأثرت بها روحها ، وتدفق بها طلب وصقلت عليها ملسكانها ، ونشأت بليغة اللسان ، قوية البيان ، مطبوعة بفطرتها الشا ونشأتها البليغة ، وبأثر الوراثة فى نفسها ، على نظم الشعر ، وأصبحت بعد قليل قومها الذى يصلون به على الأعداء ، ويعتززون به فى مجال الشرف والفخر و جميعا . نعم ورثت ليلى أباه وقومها فى الشعر ، واستمدت هذه البلاغة من

بالبادية ، ميدان الماسكات ، ومجال الفصاحات ، وموطن البلاغة العربية المتدفقة ؛ وكانت ليلي فوق ذلك كله عليها سمات من نضارة الشباب ، وروعة الجمال ، وفتنة الحسن العربي الأصيل ، الذي يتجلى على محياها الواضح ، وتغرما الباسم ، وجبينها المضىء ، وقسماتها المشرقة ، وملاحج وجهها الفاتنة الجميلة ، نعم كانت تمثالا للحسن ، وآية من آيات الذوق والنبل والخلق . وهكذا استكملت ليلي عناصر الشخصية القوية ، من مجد وحسب وشعر وأدب ، وجمال وفتنة ، وذوق وخلق ، وصارت حديث البادية ، ونشيد الصحراء .

ليلي وتوبة

من هو توبة ؟

هو شاب عربي وسيم أديب شاعر فارس ، ومن أسرة عربية كبيرة احتلت مكانا عظيما بين القبائل العربية الكبيرة ، عاش هو وقومه في صميم البادية بنجد ، وفطر على ما فطر عليه شباب البادية من خلق وبطولة .

والده الحخير بن ربيعة بن كعب بن خفاجة ، يصعد بنسبه الأول حتى يصل إلى خفاجة العميد الأول للخفاجيين ، ثم يصعد به حتى يصل إلى عقيل رأس العقيليين ، ثم إلى عامر رئيس العامريين ، ثم يصعد حتى يدرك قيسا الأب الأول للقيسيين ، وهو حسب رفيع ، يصله بعظمة القبيلة وسؤدد الآباء والأجداد ، وذكريات المجد والبطولة من جميع أهرافه ونواحيه .

وولد توبة قبل ليلي ، نحو عام ٢٠ هـ ، ونشأ وترعرع وقضى حياته الأولى في البادية ، مسرح البطولة ، ومجال البلاغة ، وميدان الشعر والالهام ، والحب العذرى الطاهر .

وبعد قليل صار شاعر قومه المفوه ، ولسان البادية البليغ ، كما أصبح بطل الصحراء الجبار ، وفارسها العنيد .

وكان مجد أسرته وقبيلته عاملا كبيرا في تكوين شخصيته ، فغذاه ذلك الطموح والبطولة وكرم الخلق ونبل النفس ، وأشاع في قلبه حب العظمة والسمو بالنفس إلى حد بعيد ، وبدافع خفي من روحه انطلق يتلبس الحياة التي يظهر فيها بطولته ، فكانت في هذه الغارات الحربية التي يشنها هو وأصحابه على القبائل الكبيرة بالبادية التي كانت تريد أن تستبد بمظاهر العظمة والسلطان فيها ، وأكثر توبة من هذه الغارات على بني الحارث بن كعب وخثعم وهمدان ، من غير أن يعبأ بأحد ، وكان أكثر غاراته على

القبائل التي تنافس قومه الشرف ، أو التي بينها وبين قومه خصومات ، كهمرة وقضاعة
 وهمدان ، وكان يزور نساء منهم ، يتحدث إليهن ، ثم ينطلق وهو يقول :
 أيذهب ريعان الشباب ولم أزر غراثر من همدان بيضا نحورها
 كان توبة إذ ذاك في سن الشباب ، وكان ممتلئاً قوة وعزيمة وبطولة وشباباً وجمالاً ،
 وكان كأولاد القبائل الكبيرة ، ولصغرسنه لا يندب إلى الالتحاق بالجيش الإسلامي
 الذي يسير في أرجاء الشرق إذ ذاك فاتحاً مظفر منصوراً .. فعاش في البادية معنفاً غلوائه
 وخيالاته ، وأعمال بطولته وشجاعته.

وأخيراً عرف ليلى وأحبها ، فكانت عاملاً حاسماً غير مجرى حياته كلها ، وبعث
 فيها النور والسعادة والبهجة ، وملاً صدره عزيمة وإقداماً وهمة ، وسما بنفسه إلى مجال
 الطهر والشرف والخير ، وقاده إلى حياة جديدة كريمة .

حلفاء :

وكان قوم ليلى حلفاء لقوم توبة ، يغزون معهم ، ويحاون ويرتحلون جميعاً .
 ويتسامرون في المسارح والاجتماعات .

وكان عبدالله والد ليلى زعيم قبيلته ، ورئيس قومه ، وكانت ليلى آتشداسان القبيلة ،
 وشرف الأسرة ، وموضع الأكبار والتقدير من قومها جميعاً ، وكان قد شاع في البادية
 ذكرها ، وروى الناس في الصحراء شعرها القوي الساحر ، وتحدثوا بها وبفصاحتها
 وأدبها وحفظها لأنساب العرب وأيامها وأشعارها كافة .

أول لقاء .

ولم يكن توبة قد رآها بعد ، ولكن حدث أن خرج قوم ليلى في غزوة حربية من
 هذه الغزوات المألوفة في البادية ، فلما كان يوم عودتهم من نضالهم الظافر ، خرجت ليلى
 وخرجت معها نساء الحي للقاء القادمين من أبطال قومها وفرسانهم ، وسفرت الفتيات
 والسيدات عن وجوههن في ضجة من الفرح والبشر والاعجاب ، وكان توبة قريباً منهن
 في هذه اللحظة النادرة فشاهد هذا الجمال المشرق من وجه ليلى وجبينها ، وهذا
 الأدب والشعر الذي تنفثه الصحراء في لسانها ، فافتتن بها وأحبها ، وهام بها
 هياماً سديداً .

حب وهيام :

نعم أحب توبة ليلى وهام بها ، ثم رفرف فوق رأسه « كيوييد » بمخاضيه ،

فحقق قلبه ، واضطرب فؤاده اضطرابا شديدا .
وصارت ليلى من ذلك الحين سره ومناه ، وأمله ونجواه ، وتمثلت في عقله وقلبه
مثلا كريما عاليا ، وصورة ملائكية ساحرة ، وروحا قوية غالبة .
وتحمل توبة كل ألم ، واستعذب ألوان العذاب في سبيل حب ليلى ، والوفاء لهذا
الحب الأبدى الطاهر .

لم يطق أن يفارق ليلى ، فأخذ يزورها ، ويتردد على حيفا ، يقنع منها بنظرة أو
بتحية أو بكلمة جميلة تخفف عنه أعباء الحياة ، وعذاب الحب وسعير الهوى . ونظم فيها
الشعر قصائد حية ، وأنشيد رائعة ، تصور عواطفه ، وتمثل آماله وآلامه في حب
ليلى جميعا ، وصار بعد قليل شعره في ليلى حديثا في كل فم ، وأنشودة على كل لسان ،
وشهر توبة بحب ليلى في جميع أرجاء الصحراء ، ودوت بقصة حبه جميع آفاقها ، كما
كانت تدوى بأنباء قيس وليلى ، وكثير وعزة ، وجميل وبثينة ، وسواهم من الشعراء
الغزلين ، الذين ملأوا جو البادية العربية تصوفا روحيا في الحسن ، وهياما أبديا بالجمال ،
وتقدیرا خالصا للمرأة في أشخاص محبوباتهم الخالدات ، وأذاعوه في أرجاء البادية
العربية قصص الحب العذري البريء ، الخالص من وساوس النفس ، ومآرب الدنيا ،
وشهوات الحب المادى الجائح ، وسماوا به وبالوفاء في سبيله إلى المستوى الروحي الذي
سما إليه من قبل الفلاسفة في حبيبهم الروحي الخالد ، المصور لمعانى الحق والخير والجمال
في الحياة ، فهم في هيام دائم بالجمال ، وإيمان بالحب للحب ، وحرص على شرفه ،
وجعله متعة روحية خالصة ، نصيب القلب والروح والعاطفة والوجدان لمنه
هو نصيب الأسد ، وهو كل شيء فيه ، وهو ألفه وياؤه ، أو طغراؤه كما
يقول شوقي .

وذهب توبة يوما إلى ليلى ليبيتها وجده وهيامه ، وما نزل به من حبا ، فأنبأته
ليلى بما تحمله في صدرها له من حب ووفاء ، فكان أكبر سلوى ، بل أكبر
نعيم لهذا المحب الوامق ، والعاشق الشقي ، وبذلك قامت بينهما صلاة وثيقة من
الإخلاص والوفاء .

لقد كان توبة أكرم شباب البادية ، بمجده وحسبه وطموحه وبطولته ، وشعره
وبلاغته وشخصيته العالية ، وكانت ليلى كذلك أكرم فتيات البادية بما تجمععه في
أعطافها من آثار المجد الخالد ، وبما يلوح في جبينها من سمات ذلك الجمال الرائع ،
وبأدبها وشعرها وشخصيتها السكرية الطاهرة . . . كانا مثالا نادرا يمثل كثيرا من مظاهر

الحياة في البادية ، يجمعهما حسب ومجد ، وطموح وإقدام . وفن وبلاغة ، وعواطف متبادلة ، حتى لكأنهما قلب واحد حل في جسمين ، وروح واحدة سرت في بدنين ، فكان هذا الجمال مصورا ، وكان ذلك البطولة ممثلة ، فأى سبب إذا تحول بين امتزاج توبة بليلي وامتزاج ليلي بتوبة ، في صلة وثيقة ظاهرة ، تهب ذكرها العطرة هبوب النسيم الجميل ؟ :

أرى الناس من ليالك سقما ، وقربها حيا كحيا الغيث الذي أنت ناظره
ولو سألت للناس يوما بوجهها سحب الثريا لاستهلت مواهره

توبة يخطب ليلي

وذهب توبة إلى والد ليلي في وفد من رؤساء قومه ، يطلب منه أن يزوجه إياها وأن يقبل خطوبته لها ، ولكن والدها رفض وأبى ، وقال: لقد شهر توبة اسم ليلي واسم قومها بين أحياء العرب جميعا ، وأذاع حبه لها وهيامه بها بين الناس كافة ، فحال إذا وبعد ذلك أن يزوج توبة ليلي ، إياها دام في بني الأخييل عرق ينبض ، وقلب يخفق ، ونفس تدين بما تدين به العرب جميعا من حمية وغيرة ، وتقديس للشرف ، وزياد عن حرمة العرض المفدى بالمهج والأرواح . محال أن أخالف سنة الآباء والأجداد ، وشريعة العرب والصحراء ، وإلا لأصبحت سبة الأبد ، ومهزلة الأجيال !

ووقعت هذه الكلمات على توبة وقوع الصاعقة ، فأيس من كل شيء ، ومن الحياة المرحاة التي كان يتمنى أن يحياها في ظل ليلي ، وحاول أن يغير مجرى هذا التصميم والعزم والإباء ، الذي تنطق به أسارير وجه عبد الله ، ولكن جهوده ذهبت هباء ، ولم يجده شيء أمام هذا التصميم الأبدي الذي ظن توبة أن زحزحة جبال البادية عن مقرها أقرب منالا من تغييره أو الرجوع فيه . نخر صريعا مغشيا عليه .

وسعت أسرة ليلي إلى ليلي بنياً رفض والدها ليد توبة التي امتدت إليه بالخطوبة والمصاهرة ، فحزنت حزنا عميقا ، وأيقنت أن آمالها المنشودة في ظلال الزوجية المقدسة بين ذراعي توبة قد ذهبت أدراج الرياح . وتبدل جمال الحياة في عيني ليلي الساحرتين قبحا ، واستحال نعيمها الصافي في قلبها شقاء وبؤسا ، وظالما قائما ، ويأسا مريراً . ودت ليلي كما ود توبة أن لم يخلقا ، أو أن تضمهما بقعة واحدة بعد هذه الحياة . . . وظلت صلوات حبيبها العذري الطاهر وثيقة ، بل أوثق مما كانت ؛

وحرم توبة من رؤية ليلي ، فكان يحاول أن يبلغها تحيته بكل ما يستطيع .
 وجه صاحباً له إلى حي ليلي وقومها — بني عبادة بن عقيل ، وقال له : إذا
 أتيت الحي فاصعد في مكان مرتفع ، واهتف بهذا البيت :
 عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسرى إلى خيالها
 فسمعت ليلي الصوت ، وعرفت رسالة توبة ، فقالت للرجل :
 وعنه عفا ربي وأحسن حاله عزيز عاينا حاجة لا ينالها

زواج ليلي

وبعد قليل سعى إلى والد ليلي سوار بن أوفى القشيري الشاعر ، من بني قشير
 ابن كعب بن ربيعة العامري ، مخاطباً منه ابنته ليلي ، فوافق على هذه الخطوبة ، وتمت
 نصوص عقد الزواج ، وساد أرض ليلي جو من الفرح والغبطة والسرور .
 ولكن ليلي كانت في جحيم ، وكان قلبها يشقى بآثار حبها الطاهر ، الذي عاهدت
 ليلي على الوفاء له حتى الرmq الأخير ، وتمثلت أمام عينيها ذكريات الشباب الناضر
 وأحلام الحب الروحي البريء ، وأطافت بخيالها صور هذه الآمال العذاب التي
 عاشت ليلي لها وبها وانتظرت تحقيقها ، ولكن هيهات ! فذرفت عيناها الدموع ،
 وعلا وجهها الشحوب ، وعقد لسانها فهو لا يكاد يبين . ولا تريد ليلي أن يترجم
 عن ما في قلبها من آلام .

وخرج سوار بليلى زوجته الكريمة من أحياء العقيليين ، وقومهم من العامريين
 إلى حي قومه القشيريين . وتوبة يتبع بصره هودج ليلي الذي يهتز بها ويمن معها فوق
 أرض البادية المرحاة الضحوك ؛ ويرنو إليها من بعيد بعيون تخنقها العبرات ؛ وفؤاد
 ملؤه الألم الدفين ، والحزن العميق ؛ والشقاء القاتل . فيبكي ويقول :

ألا إن ليلي الأخيلى أصبحت تقطع إلا من قشير حباها
 كأن مع الركب الذين اغتدوا بها غمامة صيف زعزعتها شماها
 إذا التفتت من خلفها وهي تعلى على العيس جلى عبرة العين حاها
 خليلي هل من حيلة تعلماها فيدني بها تكليم ليلي احتياها
 فإن أتما لم تعلماها فاستما بأول باغ حاجة لا ينالها
 وسقط على الأرض بين البكاء والأنين .

ليلي في حياة الزوجية

وكانت نضارة الشباب وفتنة الجمال بالغة بالغة منتهاها في ليلي ، وكان زوجها رجلا غيورا بكل معنى تحمله هذه الكلمة ، حجبتها عن الناس وعن المجتمع في البادية ، حتى عن قومه وأهله ، فإذا رحل رحل بها منفردا عن الناس ، وإذا نزل نزل بها بعيدا عنهم ، وحرّم على نفسه أن يأتي معه بضيف في منزل ليلي ، وقيد حياتها بقيود شديدة . احتملتها ليلي في جلد وقوة احتمال .

خرج أعرابي ينشد إبلا ضالة ، ففاجأه الليل وظلمة الصحراء وهو في بلاد بعيدة عن بلاده ، فنظر فإذا بيت قريب منه ، فدنا نحوه ، ونزل حيث ينزل الضيف ، ثم أبصر سيدة رائعة الجمال وعدة صبيان يدورون حول الخباء ، ولم يكلمه منهم أحد ، فلما كان بعد هدأة من الليل سمع صوت إبل قادمة نحوه ، وسمع فيها صوت رجل جاء بها فأناخها حول البيت ، ثم دخل الخباء ، وقال لزوجته : ما هذا الشيخ النائم على مقربة منك ؟ قالت هو ضيف نزل علينا حين مغيب الشمس ولم أكله ، فقال لها : كذبت ، ما هو إلا صديق من أصدقائك ، ونهض يضربها ، وهي تناشد ، وهو يقول لها : والله لا أدع ضربك حتى يأتي ضيفك هذا فيغيثك من يدي ؛ فلما عيل صبرها استغاثت بالضيف ، فهب مسرعا ، وهول به راوته نحوها حتى أتاها وزوجها يضربها ، فرفع العصا وضرب بهارب البيت ، ثم أدركته السيدة ، فقالت : يا عبد الله مالك ولنا ؟ نخ عنا نفسك ، فانصرف الضيف ، وركب راحلته وأدج ليالته كلها ، وقد ظن أنه قتل الرجل ، وهو لا يدري من الحي الذي نزل ضيفا عليه بعد ، حتى نزل على أخبية عربية في جوف البادية ، ورأى فتاة ترعى شويهاً لها ، فسألها عن الحي الذي كان فيه بالليل ، فضحكت وقالت : إنك تسألني عن شيء أنت عالم به ، فقال : والله ما أعرفهم ولا يعرفونني بعد ، فقالت : ذلك الخباء خباء ليلي الأخيالية ، وذلك الرجل هو زوجها ، وكل ما رأيت وشاهدت وسمعت فهو من غيرته الشديدة عليها ، فزوجها رجل غبور ، ينأى بها عن الناس ، ويحجبها عن ضيوفه وأصدقائه ، ويمنعها من أن تضيف إنسانا ، فكيف نزلت بها يا هذا ؟ قال الرجل : إنما نظرت الخباء فقصدت نحوه ، ولم أقربه ، ولم أكلّم أو يكلمني أحده ، حتى كان ما قصصته عليك وما بلغك وما أصبح الناس يتحدثون به في هذه الأحياء .

وهكذا عاشت ليلي كالهزار المحبوس في قفص ، لا ترى الحياة ، ولا تخالط الأحياء ؛ تقوم بأعباء الزوجية والأمومة ؛ وتعيش على الوفاء لتوبة ، والثناء

لحالته ، وظلت كذلك حيناً من الزمان .

صلاة الحب العذرى بين توبة وليلى

ولم يطق توبة آلام فراق ليلى محبوبته ، فكان يتردد أحياناً على حى زوجها اثرأ ومحيياً ، كلما و انت الفرصة ، و سمحت الأيام ، فاشتد سوار فى حجاب ليلى ، فقلق توبة لذلك ، حتى خاسره الجزع ، و نابتة غيبوبة تلم به أحياناً فتذهب بعقله فأشاروا عليه أن يكثر من الرحلات فى جوف البادية ، فكان يخرج أحياناً يحوب قفار الصحراء الفسيح ، وأنحاءها الواسعة .

ولكن توبة لم يطاق فراق ليلى ، وكاد يموت سقماً من نأيه عنها ، فأخذ يتردد على معاهد الحب والهوى ، ومسارح اللهو والشباب ، فى الأيام الخاليات ، اللاتي كانت تجتمع به ليلى فيها صلات الشباب البرىء ، ثم سعى فى خفية يزور ليلى ، ويتردد ، على حى زوجها « سوار » ، فشعر بما تعيش فيه ليلى من مضايقة ومراقبة ، فزاد ألمه وسقامه .

ثم سعى اليه إخوة ليلى وقومها يناشدونه ألا يعرض ليلى — وهى فى حرم الزوجية المقدس — لآلام جديدة ، فوعدهم ، ولكن قلبه لم يحتمل صدمة هجرانها الأبدى ، فعاود زيارتها ، فلامه زوج ليلى وقومه ، ثم شكوه إلى قومه ، فلم يثنه ذلك عما هو عليه ، فلما طال أمره ، وشهرت حاله ، رفعوا أمره إلى السلطان ، وكان هو إذ ذاك « مروان بن الحكم » ، وإلى المدينة وما جاورها من أحياء نجد « معاوية بن أبى سفيان » ، خليفة بنى أمية ، فأباح لهم الفتك به إن وجدوه فى حى ليلى وزوجها ، فكان لا يزورها بعد ذلك إلا لماماً يقنع بأن يحمل النسيم سلامه وتحيته إليها ، أو يكاف أحد المسافرين نحو بلاد زوجها بأن يبلغها وفاءه وأمانيه ، أو يرسل فى ذلك أحد أقاربه وأبناء عمومته ، وما كان توبة حين يزورها إلا الطهر والشرف فى ثوب إنسان ، أو كما يقول :

على دماء البدن إن كان زوجها يرى لى ذنباً غير أنى أزورها
وأنى إذا ما زرت قلت لها : اسلمى فهل كان فى قولى : اسلمى ، ما يضرها ؟

ولما اشتد منع زوجها « سوار » لها من رؤية توبة ، ومن الحديث البرىء معه ، جعل توبة وليلى بينهما أماره ، قالت ليلى : إذا مررت فوجدتنى مبرقة فاجلس مطمئناً فلا حرج حينئذ ، وإذا رأيتنى سافرة فانج بنفسك ، فإن القوم يتربصون بك حينئذ .

فلما اشتد تصميمهم على طلب توبة والفتك به أثناء تروده على حبيهم ، جاء
سوار إلى ليلى ، فقال : يا ليلى ، أقسم لئن لم تنبئني بميعاد قدوم توبة لأسفكن دملك
فأنبأته ، ثم خرجت يوم قدومه سافرة الوجه ، فجلست على كتيب بحيث يراها توبة
من بعيد ، فلما أقبل وراها سافرة مضى في طريقه متنكباً حتى مر سحراً بمكان فيه ظل ،
وحامهم تغرد ، فعاودته أشجانته ، فأنشد :

نأتك بليلى دارها لا تزورها	وشطت نواها واستمر مريرها
أرتك حياض الموت ليلي ، وراقنا	عيون نقيات الحواشي تديرها
يقر بعيني أن أرى العيس تغلى	بنا كل يوم نحو ليلي نزورها
حمامة بطن الواديين ترنمى	سقاك من الغر الغواذى مطيرها
أبينى لنا ، لا زال ريشك ناعما	ولا زلت في خضراء غصن نصيرها
وكنيت إذا ما جئت ليلي تبرقعت	فقد رابى منها الغداة سفورها
على دماء البدن إن كان بعلمها	يرى لى ذنباً ، غير آنى أزورها
وإني إذا ما زرت قلت لها : اسلمى	فهل كان فى قولى : اسلمى ، ما يضيرها

وهكذا عاش توبة حزينا باكيا ، مشرداً فى الآفاق ، يمسكه الرمق ، ويميته
الفراق والبعد عن ليلاه ، فقد ملأ الحب قلبه ، وضاق بحمله كما يقول :

قالت مخافة يدينا وبكت له فالبين مبعوث على المتخوف
لو مات شيء من مخافة فرقة لأماتى للبين طول تخوفى
ملأ الهوى قلبى وضقت بحمله حتى نطقت به بغير تكلف

وخرج توبة إلى بادية الشام ، فأقام بها يسيراً ، فلم يستقر به قرار وتاقت نفسه
إلى ليلى ، فكان يصعد على ربوة ويتجه بوجهه نحو ليلى وبلادها يبكي ويستمر فى
البكاء ، وأقام على ذلك أياماً لا تلد له معيشة ، ولا يهدأ له قلب ، ولا ينعم له بال
مخرج مسافراً يريد حى ليلى ، حتى بلغه ، فشهد طفلاً يلعب ، فقال له : هل تعرف
ليلى أيها الفتى ؟ قال : نعم ، قال فامض إليها وأنشد :

وكنيت إذا ما زرت ليلي تبرقعت فقد رابى منها الغداة سفورها
نم عد إلى فسأعطيك جائزة ، فمضى الغلام فأنشد البيت ، فعلمت ليلى أن توبة
قد ورد الحى ، فقالت للغلام : قل له إنها الآن مبرقة ، فمضى الغلام إليه وأعلمه
بذلك ، فاعطاه دينارين ، وأقبل يجدد زيارتها ، وينعم برؤيتها ، وقبيل قيامه قال
لها : مكينى من تقبيل يدك ، فأنشدت :

وذى حاجة قلنا له : لا تبج بها فليس إليها ما حيت سليل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب و خليل
فعلم توبة أن ليلي قد استرابت منه ، فاعتذر لها ، وأقسم أنه لا يريد إلا الخير ،
فزادت ليلي إعجابا به ، وتقديراً له ، ثم ودعها توبة على استحياء ، ومضى في جوف
البادية الجرداء ، وهو ينشد :

أأغبط من ليلي بما لا أناله ألا كل ما قرت به العين صالح
وهل تبكين ليلي اذا مت قبلها وقام على قبري النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلي بكيتها وجاد لها دمع من العين سافح
ولو أن ليلي الأخيلىة سلمت على ودوني تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح
وهكذا عاش توبة شقيا بحب ليلي ، سعيداً بهذا الشقاء الطويل ، مشرداً في آفاق
البادية وأرجائها . فياله من شقاء ، وبالهذا الوفاء من وفاء .

هل تزوج توبة ؟

وبيت ليلي :

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب و خليل
يدل على أن توبة تزوج بعد إخفاقه في ادراك ليلي والزواج بها ، والظاهر أن أهله
حتموا عليه هذا الزواج حينما شاهدوا شروده وغيبوبته من أثر حب ليلاه ، وربما
كانت ليلي قد نصحته بهذا الزواج لتمنع عنه وعنهما أثر القيل والقال ، وظنون الناس
الآثمة ، ويؤيد هذا الاستنتاج بيت ورد في مرثية لها في توبة بعد وفاته ، وهو :

فقى ليس تبني بيتها أم عاصم ، على مثله إحدى الليالى الغواير
أى لا تستطيع أم عاصم أن تتزوج مثله أبداً ، ولا تجد له مثيلاً طول حياتها ، فأم
عاصم هذه إذاً هي زوجة توبة ، تزوجها وخلفت له ولداً سمي عاصماً ، وهذا ما لا أثر
للشك فيه . وعلى أى حال فإن زواج توبة لم يسعده كما ينتظر ، ولم ينسه آلامه وهمومه
وعذابه في حب ليلي ، ولم يمنع عنه هذا السقام والشرود ، والذهاب في البادية كل
مذهب ، ولم يحل دون وفاته لمحبوته ليلي ، ولحبه الأبدى الطاهر لها ، والحب
العذرى أو الروحى لا ينسى ولا يمحو من القلب والعاطفة والوجدان .

وفاة توبة

كان ذلك نحو عام ٥٧ هـ في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وكان توبة قد قارب نهاية العقد الرابع من عمره ، وهو بين البادية أكرم شبابها ، وأجد شخصياتها ، وكان أمير المدينة وما جاورها من نجد إبان ذاك هو مروان بن الحكم ، الذي استعمل على صدقات بني عامر شيخ العقيليين همام بن مطرف العقيلي العامري .

وكان بين قوم توبة وبني أعمامهم من بني عامر بن عوف العقيليين خصومة انتقلت عدواها إلى نفس توبة وأبناء عمومته .

واختصم الفريقان في بعض أمورهم إلى همام شيخ العقيليين ، وكان توبة حاضرا مجلس الخصومة مع سادة قومه وأشرف عشيرته .

وفي ثورة الخصومة وشدة المجادلة وحمية الغضب وثب « ثور » أحد رجالات بني عامر بن عوف العقيلي ، فضرب توبة بحديدة كانت في يده ، وعلى توبة الدرع والخوذة فجرححت الخوذة وجه توبة فاستفحل الأمر ، وتفاقم الشر والخصومة ، وانتهى ذلك بأن قتل توبة « ثورا » وجرح كثيرا من قومه في معركة دامية ، فنهض « السليل ابن ثور » يأخذ بثأر أبيه ، وكان السليل يارعا في الرمي ، كثير البغي والشر ، فاتكا يهرب الناس في البادية ، ولكن توبة كان بطلا جريئا لا يبالي بإنسان ، وبعد قليل صرع توبة السليل وقتله كما قتل والده من قبل .

ثار قوم السليل لمقتله ومصرع أبيه من قبل ، ولكن توبة لم يبالي بثورتهم فأخذ يغزوهم في ديارهم ، ويقطع الطريق على إبلهم وأموالهم ، ويروع فرسانهم ورجالهم . فهبوا للانتقام من توبة ، وأخذ ثأرهم منه ، وتماقدوا على أن يطلبوه في كل مكان وأن يذيقوه الوبال والشكال .

ولكن توبة لم يبالي بجمعهم ، ولم يأخذ نفسه بالاحتراس من شرهم وطلبهم ، ففي يوم قانظ كان بالبادية ومعه شقيقه عبدالله وابن عمته قابض ، فصعد توبة إلى هضبة من هضبات البادية في أرض بني أعمامه السكلايين العامريين ، ليستريح من حر الظهيرة اللافح ، وليستريحوا معه ، فحذره شقيقه من طلب القوم له وسعيهم في أثره ، فقال توبة : دعني فقد أقننا « قابضا » على حراستنا لينذرنا إذا ظهر خطر أو ألم شر ، وبعد قليل كان « قابض » يغط في نوم عميق ، وبعد وقت قصير كان خصوم توبة يصعدون إلى الهضبة ، فهب « قابض » مندورا ، وهب توبة وعبد الله بعده ، ونهض توبة إلى فرسه محاول أن يركبه ، ولكن الفرس نفر منه وجرى في الهضبة ، فأخذ

السيف وضرب به أول قادم عليه فقتله ، ثم تسكأثر خصومه عليه ، فقاتلهم حتى خر في المعركة صريعاً مضرجاً بدمائه ، وسقط أخوه بعد أن كسرت ساقه ، وفر قابض لا يلوى على شيء .

فوجيء قوم توبة بخبر قتله ، فهابوا يأخذون بثاره ، وانتهى بهم الأمر أخيراً إلى أن أجلوا بني عوف العقيليين عن ديارهم ، ولم يبق منهم أحد بالبادية .
ووقع نبأ مصرعه على ليلي موقع الصاعقة . فذرفت عيناها الدموع ، وبكت أحر بكاء ، وهي تقول :

لتبك العذارى من خفاجة كلها شتاء وصيفاً - دائبات - ومربعا
على ناشيء نال المكارم كلها فما انفك حتى أحرز المجد أجمعا
خلعت ليلي زينتها ، وعاشت بعد توبة في حزن عميق عليه ، وأخذ الناس يعزونها في توبة ، ويسرون عنها .

لقد كانت ليلي لا تبالي بالفراق يحول بينها وبين توبة ، ولكن ماذا تصنع الآن وقد ذهب إلى حيث لا تراه بعد اليوم .

لهمرك ما الهجران أن يسقط النوى ولكننا الهجران ما غيب القبر

مرآئي ليلي في توبة

وتصور ليلي حزنها الدفين في شعرها الخالد ، ومرآئها الباقية التي رثت بها توبة .

١ - تقرأ حزن ليلي ، وتقرأ كثيراً عن سمات شخصيتها البارعة ، وعن حبها الطاهر ، ووفائها الذي كان مضرب الأمثال ، حين تقرأ مرثيتها الرائعة الرائعة ، التي تقول فيها بعد أن صورت مصرعه ، ونددت بقاتليه ، وأنذرتهم سوء العواقب ، تقول :

وتوبة أحبي من فتاة حيية وأجراً من ليث يخفان خادر
فقي كان الهولي سناء ورقعة والطارق الساري قري غير باسر
فاقسمت أبكي بعد توبة هالكاً وأحفل من نالت صروف المقادر
أى لا أبكى بعده ميتاً ، ولا أحفل بمن يموت .

فقي ليس تبني بيتها د أم عاصم ، على مثله إحدى الليالي الفواجر
وكنيت إذا مولاك خاف ظلامه دعاك ولم يعدل سواك بناصر

والقصيدة طويلة وما أثر منها يزيد على الأربعين بيتاً ، وهي في كتب الأدب في روايات يكمل بعضها بعضاً .

٢ — ورثت ليلي توبة أيضا برائية ثانية ، مشوبة بالطبع والبلاغة والابداع ،
تقول فيها :

أيا عين بكى توبة بن حمير بسح كفيض الجدول المتفجر
لتبك عليه من خفاجة نسوة بماء شئون العبرة المتحدر
ومنها بعد أن وصفت أخلاقه وبطولته :

فيا توب للهيجا ، ويا توب للندي ويا توب للمستنبح المتنور
تريد : للضيف الطارق بالليل البهيم .
ألا رب مكروب أجبت ، ونائل بذلت ، ومعروف لديك ومنكر
وهي رائية طويلة موزعة في كتب الأدب .

٣ — ثم يشتد هلع ليلي وحزنها ، فتسرى عن نفسها هذه الآلام بما تنشده من
حكمة الحياة ، وشأن المقادير في تقلبها ودورانها ، تقول من رائيته ثالثة في رثاء توبة :
لعمرك ما بالموت عار على الفتي إذا لم تصبه في الحياة المعابر
وما أحد حي ، وإن عاش سالما بأخلد ممن غيبتته المقاسر
ومن كان مما يحدث الدهر جازعاً فلا بد يوماً أن يرى وهو صابر
وكل شباب أو جديد إلى البلى وكل امرئ يوماً إلى الله صائر
وكل أليف ألفة لتفرق شتاتاً ، وإن ضنا وطال التعاشر
فلا يبعدنك الله حياً وميتاً أيا الحرب إن دارت عليك الدوائر
فأليت لأنفك أبكيك مادعت على فن ورقاء أوطار طائر
وليلي في توبة كثير من المراثي الحارة ، التي تتم عن حزن عميق ، ووفاء كريم ،
وشعور بعيد بشخصية توبة وبطولته وأخلاقه .

ليلى في بلاط معاوية

ووفدت ليلي د علي معاوية بن أبي سفيان ، أول خلفاء بني أمية (٤١ - ٥٦٠ هـ)
بعد وفاة توبة ، حيث نزلت عليه في دمشق ، فمدحته فكافأها بخمسين من الابل
ثم سألها عن مضر ، فقالت : « فآخر بمضر ، وحارب بقيس ، وكأثر بتميم ، وناظر
باسد ، ثم سألها عن خلق توبة فنفت عنه أكاذيب الناس عليه وقالت تصفه للخليفة :
« كان والله سبط البنان ، حديد اللسان ، شجي للأقران ، كريم الخبر ، عفيف المنزر ،
جميل المنظر ، وكان والله كما قلت — ولم أبعث عن الحق — فيه :

بعيد المدى لا يبلغ القرن قعره ألد مد يدغلب الحق باطله
قال معاوية : « ويحك يا ليلي ، يزعم الناس أنه كان فاجراً » ، فقالت :
معاذ النهي والله قد كان توبة جواداً على العلات جما نوافله
أغر خفاجيا يرى البخل سبة تحالف كفاه الندي ، وأنامله
عفيفاً ، بعيد الهم ، صلباً قناته جميلاً بحياه ، قليلاً غواناه
وكان إذا ما الضيف أرغى بعيره لديه أناه نيسله وفواضله
وقد علم الجذب الذي كان سارياً على الضيف والجيران أنك قاتله
وأنت رحب الباع يا توب بالقري إذا ماثم القوم ضاقت متازله
بيت قري العين من كان جاره ويضحى بخير ضيفه ومنازله
فقال لها معاوية : « لقد جرت بتوبة قدره » ، فقالت يا أمير المؤمنين ، والله لو
رأيتك لعلمت أني مقصرة في نعمته ، لا أبلغ كنه ما هو له أهل ؛ فقال لها معاوية : في
أي سن كان ؟ فقالت :

أنته المنايا حين تم تمامه وأقصر منه كل قرن يناضه
وصار كليث الغاب يحمي عرينه فترضى به أشباله وحلائله
عطوف حلیم حين يطلب حله وسم زعاف لاتصاب مقاتله
فأمر لها بجائزة ، وقال : أي ماقلت فيه ؟ أشعر ؟ فقالت : ماقلت شيئاً يا أمير
المؤمنين إلا والذي فيه من خصال الخير أكثر ، ولقد أجدت حيث أقول :
جزى الله خيراً والجزاء بكفه فتي من عقيل ساد غير مكلف
فتى كانت الدنيا تهون بأسرها عليه فلم ينفك جم التصرف

ليلي في بلاط مروان الخليفة

شاهدت ليلي أحداث الحياة العامة التي كانت تمثل على مسرح التاريخ الإسلامي
في تلك الحقبة الحافلة ، وبكت « معاوية » حين طواه الموت ، وعاصرت « يزيد »
بعده ، وعاشت حتى رأت « مروان بن الحكم » يعتلي عرش الخلافة في دمشق
(٦٤ — ٥٦٥) وكان من قبل والياً على المدينة ، وكان يعرف ليلي وتعرفه ، فرحلت
إلى بلاطه ، ودخلت عليه ، فحيته وحيها ، ثم قال : ويحك يا ليلي ، بالغت في وصف
توبة ، قالت : أصالح الله الأمير ، والله ماقلت إلا حقاً ، ولقد قصرت ، وما رأيت
رجلاً أربط على الموت جأشاً ، ولا أقل إيماشاً ، يحتدم حين يرى باب الحرب ،
(٢ — قصص)

ويحمي الوطيس بالظمن والضرب ، كان والله كما قلت :
 فقي لم يزل يزدد خيرا لدن مشى إلى أن تلاه الشيب فوق المسابح
 تراه إذا ما الموت حل بورده ضروبا على أقرانه بالصفائح
 شجاع لدى الهيجاء ثبت مشايح إذا انحاز عن أقرانه كل سابح
 فعاش حميداً لاذمها فعاله وصولاً لقرباه يرى غير كالح
 فقال لها مروان : كيف يكون توبة على ما تقولين ؟ فقالت : لقد كان كما قال
 عمه مسلم :

فأله قوم غادروا ابن حمير قتيلاً صريعاً للسيوف البواتر
 لقد غادروا عزموا وحزماً ونائلاً وصبراً على اليوم العبوس القهاطر
 فأعجب مروان بها وببطولتها وشجاعتها ووفائها وبلاغتها ، وقضى حاجاتها
 جميعاً .

ليلي في بلاط عبد الملك

— ١ —

ووفدت ليلي على بلاط الخليفة الأموي العظيم « عبد الملك بن مروان » (٦٥ -
 ٨٦ هـ) فحيتته بتحية الخلافة ، فمش لها وابتسم ، وأراد أن يمازحها ، وكانت ليلي
 قد تجاوزت عهد الشباب ودخلت في غمار الكهولة ، فقال لها « عبد الملك » :
 يا ليلي ، ما الذي رأى توبة فيك حتى أحبك ؟ قالت : رأى في ما رأى الناس
 فيك حين ولوك الخلافة ، فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء
 كان يخفيها ،

— ٢ —

ودخل عبد الملك على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فرأى عندها امرأة
 بدوية أنكرها ، فقال لها : من أنت ؟ قالت أنا الوالدة الحري ، ليلي الأخيالية ،
 قال : أنت الذي تقولين في توبة ما تقولين ؟ قالت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال :
 فما أبقيت لنا ؟ قالت : الذي أبقاء الله لك ، قال : وما هو ؟ قالت نسبا قرشياً ،
 ومجداً بقرية ، وجعلك خليفة وولياً ، ومنحك نعمة الحياة ، ووهبك زوجة مطاعة ،
 فقالت عاتكة : يا أمير المؤمنين ، إنما قد استشفعت بي إليك في منهل ماء تسقى قومها
 وتحميهم لها ولست ابنة يزيد إن قضيت لها حاجة ، لتقدمها عرياً جالفاً على أمير
 المؤمنين ، فوثبت ليلي ، ونهضت قائمة ، واندفعت تقول :

ستحملني ورحلى ذات رحل عليها بنت آباء كرام
 إذا تركت سواد الشام منها وغلق دونهما باب اللثام
 فليس بهائد أبداً اليهم ذور الحاجات في غلس الظلام
 أقلت خليفة ؟ فسواه أخرى بإمرته ، وأولى باللثام
 لثام الملك حين تعد قيس ذور الأخطار والهمم الجسم
 لله أنت يا ليلي من جريرة على الملوك ، شجاعة حين ترين ذلاً أو إهانة ، ولقد
 أرادت عاتكة أن تتعالى عليك في قصرها ، فزدت عليها تها ، ووضعت من
 شأنها ، ومن شأن زوجها الخليفة أمامها ، وكانك أنت زوجة خليفة أو ابنت
 خليفة المسلمين .

ليلى تسعى في جمع كلمة المسلمين

واحتلت ليلي مكانة كبيرة في البادية وفي غير البادية ، وبعد وفادة لها على عبد الملك
 ابن مروان عام ٧٢ هـ ، سارت إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فاحتفى بها ، واستقبلها
 بما يليق بمكاتها ، ثم كاشفها بما في نفسه من أمل الزواج برملة بنت الزبير وخطوبتها ،
 وطلب منها أن تساعد على ذلك ، وأن تعرف رأي أهلها ، بمساعدة عزة الميسلاء
 المخنية في ذلك ، فسارت ليلي من الشام ، وحملت معها هدية من خالد إلى عزة التي نزلت
 عليها بالمدينة ، في ربيع الآخر عام ٧٣ هـ ، ومكثت ليلي بالمدينة قليلاً حيث قابلت
 سكينه بنت الحسين ، وحضرت مجالسها الأدبية ، وخرجت ليلي بعد ذلك إلى مكة
 واجتازت جيش الحجاج وهو خارج مكة في حصارها ، ثم دخلت على ابن الزبير .
 ونزلت على والدته ذات النطاقين بنت الصديق ، والظاهر أنها لم تجد الفرصة سانحة
 لتفتح عبد الله بن الزبير في خطوبة خالد لأخته رملة ، فأخذت تسعى في الصلح بين ابن
 الزبير والحجاج ، ولسكنها فشلت ، فخرجت من مكة وأقامت في جيش الحجاج حينما
 ثم سارت إلى البادية ،

وهي سفارة ضخمة ، يجب أن تحفظ لليلي في سجل الشرف والفخر والخلود ، وما
 أعظمها من سفارة لو تم بها على يد ليلي الصلح بين المسلمين ، وجمع وحدتهم ، ولسكن
 على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح .

ليلى والحجاج

واستأذنت ليلي على الحجاج بمدينته واسط ، فأذن لها ، فدخلت ثم قدمت بين

يديه ، وهى مسنة حسنة الخلق ، من أجمل النساء ، طويلة القامة ، دجاء العينين ، حسنة المشية ، جميلة الحيا ، ومعهما جاريتان لها ، فسألا الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له فقال لها : يا ليلي ، ما أتى بك ؟ قالت : السلام على الأمير والقضاء لحقه ، والتعرض لمعروفه ، قال : وكيف خلفت قومك ؟ قالت : تركتهم فى خصب وأمن ودعة ، أما الخصب فى الأموال والكلأ ، وأما الأمن فقد أمنهم الله عز وجل بك ، وأما الدعة فقد خامرهم من خوفك ما أصلح بينهم ، ثم أنشدته شعرها : فقال الحجاج : لله بلادك ما أشعرها ، ثم جاء حاجبه ، فسمع شعر ليلي ، فقال : أيها الأمير هذه الشاعرة وجب حقها ، قال : ما أغناها عن شفاعتك ، يا غلام ، أعطها خمسمائة درهم ، واكسها خمسة أثواب ، وخذ بيدها فأدخلها على ابنة عمها هند ، وكانت زوجة للحجاج - فقل لها : حل ليلى بأعلى الحلى ، فقالت : أصلح الله الأمير ، أضربنا عامل الصدقات ، فأخذ خيار المال ، فخربت بلادنا ، وانكسرت قلوبنا قال : اكتبوا لها الى الحكم ابن أيوب فليعطها خمسة جمال ، واكتبوا الى اليمامة بعزل عامل الصدقات الذى اشتكت منه ليلي ، وخرجت ليلي فوصلها حاجب الحجاج بأربعمائة درهم ، ووصلتها هند بثلاثمائة ، ووصلها محمد بن الحجاج بوصيفتين ، وسارت وقد قضيت حاجاتها جميعا .

واستأذنت ليلي على الحجاج فأذن لها ، فدخلت فسألتها الحجاج عن نسبها فانتسبت له فقال لها : ما أتى بك يا ليلي ؟ قالت : إخلاف النجوم ، وقلة الغيوم ، وكلب البرد ، وشدة الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرقد ، فقال لها : صفى الفجاج قالت : الفجاج مغبرة والأض ممشرة ، والناس مستنون ، رحمة الله يرجون وأصابتنا سنة مجحفة ، أذهبت الأموال ومزقت الرجال ، وأهلك العيال ، ثم أنشأت تقول :

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـ منايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعطى العصاة منهم ولا الله يعطى للعصاة منها
إذا هبط الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دأها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها غلام إذا هز القناة سقاها

فقال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صفى شاعر منذ دخلت العراق غيرها ثم التفت إليها وقال : حسبك قالت : لنى قلت أكثر من هذا ، قال : حسبك ويحك

٢١

حسبك ، ثم قال : يا غلام ، اذهب بها إلى فلان فقل له : اقطع لسانها . فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار الحجام ، فالتفتت إليه ليلى فقالت : شككتك أمك ، إنما أمر أن تقطع لسانى بالصلة . فبعثت إليه يستنبيه فاستشاط الحجاج غضبا ، وهم بقطع لسانه ، وقال : ارددها ، فلما دخلت عليه قالت : كاد والله أن يقطع مقولى ، ثم أنشأت تقول :

أحجاج أنت الذى ما فوقه أحد إلا الخليفة والمستغفر الصمد
أحجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت وأنت للناس نور فى الدجى لقد
ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا لا والله أيها الأمير ، إنما لم نر قط أفصح لسانا ولا أحسن محاررة ، ولا أملح وجها ، ولا أرصن شعرا منها ، قال : هذه ليلى الأخيلية التى ماتت توبة الخفاجى من حبها ، ثم التفت إليها فقال : أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير وأنشدته قصيدته :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت على ودونى جندل وصفاح
سلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صاح
فقال : زيدنا من شعره يا ليلى ، فأشدته :

حمالة بطن الواديين ترمنى سقاك من الغر الغواذى مطيرها
إلى آخر القصيدة ، فقال الحجاج : يا ليلى ، وما الذى رابته من سفورك حيث يقول :
وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغداة سفورها
فأخبرته بقصة البيت التى سبق ذكرها ، فقال الحجاج : لله درك فهل رأيت إيمنه شيئا فسكرهته ؟ فقالت : لا والذى أسأله أن يصلحك غير أنه قال مرة قولا ظننت أنه قد خضع فيه لبعض الأمر ، فقلت له :

وذى حاجة قلنا له : لا تبع بها فليس إليها - ما حيت - سليل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب و خليل

فلا والله ما رأيت منه شيئا حتى فرق الموت بينى وبينه ، قال ثم مه ، قالت : ثم لم يلبث أن مات فأنا ناعيه ، فقال : أنشدنا بعض مرثيتك فيه ، فأخذت تنشده : فقال أحد جلساء الحجاج : من الذى تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله لى لأظنها كاذبة ، فنظرت إليه ، ثم قالت : أيها الأمير ، إن هذا القائل لو رأى توبة لسره ألا تكون فى داره جارية عذراء إلا وهى حامل منه ، فقال الحجاج هذا وأبيك الجواب ، وقد كنت عته غنيا ، ثم قال لها : سلى يا ليلى تعطى ، قالت : اعط ، فشاك أعطى فأحسن

قال : لك عشرون ، قالت : زد ، فثلك زاد فأجمل — قال : لك أربعون ، قالت : زد فثلك زاد فأكمل — قال لك ثمانون ، قالت : زد فثلك زاد فتمم — قال لك مائة واعلمى يا ليلي أنها غنم ، قالت : معاذ الله أيها الأمير ، أنت أجود جودا وأجود مجدا وأورى زنداً من أن تجعلها غنما قال : فما هي ؟ ويحك يا ليلي ، قالت مائة من الابل برعاتها ، فأمر لها بها . ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت : تدفع إلى النابغة الجعدي وقد كان يهجوها وتهجو ، قال : قد فعلت . فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً ، عائداً بعيد الملك ، فاتبعته إلى الشام ، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان ، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة .

ليلى وشخصيتها

مجد ليلي :

عاشت ليلي بين مجد قومها ، وحسب عشيرتها . ثم أحبها توبة وأحبته ، فوفت لعهد حبه وفاء ياله من وفاء ، ثم تزوجت سوارا وعاشت معه في ظلال الزوجية الكريمة . . . عاشت ليلي وهي تزدداد على الأيام كهولة وشيخوخة ، ولكنها تزدداد تجربة للحياة وخبرة بها ، وفهما لها ، وتزداد مجداً في عشيرتها وفي بيتها ، وفي قصور الولاة والأمراء والخلفاء ، وجمعت إلى ذلك الشعر والأدب والفصاحة والبلاغة ، حتى صارت الشخصية الاولى البارزة في حياة الصحراء في القرن الاول ، بل صارت لا يضارعها في مكانها الضخم في المجتمع البدوي إنسان . لقد صارت ليلي حياة البادية ونشيد الصحراء .

لقد كانت شخصية ليلي في شبابه الناضر ، وكمواتها الرائعة ، شخصية قوية ، أحدثت دويًا وأثراً واضحاً في الحياة ، وكانت هي الصورة الواضحة للبادية بكل ما تشتمل عليه كلية البادية من معان ، وهي البادية كلها بكل ما اتسع له قلبها من خلق ، وهي الشاعرة الاولى التي تنطق بمجد الصحراء ، وحياتها الروحية . . عاشت الخنساء قبلها شاعرة وأما ، أما ليلي فكانت فوق ذلك بطلّة في كل ناحية من نواحي الحياة ، وفي كل لون من ألوان النشاط الاجتماعي فيها ، فلها جولاتها في الأدب ، وفي حياة قومها ومجتمعها ، وفي كل ما كان يغمر جو البادية من آلام وآمال .

ليلى ملكة كريمة :

وأظهر خصائص شخصية ليلي هي هذه الروح الملائكية الكريمة ، بما تشتمل

عليه من حب وحنان وعاطفة طاهرة ، وشعور نبيل ، ووجدان حي ، ومن إيثار وخير ورحمة وبر بالناس .

أما حنانها وحبها فهما مضرب الامثال ، أحبت توبة فوفت له ولحبه أروع وفاء وأحبت قومها فضحت بعواطفها وسعادتها وحياتها في سبيل كرامتهم وتقاليدهم الموروثة ، ومنزاتهم الادبية بين أحياء العرب جميعا ، ثم ناضلت عنهم خصومهم ، ونطقت بحاجاتهم وأمانيتهم عند الولاة وفي قصور الخلفاء ، وهي في حبها لقومها تسمو بهذا الحب وترتفع به حتى تخص به قبائل قيس كافة ، وتجعله للقيسيين جمعا ، يتجلى ذلك في مظهره الواضح ، في وفادتها على الحجاج ، حدثها وحدثته ، وسألها فأشدته ، ولما انتهى من الحديث والحوار ، قال لها الحجاج . أى نسائي يا ليلي تحبين أن تنزلى في ضيافتها ؟ قالت : ومن نساؤك أيها الأمير ؟ قال أم الجلاس الاموية ، وهند بنت أسماء الفزارية ، وهند بنت المهاب القيسية . قالت ليلي : القيسية أحب إلى أيها الأمير ، قال الحجاج : أنت ومن تؤثرين ، فكانت ضيفا على هند مدة إقامتها في واسط ، مدينة الحجاج وعاصمه ملكه الواسع ، وإمارته الضخمة .

وأما برها وإيثارها وما فطرت عليه من رحمة وخير ، فقد كان مما يكمل شخصية ليلي ويرتفع بها عن مستوى الناس ، أثرت ليلي ثراء بعيدا عما تدفق عليها من مال زوجها وقومها ، ومن هدايا الولاة والامراء والخلفاء إليها ، ولكنها في هذه الثروة الواسعة كانت ينبوع الخير في أرض البادية الجدية ، وكانت سحابة الرحمة في أفقها الجاهل ، لم تسكنز مالا ، ولم تدخر شيئا ، ولكنها كانت تؤثر بما لها البؤساء في البادية ، وتخفف به عبء الحياة عن سكانها المحرومين .

وعاشت ليلي لا لنفسها فحسب ، ولكنها عاشت قبل كل شيء لاهلها ومواطنيها فشقيت لينعم الناس ، وتعبت وكدحت ليكون ثمار تعبها وكدحها في سبيل الله والخير والاحسان .

اعتزازها بشخصيتها :

والثقة بالنفس ، والاعتزاز بالشخصية ، والسمو بها إلى حد بعيد ، كانت سمة غالبية على ليلي وأخلاقها . لم تسمح لأحد أن يهين كرامتها ، حتى لقد عنفت عبد الملك الخليفة الاموي العظيم ، وعنفت زوجته عاتكة أمامه ، وجابت سواء من الخلفاء والولاة وكبار الشخصيات ، بما لم يكن يجابههم به إنسان . وبينما معاوية الخليفة يسير

في ضواحي دمشق الهادئة ، إذ رأى فارساً ملثماً راكباً على جواد كريم ، فقال لبعض حرسه وجنوده : ايتنى بهذا الفارس ، وإياك أن تروعه ، فأناه فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال الفارس : وإياه أردت ، فلما دنا الفارس حسر لثامه ، فإذا ليلي الاخيلية فسدت عليه وحيته ، فبالغ في الاحتفاء بها ، ثم قال : ما حاجتك يا ليلي ؟ فردت عليه : ليس مثلى يطلب الى مثلك حاجة ، فأعطاها خمسين من الابل .

كلية إباء وكرامة واعتداد بالنفس عرفت به ليلي ، وخرجت ليلي من لدن معاوية وهي تقول فيه من قصيدة :

وكنت المرتجى . وبك استعاذت لتعشها ، اذا بخل السحاب
وقد سبق ذكر تعنيفها لأحد جلساء الحجاج حين قال لها : ما أظنك الا كاذبة فيما تصفين به توبة ، حتى لقد قال له الحجاج : ما كان أغناك عن هذا الجواب .
ودخلت ليلي على عبد الملك ، وقد أسنت ، فقال لها : ما الذى أحبه منك توبة يا ليلي ؟ قالت ما أحبه الناس منك حين ولوك الخلافة ، فأغرق عبد الملك فى الضحك وهكذا كانت جريئة شجاعة صادقة لاتباب ولا تخاف ولا تتلعثم . وكان يدفعها الى هذا الاعتزاز البعيد بشخصيتها مجدها وحسبها ومكانتها ، وأدبها وشعرها وفصاحتها وجمالها وشعرها وفنتها .

خبرتها بالحياة :

وكانت ليلي واسعة الخبرة بالحياة والناس ، مما اكتسبت — فى حياتها فى البادية وفى رحلاتها وجوبها البلاد والقفار — من تجارب ، وأفادت من عظات ودروس ، مما أنضج شخصيتها وسما بمكانتها فى مجتمعيها الى الذروة .

سألها معاوية ، فى وفادتها عليه ، عن قبائل مضر ، فقالت : فاخر مضر ، وحارب بقيس ، وكأثر بتميم ، وناظر بأسد ، فأعجب معاوية بكلامها أى إعجاب .

وكانت نشأتها وثقافتها الادبية الواسعة الملمة بأيام العرب وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، وشاعريتها القوية ، ووفادتها على الولاة والخلفاء ، كان ذلك كله مما أمد ليلي بخبرتها الواسعة ، وبما زادها تجربة فى الحياة ، وجعلها فى نضوج عقلى وفكرى واسع .

مرحبا وابتسامتها للحياة :

وليل، مع ما قاسته من آلام الحياة ، وأحداث العيش ، ومحن الأيام ، ومن فشلها في حبها وإخفاقها في إدراك سعادتها الروحية .

كانت مع ذلك كله مرحة في الحياة ، تضحك في وجهها العابس ، وتحلق في جوها المكفهر بجناح من البشر والأمل والرجاء ، وكانت محتفلة بالحياة ، لانفسها ولالذات الحياة ، ولكن لترفه عن قومها شذات الحياة ولتخفف عن البدويين عيها الشديد . فهي مع ما كانت تشعر به في قرارة نفسها من شقاء ، لم تزهد في الحياة ولم تعبس في وجه الأيام ، ولكنها كانت دائما مبتسمة ضاحكة فوفدت على الخلفاء الأمويين ، وعلى ولاية وأمراء الأقاليم ، وتمتعت بمباهج الحياة ونعيمها .

لم تسكن كالخنساء ولم تعيش عيشة الخنساء متبلة في حزنها وعبوسها وشقاؤها ، وزاهدة في الحياة وما فيها ، ولكنها اقتحمت الميدان وخاضت المعركة ، معركة الحياة بقلب جرى وبطولة نادرة .

ليلي الزوجة :

وليلي الزوجة ، هي ليلي المخلصة لشرفها وكرامة زوجها ، والمحافظة على شرفها وشرفها المقدس .

لم تسمح لتوبة أن يقبل يدها لأنها كما قالت :

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه

وسمعت الناس يتناشدون شعراً لتوبة ، يصف فيه دخوله عليها خباء زوجها ، وحرمة الزوجية المقدس ، فارتقبته حتى علمت بموعد قدومه لزيارتها فأخفت في المكان الذي التقيا فيه ثلاثة أشخاص ، فلما حضر قالت : يا توبة ، أنت الذي تقول هذا ، أعلى سبيل الحقيقة تقول ؟ قال : والله يا ليلي ما قلت إلا على سبيل الاستطراد والخيال ، وكما يقول الشعراء ، قالت : فانصرف موفورا ، وقالت لهؤلاء الرجال : هل سمعتم ما قال توبة ؟ قالوا : ما قال إلا خيراً ، وما نظنه أراد يا ليلي منك شراً قط .

نعم أحببت ليلي توبة ، ووفت له ولحبها لأن القلوب بيد الله ، ولأن هذه الإنسانية السامية لا يستطيع أن يحجر عليها إنسان ، فهي كالطبيعة ومظاهرها مشاعة بين الناس ، هي كالماء والهواء والنور والضياء ، لتحب ليلي ما تشاء ، ولتنزع عواطفها من تشاء ، واسكن لتظل دائما الوفية الآمنة لشرفها وشرف زوجها ، ولحياة الزوجية المقدسة

ولرباطها الوثيق الظاهر ، ولتذد ليلي عن حرم هذه الزوجية القدسي ، وذلك هو
ما فعلته ليلي ، وما ضحت في سبيله بكل شيء ،
وكذلك كان توبة ، زوجه قومه بعد زواج ليلي ، رغما عنه ، إشفافاً بصحته ،
وحياته ، ووفى توبة لهذه الزوجية المقدسة ، ولما كان ظل دائماً الوفي الأمين لعهد ليلي
وذكريات حبها العذرى البريء .

ليلى والأمومة :

والأمومة وعواطفها وحنانها وحسن قيامها بواجبات الطفولة والأبناء واضحة
ملبوسة في ليلي وشخصيتها الاجتماعية .
لما وفدت ليلي على الحجاج ، ومعها ولدها - كما في العقد الفريد - أعجب بما
رأى من شبابه ، فسأله عنه ، وعن كيفية تربيتها له ، فقالت له ليلي : إني أيها الأمير
لم أحمل به في آثار الحيض ، ولم أضعه منكساً ولا أرضعته لبناً فاسداً ، ولا أنمته
مستوحشاً باكياً .

ذلك يدل على عناية ليلي بأبنائها ، ورعايتها لهم منتهى الرعاية ، وإحاطتهم بكل
ألوان العناية ، وحسن علمها بواجبات الطفولة ، ووسائل تربية الأطفال ، حتى ينشأوا
نشأة قوية ، ويكونوا رجالاً بارزين ، وشباناً أقوياء نابهين .
وهكذا كانت ليلي وشخصيتها القوية الواضحة في الحياة .

ليلى في الأدب العربي

مجدها الأدبي :

بلغت ليلي في الأدب منزلة كبيرة ، ونالت من المجد الأدبي ما لم ينله كثير من
شعراء البادية وفصحائها .

فهي شاعرة تبذ الشعراء وتغلبهم في ميدان البلاغات ، وتأخذ دونهم قصب
السبق يوم الرهان ، وشعرها الباقي والمفقود منه مظهر شاعريتها .
وهي راجزة تغلب الرجال في الرجز ، وتباريهم في ميدانه . وهي محدثة لبقة ،
ومحاوره بليغة ، وخطيبه فصيح ، كما يتجلى لك من كلامها في مجالس الولاة
والأشراف والخلفاء .

وحسبك إعجاب الحجاج ببلاغتها ، وتقديره لفصاحتها وشعرها ، وروعة
حديثها ، فهو تقدير ينم عن مكانة ليلي الأدبية ، أو لبس الحجاج هو الخطيب المؤثر
والبليغ الساحر ، والعربي الفصيح الذي يسحره البيان ، وتشدهه البلاغة ، ويملك

عليه عواطفه ومشاعره بلاغة القول ، وجودة التعبير .
حقا لقد كان مجد ليلى الأدي في عصرها وبعد عصرها واضحا ملموسا ، اعترف
به الشعراء ، وأقر به النقاد ، وسارت بذكره أسفار الأدب ، وكتب النقد ، مما
سنفصله الآن .

ثقافتها الأدبية :

وثقافة ليلى الأدبية استمدتها من بيئة نفسها ، فقد عاشت في البادية موطن
البلاغة والشعر ، وسمعت من أفواه الأديباء والشعراء والبغاة ، وعاشتهم واتصلت
بهم بما قوى ملكاتها ، وصقل طبعها ، وقوم ذوقها ، فنشأت أديبة مفطورة على
الأدب والشعر والبيان .

كانت فصيحة شاعرة مقدمة ، حافظة لأنساب العرب وأيامهم وأشعارهم ،
وكانت بليغة اللسان ، ساحرة البيان ، تملك زمام الإجازة في كل
فن ومذهب ،

ليلى الخطيبة :

وكانت ليلى خطيبة مؤثرة ، يقدمها قومها في حاجاتهم عند الولاة والخلفاء ،
فتنطق بالسداد ، ويمدها الإلهام والفطرة والطبع بفيض من البلاغة ، تصور
لك الأشياء تصويراً بارعاً ، وتؤثر في نفسك تأثيراً قويا ، وتدعك مؤمناً
برأيها وفكرتها .

وخطب ليلى ومحاضراتها وأحاديثها وسمرها عند الأمراء ، وفي قصور الخلفاء
تم عن روح مطبوعة على البيان والخطابة والبلاغة .

ولا عجب في ذلك ، فالبادية بما فيها من بلاغات ، وليلى بما فطرت عليه من
شجاعة وجرأة ، وصراحة وقوة وصدق ، وما كانت فيه من حسب ومجد وقوة
شخصية ، وما اتسمت به من جمال وسحر ، كل ذلك كان يبعث في ليلى روح الخطابة
ويمدها ببلاغات ،

وقد ربي الاسلام روح الشجاعة والقوة في المرأة العربية ، لذلك نجدتها تقف
مواقف كريمة يتدفق من لسانها السحر والبيان ، ويروعك منها في خطبتها جسارة
الرأي وصدق اليقين والحماسة الغالبة لما تعتقد من فكرة .

وكانت النساء اللواتي يتشيعن لعلى يدخان على معاوية وهو على سرير ملكه ،
والجنود المدججون بالسلاح من حوله فيعنفنه ، ويواجهنه بالقول الجارح والحجة

الدامغة فإذا اتفق لإحداهن أن تطلب حاجة ، فإنما تطلبها في عزة وكبرياء وأتفة ،
دونها عزة الملك وشتم العطاء .

وهكذا كانت ليلى جريئة الجنان ، بليغة اللسان ، ساحرة البيان ، مؤثرة في
خطاباتها وحجتها ، كما رأيتها في بلاط معاوية ، ومجلس مروان أمام عبد الملك ، وبين
يدى الحجاج .

وكانت ليلى تسكلم بلغة بهراء فتكسر حرف المضارعة (ا) وهي لهجة
عربية مشهورة .

ليلى وشاعريتها

مظاهر شاعريتها :

ولقد كانت ليلى شاعرة مجيدة ساحرة ، بل كانت شاعرة البادية ، ومصدر
الالهام في الصحراء .

تتجلى هذه الشاعرية القوية البارزة ، في نسيبها المرح ، وفي مراثيها الحالدة لتوبة ،
وأوصافها لبطولته وشجاعته ، وفي مدائحها للخلفاء والأمراء ، مما ركز كثير منه والإشارة
إلى مصادره .

كما تتجلى في أهاجيتها للقبائل والشعراء ، وفي نخرها بنفسها وقومها وعشيرتها مما
دونت أسفار الأدب بعضه ، وفقد تاريخنا الأدبي باقيه .

وهي التي تقول تفتخر بقومها :

نحن الأخاييل لا يزال غلامنا حتى يدب على العصا مذكورا
تبكي السيوف إذا فقدن أكفنا جزعا ، وتعلنا الرفاق بحورا
إلى آخر هذه الأبيات وقد سبق ذكرها .

ولها تمدح بعض أبطال قومها العامريين من قصيدة طويلة :

لا تغزون الدهر آل مطرف لا ظالماً أبداً ولا مظلوما
قوم رباط الخيل وسط بيوتهم وأسنة زرق تحال نجومها
ومخرق عنه القميص تحاله وسط البيوت من الحياة سقيما
حتى إذا رفع اللواء رأيتـه تحت اللواء على الخيس زعيما
إلى غير ذلك من الآثار القليلة الباقية من شعرها .

بواعث شاعريتها :

ورثت ليلي الشعر عن أسرتها الشاعرة ، ونمى في نفسها روح الشاعرية جو البادية الشاعر ، وهذا السمو الروحي الذي يشيع في آفاق الصحراء ، خلقاً وعواطف ومشاعر ووجدانات كريمة مهيبة .

ثم صقلت هذه الشاعرية بلاغة البادية ، وملكات الناشئين فيها القوية ، وما طبعوا عليه من فصاحة وبيان .

ثم كان حبها الخالد لتوبة ، ووفائها له مما فجر ينابيع الشاعرية في صدرها وأوحى إليها برائع الأناشيد ، وساحر المقطوعات ، وبلغ القصائد .

ثم كانت عواطفها القوية ، واعتزازها البالغ بشخصيتها ، وشعورها بالمظمة من بواعث الشعر في صدرها .

وكانت حاجات البادية ، وحاجات المعيشة الملحة فيها ، سببا من أسباب قوة شاعريتها وكذلك هذه الخصومات الأدبية بين ليلي والشعراء ، كانت عاملا كبيرا الأثر في شاعريتها وحياتها الفنية والأدبية جميعا .

ومصرع توبة الدامي ، ومقتله الأليم أثارت الذكريات المصادمة الكامنة في قلب ليلي ، وهيج روح الشاعرية في طبعها ونفسها وملكانها . وهكذا كانت شاعرية ليلي متعددة البواعث والأسباب .

خصائص شاعريتها :

وخصائص شاعرية ليلي تبدو واضحة في هذه العاطفة القوية المتأججة ، وفي هذا الصدق ، وتلك السذاجة البريئة في التعبير والأداء ، وفي هذا الأسلوب القوي المتين وهذه الألفاظ التي تسلس أحيانا ، وتسير في تيار الحوشية والغرابة تارة أخرى . كما تبدو في إصابتها لما تنبشه من أغراض وأهداف ، وفي نظرتها البعيدة وتحليلها الدقيق للأشخاص الذين تتناولهم في شعرها ، حتى لقد قال الحجاج : والله ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق سواها ، كما تمتاز بقوة التأثير وبالجزالة والروعة ، وببدوية المعاني والأسلوب .

وشعرها في أغراضه يجمع بين الغزل والمدح والهجاء والرثاء والفخر والحكمة ، مما سبق الإشارة إلى الكثير منه فيما مضى من البحوث .

النسيب في شعر ليلي وتوبة :

والنسيب في شعر ليلي قليل جدا ، وهو في شعر توبة كثير ، وتجدر بعض نماذج منه

من شعر ليلي في شاعرات العرب ، ولقد كان غزل توبة غزلا روحيا ، فيه هيام بالحب للحب وتقديس للجمال لنفس الجمال ، وفيه تصوف روحى ، وإيثار للتضحية في سبيل هذا الحب والوفاء له ، لقد كان حب توبة ليلي حبا عذريا بريئا لا إثم فيه ولا دنس ، ولا متعة من متع الجسد والشیطان :

على دماء البدن إن كان زوجها يرى لى ذنبا غير أنى أزورها
وأنى إذا ما زرتها قلت : يا أسلمى فهل كان فى قول أسلمى ما يضيرها

وغزله وصف فيه توبة محبوبته وجمالها وهيامها بها ، أما نسيب ليلي في توبة فقد مضت نماذج منه فيما أنشدته ليلي أمام الخلفاء من شعر لها في توبة يكاد يكون إلى المدح أقرب ، ويشبه بعض الأدياء ليلي بسافو شاعرة الاغريق في الزمن القديم ، منذ خمسة وعشرين قرناً . ولكن سافو تمتاز بهذا الغزل الصارخ الذى لا تعرفه البدويات الخفريات ، فستان بين ثورة العاطفة الجارحة الملتهمية ونشيدان اللذة في الحب ، كما ترى فى شعر سافو وبين هذا الغزل الهندى الذى كانت تتغنى به ليلي ، فتتغنى به معها الصحراء .

وإن كانت منزلة سافو فى عصرها ، ومكانة ليلي فى البادية العربية ، يكادان يرتفعان إلى مستوى واحد ، وينزلان منزلة واحدة . ومن الغريب أن شعر ليلي وتوبة ينبعان من منبع واحد ، ويسيران فى جدول واحد ، ويتشابهان فى كثير من خصائص الشعر ومميزاته ، وفى كثير من بواعثه وأسبابه ، وذلك لاتحاد الشأ والبيئة والعواطف ، وتأثرهما بمؤثرات واحدة فى الأدب والحياة ، فكان شعرهما قريباً من بعض فى الروح والمعاني ، والاساليب والجزالة والسذاجة والوضوح ، والعاطفة القوية ، والهيام الروحى فى الحب والوفاء له ، إلى غير ذلك من مظاهر هذا التشابه الغريب .

الرثاء فى شعر ليلي :

وقد قصرته ليلي على رثاء توبة ، وتعداد فضائله ومظاهر بطولته ونبله وتصوير مصرعه والتنديد بقاتليه وذكر مجده فى نفسه وأدبه وحسبه ، وفداحة المصائب فيه ، وتوشيه أحيانا ببلون من الحكمة تعزى بها نفسها فيه :

ومن كان مما يحدث الدهر جازعاً فلا بد يوماً أن يرى وهو صابر
وكل شباب أو جديد إلى البلى وكل امرئ يوماً إلى الله صائر
وكل قرينى ألفسة لتفرق شتاتاً ، وإن ضنا وطال التعاشر

ويمتاز رثاء ليلي بطوله والتهاب ما فيه من عاطفة ، وبقوته وجزالة ، وأثر الحزن والوفاء في نفس ناظمته . وقد مضى عرض موجز لأهم قصائد ليلي في الرثاء .
ويغنيننا ذلك عن تحليل جميع أغراض ليلي الشعرية في هذا المقام .
ليلي ومنزلتها في الشعر والنقد

مدى هذه المنزلة :

ذاعت شهرة ليلي الأدبية ، ومنزلتها في الشعر ، وارتفعت مكانتها فيه . ولا عجب في ذلك فقد احتلت ليلي مكانها الأدبي الممتاز بين خصومات أدبية متعددة ، وبعد أن غلبت جميع منافسيها من الشعراء في البادية .

غلبت النابغة الجعدي الشاعر وسواه من الشعراء ، واحتكم إليها الشعراء في خصوماتهم الفنية ، وأقروا بحكمها ، واعترف بمنزلتها في الشعر الأمراء والخلفاء ، وهم أئمة البلاغة والبيان ، كما اعترف بها النقاد بما سنفصل القول فيه .
ليلي يحتكم إليها الشعراء :

لم تكن ليلي شاعرة فحسب ، بل كانت تشعر وتنقد ، وتعمل ذوقها وطبعها في تهذيب الشعر والتأنيق فيه . وعرف الشعراء ذوقها في الشعر فاحتكموا إليها يرضون بحكومتها الأدبية فيما شجر بينهم من خلاف .

اجتمع حميد بن ثور الشاعر ، ومزاحم العقيلي ، والمجير السلولي ، والعباس السكندی ، وأوس الهجيمي ، وكلهم من شعراء البادية ، فرت بهم قطاة فأجمعوا على وصفها ، ونظم كل منهم قصيدة في هذا الفن ، ثم اختلفوا في أيهم أبغ كلاماً ، وأحسن وصفاً فاحتكموا إلى ليلي وأنشدها كل منهم ما قال ، ففضلت السلولي عليهم جميعاً لإجادته وقالت في ذلك :

ألا كل ما قال الرواة وأنشدوا بها غير ما قال السلولي بهرج
ليلي تناضل النابغة الجعدي :

ومن العجب أن تشترك ليلي في الخصومات الأدبية التي كانت ثور بين شعراء البادية ، وأن تنتصر في هذا المجال على حول الشعراء انتصاراً كبيراً حافلاً . أليست هي التي انتصرت على النابغة الجعدي الشاعر ، وألحمته وغلبته في ميدان القول والبيان ، فقد هاجت النابغة وغلبته في الهجاء . وتفصيل ذلك : أن بني وائل القيسيين قتلوا رجلاً من بني جعدة القيسيين - أيضاً - قوم النابغة الجعدي الشاعر النابغة البليخ ، فطالب بنو جعدة بدمهم من الوائليين ، فلاذ الوائليون بعقاب بن خويلد العقيلي واستجاروا

به ، فأجارهم ونافع عنهم ، وصار من المعتذر على الجعديين أن ينالوا من خصومهم بعد ذلك مثالا .

ثار الجعديون وثار شاعرهم النابغة فنطق بما يجيش في صدره وصدر قومه من حزن وألم ، وبكاء ورثاء وإشفاق على عقاب أن يقوده طغيانه إلى مصير أمثاله من الطغاة ، ولكن عقالا رد في كبرياء على النابغة فأخمه وأسكته ، ولم يغن النابغة وشعره شيئا . ووقف العقيليون إلى جانب عقاب يؤازرونه في خصومته للجعديين ، وهب شعراؤهم ينتصرون لمجدهم الذي حاول النابغة أن يشوهه وكان من هؤلاء الشعراء الذين ردوا على النابغة سوار بن أوفى القشيري زوج ليلي ، نظم سوار قصيدة من قصائده يهجو فيها النابغة وقومه وأخواله فرد عليه النابغة بقصيدة هجوها سوارا وقوم سوار من القشيريين والعقيليين ، فرد عليه سوار ، وتفاقم بين الشعارين الهجاء . وكان لابد لليلي أن تتقدم الصفوف في ميدان هذه الخصومة ، فدخلت بين سوار والنابغة تناضل النابغة بشعرها الساحر ، وقصائدها البليغة ، وتدافع عن سوار وقوم سوار جميعا ، أنشدت ليلي قصيدتها :

وما كنت لو فارقت جل عشيرتي لأذكر مجداً باندأ قد تها
فأجابها النابغة بقصيدته :

ألا حيا ليلي ، وقولا لها هلا فقد ركبنا أمرا أغر محجلا
فردت عليه ليلي بقصيدتها :

أنا بغي لم تنبغ ولم تك أولا

وتطير شرر الهجاء بين ليلي والنابغة ، فأقامت ليلي تهاجيه حتى أخمته ولم يستطع أن يجاريها في ميدان الشعر والبيان . واجتمع الجعديون على أن يرفعوا أمرهم إلى أمير المدينة أو الخليفة الأموي بدمشق ليأخذ لهم بحقهم من ليلي التي شتمت أعراضهم ، ورميتهم بأبدة من لسانها وصمتهم بوصمة الخزي والعار بين أحياء العرب وسلبتهم ما أثرهم وما أثر قومهم التليدة وشوهت ذكريات مجدهم طول الأحقاب . وبلغ الأمر ليلي ، فتهكمت بهم تهكما مريرا في قصيدتها التي تقول فيها :

أتاني من الأنباء أن عشيرة (بشوران) يزجون المطى المذالا
يروح ويغدو وفدهم بصحيفة ليستجلدوا لي ، ساء ذلك معملا

فخشى القوم شرها ، وسكتوا عنها . وظلت ليلي تناضل النابغة حتى وفدت على الحجاج ، فسألته أن يدفع إليها النابغة ، فأجابها الحجاج إلى طلبها ، فخرج النابغة من البادية

عائذا بعبد الملك بن مروان بالشام ، فبعتته ليلي بكتاب الحجاج ، خفاف النابغة أن
تسحر عبد الملك ببلاغتها فيمضى كلمة الحجاج ، فهرب إلى خراسان ، فخرجت ليلي إلى
خراسان ومعهما كتاب الحجاج ، فتوفي الجعدي وهي في الطريق نحو عام (٨٠ هـ) .
إعجاب الناس بشعرها :

وكان لشعر ليلي رنة من الطرب والسرور في نفس مدوحها من الوزراء والأمراء ،
ورواه الناس في البادية وردده علماء الأدب ونقادها ، وأثنى عليه الأدباء والشعراء
ثناء كبيرا . وحسبك أن الحجاج استنشدتها شعرها ، وأنصت له ، وأعجب به ،
والحجاج رابع ثلاثة كان لهم في الأدب والبلاغة والبيان القدح المعلى .

ولما أنشدته ليلي قصيدتها التي تقول فيها :

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العياء الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها

قال لها الحجاج : لا تقول : غلام ، وقولي همام . وهكذا أراد الحجاج ألا يسير
شعر ليلي فيه إلا بعد أن يمثله في قوته وبطشه ، وبعدهمته ورفعته ، فتقددها هذا النقد
الجميل ، ولكن ليلي لم تكن تريد هذا ، هي لا تريد أن تسرف في مدحه ، والاشادة
به ، لأنها لا تعرف الاسراف ، ولا تؤثر غير الصدق ، ولا ترهب أحدا ، ولا تنها
معتزة بنفسها وشخصيتها قبل كل شيء ، لا تريد ليلي أن تقول همام ، ولكنها نطقت
بكلمة غلام لأنها لا تريد غيرها ، ولا تبغى سواها :

ليلي والخنساء :

ورثت ليلي المجد الأدبي الذي نالته الخنساء قبلها بزمن قليل . . والخنساء في
حسبها ، وفي عشيرتها من بني الشريد السلمي من القيسيين ، وفي جلالها وشاعريتها
وشخصيتها ، كانت من أظهر شاعرات البادية في أول عهد البادية بالإسلام ، وعدت
زعيمة النساء الشاعرات ، لقوة شعرها ، وصدق شعورها مع جمال أسلوبها ، وسلاسة
طبعها ، وعذوبة ملكاتها : حضرت سوق عكاظ وأنشدت فيه النابغة الذبياني الذي
كان الحكم بين الشعراء ، فقال لها : يا تماضر ، لولا أن الاعشى أنشدني لقلت إنك
أشعر هؤلاء الشعراء ، ثم احتات بعد ذلك مكانها الممتاز في الشعر ، حتى كان جرير
إذا سئل : من أشعر الشعراء ؟ يقول : أنا لولا الخنساء ، وفضلها معاوية على الأخطل
وكان بشار يقول فيها بعد : لم تقل سيدة الشعر إلا ظهر ضعفها فيه ، فقليل له : وكذلك
الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول .

وهكذا كان مجد الخنساء ، وذهبت شهرتها البعيدة في الرثاء بعد نكبتها بقتل أخويها صخر ومعاوية ، إلى أن توفيت بالبادية (عام ٤٦ هـ) .
وورثت ليلي الاخيلية مكانة الخنساء ومجدها في الشعر .

وذهبت ليلي والخنساء مثلين سائرين في الشعر وجودته ، وفي صفاء الطبع وقوة الملكة وجمال الاسلوب ، وقوة العاطفة ، وامتازتا بالإجادة في الرثاء . كانت الخنساء ترثي أخويها صخرأ ومعاوية ، وما زالت كذلك في الاسلام ، فأقبل أبناء عمها بها إلى عمر وهي كهلة مسنة ، فقالوا يا أمير المؤمنين ، هذه هي الخنساء قد قرحت آفاقها من البكاء في الجاهلية والاسلام ، فلو نهيتها لرجونا لها الخير في مؤتلف حياتها ، فقال لها عمر : يا تماضر ، اتقى الله وأيقنى بالموت ، قالت : يا أمير المؤمنين أبكي أبي ومن مثل أبي ؟ وأبكي أخوي صخرأ ومعاوية خير أبناء مضر . ومن مثل صخر ومعاوية بين الناس ؟ وإني لموقنة بالفناء ، ولكنني بكاء ينم عن وفاء ، ويؤدي حق الرثاء لا أعز الآباء ، ولا أخوي نحر البادية . وكذلك كانت ليلي ترثي توبة فتنها زوجها وحي زوجها وقومها وإخوتها عن الاسترسال في البكاء ، فأبت أن تنسى عهد توبة طول حياتها . هكذا كانت ليلي والخنساء ، ويلي على أي حال تسكمل هذا المجد الأدبي الذي بنته الخنساء لسيدات الصحراء .

كان في البادية كثير من النساء الشاعرات في عهد الخنساء وعهد ليلي ، كجمل وأم موسى السكلابية ، وريطة بنت العباس السلمي ، وبكاره الهلالية ، ويلي العامرية وأم الاسود السكلابية ، وجمل السامية ، والخنساء بنت التيجان ، ومن قبلهن : ليلي المفيفة صاحبة البراق ، والتي تقول فيه بعد أن اغتصبها ملك فارس من أبيها :

ليت للبراق عينا فترى ما ألقى من بلاء وضنا

حقا كانت البادية حافلة بالكثير من هؤلاء الشاعرات (١) ، ومع ذلك ، ومع كثرة هؤلاء الشاعرات في البادية وفي الحياة فيها في القرن الأول ، فإن الخنساء ويلي هما زعيمتا هذه النهضة الأدبية التي اهتزت بها أرجاء البادية في ذلك الحين .

وأثر ليلي في هذه النهضة الأدبية التي كللت هامة المرأة العربية بالفخار ، أثر واضح فذ ، لا يشبهه إلا أثر الخنساء التي غرست بذور هذه النهضة الأدبية النسوية في البادية . فلقد كانت ليلي من النساء المتقدمات في الشعر من شعراء الاسلام ، بل هي من أشعر النساء لا يقدر عليها إلا الخنساء ، « وكانت ليلي والخنساء متميزتين في

(١) راجع شاعرات العرب .

أشعارهما ، متقدمتين لا كثر الفحول ، ورب امرأة تتقدم في صناعة وقلبا يكون ذلك ، وكان الأصمى العالم الناقد المعروف يقدم ليلي الأخيلى ، وقال أبو زيد العالم الناقد المشهور : ليلي أكثر تصرفاً ، وأغزر بحراً ، وأقوى لفظاً ، والخنساء أذهب عموداً في الرثاء . وإن كان بعض النقاد يقدم الخنساء ونحن لا نرى الخنساء و ليلي إلا جنديين في ميدان الأدب والنضال في سبيله ، سجلت لها الايام أعظم الانتصارات .

إننا لا نذهب الى ما يذهب اليه هؤلاء وأولئك النقاد ، ولكننا نقول : إن مجد الخنساء الأدبي لا يضارعه إلا مجد ليلي ، ومجد ليلي لا يضارعه إلا مجد الخنساء .

الأدب النسوى في البادية :

وأخيراً فهذا الأدب النسوى الذى ملأ البادية في القرن الاول ، هو الذى ملأها إلهاماً صادقاً ، وعواطف كريمة ، وأشاع فيها حياة القوة والمارح معا ، ونفخ في شبابها روح الجد والمجد ، وحفزهم الى إظهار بطولتهم في شتى نواحي الحياة ، وعلى الاخص في ميدان الفتح والجهاد ، وهو الذى أنقذ البادية كثيراً من الخصومات والعداوات وملأها أمناً وطمأنينة ، وأشاع في أرجائها هذا الطهر والسمو الروحى والاعتداد والثقة بالنفس الى حد بعيد .

ومع ذلك فهذا النشاط الأدبى الذى قامت به المرأة في البادية دليل على نشاطها البعيد في شتى نواحي الحياة ، لقد رأينا ليلي لا تقصر شعرها على عواطفها وآمالها وآلامها ونعيمها وشقائها ، ولا تقيده بحدود البيت والاسرة ، والأزوجة والامومة أو الاطفال الذين تداعبهم ويداعبونها ، وتنشئهم ليكونوا رجال المستقبل وأبطال الغد ، ولكنها أسهمت بشعرها في جميع ميادين الحياة الاجتماعية في البادية نطقت بحجة قومها أمام الامراء ، وطالبت بحقوقهم عند الخلفاء ، واستجلبت رضاء الولاة على حبيها وعشيرتها ، ثم ناضلت عن قومها وزوجها خصومهم من القبائل ومن الشعراء .

وكذلك كان غير ليلي من الشاعرات اللواتى عاصرناها وعشن مثلها في البادية ، فقد أسهمن في الحياة بنصيب كبير ، وكن الجنود المجهولات في ميدان الحياة الإسلامية الحافل بكل جديد . على أن هذا الأدب النسوى كان يدور في الكثير حول الحب الروحى ، والعزل العذرى العنيف . ذلك أن الحياة الإسلامية الجديدة ، وكثرة ترف الأشراف في الحجاز ، ودقة مزاج أهل البادية بتأثير الحياة الروحية الجديدة ، وهذا

التمازج الأبدى الوثيق بين البادية والحياة الروحية الصافية ، كل ذلك بما بعث هذا اللون الممتاز من ألوان الأدب والشعر في صورته الساحرة .

فظهر الغزل في الحجاز على أنه فن يقصد لنفسه ، يصور فيه الشاعر هواه وصبواته ووجهه . واختلفت مذاهب الشعراء الحجازيين في هذا الفن باختلاف حياتهم ، وبيئاتهم : فأما أهل البادية منهم فكان غزلهم عذريا عفيفا ، لا خرج فيه ولا لثم إنما هو الحب الصادق ، والهوى الطاهر يهيم على قلب الشاعر ونفسه ، فيملك عليه أمره ، ويسموبه إلى طور من أطوار الحب هو الهيام الصوفي بالجمال الإلهي الكريم في الأرض ، الذي يشبه هيام الصوفيين بالجمال الأسمر في السماء ، أو هيام الفلاسفة بالجمال المقدس في الخير والحق والمعرفة ؛ وعلى أي حال فإن هذه العاطفة تدفع الشاعر دفعا إلى التعبير عنها ، ووصفها في شعر رائع يمثل هذه المعاني الروحية في الحب ، ويصور نواحي الجمال الروحي في صلة المرأة بالرجل ، وزعيم هؤلاء الغزلين من أهل البادية توبة ، وجميل بثينة ، وقيس مجنون ليلى العامية .

وأما أهل المدن وشعراؤها في الحجاز ، كسكة والمدينة والطائف ، فكانوا في ثروة ضخمة ، وترف واسع وهو كثير ، ووصفوا في غزلهم هذه الحياة التي يحيونها ، والعيش الذي يعيشون فيه ، أحبوا الجمال لا للجمال ، ولا لنزعات صوفية روحية ، ولكن لما رب النفس وشهواتها ، فصوروا في شعرهم حياتهم وهوهم ، وعواطفهم التي تنشد اللذة والمتعة في الحب ، والعطش المادي إلى الجمال ، وزعيم هؤلاء عمر بن أبي ربيعة ويشابهه الأخوص ونصيب وسواهما من الشعراء . والنزعة الأولى هي التي كانت بمثابة في شعر توبة العذري ، وفي ألحان ليلى الطاهرة السكرية .

ولعله لا يشبه ليلى في العصور الحديثة امرأة أكثر من مي السكاتبة الخالدة الذكر . ليست مي شديدة الشبه بليلى في نشاطها الاجتماعي والأدبي والفني ، وفي أخلاقها ومظاهر شخصيتها القوية العجالة . إن الأجيال ستمضي ، ولكن اسم ليلى خالد على مر الأجيال .

وفاة ليلى

كانت ليلى وزوجها قادمين من سفر بعيد ، وهما على راحلتهما ، ومعهما بعض الأصحاب والأصدقاء ، وليلى تطوف بها الذكريات ، وتتمثل في خيالها أحلياف أيامها الماضية الجميلة ، وماسى حبها الروحي الحى ، ومصرع توبة في أرض الصحراء ، والقوم

يتحدثون ويتسامرون ويضحكون ويمرحون ، وليلي في وجوم يشبه وجوم البادية ، وصمت شبيه بصمت الرمال المتناثرة في أرض الصحراء ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وخنقت صدرها العبرات والزفرات ، ثم صعدت ليلي النظر في أرض البادية ، وإذا هي تبصر وترى ، ويالهول ماترى ! تبصر هذه الأكمة العالية في أرض البادية التي دفن فيها توبة ، ثم ترى قبر توبة في قمة الأكمة بعيدا عن الناس ، منفردا في هذا المكان الهادئ البعيد .

هنا قبر توبة كما كان ، وكما رآته ليلي حينما زارته مع صديقاتها للمرة الأولى بعد مصرعه ، هنا مجد البادية يمثل في بطل البادية الصريع ، يتطلع اليهم من هذا الرمس الخافل بأحداث الحياة ، هنا توبة الذي يقول في ليلاه :

ولو أن ليلي في السماء لأصعدت بطرفي إلى ليلي العيون السكاوشح
ولو أن ليلي الأخيلىة سلست على ودوني جندل وصفائح
سلست تسلیم البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح

وبكت ليلي بكل عواطفها ومشاعرها ووجداناتها ، وحق لها أن تبكى أليس هذا قبر توبة الرابض في أرض الصحراء ، والذي جمع فيه كل معاني المجد والحياة والشرف والبطولة والاباء والحب والوفاء ، والموكب يسير ، والابل بالحداء تكاد تطير ، وليلي وحدها تبكى ، وظلت تبكى منذ أن تراءى لها قبر توبة في هالة من خالد الذكريات ، فصاحت بالقوم : قفوا قليلا لأسلم على توبة ، وأقف على قبره للوداع لحظات أو بعض اللحظات ، فصاح زوجها : سيرى ياليلي ، سيرى فقد دهمنا الظلام ، وانزعى من قلبك هذه الأحلام والأوهام ، فبادرته ليلي : ان يكون ذلك والله ولا أبرح حتى أسلم على توبة . وأخذت تصعد بحملها في الأكمة ، وسوار زوجها يمنعها ، وهي تأبى كل الاباء . . صعدت حتى دنت من القبر ، وهي على جملها المضنى من الكلال والأعياء ، وأخذت تنادى : السلام عليك يا توبة ، ثم اغرورقت عيناها بالدموع ، وخفق قلبها ، واضطرب صدرها ، وثارت عواطفها ، وسبحت روحها في آفاق من هذا المكان الذي تتجمع فيه أهلياف البقاء وأشباح الفناء .

ثم التفتت إلى القوم تناديههم : يا قوم ، والله ما عرفت لتوبة كذبة قط قبل هذا ، سلست فلم يرد السلام ، وهو الذي يقول :

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت على ودوني جندل وصفائح
 لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح
 فما بال توبة لم يرد على السلام ؟ وبجانب القبر بومة كامنة في جوانبه أطارها
 ضرب جمل ليلي برجليه في الأكمة من الاعياء ، وزفرات ليلي المتصعدة من صدرها
 الوفي الطاهر ؛ فطارت في وجه الجمل ، فنفر وذعر ، وجرى في الأكمة ، فرمى بليلى
 على رأسها ، فقضت نحبها ، وماتت لساعتها . فأخذها القوم من فوق الرمال جثة
 هامدة ، ثم حفروا لها في الأكمة بجانب قبر توبة حفرة صغيرة ، واروا فيها جسد
 ليلي في التراب . ومضت ليلي كأمضى توبة ، صريعة الحب وشهيدة الوفاء ، وبطلة خالدة
 من أبطال الصحراء . وكانت وفاتها عام (٨٠ هـ) .

ليلي في عالم الخلود

وبعد : فليلي بشخصيتها وأدبها وشعرها وبمواهبها التي سارت بذكرها الأيام ؛
 ليلي ، ستظل ذكراها خالدة على الاحقاب . سيدكر الناس في حياتها قصة الحب
 الطاهر ، والوفاء الكريم ؛ وسيدكرها الناس أديبة وشاعرة ، ومحدثة وخطيبة ،
 وذات أثر كبير في حياة البادية ، وسيظلون يذكرونها ، فتاة وزوجا وأما ، أدت
 واجبتها تمام الأداء ، سيدكرونها لأنها جديرة بأن تكون مثلاً سائراً ، يذكركه الناس
 وتعز به الأجيال ، ويدوى في آذان سيدات الشرق وقتياته من جديد :

انهضن وسرن على نهج الأسلاف ، وأدين واجبن كاملاً في الحياة ، واحملن
 مشعل النور يمشى على ضوئه الجليل الجديد ، واضربن أروع الامثال في المحافظة
 على الشرف والعرض ، وفي خدمة البلاد والأوطان . فهذا هو
 طريق الحياة .

مصادر البحث

الآغانى ، في ترجمة توبة (ج ١٠ ص ١٦٧ وما بعدها) وفي مواضع أخرى .
 قطوف الآغانى - نشر بيروت . الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، في ترجمة توبة (ص
 ١٦٩ - ١٧٢) - المؤلف والمختلف ، للآمدى نشر القدس ، في ترجمة توبة (ص
 ٦٨ و ٩٣ - زهر الآداب ، نشر الدكتور مبارك ج ٤ ص ٧٦ و ٧٩ - ٨٧ - الكامل
 للمبرد طبعة التجارية ج ٢ ص ٣٨ و ٥٠ و ٢٧٥ و ٢٧٧ و ٣٠٧ - فوات الوفيات ،

- لابن شاكر في ترجمة توبة ج ١ ص ٩٥ وفي ترجمة ليلى ج ٢ ص ١٤٠ .
 العمدة لابن رشيق . طبعة سنة ١٩٠٧ م ج ١ ص ٦٧
 العقد ، لابن عبد ربه ، طبعة سنة ١٩٢٨ م ج ١ ص ١٦٥ ، ج ٢ ص ٢٢٦ ،
 و ٢٨١ ، وج ٤ ص ٨٨
 شاعرات العرب ، طبع بيروت سنة ١٩٣٤ م ، قصائد من شعر ليلى ص ١٣٧
 وما بعدها
 تزيين الاسواق بتفصيل أحوال العشاق ، في ترجمة توبة ص ٩٦
 اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور ، مخطوط بدار الكتب ج ١١ ص
 ٦٣ ، ص ٦٤
 توبة شاعر الحب والبطولة ، تأليف محمد عبد المنعم خفاجي مطبوع ١٩٤٩
 أمالي الزجاجة ص ٥٠
 رواية الحجاج الثقفي ، تأليف جورجى زيدان
 نشيد الصحراء ، تأليف محمد عبد المنعم خفاجي
 بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى ، تأليف محمد عبد المنعم خفاجي ، في ترجمة
 توبة الجزء الأول والجزء التاسع
 مختصر شرح حماسة أبي تمام ، للرافعى ج ٢ ص ١٠٢ ، ص ١٢٥
 وسوى ذلك من كتب الأدب والتاريخ .

فهرست الكتاب الأول

الموضوع	صفحة
الإهداء	١
بين الماضي والحاضر	١
الحياة العربية في القرن الأول	٢
حياة ليلى الأولى	٣
ليلى وتوبة	٥
توبة يخطب ليلى	٨
زواج ليلى	٩
ليلى في حياة الزوجية	١٠
صلات الحب بين توبة وليلى	١١
وفاة توبة	١٤
مراثى ليلى في توبة	١٥
ليلى عند معاوية	١٦
د مروان	١٧
د وعبد الملك	١٨
د تسعى في وحدة المسلمين	١٩
د والحجاج	١٩
د وشخصيتها	٢٢
د في الأدب العربي	٢٦
د وشاعريتها	٢٨
د ومنزلتها	٣١
وفاة ليلى	٣٦
ليلى في عالم الخلود	٣٨
مصادر البحث	٣٨

استدراك

في ص ١١ - س ٢ كلمة صلاة وصوابها : صلات

الكتاب الثاني

عبد العزيز جاویش

قصته

حياته وجهاده الوطني

يقولون لي : ما أنت في كل بلدة ؟ وما تبغني ؟ ما أبتغي جل أن يسمى

الإهداء

إلى الأحرار في كل أمة وكل عصر ، وإلى المجاهدين في سبيل مبادئهم وآرائهم ووطنيتهم ، وإلى الذين يضحون بأرواحهم في سبيل رسالتهم في الحياة ، وللنهوض بأممهم ، إلى الشهداء والضحايا في سبيل الوطن الخالد العزيز ، وإلى كل وطني يؤمن بحرية بلاده وحقوقها في الشرف والكرامة والاستقلال .. أهدي هذا الكتاب .

الكلمة الأولى

هذه دراسة عن الفقيد الخالد « عبد العزيز جاویش » شيخ الوطنية ، وحامل مشعل الثورة للحرية ، وابن مصر البار ، الذي ضحى أعظم التضحيات وعاش مشردا بين السجن والنفي والاضطهاد في سبيل بلاده .

ومن أولى من عبد العزيز جاویش بأن يدون تاريخ جهاده الطويل بنماد من نور في سجل البطولة والأبطال والمجاهدين الأحرار لمجد مصر وعظمتها ؟ أليس هو الكاتب الأديب ، والصحفي القدير ، والعالم الفذ ، والأستاذ الكفء ، والمؤلف الممتاز ، وأليس هو أولا وقبل كل شيء الوطني الثائر ، والخطيب الساحر ، والداعية إلى الإصلاح والنهضة والتقدم والنضال ؟

عبد العزيز جاویش أزهري نابغة ، وابن « دار العلوم » البار ، وأستاذ المعاصرة العلم ، وخريج جامعات إنجلترا الكفء ، والمفتش بوزارة المعارف الدائب على العمل

لخير الثقافة والوطن ، ثم هو أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد ، وأحد الذين حملوا لواء التحرير الصحفي في (اللواء) ، ثم هو الكاتب الوطني الجبار ، والمذكي لروح الوطنية ونار الحرية في صدور أبناء الجيل المنصرم ، وزميل مصطفى كامل ومحمد فريد وأمين الرافعي في الجهاد الوطني ، ثم هو تزيل السجون المصرية لحملاته العنيفة على الاحتلال ، والمنفي المشرّد بعيداً عن بلاده في ألمانيا وسواها. أمداً طويلاً ، والمراقب الأول للتعليم الأول في بدء نهضة مصر الثقافية الحديثة .

عبد العزيز جاويز اسم رن صدهاء في الشرق والغرب ، وعقلية نادرة لم يخرج الجيل الماضي أعجب منها .

وجدير بمصر أن تذكره وتحمد ذكره ، وأن تتخذ تاريخ جهاده الطويل في سجل الحرية والمجد ، وأن تعترف بدين عبد العزيز جاويز على نهضتها الحديثة ، وبمزلته في الصف الأول من قادتها الأبرار المجاهدين .

جاويز في سجل التاريخ

- ولد في ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦
- بدأ حياته العلمية بالأزهر سنة ١٨٩٢ وتخرج من دار العلوم سنة ١٨٩٧
- رأس تحرير جريدة اللواء في ٢ مايو سنة ١٩٠٨
- في فبراير سنة ١٩١٠ أنشأ مجلة الهداية ، وأنشأ المدارس الإعدادية الثانوية
- في سنة ١٩١٢ أبعد الشيخ جاويز إلى تركيا
- في سنة ١٩١٤ أنشأ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ووضع أساسها وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وعهد إليه بإدارتها
- في سنة ١٩١٤ سافر الشيخ جاويز إلى إنجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على إنشاء أسطول إسلامي وأثناء ذلك حصل اعتداء على الخديو عباس حلمي فشعر بأن السلطات البريطانية تنوى القبض عليه لاثامه فيه فاقتفى وتمسك من الهرب إلى باريس

- في سنة ١٩١٥ أعيدت حملة من الجيش التركي لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزي واشترك فيها الشيخ جاويز

- فيما بين سنتي ١٩١٥ و ١٩١٨ كان يتنقل ما بين ألمانيا وتركيا والشام ، وأنشأ مجلات إحداها تصدر باللغة الألمانية ، وثانية في اسطنبول باللغة العربية باسم (العالم الإسلامي) وفي سويسرا أنشأ مجلة بالاشتراك مع رجال الحزب الوطني للدفاع عن استقلال

مصر ، وكذلك استخلص الاعتراف باستقلال مصر من مجلس المبعوثان بالاستانة والريخستاع بألمانيا في عام ١٩١٧ . كما اشترك في مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة الحقوق في استكهولم .

• في سنة ١٩١٨ غادر الشيخ جاويش ومعه رجال الحزب الوطني تركيا خفية بعد انتهاء الحرب إلى ألمانيا عن طريق روسيا ثم إلى سويسرا بحيث قاموا بالاتصال بالوفد المصري ببافيس وقدموا له مذكرة بما قاموا به في أوروبا

• في سنة ١٩٢٢ استدعاه مصطفى كمال وعينه رئيسا للجنة الشؤون التأليفية الاسلامية بأنقرة

• في سنة ١٩٢٣ حصل خلاف بينه وبين الغازي مصطفى كمال في شأن إلغاء الخلافة ، وكان الدستور قد أعلن بمصر لحاول العودة للوطن وتمكن من العودة الى مصر خفيه في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ . ونشرت جميع الصحف مقالا تحت عنوان (تجديد العهد) بتوقيع الشيخ جاويش ، ثم صرح له بالاقامة بمصر وكان يتولى الوزارة وقتذاك يحيى ابراهيم

• في سنة ١٩٢٥ عين مراقبا عاما للتعليم الأولى بوزارة المعارف العمومية وقام بإصلاحاته المعروفة

• في ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ توفي رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد والوطنية ، وسنه لا تتجاوز الثالثة والخمسين .

عصر جاويش (١٨٧٦ — ١٩٢٩)

والحرية الحراء باب بكل يد مضرجة يدق

— ١ —

عاش المرحوم الخالد الذكر الاستاذ جاويش في وسط الأحداث السياسية الكبرى التي لم يكن لها نظير في تاريخ الوطن العزيز ، شاهدها واشترك فيها بقلبه ولسانه وبكل جارحة فيه ، وكان له فضل لا ينسى في تعزيز الجهاد الوطني ، وإشعال الروح القومية ، واذكاء عواطف الثورة والاباء والطموح والعمل الجاد المضني في سبيل مجد مصر وعظمة الأمة .

— ٢ —

وأولى هذه الأحداث هو الاحتلال الانجليزي على مصر ، الذي بدأ في أعقاب الثورة العراقية عام ١٨٨٢ ، والذي كان كابوسا رهيبا مفزعا ألقى على صدر الوطن ،

ومنعه من التنفس والحركة والنشاط وكل مقومات الحياة ، والذي عطل نموه القومى ونشاطه الإنسانى فى سبيل التقسُّد والحرية والمجد والكرامة والتطور البشرى المنشود .

وكان الشعب المصرى يضيق ذرعاً بهذا الاحتلال ، ويعيش على مضض حين يرى المحتلين يذبحون على أديم الوطن العزيز ، ويعبد كل ما يستطيع لمقاومة الغاصب ، والقضاء على الاحتلال وجهد الاحتلال .

وكان المرحوم (عبد العزيز جاويز) فى أول عهد الاحتلال شاباً ككل الشباب ، ولكنه كان وطنياً متطرفاً ، مؤمناً بمصر وطنه العظيم ، وبمصريته التى هى قوميته التليدة ، كان يسكره الاحتلال ورجال الاحتلال من أعماق قلبه وطوايا سريره ، وأذكى الروح القومى والدينى فيه هذا السكر وتلك البغضاء ، فعرف بين إخوانه وزملائه بوطنيته الملتهبة ، وشعوره الوطنى المشتعل المتطرف ، وإيمانه العميق بمصر وحريتها واستقلالها .

وأخذت الروح الوطنية تشتعل بين شباب الوطن وتوقدهم عزماً وتصميماً على إنقاذه من براثن الأسد المحتل ، وكان من آثار ذلك أن قام الوطنيون المصريون بكثير من المناوآت السياسية لانبساطها ، وأن شكل الحزب الوطنى بقيادة المرحوم الشاب مصطفى كامل باشا م ١٩٠٨ م . وبتشجيع الشعب وعطفه وتوجيهه . واشترك المرحوم الشيخ جاويز مع هؤلاء العاملين المجاهدين المناضلين عن حقوق الشعب فى الحرية والاستقلال ، ثم اشترك مع رجال الحزب الوطنى وجاهد فى صفوفه جهاد الأبطال بحماس قوى وعزيمة جبارة وقلب لا يخاف ولا يلوى به عن غاياته الكبار شئ مهما عظمت .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

وبلغ من حب المرحوم النخالد (عبد العزيز جاويز) لوطنه ، أن نسى نفسه ، ومستقبله ، وقدم استقالته إلى وزير المعارف ، ليكمل فى صفوف الأحرار ، ويجهد معهم جندياً مثلهم ، ويفسكحراً لا تقيدده الوظيفة الحكومية بقيودها الثقالة ، وذلك حين رأى أن عمله فى الحكومة ومنصبه فى التفتيش فى وزارة المعارف يحولان بينه وبين الجهر برأيه والعمل الواضح السافر فى سبيل وطنه .

ومن أولى من (جاويز) بأن ينسى نفسه ويقدمها قرباناً لوطنه ؟ ذلك مثل

— ٤٥ —

عظيم ضربه (جاويز) العظيم للأحرار المصريين ، فكان مثلاً بليغاً عظيماً ينم عن
نفسية هذا الرجل في كفاحه ونضاله وجهاده لمستقبل الوطن ومجده .

— ٤ —

ونفى جاويز من مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، وشرّد في سبيل وطنيته .
والجهر برأيه . وسحب بلاده ، كما نفي محمد فريد بك وسواهم من الأحرار المصريين .
وقامت الحرب الكبرى ، وحيل بين جاويز وبين العودة إلى بلاده باسم
الأحكام العرفية ، كما حيل بين (فريد) وبين بلاده ، وكانت الحرب عبئاً
ثقيلاً على الوطن والشعب ، وأخذ الانجليز يحنّدون الرجال ويعدون المؤن ،
وينهبون من الشعب كل ما يمكنهم نهبه ليقدّموه لجيوشهم المحاربة في الميادين قرايين
تم عن فضل مصر عليهم وحققها في الحرية والاستقلال الذي اغتصبوه .
وعاش (جاويز) بعيداً عن بلاده مشرداً في سبيلها في الاستانة ، وأوروبا ،
ومنها ألمانيا . وانتهت الحرب الكبرى ، فاشتعل لهيب الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ،
وبدأ النضال من جديد ، نضال شعب قى في سبيل آماله الكبار . ومستقبله وحرية
واستقلاله المنشود .

— ٥ —

وانتهت الثورة بالاستقلال والحياة البرلمانية ، واستقرت الأمور قليلاً قليلاً .
وكان جاويز قد عاد إلى أرض الوطن ليجاهد في سبيله من جديد ، وعمل
جاويز في هذه الفترة الصغيرة مع العاملين في وزارة المعارف ، ليقود نهضة التعليم
والثقافة في مصر ، وليحيي روح النهضة والقومية والوطنية بإحياء مجد مصر العلمي
والثقافي القديم
ولكن البطل الثائر ، الذي جاهد العدو المحتل فغلبه ، لم يستطع جسمه وصحته
أن يتحمل آلام جهاد المرض الذي سرى فيه ، فأسلم روحه ، وذهب إلى ربه في أعلى
عليين في يناير ١٩٢٩ .

الثورة العسكرية في عصر جاويز

ضاق بالأحرار الزمان فتأروا وبنوا للفكر الرفيع منارا

— ٦ —

خلق الافغانى في الشرق الاسلامى عامة وفي مصر بصفة خاصة ثورة فكرية عامة

تنزع الى الاحياء والنهضة والتجديد وحرية الشعوب الاسلامية كافة .
وكان أعظم وارث لآراء الافغانى وأفكاره ، ومبادئه وثقافته الامام محمد عبده
(١٨٤٩ — ١٩٠٥ م) ، المصلح المجدد ، والفيلسوف المفكر ، والداعية الى نهضة
الوطن وحرية .

٢ -

قوى محمد عبده الروح الدينية والاجتماعية والادبية والوطنية فى مصر ، ودعا
الى الاقتباس المفيد من حضارة الغرب وثقافته ، واعتبر ماضى الامة الاسلامية هو
الاساس العام للحياة الفومية والفكرية فى مصر والشرق . وقد أوضح آراءه وأفكاره
فى مجموعة من المقالات والبحوث تعتبر فى لغتها وأسلوبها فتحا فى عالم الصحافة بما
امتازت به من القوة والمتانة وجزالة العبارة وهى مزايى الأسلوب القديم ، ومن الدقة
والمرونة ووضوح الشخصية مما هو أثر لثقافته الحديثة ، وبجانب محمد عبده كان رجال
الثقافة يعملون لتعزيز النهضة ، كعبد الله فكرى (١٨٣٤ — ١٨٩٠) ، وعلى مبارك
(١٨٢٣ — ١٨٩٣) وزيرى المعارف المشهورين .

وتولى إنشاء الجمعيات السياسية والعلمية والادبية بمصر ، وأعضاء هذه الجمعيات
هم الذين قاموا بأهم الادوار فى الحركة الدستورية التى اقترنت بالثورة العراقية . ومن
أبرزهم الشاب الوطنى الثائر مصطفى كامل (١٨٧٤ — ١٩٠٨) ، ومحمد فريد م ١٩٢٠
وقاسم أمين (١٨٦٥ — ١٩٠٨) ، وأمين الرافعى (١٨٨٦ — ١٩٢٧) والمرحوم
على يوسف (١٨٦٣ — ١٩١٣) ، ثم سعد زغلول م ١٩٢٧ ، وعبد العزيز فهمى
وسواهم .

٣ -

وفى عام ١٩٠٦ قامت نخبة تسعى الى إحياء الفكرة العربية وتجديد ثقافتها القديمة
فكانت هذه الحركة الذهبية قبسا سطع منه عهد الاحياء العربى الجديد ، وواجهت
هذه اليقظة الذهبية الحركة السياسية التى قام بها فتيان الاتراك من أجل تترك كل
العناصر غير التركية فى امبراطوريتهم ، فكان من أثر هذه السياسة انبثاق وطنية
الشبيبة العربية ، وألفت جمعيات تطالب ببعض الحقوق والاصلاح وعلى رأسهم
الشباب الذين تعلموا فى الازهر وجامعات القسطنطينية وأوربا ، وأذكى الروح
الوطنى فوق ذلك تغلغل الاستعمار فى مصر والشرق العربى .

وعززت جريدة المؤيد (١٨٩٥ — ١٩١٣ م) التى أنشأها على يوسف ، ثم

(اللواء) التي أخرجها مصطفى كامل ، ثم (الجريدة) التي كان يحررها أحمد لطفي السيد ، الروح الوطني تعزيزاً كبيراً .

و (علي يوسف) شيخ مشيخة السجادة الوفائية أزهري ولد في (بلصفورة) من بلاد مديرية جرجا وتلقى علومه في الأزهر وقرأ طرفاً من كتب الأدب واستظهر صدراً من مظاهر البلاغة في منظوم العربية ومنشورها ، وابتدأ في معالجة الكتابة في الوقت الذي انبعشت فيه تلك النهضة البيانية المشرقة التي أشعلها بالإرشاد والتنبيه السيد جمال الدين الأفغاني ، ثم بالتوجيه والتثقيف المرحوم الشيخ حسين المرصفي ١٨٨٩ م ، ثم كان لقوة روحه وشخصيته وذكائه وعقليته وملكاتة الجبارة أثر في أسلوبه الجديد الذي كان نهجاً من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات فيما قبل .

- ٥ -

وبجانب هؤلاء الأعلام في النهضة كان كثير من العلماء والأدباء يعملون لأذكاء النهضة وتجديد الثورة الفكرية وإحياء الثقافة العربية . ومن بينهم : الشيخ قدرى أستاذ ولي عهد الخلافة العثمانية وكان رجلاً مفكراً مثقفاً ثقافة واسعة وفد إلى مصر وكان يحضر مجلسه أعلام الفكر فيها يسمعون منه ويصغون له ، وفي جمعاتهم إبراهيم المويلحي بك الكاتب الوطني الساخر م ١٩٠٦ .

ومن بينهم أيضاً الشدياق م ١٨٨٧ والشيخ حسين المرصفي م ١٨٨٩ ، وعبدالله فكرى ١٨٩٠ وعبد الله نديم ١٨٩٦ م ، وإبراهيم المويلحي م ١٩٠٦ ، والشيخ إبراهيم البازجى م ١٩٠٦ ، وقاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨ م) والشنقيطي والبكرى ، والشيخ أحمد مفتاح م ١٩١٠ ، وأحمد فتحي زغلول م ١٩١٤ ، وجورجى زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) والشيخ حمزة فتح الله (١٨٤٩ - ١٩١٨) ، وحفنى ناصف م ١٩١٩ ، ويعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) منشىء المقتطف ، وحافظ وشوقى وسواهم .

وهكذا اجتمع في هذه العاصمة وفي فجر هذا العصر طبقة من الرجال نضجت في شتى نواحي الانتاج ، ومنهم الكتاب واللغويون والعلماء والخطباء والشعراء ، ولم يكن يرتفع إلى درجة أديب أو خطيب أو كاتب في ذلك العصر إلا من درس اللغة وتعمق فيها وقرأ التخصص وراجع لسان العرب ، وألم بأمهات المنثور والمنظوم في الأدب ، مثل كتب المبرد والجاحظ ودواوين الشعراء ، إلى جانب المطالعات المتصلة في أدب الشرق والغرب .

وقد عاصر فقيدنا الخالد (عبد العزيز جاويز) هذه الثورة الفكرية والعلمية والأدبية وتأثر بها في مشرقها ، ثم صاحبها في نموها وقوتها ، ثم اشترك فيها مع العاملين ، وحمل عبء التجديد والايقاظ والبعث ، وقام بدور كبير في حركة الإصلاح ، والاحياء والنهضة ، وأنتج وكتب وخطب وآلف وبحث ودرس ، وكان رسول الثقافة العربية في اكسفورد ، وفي كل مكان سار فيه .

فليس بعجيب إذا أن يكون جاويز هو هذا العبقرى الفذ ، والعقلية الممتازة ، والداعية إلى حرية الوطن ونهضته ، وأحد الذين وجهوا الثقافة والتعليم فيه ، والمحرر الصحفي الذي كان يسحر الالباب ويخلب العقول ، بل هذا المصلح الكبير الذي فقدته مصر بعد أن كافح في سبيلها كفاح الأبطال .

حياة جاويز

ولإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

أسرته :

ينتحدر المرحوم الخالد الذكر الشيخ جاويز من أصل مغربي تونسي قديم (١) ، ولكن أسرته صارت على مر الأيام مصرية الدم والروح والفكر والمبادئ والوطن . . وكانت إقامتها بالإسكندرية .

وكان له إخوة هم المرحومون : محمد وأحمد وعبد اللطيف جاويز .

وصاهر جاويز فيما بعد أسرة الفولى ، وهى أسرة كبيرة لها مكانتها في الاسكندرية . ورزق فيما بعد عدة أبناء ، كانوا خير خلف لخير سلف ، وورثوا مميزات هذا الرجل العظيم : الوطنية والعقلية والخلقية . منهم المغفور له المرحوم الأستاذ ناصر عبد العزيز جاويز ، والدكتور صلاح الدين جاويز ، والمهندس أنور جاويز ، وجمال جاويز المفتش الزراعى ، والصاغ أسعد جاويز .

وتتصل أسرة جاويز بصلات القرابة والمصاهرة بكثير من العائلات المصرية

الكبيرة ، كأسرة الجمال بمصر ودمياط ، وبلبع بدمهور ، والفولى ، والحصانى ،
والأرناؤوطى ، وسواها .

والمرحوم الأستاذ أحمد إبراهيم أستاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة
القاهرة سابقا هو ابن شقيقة المرحوم جاويش . . وقد ولد جاويش فى ٣١ أكتوبر
عام ١٨٧٦ من أسرته المخريبة بمدينة الاسكندرية
نشأته ودراسته :

ولد جاويش (١) فى الاسكندرية ونشأ بها ، وبعد أن تعلم القراءة والكتابة وحفظ
القرآن الكريم طلب العلم فى جامع الشيخ هناك ، ثم وفد عام ١٨٩٢ على الازهر فطلب
العلم فيه وأخذ عن كبار شيوخه ، كحمد عبده وسواه . ثم دخل دار العلوم (٢) واشتهر
بين لاداته بالجد فى الطلب ، والجد فى القول والعمل ، والغيرة على الدين وعلى الكرامة
جميعا . أما صلابته رأيه فيما يراه الحق فكانت عنده من مضارب الامثال . ونال
إجازة دار العلوم بتفوق عام ١٨٩٧ ، فتولى التدريس فى مدرسة الناصرية (٣) التى
كان لا يعين فيها إلا أوائل خريجي الدار .
أستاذ الناصرية :

عين الأستاذ جاويش بعد تخرجه من دار العلوم مدرسا فى مدرسة الناصرية (٤)
فاشتهر بين زملائه بسعة الاطلاع . وعمق الثقافة ، ودمائة الخلق ، ونبل النفس ،
وسعة الصدر ، وبالغيرة الدينية والحماسة الوطنية ، والايمان بحق مصر فى الشرف
والكرامة والحرية والاستقلال .
وتلذذ عليه كثير من الشبان الذى صار منهم فيما بعد أبطال النهضة وزعماء الوطن
وكان الجميع يدينون له بالحب والتقدير ، ويعترفون بأثره العميق فى حياتهم العلمية
والفكرية .

جاويش فى إنجلترا :

ثم اختارته وزارة المعارف فى بعثة إلى جامعة « برورود » بإنجلترا ، فدرس فيها

(١) ٢/٣٧٧ المرجع (٢) انشئت دار العلوم فى عهد إسماعيل . وفتحت فى
١٥ صفر (١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م) (٣) هذا رأى الكثير من الباحثين ، ولكن ابن
جاويش يذكر فى المقدمة التى وضعها لكتاب « الاسلام دين الفطرة » الذى نشرته
دار الهلال عام ١٩٥٢ أن والده عين مدرسا فى مدرسة الزراعة .

(٤) ٢/٣٧٧ المفصل

وجد حتى أكمل دراسته وتعمق في الإلمام بالثقافة الانجليزية وفهم روح الغرب وأسرار حضارته ، وكانت دراسته في التربية وما يتصل بها من علوم وثقافات .
وقد زودته هذه الثقافة الجديدة بزيادة عقلية واسعة ، وأمدته بخصائص فكرية ، وثقافية كبيرة ، ظهر أثرها في حياته وفي إنتاجه الأدبي والعلمي والصحي ، مما جعله نادر المثال بين من خرجتهم المدرسة القديمة .

جاويز في التفتيش :

ولما أكمل جاويز دراسته عام ١٩٠١ عاد مفتشاً في وزارة المعارف (١) ، فظهرت مواهبه وعبقريته في التفتيش وتوجيه الأساتذة وتدريبهم على أساليب التدريس الحديثة وطرقه ومناهجه ، مما كان موضع تقدير المسؤولين ، وثناء أبناء وزارة المعارف طلاباً وأساتذة .

ومع أن جاويزاً كان شيخاً معهما فقد كان مفتشاً للغة الانجليزية أيضاً ، وكان يذهب إلى المدارس الأميرية للتفتيش على مدرسي هذه اللغة الأوربية ، وألف كتاباً فيها سماه « مرشد المترجم » .

أستاذ اللغة العربية في لندن :

وكان نبوغ جاويز في دراسته داعياً لوزارة المعارف إلى انتدابه أستاذاً للبيان في جامعة كبريدج حيث كان يمثل المصري على أكمل حال (٢) .
وكذلك يذكر أصحاب المفصل أنه عين أستاذاً للغة العربية في جامعة كبريدج وأنه قضى هناك مدة (٣) .

وفي كلية الدكتور عبد الحميد سعيد في تأبين جاويز ، في ذكرى الأربعين ، أنه كان أستاذاً في أكسفورد ، وفي الصفحة الأولى من كتاب : « الإسلام دين الفطرة » ، لجاويز أنه كان أستاذاً للعلوم العربية في كلية أكسفورد ، وأنه ندب لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين بالجزائر عام ١٩٠٥ ، وكذلك في مقدمة هذا الكتاب الذي نشرته دار الهلال عام ١٩٥٢ يذكر ابن جاويز أنه كان في جامعة أكسفورد ، وكذلك في هلال مارس ١٩٢٩ أنه اشتغل بعض سنوات بالتدريس في جامعة أكسفورد (٤) .

(١) ٢/٣٧٧ المفصل ، وأهرام ١/٢٦/١٩٢٩

(٢) بتصرف عن أهرام ١/٢٦/١٩٢٩ (٣) ٢/٣٧٨ المفصل

(٤) وفي أهرام ١/٢٧/١٩٢٩ صورة لجاويز بملابسه الدينية وهو جالس وحوله

وكل ذلك يؤيد أن عمله في لندن كان في أكسفورد ، وربما كان تعليمه ودراسته الأولى في لندن هي التي كانت في كبردج .

وفي اللواء عدد ١٥/٧/١٩٠٨ ما يؤيد أن عمله كان في أكسفورد (١) .
وفي أثناء هذه الفترة قابل مصطفى كامل في لندن وتعرف الشابان بعضهما ببعض وبدأت صلات الصداقة والتقدير تنمو بين الرجلين .

وفي عام ١٩٠٥ انتدب جاويش لحضور مؤتمر المستشرقين في الجزائر ، وقد قام بنشاط كبير في المؤتمر ، ورد على مستشرق ألماني طعن في القرآن الكريم ردا قويا (١) .
وقد ظل جاويش مدرسا للغة العربية في أكسفورد من عام ١٩٠٤ حتى عام ١٩٠٦ حياته في الوظيفة :

وعاد الشيخ جاويش عام ١٩٠٦ مفتشا (٢) بوزارة المعارف كما كان ، وظل في عمله يخدم الوطن والثقافة خدمات جليلة كان لها أثرها البعيد .

وفي مارس ١٩٠٨ (٣) استقال جاويش من خدمة وزارة المعارف ليخدم وطنه بعيداً عن قيود الوظيفة وأعبائها ، فخسرت وزارة المعارف بخروجه منها عضوا عاملا وشخصية ممتازة ، ولكن الوطن كسب من ذلك مكسبا وطنياً لا يقدر بقيمة .

رياسته لتحرير صحف الحزب الوطني

جاويش في اللواء :

قدر له زعيم الوطنية مصطفى كامل ذلك ، فدعاه إلى رياسة تحرير اللواء (٤) ، وكان في هذه الأثناء يحلّي جيد تلك الجريدة بمقالاته البليغة ، ولم يتح له أن يستجيب

الدكتور محجوب ثابت وأمين دلة واقفان وذلك في مناسبة قدومه من مدرسته في أكسفورد لحضور مؤتمر المستشرقين في الجزائر بأمر من الحكومة المصرية .

(١) وذلك من كلمة للأستاذ ادورد براون نشرها بالتميس دفاعا عن جاويش ، وراجع في ذلك ص ٣١ و ٣٢ كتاب خواطر الخواطر . وفي هذه الكلمة التي كتبها الأستاذ ادورد إشادة بأثر جاويش وعمله في أكسفورد .

(٢) ٢/٣٧٨ الفصل ، هلال مارس ١٩٢٩ .

(٣) اللواء عدد ١٥/٧/١٩٠٨ من كلمة الأستاذ ادورد ، وص ٣١ و ٣٢ خواطر الخواطر ، وفي مقدمة « الاسلام دين الفطرة » الذي نشرته دار الهلال أنه استقال من وظيفته في أبريل عام ١٩٠٨ .

(٤) اهرام ١/٢٦/١٩٢٩ ، هلال مارس ١٩٢٩

لتلك الدعوة إلا بعد أن انتقل ذلك الزعيم إلى الرفيق الأعلى ، فكان كالحصن المنيع
تردد عنه حملات خصومه قبل أن تبلغه ، لأن يذنه و يذنه اسدا منيعا من ثبالة مقصده (١) ،
وكان لذلك ضجة كبيرة .

وما كان أجمل تلك الابتسامات التي كان يتلقى بها الصدمات ومنها السجن (١) .
وكانت مقالاته في اللواء وهي حليصة طرازه تدل بلاغتها على أنها مقالاته سواء
أمهرها بتوقيعه أم أرسلها غفلا (١) .

وأبلى - في ميدان الجهاد الصحفي - بلاء حسنا (٢) . وكان يكتب في اللواء مقالات
تفيض بالوطنية و نلتهب حماسة (٣) . وكان بين المنار واللواء خصومات بسبب الخلاف
بين محمد عبده ومصطفى كامل . وظل المنار يعارض اللواء ، ويحمل على جاويز ،
ومن كلمة جاويز عام ١٩٠٨ :

نحن لا نرضى أن نقيم على الضيم ، ثم لا نرضى بسلطان أجنبي عليها ، نحن لا نقبل
أن نباع بيع السلع في الأسواق ، نحن لا نصبر على هذا العنف والجور ، نحن لا نعرف
الاحتلال بينما صيغة تكسب المحتلين شيئا من النفوذ والسلطة الشرعية .
إنه لا بد لحل المسألة المصرية من أمرين أساسيين .

١ - إقامة حكومة نيابية دستورية .

٢ - أن يخرج الانجليز من بلادنا .

جاويز يقدم للقضاء :

١ - الأستاذ حاء ش مقالته في اللواء عدد ١٩٠٨/٥/٢٨ بعنوان « دنشواي
أخرى في السودان » : « ٧٠ مشنوقاً و ١٣ بجينا ، وذلك لأن أهالي الحلويين في السودان
قتلوا ضابطاً مصرياً وآخران نكاريين . وقد ندد جاويز في هذه المقالة بأعمال الانجليز
وطغيانهم في السودان بعد فظائعهم في مصر في حادثة دنشواي .

وقد استدعت النيابة جاويز يوم الثلاثاء ٢٣-٦-١٩٠٨ لسؤاله فيما نشره وإحالة
النيابة العمومية على محكمة جناح عابدين لمحاكمته في جلسة ٧-٧-١٩٠٨
ابتدأت الجلسة برئاسة محمد السبكي القاضي ومثل النيابة عطية حسني رئيس نيابة
مصر . وحضر مع جاويز الأساتذة المحامون : أحمد لطفي ، وإسماعيل شيمى ، ومحمود
فهمى وأجلت الجلسة بناء على طلب الدفاع إلى ٢٨-٧-١٩٠٨

(١) أهرام ١/٢٦/١٩٢٩ (٢) هلال مارس ١٩٢٩

(٣) المصور ٢٩/١٠/١٩٤٨

وفي هذا اليوم ترفع الأستاذ محمود فهمى حسين الحامى ، والأستاذ أحمد لطفى مرافعة طويلة ، وترافع الأستاذ اسماعيل الشيمى أيضا . ثم رفعت الجلسة على أن يكون الحكم بعد أسبوع ، وأذيع الحكم وهو يتهضى :

(أ) براءة جاويش .

(ب) بمعاقبته بغرامة قدرها ٢٠ جنيه إلهائه نظارة الحربية .

(ج) إلزامه بكافة المصاريف .

ثم رفع استئناف للحكم المذكور أمام محكمة الاستئناف بمصر ، ونظرت القضية فى ١٩٠٨-٨-٣٠ فى جلسة برئاسة محمود رشاد ، وعضوية محمد عبد اللطيف وزكى أبو السعود ، وكان يمثل النيابة على توفيق ، حكمت المحكمة براءة جاويش بين هتاف الجمهور وتصفيقه . وهنا جاويشا الشعراء والأدباء والزعماء والجمهور تهاىء حارة .

٢ — وفى الذكرى الثالثة لحادثة دنشواى التى نفذ فيها الحكم الرهيب على لعيف من المصريين بالإعدام ظلدا وطغيانا ، « نشر الشيخ عبدالعزيز جاويش فى ١٩٠٩/٦/٢٨ مقالا فى اللواء بعنوان « ذكرى دنشواى » حمل فيه حملة شديدة على رئيس تلك المحكمة وأعضائها والمحامين الذين ترفعوا أمامها ، استهله يقوله :

« سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين ، فنزل بهم جيش الشوم والعدوان ، فأزعج نفوسهم ، وأحرق حصاتهم ، فلما هبوا بصيانة أرزاقهم قيل إنهم مجرمون ، وسيقوا فى السلاسل والأغلال ، فصلبوا على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم وجيرانهم .

سلام على تلك الأرواح البريئة التى اتزعها بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة بقضائه من مكائنها فى أجسامها كما تنزع سلوك الحرير من خلال الشوك ، وقدمها قربانا إلى ذلك الجبار الظالم ، والغاصب القاهر ، القائم فى بلادنا بنفاقنا وتفرقنا .

سلام على أولئك الذين وقف الهلباوى قثار فيهم ثوران الجبارين ، ثم انثنى على رقابهم فقمضها ، وعلى أجسامهم فزقها ، وعلى دمائهم فأرسلها تجرى فى الأرض تلعن الظالمين ، قام الهلباوى مقامه المشهود وطالب من قضاه المحكمة الظالمة أن يحشد أهل دنشواى ليقدموا قرايين إلى هيكل الاحتلال ، فما لبث رئيس المحكمة بطرس غالى وزميله قاضى دنشواى أحمد فتحي أن استهوتهما الأموال واستغوتهما المذاصب ،

واسترهبتهم أعظمه الاحتلال ، فأنطقتهما بذلك الحكم الجائر ، لرغب في الألقاب والمناصب ، وعوز النفس إلى الشعور بالواجب .

وانثنى المرحوم جاويش في مقاله إلى المحامين الذين دافعوا عن المتهمين فاتهمهم بالإهمال في الدفاع ، وخص أحدهم وهو الأستاذ محمد يوسف عضو الوفد المصرى فيما بعد بعبارات شديدة قاسية .

ولم يكد المقال يظمر في اللواء حتى اضطربت له الدوائر الرسمية فقد كان بطرس غالى عند نشره رئيسا للحكومة ، وكان أحمد فتحي زغلول وكيلا للحقانية ، فاستدعى الشيخ جاويشا في ٨ / ٧ / ١٩٠٩ للتحقيق معه في مقاله وأخذ في استجوابه ، وكان المحقق عطية حسنى القائم برئاسة نيابة مصر في غيبة على توفيق ، وبعد التحقيق وجهت إليه النيابة تهمةتين :

١ — أنه أهان كلا من بطرس غالى وفتحي زغلول بصفتهما عضوين في محكمة مصرية نظامية .

٢ — أنه قذف في حق محمد يوسف بواسطة النشر .

وفي ١١ / ٧ / ١٩٠٩ أحالت النيابة القضية إلى محكمة الجناح بعابدين ، وحددت جلسة ١٧ / ٧ / ١٩٠٩ لنظر هذه القضية .

وكان حسين رشدى ناظراً للحقانية ، وكان يومئذ في فرنسا ، فنشرت له إحدى الجرائد الفرنسية حديثاً جاء فيه : أن الشيخ جاويش لا بد من ادانته والحكم عليه ، وقرأ محمد فريد زعيم الحزب الوطنى الحديث وهو فى الاستانة فأرسل برقية بمضمونه إلى جريدة اللواء ، التى علقت عليه حاملة على ناظر الحقانية لتدخل فى عمل القضاء .

وبدأت المحاكمة ، وكانت محكمة عابدين تموج بالجماهير التى ملأت القاعة وتزاحمت فى طرقاتها ، وأخذت تحيى المحامين الذين أقبلوا للدفاع عن المتهم ، وتقدم أحمد لطفى يشق طريقه يحف به الأستاذان محمود بسيونى وإسماعيل الشيمى ، وعقدت الجلسة برئاسة قاضى المحكمة الأستاذ محمود على سرور ، ومثل النيابة الدكتور عبد الحميد بدوى ، وطالب الأستاذ اسكندر عمون بالحق المدنى عن محمد يوسف ، وكان الأستاذ محمود بسيونى أول من ترفع من المحامين . ثم وقف الأستاذ أحمد لطفى - وهو من رجال الحزب الوطنى - يدافع عن كاتب الحزب الوطنى .

وانتهت المرافعات وخلا القاضى الى نفسه وعاد فنطق بالحكم وكان يقضى على المتهم بالفرامة . واستأنفت النيابة الحكم ، وفي جلسة الاستئناف تسلم الدكتور

عبد الحميد بدوي وكيل نيابة عابدين، ثم ترفع الأستاذ إسماعيل الشيمي ، ثم الأستاذ أحمد لطفي .

ونطق الرئيس بالحكم ، وكان يقضى بتعديل عقوبة الغرامة وحبس المتهم ثلاثة شهور ،

وقام كثير من الوطنيين الأحرار يدعون الشعب الى الاشتراك في إقامة حفلة لجاويش السجن الكريم عند خروجه من السجن يقدمون له فيها وساماً تقديراً لتضحيته في سبيل أمته . وتم بسرعة جمع الاكتتابات وصنع الوسام وكان مؤلفاً من ثلاث قطع من الذهب ، قد نقش على الأولى رسم الأهرام وكتب تحت النقش « تذكّر الشعب إلى الشيخ جاويش اعترافاً بوطنيته الصادقة » ، ونقش على الثانية الآية : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » .

وخرج الشيخ جاويش من السجن إلى داره .

وفي ٢٧ نوفمبر عام ١٩٠٩ قدم له الشعب الوسام في حفل خاص أقيم في شبرد ، وعاد جاويش يحمل على صدره وسام الشعب (١) .

نعم « قدرت له الأمة تلك المواقف التي يورث فخارها ، فتلقته وهو خارج من تلك الغيابة بوسام ذهبي أسمته « وسام الشعب » ، وأركبه جمهور مستقبله مركبة نابت فيها أذرع الشبيبة مناب قوائم الجياد (٢) » .

وكان هوى جاويش السياسي كله إلى الحزب الوطني ، بل لقد كان من الغلاة في هذا (المذهب) ، فاستقال وقام بالتحرير في اللواء وجعل يكتب المقالات السياسية تتدفق قوة وتلهب حماسة (٣) .

ثم عدت عواد فعطل اللواء وحل محله العلم ، فاخذ الشيخ جاويش يقوم بأعباء رئاسة تحريره ويكتب المقالات البليغة في الوطنية والاجتماع والاصلاح . وكان قلبه وأقلام الكتّابين معه تنهّادها صحف تخرج بعضها تلو بعض وعليها اسم الحزب الوطني . وفي فبراير ١٩١٠ إنشاء مجلة الهداية لأفهام المسلمين أسرار دينهم ، وجاهد لإنشاء المدارس الاعدادية الثانوية واليلية لتعليم اللغة الفرنسية للأزهريين .

(١) ١٩٤٨/١٠/٢٩ - المصور

(٢) أهرام ١٩٢٩/١/٢٦ ، السياسة الأسبوعية عدد ٢/٢/١٩٢٩ من مقال للأستاذ المازني

(٣) ٣٧٨ ج ٢ المفصل

ثم كتب في « الشعب » (١) . وما زال يطوى ليله ونهاره جاهداً في الكتابة والخطابة ، مؤمناً كل الإيمان بأن الانجليز بهذه الوسيلة سيجلون عن وادي النيل . وكان جاويز يحب وطنه ويرى أن من حقه أن يتحرر وأن يستقل ، ولكن الانجليز كان يأبون على الوطنيين الأحرار أن يتنفسوا وأن يطالبوا بحقوق بلادهم في الاستقلال ، فاضطهدت جاويز اضطهاداً شديداً . وفي سنة ١٩١٠ قدم جاويز للمحاكمة بسبب مقدمته التي قدم بها ديوان وطنيتي للأستاذ الغاياتي وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر حبساً بسيطاً مع التنفيذ .

وجاءت الحزب الطرابلسية عام ١٩١٢ فاشترك فيها جاويز بقلبه وبيانه ودعا الأمة الإسلامية إلى التطوع للدفاع عن طرابلس وحريتها ضد الاستعباد الإيطالي الجديد ، وهاجم الاستعمار المستعمرين بكل ما فيه من قوة ، ووقف حجرة عثرة لانجلترا في وادي النيل .

فأصدرت أوامرها بنفيه من بلاده ، عام ١٩١٢ فاختار جاويز الاستانة منفى له وأرضاً جديدة ينشر فيها دعوته ويتعهد غرسه ، غرس الحرية والكرامة والشرف ودعوة الحق والنضال والاستقلال .

جاويز في الاستانة

— ١ —

بدا للرحوم جاويز أن يخدم مصر في أفق لاتحاد حرية الكتابة والقول فيه بمثل ما كانت تحديه في مصر عهدئذ ، فسافر إلى تركيا مضطراً يطلب استقلال مصر وحريتها . وهناك كان يدعو إلى التأليف بين الولايات العثمانية ، وتمكن في هذه الفترة من ناصية اللغة التركية . وكان (٢) بخاصة أثناء هذه الغربة جميل الصبر على المحنة حسن التجميل للبلاد . وكنت تحسبه من عزة النفس وإبائها وسموها على الضرورات كما يبدل عن سعة ، وما وقف أحد منه على مظنة حاجة ولا كان لأحد عليه منه ، ولقد عرض عليه منصب مشيخة الاسلام فأباه (٣) لئلا تقيد حريته ، ثم رضى منصباً دينياً يشرف منه على الحياة الإسلامية ولا يشرف فيه على حريته أحد . وكان في أثناء تجواله يؤلف

(١) ١٩٢٩-٢-٢ السياسة الأسبوعية من كلية للشيخ عبد العزيز جاويز

(٢) هلال مارس ١٩٢٩ ، أهرام ٢٦-١-١٩٢٩ ، السياسة الأسبوعية ٢-٢-١٩٢٩

(٣) ١٩٢٩-١-٢٦ الأهرام

الجماعات من الطلبة المسلمين للدعاية الاسلامية .

ولقد كان في تركيا صاحب حول وطول ، وكانت له كنية مسموعة ورأى مطاع ، وكانت كلمته عند أنور باشا لا ترد . وكانت أمامه خزانة الدولة ينفق منها كيف شاء فيما يضطلع به من المهمات ويتولاه من المساعي ، ولكنه رحل من تركيا إلى ألمانيا وليس معه قرش واحد .

وكان في تركيا ينال على ظهر جواده بين الثلوج المتراكمة فلا يكمل ، وكان ربما نجحت ضده وشاية فيضطر أن يختفي في (بدروم) بيت أياماً عديدة لا يذوق فيها أكثر من اللبن ، وقد أعاد جاويز إصدار مجلة الهداية والهلل العثماني ، والحق يعالو ، وتزعم حركة جمع التبرعات وإرسال الدخائر والقواد الأتراك إلى طرابلس لمقاومة الغزو الإيطالي .

في تركيا واصل جاويز جهاده ، وعاش بما تدره عليه المجالات الاسلامية التي أنشأها .

وأخذ يدعو لقضية بلاده بكل ما يستطيع ، وكان الطلبة المصريون في الاستانة يجتمعون بجاويز فيوجههم ويسدى اليهم نصائحه وإرشاداته . وكتبوا منشورا سياسيا وجهوه إلى الأمة المصرية لتستيقظ من سياسيتها وتحارب الاستعمار وكان زميلهم الطالب أحمد مختار ، على وشك السفر إلى مصر لقضاء أجازته السنوية ، فأرسلوا معه هذا المنشور لتوزيعه على الشعب المصري ، ولكن المنشور ضبط مع الطالب أثناء تفتيشه في جرك اسكندرية فقبضت النيابة على الطالب ، واتهمت جاويزا بالتحريض والسعي والعمل على قلب نظام الحكم .

وأرسلت السلطات الانجليزية في مصر إلى كامل باشا رئيس الوزارة التركية . تطلب منه تسليم جاويز إلى حكومة مصر لمحاكمته ، ووافق كامل باشا على طلب الانجليز ، وسافر البكباشي « بلانز » من الاسكندرية إلى الاستانة لاستلام جاويز وكان يرافقه بعض الضباط المصريين ، وصلت هذه البعثة الانجليزية إلى الاستانة وصحبها رجال البوليس التركي إلى منزل جاويز ففتشوه وألقوا القبض على جاويز وهو يحتفل بمولوده الثالث « أنور » . وذلك لكي يسافر معهم إلى مصر لمحاكمته .

وودع جاويز ولديه : صلاح وناصر ، وترك الأسرة أمانة في عنق صهره محمد فهمي الفولي ، وركب الباخرة إلى مصر ، فوصل إلى الاسكندرية وألقي به في سجن محرم

بك في زنزانة ضيقة مظلمة رطبة تحت الأرض ، ومكث فيها خمسين يوما دون سؤال أو محاكمة ، وتبين من كشف طبيب السجن عليه أنه مصاب بانفجار في الشريان الحلقى وبالروماتزم ، فأضرب عن الطعام ، حتى اضطرت النيابة إلى استجوابه بعد سبعة عشر يوما من حبسه ، وكان النائب العمومي هو عبد الخالق ثروت ، وبدأ النائب يستجوب جاويشا ، وكانت أول كلمة نطق بها جاويش أمامه : « اعلم يا ثروت أني أعرف الله وأؤمن به وأخدم الإنسانية طول حياتي ، فلتفعل القوة بي ما تشاء وقد توكلت على الله وأنا مستريح الضمير » .

وبعد التحقيق معه أطلق سراحه ، وأبعد من مصر فيسم وجهه شطر تركيا .

وكان تسليم كامل (باشا) جاويشا للإنجليز مثار غضب الرأي العام في العالم الاسلامي ، ونظم الشاعر العراقي معروف الرصافي قصيدته « إخفار الذمم » يخلد بها ذكرى هذه الحادثة ومطلعها :

إني عهدتك ألا تكون يؤوسا مهما لقيت مصائبنا ونحوسا (١)
أنشأ جاويش في تركيا كما قدمنا مجلة الهداية الاسلامية بالعربية ، ومجلة الهلال العثماني بالتركية ، وأخذ ينشر أفكاره وآراءه الدينية والوطنية والاجتماعية عن طريق هاتين المجلتين (٢) .

وقد حرمت مصر تداول الهلال فيها ، وأُنذر محافظ الاستانة جاويشا بتعطيل الهلال لمهاجته لانجلترا ، وكان جاويش يدعو لقضية بلاده ويخدم قضايا الشعوب الشرقية الاسلامية بكل ما يستطيع ، وكانت له منزلة عند الخليفة محمد رشاد ، وكانت كلمته عند أنور لاترد .. وفي سنة ١٩١٤ أنشأ جاويش الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين ، بالقدس وعهد اليه بإدارتها .

وفي ٢٧-٧-١٩١٤ قبيل الحرب الكبرى بأربعة أيام حضر جاويش إلى لندن مع الأميرال رؤوف قائد المدرعة الحديدية التركية الشهيرة ، وكان رؤوف قد حضر لتسلم باخرتين أوصت تركيا بصنعهما في انجلترا . وحضر معه جاويش ليساعده

(١) راجعها كلها في ديوان الرصافي ص ٤٤٣

(٢) وذاعت مجلة الهداية في العالم الاسلامي ، وكانت من بعض جهاتها مثابة دينية ، ومن بعضها الآخر خزائن علم وجمع أدب ، وكانت طريقة لقراءها لا يجدون مثل ما فيها في صحيفة أخرى (أهرام ٢٦-١-١٩٢٩) .

في مهمته الرسمية لسابق معرفته لانجلترا ، وايزور خلال مهمته الرسمية صهر ، محمود الفولى الطالب بكلية الهندسة بجامعة لندرة .

وفي ١٩١٤/٧/٢٨ أطلق طالب مصرى اسمه « مظهر » الرصاص على الخديوى عباس أثناء وجوده في زيارة الاستانة ، وأصيب الخديوى في وجهه .

اتهم الانجليز جاويشاً بتدبيره الاعتداء على الخديوى ، وكان جاويش موضع المراقبة الشديدة في لندن ، تخاف من القبض عليه ، وهرب من لندن متخفياً ، وسافر مع الدكتور شرف من ميناء نيوهيفن إلى « ديب » بفرنسا ومنها واصل سفره إلى باريس .

وفي أول أغسطس عام ١٩١٤ أعلنت الحرب العالمية الاولى ، فسافر جاويش من باريس مع صهره الفولى إلى نابولي متسكراً ، وواصل السفر إلى الاستانة . تولى أنور رئاسة الوزارة التركية ، كما كان رؤوف وزيراً في وزارته ، وهما أصدقاء لجاويش فرحبوا به .

وأخذ جاويش يعمل من جديد لخدمة قضية بلاده . فبدأ سعيه من أجل إعلان تركيا استقلال مصر .

وكانت اللجنة الادارية للحزب الوطنى ومنهم الدكتور عبد الحميد سعيد ، قد تمكنوا من الفرار من مصر والسفر إلى الاستانة لخدمة القضية المصرية خوفاً من اعتقال الانجليز ، وساعدهم محمد الفولى الموظف بجمرك الاسكندرية على السفر وإخراج جوازات لهم ، سافروا من الاسكندرية إلى بيريه فسالونيك ، ومنها سافروا في باخرة إلى أزمير فالاستانة ، وكانت مراقبة الانجليز للباخرة شديدة وصعدوا عليها وقتشوها ، ولكنهم لم يعرفوا المصريين ولم يتمكنوا من رؤيتهم ، وعذب وصولهم إلى الاستانة استقبلهم صديقهم جاويش بالترحيب وقدمهم لأنور وزير الحربية .

اجتمع هؤلاء الوطنيون في الاستانة ، وأعلنوا استقلال مصر التام عن انجلترا . وأخذت تركيا تعد حملة حربية لتحرير مصر من نير الاحتلال الانجليزى ، وتحركت الحملة الحربية عام ١٩١٥ فسافر المصريون إلى دمشق ولحق بهم جاويش ، ثم واصل جاويش سفره إلى القدس للحاق بالحملة ، وحينما عرفه الجمهور استقبلوه استقبالاً حاراً .

أنشأ جاويش في القدس « كلية صلاح الدين » وقدم اليه بإعدادها وإدارتها ، ثم عاد المصريون إلى الاستانة ومعهم جاويش للدعاية للنهضة المصرية ، وكانت الحكومة التركية تساعدهم مالياً على المعيشة .

جاويز في ألمانيا وسويسرا

- ١ -

سافر جاويز من الأستانة إلى برلين خلال الحرب العالمية الأولى لإنشاء مكتب للدعاية للقضية المصرية وتولى إدارة المكتب عبد الملك بك حمزة ، وأصدر المصريون في برلين مجلة إسلامية باللغة الألمانية بإرشاد الشيخ جاويز .
وزار جاويز الأسرى المسلمين في برلين داعياً للوحدة الإسلامية بينهم ، وللجهاد في سبيل تحرير شعوبهم وأمتهم من نير الاحتلال .
ثم عاد جاويز إلى الأستانة ، وأخذ عبد الملك حمزة يقوم في برلين بخدمة قضية مصر ، وأنشأ فيها ، جمعية استقلال مصر ، وكانت تركيا تساعد هذه الجمعية مالياً بفضل جهود الشيخ جاويز ، وقد نشر برنامجها في ١٧-١-١٩١٧ .
وبفضل مساعي جاويز لدى تركيا اعترفت الحكومة التركية بحقوق مصر واستقلالها عام ١٩١٧ .

- ٢ -

ثم سافر جاويز مرة ثانية إلى برلين خلال الحرب ، واجتمع بالوطنيين المصريين هناك حيث اتفق رأيهم على أن يطالبوا مؤتمر « برسلينغك » (١) بالاعتراف بحقوق مصر ، وقد توج مجهودهم بالظفر فأخذوا عهداً من ألمانيا وتركيا باستقلال مصر بعد انتصارهم وانتهاء الحرب .
وفي أكتوبر ١٩١٧ سافر جاويز إلى استوكهولم لحضور مؤتمر الشرقيين بهولاندا وذلك لخدمة قضية بلاده . ثم سافر بعد ذلك إلى برلين لتفقد حال الجمعية المصرية ، والمجلة الإسلامية التي تعهدا ، وأخذ المصريون هناك يعملون على توثيق العلاقات بين مصر وألمانيا ، وأخذوا من الحكومة الألمانية تعهداً باستقلال مصر بعد الانتصار في الحرب ونص هذا التعهد . « إن ألمانيا تتعهد بأنه عند انتصارها تزيل ما للانجليز من نفوذ عن البلد الذي تمر به قناة السويس ويكفي ألمانيا من ذلك أن تبعد النفوذ الانجليزي دون أن يكون لها أي مطمع في مصر » .
وعاد جاويز إلى الأستانة ، فأخذ يفاوض أنور في سبيل حقوق مصر ، وقال له أنور أشياء وأحاديث في هذه المفاوضات المستمرة التي كان يقوم بها جاويز ، منها :
« لا يمكننا أن ننسى مطلقاً ماقت به أنت من مساعدتنا أثناء حرب طرابلس وإننا نعلم أنك
(١) اشترك في هذا المؤتمر مندوبون عن تركيا وألمانيا وبلغاريا وروسيا والنمسا

— ٩١ —

بسبب ذلك أخرجت من بلدك ومن وطنك ، . . وأخذ جاويش يدعو إلى الوحدة العربية والإسلامية وينشر في ذلك مقالات رنانة ، وفي أثناء ذلك أصابه مرض شديد وأعلنت الهدنة في نوفمبر عام ١٩١٨ ، فوقع الخبر كالصاعقة على جاويش . وأصبحت الاستانة على وشك احتلال الانجليز لها فسافر جاويش ومن معه من المصريين بمساعدة تركيا إلى أودسا ، ومنها واصلوا السفر إلى برلين .

— ٣ —

وصل جاويش إلى برلين قبلها هو ومن معه من المصريين (١) في المساء ، واجتمع المصريون بنادى مجلة العالم الاسلامى برئاسة محمد فريد رئيس الحزب الوطنى وقرروا استئناف الجهاد لأجل استعادة مصر من شروط وياسون الأربعة عشرة . وكانت ألمانيا في هذه الفترة مهددة باحتلال الدول المنتصرة في الحرب ، فسافر جاويش ومن معه إلى سويسرا ، حيث أقاموا في برن وقرروا الدفاع عن قضية مصر في أرض سويسرا .

ولكنهم أصيبوا بأزمة مالية حادة ، ومع ذلك واصلوا جهودهم الوطنية ، فانهزوا فرصة عقد المؤتمر الاشتراكي بسويسرا برئاسة هندرسون ، وقابله جاويش مطالباً بتمثيل مصر فيه ، فطلب منه هندرسون تقديم مذكرات تشرح قضية مصر لتوزيعها على الأعضاء ، وكتب المصريون الأحرار المذكرات وسلموها لهندرسون ولكن تبين أنه لم يوزعها على الأعضاء .

واشتدت الأزمة المالية بهؤلاء الأبطال ، وأخيراً تمكنوا من عقد قرض مالى من صديق لشوقي (سفير مصر في تركيا بعد ذلك) .

وقامت الثورة المصرية في مصر سنة ١٩١٩ ، ففرح جاويش بها فرحاً شديداً ، وفي ذلك يقول : « عندنا علمت بخبر الثورة المصرية الكبرى التى لا أقدر أن أصفها إلا بأنها من روح الله سبحانه وتعالى قالت : يا سبحان الله صدق الله العظيم : حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا » .

ثم سافر جاويش وأصدقاؤه من برن إلى عاصمة سويسرا ، وله قصيدة نظمها في هذه الفترة ، عنوانها « نشيد الأحرار » ، ومنها :

مصر رجي من دمانا ما اشتيت من فدا

(١) وهم محمد فريد ، وجاويش ، وعبد الحميد سعيد ، وعبد الملك حمزة ، وعوض البعراوى ، ومحمد على . وهم جميعاً من رجال الحزب الوطنى .

واطلى العزة منا نحن نكفيك العدا

ولما أفرج عن سعد وزملائه المعتقلين في مالمطة قال جاويش لأصدقائه من رجال الحزب الوطنى : « إن رأى بالنسبة لهذا الحادث العظيم أن نضع أيدينا فى أيدي من فوضتهم الأمة » فوافقوا بالإجماع ، وأرسل جاويش تلغرافاً أسعد يقول فيه « نحن نهنتك بثقة الأمة المصرية ونرجو أن يكتب الله لك ولإخوانك المخلصين التوفيق » . وأخذ جاويش يتصل بسفير أمريكا فى سويسرا لتهديد الجوى لبعثة الوفد المصرى التى قرر إرسالها إلى أمريكا برئاسة محمد محمود ، وطالما كان جاويش يقول : لا نريد إلا أن تحيا مصر وأن يموت عبد العزيز جاويش وغيره فى سبيل مصر . وهكذا كان جهاد جاويش البطل العظيم فى سويسرا . . . ولكن غلام المعيشة بسويسرا أزعج جاويشا وأصدقاءه ، فسافروا إلى برلين .

عاد جاويش من سويسرا إلى برلين وفى أثناء ذلك توفى محمد فريد فى ١٥-١١-١٩٢٠ فكانت وفاته كارثة وطنية كبيرة .

لم يكن مع جاويش مال وليس أمامه مساعدات مادية ينتظرها ، فاقترح عليه صهره الدكتور محمد الفولى الاشتغال بالتجارة مع أشقاء الدكتور بمصر على أن يسل جاويش لهم بضائع فيبيعونها بمصر ، وأسسوا فى ألمانيا « شركة مصر التجارية » ، حيث كانا يرسلان بضائع إلى أصحابه الذين فتحوا بالاسكندرية مكتباً لذلك تولى إدارته محمود الفولى صهر الأستاذ ، وانضم إليهم المرحوم على فهمى الذى دفع مبلغ ٣٠٠ ألف مارك ، ولكن قيمة المارك الألماني هبطت هبوطاً كثيراً فانفصل عنهما على فهمى الذى طالب بماله فبيع ما فى مكتب الاسكندرية لسداد مبلغه ، وأقفل المكتب وصغيت الأعمال فى برلين ، وأقفل باب هذا الامل أمام جاويش وصهره .

وجاء عام ١٩٢٢ ، فأخذ جاويش يفكر فى العودة إلى مصر ، حيث كان شديد القلق على أولاده الذين تركهم منذ عام ١٩١٨ بالاستانة وخاصة طفاته التى ولدت بعد سفره عند إعلان الهدنة ، وكان يقيم مع جاويش فى هذه الفترة صديقه الدكتور « أحمد فؤاد » .

أقام الزميلان فى « ميونيخ » فى قرية اسمها « فيلد افنج » من ضواحي ميونيخ ، حيث الغلاء أقل مما فى برلين ، وكانا ينفقان من مال قليل كان مع الدكتور فؤاد ، حتى اضطررا إلى الإقامة فى حجرة بسيطة معا على السكفاف يغسلان ملبسهما ويطهيان

طعامهما البسيط الساذج بأيديهما .. وكان جاويش قد درس اللغة الالمانية وتمسكن منها عدا العربية والتركية والانجليزية التي كان يجيدها . وذائق جاويش هناك الامر بن من الفقر والغربة في تلك الظروف القاسية ، والبعد عن الصحب والولد ، وامتنحن بهذا كله امتحانا شديدا ، لكننه صبر لقضاء الله ، على أنه ما برح يجهد في الدعوة لمصر ما وجد إلى الدعوة سييلا .

اضطر في جملة ما اضطر إليه أن يحتطب (١) في الغابات ليسكسب رزقه ويقتات كاجهل عامل فقير (٢) .

لم يفت في عضد الشيخ فقر أو مرض أو غربة ، أو بعد عن الأهل والولد الذين لا عائل لهم في مصر .

ولكننه ظل مجاهدا في سبيل وطنه بقلبه ولسانه كاسبا لها عطف الكثير من الاحرار . وما برح يعمل لخدمة قضية بلاده ووطنه ما وجد إلى الدعوة سييلا .

ولكن صحة جاويش ساءت ، وأصيب بحالة عصبية شديدة ، ولعل العامل الاول فيها هو قلقه على أولاده وأسرته .

وحضر صهره الدكتور محمد فهمي الفولى الذى كان طالبا بجامعة الكيمياء ببرلين ليطمئن على صحته التى ساءت ، ورأى أن الحالة تستدعى حضور أسرة الشيخ ، فأرسل تلغرافا إلى محمد رمضان الفولى صهر الاستاذ بالاسكندرية لإرسال أسرة جاويش إلى ألمانيا ليراهم وكان أولاده مقيمين بمنزل جدهم محمد رمضان الفولى بالاسكندرية منذ عودتهم من الاستانة وكانوا تحت رعايته .

سافرت الزوجة والأولاد ، ومعهم خالهم الاستاذ مصطفى الفولى ، وأرسل محمد الفولى برقية إلى ولده الدكتور الفولى ليقابلهم ، وعلم بذلك جاويش ففرح كثيرا واستعاد نشاطه وصحته .

وصلت الاسرة إلى ميونيخ واستقبلها الدكتور فهمي الفولى ، وأقامت معه في فيلدا فنج من ضواحي ميونيخ . ولكن الشيخ أنفق ما معه من نقود ، وأصيب أخيرا بأزمة مالية شديدة ، أثرت في صحته ، فاعتراه مرض قاس ، وفي هذه المحنة زاره عزيز عزت ، وعلم بمحنته ، فساعده بمبلغ كبير من المال .

وفي ١٦ مارس سنة ١٩٢٢ أعلن استقلال مصر ، وورد خطاب لجاويش من

(١) ٧٨ ج ٢ الفصل ، وأهرام ٢٦-١-١٩٢٩ والسياسة الاسبوعية ٢-٢-١٩٢٩

(٢) ٣٧٨ ج ٢ ، الفصل .

فؤاد سليم يطلب اليه السعى في العودة إلى مصر ، وأخذ أصدقاء جاويش في مصر يسعون لذلك ، ولكن معارضة انجلترا لعودته كانت شديدة . فوقفت مسألة عودته لوطنه

جاويش يعود إلى تركيا

وفي ١١ - ١٠ ١٩٢٢ انتصر مصطفى كمال في جنوب الاناضول على الجيش اليوناني انتصارا ساحقا ، وظفرت تركيا باستقلالها ، وخرجت جنود الحلفاء من الاستانة وأصبح كمال هو المسيطر والمشرف على أمور بلاده ، وتولى القائد رموف صديق جاويش رئاسة الوزارة التركية .

وبعد قليل أصدر رموف قرارا بإسناد رئاسة لجنة الشؤون الثقافية الإسلامية لجاويش ، وفي ١٧ أغسطس ١٩٢٢ بلغ جاويش نبا تعيينه رئيسا لهذه اللجنة ، فسافر في ٢٣ - ١٠ - ١٩٢٢ إلى تركيا ، وأسرت به إلى الاسكندرية .

وصل جاويش أنقرة في ١٧ - ١١ - ١٩٢٢ ، وكان رموف في انتظاره على رصيف المحطة .

ونزل جاويش في فندق المدينة الوحيد ، وزار الخليفة وحيد الدين ، وولى العهد عبد المجيد .

وتولى جاويش عمله رئيسا الأكاديمية الإسلامية ، وفي ٢٥ - ١١ - ١٩٢٢ قابل مصطفى كمال . ودار بينهما وبين كمال حديث طويل ، وتبين أن الشيخ لم يرق في نظر كمال ، لأفكاره الإسلامية ، وإيمانه بضرورة بقاء الخلافة .

وأرسل جاويش خطابا لابن أخته الأستاذ أحمد إبراهيم بعمله في الأكاديمية . كما أخذ يخدم القضية المصرية في أنقرة ، ويسعى لاتحاد الوفدين المصريين الذين سافرا إلى مؤتمر لوزان ، وقابل جاويش رؤوف بخصوص حقوق بلاده ومستقبل القتال ، وقال جاويش : « إن كنا فعلنا شيئا فله مصر والمصريين ، إنه من أكبر الجنايات وأعق العقوق أن ينبت الرجل ويتسكون من أرض ، ثم يفسكر يوم ما في التساح أو التفريط في شبر منها » .

وزار نجم الدين وهو أحد أصدقاء كمال جاويشا ونصحه بعدم التدخل في شؤون الحكومة والخلافة .

كان أثر جاويش الديني والثقافي في هذه الفترة أثرا جليلا خطيرا ، فقد خدم الفكرة الإسلامية خدمات جلي ، وأشار على تركيا أثناء إقامته فيها بإنشاء جامعة إسلامية بالمدينة المنورة ، وألف عدة كتب منها « أذى الخمر ومضاره » وكتاب

— ٦٥ —

إجابتي على الكنيسة الانجليكية التركية ، فوق مقالاته التي كانت تنشر في أهم المجلات .

عودة جاويز إلى أرض الوطن

— ١ —

أرسل جاويز إلى الجرائد المصرية كلمة يناشد المصريين فيها أن يساعده على العودة إلى بلاده .

ثم جاءت الانتخابات النيابية لأول برلمان مصري بعد الاستقلال ، فرشح أصدقاء جاويز الشيخ في الإسكندرية نائبا عن مجلس النواب ، وطالبوا رئيس الحكومة بالتصريح له بالعودة . واتصل الشيخ بالسفارة الانجليزية في تركيا لتؤشر له على جواز سفر إلى مصر (١) ، ولكنها رفضت ، وماطل رئيس وزراء مصر في هذه المسألة . فرفع العرارجي المحامي بالإسكندرية على رئيس الحكومة ووزير الخارجية بالنيابة عن جاويز قضية تعويض بمبلغ قدره خمسمائة جنيه ، وعشرين جنيها عن كل يوم يقضيها بعد ذلك بعيدا عن بلده .

— ٢ —

ولم تجد كل هذه المحاولات فأخذ جاويز يحتال حتى عاد إلى مصر جوعان غرثان منقطع الأسباب ، وذلك في ١٣ ديسمبر ١٩٢٣ .

افتقده الحزب الوطني أحوج ما كان لبلاغة قلبه ، فإذا هو بينهم لا يعرفون أي هالة أطلعت هلاله ، وبقي ذلك سرا مسكونا في صدره . وكان خصومه يذيعون أن الشيخ حضر إلى مصر على طائرة انجليزية ، وكان الشيخ يحز في نفسه أن يزعم المغرضون هذا الزعم الباطل . وجاهد عبثا أن يبدل حياته بعد أوبته من الضيق سعة ، وأن يقللها من عثرتها المالية ؛ فلم يوفق لأكثر من سبب (٢) . وجعل جاويز يحكي صدر اللواء في عهده الثاني بمقالاته وكلماته حتى عطل . وكان ترشيح الشيخ نفسه لمجلس النواب

(١) كانت السفارات والمفوضيات الانجليزية في الخارج هي التي تتولى تمثيل مصر وتشرف على مصالحها في الخارج قبل الاستقلال وبعده إلى ما قبل إنشاء المفوضيات والسفارات المصرية وتنظيمها .

(٢) المازني : السياسة الأسبوعية ٢٩/٢/٢٩ .

(٥ - قصص)

— ٥٦ —

على مبادئ الحزب الوطنى ، فناوأه الوفد المصرى وأثاروا عليه العامة فى الاسكندرية فلم يفز بآماله فى خدمة الوطن تحت قبة البرلمان فى ظل الدستور والديمقراطية .

جاويش فى التعليم الأولى

— ١ —

واختارت الحكومة جاويشا لتتفج بتجربته الحكيمة فى منصب المراقبة للتعليم الأولى عام ١٩٢٥ ، إذ صحت العزيمة على تعميم هذا النوع من التعليم فى جميع أرجاء البلاد طوعا لحكم الدستور ، فقام بالمهمة التى ألقيت على كاهله وكان مثال الجد والدأب والعزيمة الماضية . وإليه يرجع الفضل فى توطيد هذا النظام وفى المشاركة بهذا المشروع على التمام . وكان له فوق ذلك رأى السديد فى برامج التعليم .

وبقى فى هذا المنصب إلى أن توفى عليه رحمه الله ، وقد كان المرحوم جاويش يرى أنه قد يستطيع الجهاد فى سبيل وطنه بنشر العلم والثقافة فيه ؛ فقام بالمهمة واضطلع بالأمر وجهد وذل الصعب ويسر العسير ، وخطا المشروع خطا واسعة إلا أن الشيخ لم يلبث بضع سنين حتى أدركته علة القلب ، فما وهن ولا فتر ولا كز ظل على جهاده ونشاطه .

— ٢ —

وفى أثناء توليه إدارة مراقبة التعليم الأولى ألف عدة كتب ونشر الكثير من البحوث والمقالات فى الدين والنزيرة والتعليم والاجتماع والأدب واللغة .

— ٣ —

وفى خلال هذه الفترة تولى وكالة جمعية الشبان المسلمين (١) ، ووكالة نقابة المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال . كما رعى جمعية المواساة الإسلامية التى أسسها من زمن طويل ، فعنى بها بعد رجوعه من منفاه .

وفاة جاويش

— ١ —

ضعفت صحة جاويش فى الفترة الأخيرة من أثر الكفاح الذى صارع بنيانه نحو عشرين عاما ، وأصابته علة القلب ، وظل يغالب المرض ويصارعه ، حتى إذا ما انتصفت

(١) أنشئت الجمعية فى ٩ ديسمبر ١٩٢٧ ، واختير جاويش وكيلا لها .

— ٩٧ —

الساعة الرابعة من صباح الجمعة ٢٥ يناير ١٩٢٩ (١) — ١٤ شعبان ١٣٤٧ — ١٧
 طوبة ١٦٤٥ ق ، أسلم روحه راضيا مرضيا .

— ٢ —

واحتفل بتشيع جنازته في الساعة الرابعة بعد ظهر الجمعة من منزل الفقيد
 إلى شارع المبتديان فيمدان السيدة زينب حيث صلى عليه . . . وسار في مقدمة
 الموكب العلماء والعظماء والوزراء وجمهور الشعب .
 وواصل الموكب سيره إلى المبتديان فالسيدة زينب حيث صلى على الفقيد ،
 واستأنف سيره إلى قراقة الإمام . فوضعت الجثة إلى جانب جثة المرحوم أمين الرافعي
 في ضريح المغفور له مصطفى كامل .
 وهكذا فقدت مصر فيه عالما ووطنيا خدما الخدمات الجلى طول
 حياته ، (٢) .

— ٣ —

ونعت الفقيد إلى الأمة المصرية جمعية الشبان المسلمين وكان المرحوم جاويز
 وكيلا لها ، وجاء في نعيها مايلي (٣) :
 اختار الله إلى جواره علما من أعلام الإسلام وركنا من أركان الجهاد وإماما
 من أئمة النهضة المصرية خاصة والشرقية عامة ، وداعية صادقا من دعاة الإصلاح
 وهداة الإنسانية ، ذلك هو المغفور له صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز شاويز
 وكيل جمعية الشبان المسلمين ، فارق هذه الدنيا الفانية وقد ترك من آثار جهاده الطويل
 الشاق ما كتب له المنزلة الأولى بين الخصالدين العظماء ، وأبقى من آيات صبره على
 الشدائد وثباته في المبدأ والعقيدة خير مثل وأصدق قدوة لمن يسلكون سبيل
 الصادقين الأبرار .

— ٤ —

ونعته نقابة المستخدمين الخارجيين عن هيئة العمال وكان وكيلا لها ، ودعا لفيف

(١) ولا أدري كيف يخطئ أصحاب المفصل فيجعلون تاريخ وفاته عام ١٩٢٨
 (٢/٣٧٧) مع أنهم ما بين صديق وزميل وتلميذ للمرحوم جاويز ، ومع أنهم
 يؤرخون لرجل عظيم ويكتبون للأجيال القادمة عنه .

(٢) هلال مارس ١٩٢٩ .

(٣) راجع أهرام ٢٦-١-١٩٢٩

من الشبان المثقفين جميع الأمة بشتى طبقاتها إلى جنازة صامته في الساعة الرابعة مساء السبت ١-٢٦-١٩٢٩ بميدان السيدة زينب لرجل العلم والوطن المرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش .

وكتبت الأهرام في الصفحة الخامسة من عدد يوم السبت ١-٢٦-١٩٢٩ مقالا ضخما بعنوان « فجيعة وطنية كبيرة ، وفاة الشيخ عبدالعزيز جاويش » ، جاء فيه : « أبى حظ مصر العاثر إلا أن يفجعها في الصفوة المختارين من أبنائها ، فما تكاد تكفكف دمها على فرد منهم رجاء التعزى بصنوه حتى تعجل اليها النائية فيه . فقبل التعزى عن مفقود يباق فجعة أخرى في مفقود ، وعلى أثر المأتم الذى لم ينقض مأتم آخر مفقود ، ومع الجرح الذى لم يلتئم بعد جرح جديد يسيل ، ومع الركن المتداعى من الصبر ركن منه مهيل . فيا لهذه الأم الشاكل ماذا يبدع الدهر لها من فجائعه . متى وموحداً .

ختم العام الأسبق بنعى « أمين » (١) ومن قال « أمين » قال : الحر النزيه الأمين . وكان الأمس ، أمس ، الفجيعة في الرجل الذى مثل بسيرته في الآخرين حياة السلف الصالح تقاة وكالا ، ومسعاة وخلالا ، بل الرجل الذى دخل الدنيا كما دخلها أولو العزم ثم خرج منها كما خرجوا : نقى الصحيفة لم تزن نفسه بريية ، ولا أخذت سيرته بظنة ، ولا عاقت بمشده أو مغيبه شبهة ، إذ كان يصدر عن نفس سواوية : يعمرها جلال الحق ، ويسطع فيها نور الايمان ، ويجدو بها الرغبة عن عرض الدنيا إلى متاع الآخرة . نعى المغفور له الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز جاويش . مراقب التعليم الأولى في وزارة المعارف . ومؤلف جماعة المؤاساة الإسلامية ، ومنشئ مجلة الهداية ومحرم العلم واللواء من قبل ، وصاحب التأليف البارعة .

غاله الموت ولم يفرغ بعد من تأمين القائمين بالتعليم الأولى على حياتهم ، إذ كان يضع لذلك مشروعاً صالحاً لو أنسى في أجله حتى يوفى به على التمام اسعدت به تلك الطائفة العاملة التى تشكو الشقاء . فيا لفجيعتهم في ذلك الأمل الجسيم .

غاله الموت وهو يجد في إتمام تلك الجماعة الخيرية التى تعول مؤين من الأسر المسكينة ، ويتخرج في مدرستها المجانية العشرات من النجب في كل سنة ، فيالمصاب

(١) هو المرحوم أمين الرافعى علم من أعلام مصر الحديث وزعيم من زعماء

الحزب الوطاني ، توفي في ٢٩-١٢-١٩٢٧

الانسانية . غاله الموت وهو يتأهب ليخرج من جديد مجلة الهداية التي كانت منبراً إسلامياً على الذرا ، وكانت ينبوعاً يتفجر منه تفسيره للقرآن الكريم على نمط لم يسبق اليه ، فيا الزريئة العلم . . غاله الموت وهو يستمد معونة الله وتجربته الحكيمة ليضع لذلك الجانب من التعليم من النظم ما يكفل توطيد قاعدته وتعميم فائدته . فيا لنسكة التعليم في ذلك العلم من رجالاته ، . غاله الموت وهو يضع لجماعة الشبان المسلمين ونقابة موظفي الحكومة الخارجين عن هيئة العمال أمثال ما تجرى عليه الجماعات من خطة حكيمة ، فيا المصيبة الجماعتين في معقد رجائهما .

وفي الساعة الرابعة من يوم الجمعة ١٥ مارس ١٩٢٩ أقيمت بإشراف جمعية الشبان المسلمين حفلة تأبين كبرى لجاويش تحدث فيها عن مناقبه وجهاده صفوة من العلماء والكتاب ، ورجال السياسة والأدب ، وأبنته الصحف والمجلات في مصر والعالم الاسلامي كافة .

ولما مات جاويش وشعر الناس بفداحة المصاب فيه ، نظم أمير الشعراء أحمد شوقي مرثية طويلة في جاويش ، بدأها بقوله :

أصاب المجاهد عقي الشهيد وألقى عصاه المضاف الشريد (١)

شخصية جاويش

أخلاق جاويش :

، أما أخلاق الأستاذ فكانت نسيج وحدها طيباً وكالا ، ما رضى ولا غضب لنفسه ، وإنما كان غضبه ورضاه لوطنه وأمه . وكان كريم اليد حتى في اشتداد المحنة عليه ، محتفظاً بكرامته ، لا يرى فوقها كرامة . وكان أميل إلى حياة الزهد بقناعة . عطوف القلب رفيقه ، موطاً الأكراف لأصدقائه ، صلباً في الحق على خصمه . لا يرضن بجاهه ولا عليه ولا مشورته على مستنصح أو مستفيد . ولستنا - مما انصف من ذلك - نجامل أحداً ، وإنما هو ما عرفته بالخبرة من فضل الراحل الكريم (٢) .

وكان هذا الرجل المحنك الذي ترك في كل بلد أثراً من الإصلاح ، ربما كتب مقالا ودفع به إلى ، وأنا الذي لا يعد نفسه إلا في مرتبة أبنائه ، قبل أن يبعث به إلى المرحوم

(١) راجع القصيدة في الشوقيات ج ٣ ص ٧٢

(٢) أهرام ٢٦-١-١٩٢٩

أمين الرافعي ، فيبدو لي وجه اعتراض أفضى به إليه ، فيبتسم ويقول : صدقت إن عذري أني كالغريب ، ويمزق الورقات غير آسف ولا مستنكف . وكان تواضعه هذا يسحرني ويروعي لأنه أدل على سمو النفس وبساطتها ، (١) .

« وكان الشيخ جاويش رحمه الله ، إلى ما له من الصفات التي ذكرناها لك ، عذب الروح ، حلو الحديث في توقر واحتشام ، شديد الحياء حتى ما يكاد يرفع بصره إلى محدثه ، وكان مع هذا حاد المزاج يشور لأقل ما يتوهم فيه الغض من كرامته أو التهاون في دينه : بل مخالفة رأيه ، على أنه كان من صفاء النفس ، وطيبة القلب ، وخلوص النية بالمكان الأرفع ، كما كان سمحاً كريماً يجود حتى بقوته ولو لم يكن إلى سواء السبيل ، (٢) .

وكان وسيم الطلعة ، أبيض الوجه ، مشرق الديباجة ، باسم الثغر ، متطرفاً في وطنية صادقاً في حبه لمصر ، يرمي بالخيانة كل من خرج على مبادئ الوطنية الصحيحة التي يؤمن بها .. إلى ما أوتيته من ذكاء ومقدرة وشخصية جذابة .

جاويش العالم :

تلقى جاويش ثقافته في الأزهر ودار العلوم ثم أكملها في لندن ، وشغل مناصب كبيرة في وزارة المعارف كما كان في منصب على كبير في أكسفورد وطاف بالبلاد في الشرق والغرب وقضى حياته بعيداً عن وطنه متصلاً بتيار الثقافة والتفكير في تركيا وأوروبا وبلاد الشرق . فوق عقلية الجبارة وذهنه المتوقد ، وإلمامه باللغة العربية والتركية والإنجليزية والألمانية ، وكل هذه العوامل جعلت من جاويش بحق عالماً كفواً ، وباحثاً مدققاً ، وذا عقلية من الطراز الأول بين علماء النهضة الحديثة في مصر والشرق العربي .

جاويش المؤلف :

ألف أول عهده بالتعليم كتابين لا يزالان في بائهما أحسن مرجعين ، وهما : كتابه في « إرشاد المعلمين » ، وكتاب الذي أسماه « الإسلام دين الفطرة » ، عدا كتاباً آخر نشره تباعاً في الأخبار عن المسكرات ، وهو كتاب مادته من الطب والأرقام وغيرها . وهذا الكتاب الذي أودعه محاضرات دينية (٣) . وله كتاب عنوانه « أثر

(١) المازني : السياسة الأسبوعية ١٩٢٩/٢/٢

(٢) الفصل ٢٧٨ / ٢

(٣) أهرام ١٩٢٩/١/٢٦

القرآن الكريم في تحرير الفكر البشرى .
وقد سبق أنه ألف في لندن : كتاباً في « أذى الخمر ومضاره » . وهو الكتاب الذى سبق أنفا التنويه به ، كما ألف كتاب « إجابتي على الكنيسة الانجليكية » باللغة التركية ، وكتاب « الاسلام دين الفطرة » وكتاب « غنية المؤدبين » قد طبعا مرارا . ولجاويز كتاب آخر سماه « خواطر في التربية النفسية والاجتماع » وأبحاث عن المرأة المصرية والشئون العامة ، بقلم خير بأطوار الأمم الشرقية .. وهو مقالات سياسية واجتماعية ووطنية نشرها جاويز بجريدة اللواء ، وجمعت في هذا الكتاب الذى وقع في ١٣٦ صفحة ، وهذه المقالات سجل مهم للحياة المصرية والسياسة الانجليزية في مصر من عام ١٩٠٨ إلى ما قبل قيام الحرب الكبرى عام ١٩١٤ . وهي جزء من تاريخ جاويز وجهاده في سبيل وطنه .

وله كتاب آخر سماه « مرشد المعلمين » ، وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة الواعظ بشارع درب الجمامين بمصر عام ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م ، وعلى غلافه « تأليف حضرة الأستاذ الشيخ عبد العزيز شاويز الاسكندري مدرس اللغة العربية بكلية اكسفورد » ، وتقع هذه الطبعة في ٢٨٦ صفحة .

وجاء في مقدمة الكتاب « دعائي إلى وضع هذه العجالة مارأيته من حاجة المعلمين الشديدة إلى ما يهتدون بنبراسه من كتب التربية العملية فإن ما سبق لي وضعه في هذا الفن لم يكن في الحقيقة إلا لطائفة المؤدبين من الفقهاء والعرفاء ، ولذا جاء غير واف بجميع المباحث الضرورية .

والكتاب مجهود ضخم في التربية العملية ووسائلها وأهدافها ، وهو ينطق بمدى ما كان للشيخ جاويز من قدم راسخة في الثقافة الحديثة والقديمة على السواء .
جاويز الأديب :

ودراسة جاويز في الأزهر ودارالعلوم ، وعمله مدرسا للغة العربية في الناصرية واكسفورد وما يضاف إلى ذلك من ثقافته الواسعة ، وعقليته الناضجة ، وطول كتابته الوطنية في الصحف والدينية في المجالات .

كل ذلك كان من عناصر شخصية جاويز الأديب .
وأسلوبه قوى جزل سهل ، ولفظه شريف نغم ، يترسم فيه أسلوب نهج البلاغة ، وقد يعمد إلى السجع فيجىء به في براعة وإحسان (١) .

وهذه نماذج من أدبه وبلاغاته :

كتب سنة ١٩٠٧ يقرظ كتاب المنتخبات العربية من تأليف الاستاذين : محمد حسن وأمين الباجورى :

كيف لا أطيب أيها الفاضلان نفسا ، وأنشرح صدرا ، وأنا كل يوم أرى لكما من المساعي المشكورة ما يزيد العالم أملا في الشريعة المصرية العربية . ما زلت أكر منكم هبة أنفسكم لتحصيل العلوم والفضائل حتى رأيتمكم لم تقتصر همتمكم على ذلك . إذ شئت أن تستفيد الشيوخ من حدائكم ، فأت بهذه الباكورة الطيبة دليلا على ما سيعقبها من القطوف الدانية الشهية ، وحجة على من يزعم أن الفضل بالمشيخة أو الشيخوخة (١) .

أطلمت على ما أتينا به في هذه المجموعة ، فوجدت في ثنايا أسطورها ألسنا تنطق بما لكما من قوة الإدراك وسلامة الذوق وحسن الاختيار وسعة الاطلاع ، مما جعلنى أجزم بما سيكون لها من المسكنة السامية بين التأليف . جزاكم الله خيرا عن العلم وطالبه ، وأكثر من أمثالكم حتى يرجع كل الفضل إلى شبابكم .

ولجاويزش كلمة في تأبين صديقه في الجهاد أمين الرافعى (٢) وهى ذات اسلوب جميل بليغ .

نماذج من كتابة جاويزش :

١ - كتب جاويزش وهو مفتش بوزارة المعارف على لسان شخص يعتذر لآخر ويستعطفه (٣) : ان فطام الطفل إذا شب على الرضاع غاية لا تحتمل ، والسخط على من تعود الرضى أنكى من وقوع الأسى . وها أنذا قد تربيت فى مهد جنابكم ودرجت فى بحبوحة حنانكم ، لم أر منكم إلا قلبا أخفى على من حنايا الضلوع ، وجنبا إن استصرخت لا يطمئن للهجوع ، وعينا أبصر بحاجاتى من زرقاء اليمامة ، وكفا أجود بالخير من كعب بن مامة ، ولسانا إذا ذكرنى كان رطبا ، وعزما إذا جرد دونى كان سيفاً عضبا ، وصدرا أرحب من ساحتك الواسعة ، ورحمة إن أسأت كانت إليك شافعة . وإنى أعيد السيد من أن يقصد إلى قطع صلتى ، أو يكافئ احتمال

(١) ص ٤ من كتاب المنتخبات العربية .

(٢) ٣٦٧ - ٣٦٩ من كتاب « ذكرى أمين الرافعى » وكان الرافعى من زعماء

الوطنية المصرية ، وتوفى عام ١٩٢٧ .

(٣) ٢١٦ المنتخبات العربية ط ١٩٠٧ .

الصبر على خلف عدتي ، إذ لم أعود قبل ذلك أن أجني وأبعد ، « وصعب على الإنسان ما لم يعود » .

على أني لا أعلم لي ذنبا سوى أني مظهر إحسانك وآية آلائك ، إذا تحركت فما أنا إلا لسان يتحرك بإطرائك ، أو نهضت فما ينهضني إلا شكرك ، أو تناقلت فإنما يثقلني برك . ما لبست ثيابي إلا على نعمة لك مجسمة ، ولا أدرك بصرى إلا مكارم تلك المرحمة ، فلتقبل شفاعتي أريحيتك ، ولتجب لراعي مروءتك ، واجعل من بسطة نفسك بسطة لكفيك ، واتخذ من نفسك شفيعا إليك . هذا ولا أزال أردد زفرات لا يطفئها سوى أن ترجع المياه إلى مجاريها .

٢ - ومن كتابته في الموضوعات الدينية ما كتبه تحت عنوان « في الإسلام » . سمعت بعض المارقين الذين لا يتجاوز إسلامهم أزياءهم وأسماءهم يقول ذات يوم انه يستهجن أن تلمس الفضائل والمكارم من طريق الدين ، إذ خير البر أن يمت إليها بأسباب أخرى كالبحث والنظر في مزاياها وخواصها حتى تنجلي له صفاتها الطيبة فتجتذب نفسه إليها تعشقا لمحاسنها وجمالها ، فإذا قام الناس بالهداية والارشاد من هذا الطريق فما حاجة الناس إذا إلى الدين .. يزعم أمثال هذا الجاهل أن دعوى العلم قد تؤيدها أمثال هذه السخافات ، فهم - ما استطاعوا - ينشرونها بين النابتة من أبناء المسلمين ليضللوهم بها غير مبتغين منهم سوى أن ينعتوهم بالفلاسفة أو بذوى الأفكار الحرة . ولو فقهوا قليلا لعلموا أنه ليست الفلسفة إلا إدراك حقائق الأشياء من غير تنطع ولا جهود ، وأنهم لو كانوا من أهل النظر لعلموا أن الدين أقرب طريق إلى معرفة الحق والباطل وأن الأخذ بمسائله وأحكامه وأخباره يحدث في النفوس وازعا عن الشرور والمآثم أكثر مما تحدثه الدراسات على النحو الذي يبتغيه أولئك المتعلمون المتفهمون ، يقر هذا قوله صلى الله عليه وسلم مامعناه « يزعم الله بالقرآن أكثر مما يزعم بالسلطان » .

والأصل في ذلك أن زمام العالم في قبضة عقائدهم ، ذلك لأن الاعتقاد الجازم الذي لا تنقضه الشكوك ولا تؤثرفيه هواجس الشبهات يستلزم أن يعمل صاحبه على مقتضاه فإذا ما وهنت العقيدة وأرخت الشكوك والوساوس العنان للنفس خبطت خبط المشواء ، وتقاذفتها عوامل الأهواء ، وقلها سلمت لها سيرة من عثرة ، أو وضحت أمامها سبيل إلى الخير .

جاویش الشاعر :

والناس لا يعرفون أن جاویشا كان مع أدبه وبلاغته شاعراً ، ينظم الشعر ، كما كان ناقدًا يتذوقه وينقده .

وهذه إحدى قصائده الفريدة ، قال في الحكمة من قصيدة طويلة نظمها في الرثاء :

ما أبعد المرء في قربها	وأضيق الأرض على رحبها
حلاوة الدنيا جفا حلوها	ما أكدر الصافي من شربها
تسوء والمعروف مستحسن	فلا ترم ما ليس من دأبها
كم أمطرت قوماً على ظمئهم	وكان كل الوبل من سحبهـا
وكم بدا في أفقه شارق	فالت الآفاق عن شهـبها
إذا اشتكى المرء لها علة	وحركت شكواه من لبها
تعالج الداء بكأس الردى	ما أحق الأيام في طبها
من ذا بقي الإنسان من حربها	وهذه الأقدار من حزـبها
أو يمسك الآجال عن سوقها	إذا كانت الأيام من نجـبها (١)

ومن مرثية طويلة له :

طوارق أمر قد دهتنا عواقبه	وحالك ليل غاب عنا كواكبه
وللنفس آمال وفي الغيب غيرها	وللدهر سيف لم يتخنه مضاربه
وما الناس إلا ميت وابن ميت	وآخر لأزال المنون يراقبه
ترى المرء مافوق الأرائك مصبـحا	سيمسى وفي عهد التراب ترائبه
يحافى لباس الخبز عن مس جسمه	فهل يتجافى عن حصا القبر جانبـه
خليل لا تستعـب الدهر إنه	مقـى ياترى عادت الينا ذواهبـه
أتخلد فيه وهو مثلك ذاهـب	ألا إن آمال الفؤاد كواذبـه
يود الفتى لو أنه طال عمره	وما العمر إلا مجده ومناقبـه (٢)

جاویش الصحفي :

وقد عاش جاویش طول حياته صحفياً ممتازاً موهوباً ، وإلى عمله في صحف

(١) ٢١٧ المنتخبات العربية ط ١٩٠٧

(٢) ٢١٨ المرجع السابق

الحزب الوطني طول حياته ، أصدر مجلة الهداية عام ١٩١٠ ، وهي مجلة دينية عليّة أدبية اجتماعية ، وكانت تصدر كل شهر عربي مرة حافلة بالمقالات والبحوث ، وكان أصحاب امتيازها حسين تيمور وشركاه ، وكانت مطبعتها بشارع رحبة عابدين بالقاهرة . وكان يصدر المرحوم جاويش أعدادها بتفسير للقرآن الكريم بدون توقيع ، وكانت عادة الشيخ أن لا يوقع كل مقالاته ، بل يوقع في كل عدد واحدة منها ، ويترك الباقي دون توقيعه ، وكان أحياناً يوقع بعض كلماته بكلمة « الفاضل المغربي » ، أو كلمة « اجتماعي » ، وقد صدر المجلد الأول من الهداية عام ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ .. ولا شك أن جاويشاً كان هو محرر المجلة جميعها .

ولما لجأ جاويش إلى الاستانة أنشأ في ١٦ مارس ١٩١٢ جريدة « الهلال العثماني » التي عاشت عامين . وأثناء الحرب الكبرى أو عزاليه الخليفة العثماني أن ينشر مجلة « العالم الاسلامي » تعزيزاً لمقام الخلافة ، وقد صدرت أولى أعداد هذه المجلة عام ١٩١٦ .

جاويش وحركات الإصلاح

كان لا يكف عن التفكير في عمل صالح : من مثل مدرسة يريد أن ينشئها على أسلوب طريف يجمع بين العلم والعمل ، أو معهد ، أو جمعية خيرية ، ولم يكن يصرفه عن مداومة التفكير في هذا وما إليه أنه هو لا يسكاد بحد القوت إلا كفافاً . وكما جرت معه فرضاً نزور البيوت الخالية لنرى أتصلح أم لا تصلح أن تكون مدارس — مدارس بصيغة الجمع لا مدرسة واحدة — وكنت أسأل عن المال اللازم من أين يظن أن في وسعه أن يجيء به فيقول : لا تثبطني ، المال تفكر فيه أو ان الحاجة إليه ، وعلى أن حاجتنا منه إلى القليل ، وإن نعدم وسيلة ، فاهز رأسي ، فيقول : أياك أنت من الناس إلى هذا الحد ، ثم يشرح يشرح في مشروعاته وقلة تكاليفها ، فأسكت وأحس أن من الجنائفة أن ألقى تراباً على هذه النار ، وإني لأعلم أنها تأكله ، (١) .

جاويش والفكرة الإسلامية

« تعلق أمل جاويش بأخذ البلد بأداب الدين الحنيف حتى تعود للإسلام سيرته في أنضر الأيامه . وبذلك كان يؤمن الشيخ جاويش ، وفي هذا كان يجاهد

جهاداً عنيفاً يتجاوز طاقته وجهده ووقته ، (١) .
ولهذا ظل طول حياته يربط السياسة العربية بالخلافة العثمانية مظهر الاسلام في القرن العشرين .

ولئن كانت مدرسة محمد عبده في مصر هي التي احتلت مكان الدعاية للاصلاح الديني ، من أمثال : طنطاوى جوهرى ، والمرافى ، ومحمد النخضرى ، والنجار ، ومحمد المهدى و ابراهيم حروش . فإن الشيخ جاویشا كان يعد نفسه من أقران جمال الدين الأفغانى أستاذ الامام محمد عبده .

وقد ألقى الشيخ عبد العزيز جاویش محاضرة له في ٢٧ مايو ١٩٢٧ في معالجة شؤون الجامعة الأزهرية لخصتها الأهرام في ٢٨ مايو ١٩٢٧ ، ومما جاء فيها :
يكاد ينحصر القصد الأساسى من هذه المدرسة الكبرى منذ نشأتها الأولى في حفظ الشريعة الغراء ودرس سائر علومها بإمعان في تفاصيلها واستقراء لأصولها وفروعها ولقد جمع علماء الإسلام في كل زمان ومكان إلى تلك العلوم ما اعتبروه آلات لفهم الشريعة ووسائل لإدراكها كالعلوم العربية والرياضية وكالتاريخ وتقويم البلدان والميقات والمنطق والفلسفة وأشباهها .

وجملة القول أن الأزهر كان منذ نشأته ينبوعاً لطلاب علوم الدين وما يتوقف عليه فهمها من الالهيات لا سيما علوم اللغة العربية .

فالأزهر لم يخرج في طور من أطراره مهندسا ولا مساحا ولا طبيبيا ولا طبيعيا ولا كيميائيا ولا جغرافيا ، ولكنه كان يخرج فطاحل رجال الفقه والحديث والآداب جاویش ومشكلة الربا :

ولما جابهت البلاد مشكلة اقتصادية في أوائل القرن العشرين ، هي مشكلة الربا ، فتح باب المناقشة في الصحف والأندية المختلفة ، في هذا الموضوع الخطير في عام ١٩١٢م — ١٣٢٦هـ .

وكان لجساویش وحفنى ناصف رأى يتلخص في أن الربا المحظور في الاسلام بالنص والاجماع إنما هو الربا الذى يصل إلى مثل رأس المال أو يزيد عليه ، وأن كل ربح ينقص عن مقدار رأس المال فهو محل بحث واختلاف في نظر الفقهاء .

(١) البشرى في مقال له بعنوان يوميات : السياسة الأسبوعية ٩-٣-١٩٢٩

— ٧٧ —

ذكریات عن جاویش

— ١ —

كان ، على جلالته منصبه وجلالته وظيفته مراقبا للتعليم الأولى بالمعارف ، يعيش على الكفاف . ذلك أنه كان يرصد معظم راتبه لدائنيه أيام فاقتة ، وكان مع هذا الجهد كله كريمة وصولا . ولقد مات وترك أولاداً سبعة ليس فيهم من يتكسب بقرش (١) .

— ٢ —

كان عضواً في لجنة الامتحان في اللغة العربية في مدرسة المعلمين العليا . وكان رئيس اللجنة المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وامتحان أمامها المازني . وبفضل ما أبدى الشيخ جاویش من السياسة والعطف خرج المازني وهو واثق بالإنجاح (١) .

— ٣ —

قابلته المازني (٢) مدرس الترجمة في السعيدية وطلب إليه أن يساعده في الاشتغال بالصحافة وترك مهنة التدريس فقال : إنني أخشى أن تكون أشرف من أن تصلح لحياة كل ما فيها فاسد عفن . ثم أرسل لحظه في الفضاء وقال ، كالذي يحدث نفسه : إن الشباب عجب ، يعيش أبدأ في عالمه وحده ، عالم غاص بالاشباح والخيالات ، وله أحلامه ومطامعه ، ومن القسوة أن يحرم هذه الأحلام . ولكن أقسى من ذلك أن تفتح العيون على الحقائق الأرضية ، دفعة واحدة ، ثم التفت إلى المازني ، وقال : ياسي عبد القادر ، ما أراك إلا فاعلا ما بدا لك ، ولكن ليس الآن ، ليس الآن ، ابق مذخورا لوقتك ، أظعنني فإني أكبر منك وأخبر ، وقد كان ، وبقيت مذخورا لأسوأ وأروع من زمنه ، واتصلت أسباب المازني بعد ذلك بطائفة من مخالطيه قال : فزدت به خبرا ، وعرفت أن أكثر ما اتصل إليه يده يذهب في سبيل المعوزين ، وأن دائرة جهاده لا يحدها القطر المصري ، وليس من حقى أن أنشر ما حلواه الموت مما عرفته منه بعد أن خلطتني به الأيام . فبحسب القراء أن يعلموا من أمر الشيخ جاویش أنه كان امرؤا لو شاء أن ينعم بالثراء ويقضى حياته في ترف لين لكان هذا من أيسر المطالب (٢) .

(١) البشرى : السياسة الأسبوعية ٩-٣-١٩٢٩

(٢) المازني : السياسة الأسبوعية ٢-٢-١٩٢٩

— ٧٨ —

— ٤ —

وتغذيت معه مرة في الاسكندرية فلما قمنا من الطعام مال إلى وقال : أتدرى يا عبد القادر أتى أكلت من الدجاجة الصغيرة وأنا متألم ؟ فقلت : لا يوافقك الدجاج قال : ليس هذا ما أعنى ، إنما يؤلمنى أن تحتضر حياة هذه الدجاجة قبل أن تستوفي حظها من الحياة وقبل أن تأخذ نصيبها من الشمس والحرية .
وحذرتة يوماً من رجل من رجال الشوء رأيتة يطمئن إليه ، فلم يحذر ، لأن الاستراية بالناس لم تكن من خلائقه .

وكان رحمه الله بطبيعته رجلاً حليماً ، وإرادته رجل عمل . وكان تعادل هاتين القوتين هو الذى يبقية متزناً ، وقد تغلب إرادته أحلامه فيعمل بسرعة وبإحكام ، وقد تظفر طبيعته بإرادته فتراها انقلب أشبه شيء بالشاعر يفكر في عطف وحنو في كل ما في الدنيا من شقاء لا يقوى وحده على محوه أو تخفيف وطأته . وقد عاش عمره هكذا موزعاً بين طبيعته وإرادته ، يعمل طورا ويحلم تارة . ولم تكن أعماله على جلالها وبعد مداها بأعظم من أحلامه ، ولو أنى سئلت : فى أيهما كان أعظم لكان جوابي أن أحلامه كانت عندى أبهى وأجل ، فقد كانت أحلام نفس شفاقة حساسة تعرف الدنيا وتزهد فيها ولا ترى الفرد إلا فى الجماعة . وكانت أحلامه من القوة بحيث كانت تريبه كل ما يحلم به واقعا . ومن هنا لم تكن إرادته تحفل بالعوائق أو تسكرث بالمصاعب ، فلولوا أحلامه الواسعة ما كانت إرادته وأعماله .
وقد اشتهر بين الناس بقوة عاطفته الدينية . وعلة ذلك أن هذه الناحية أبرزت للخلق من سواها .

غير أن الذين عرفوه من كذب يعرفون أن كل عواطفه كانت قوية مشبوبة على السواء . فلم يكن أقل تحمساً للتعليم منه للدين ، ولا عطفه على المساكين بأضعف من غيرته على دينه ، ولكن نشأته الأولى وظروف حياته أبرزت منه جانب الدين كما لم تبرز غيره (١) .

ويقول البشرى فى يومياته :

الشيخ عبد العزيز جاويز أستاذى وصديقى معا . اتصلت به من قبل أن يهجر منصبه فى سبيل الوطنية العنيفة ، ودام بيننا الود .

(١) المازنى : السياسة الأسبوعية ١٩٢٩/٢/٢

جاویش فی عالم الخالدین

رحمهما الله ، وأكرم مثواهما في أعلى عليين .

(١) البشرى : السياسة الأسبوعية ١٩٢٩/٢/٢

فهرست الكتاب الثانى

الموضوع	صفحة
٤١ الإهداء — الكلمة الأولى	
٤٢ جاویش فى سجل التاريخ	
٤٣ عصر جاویش	
٤٥ الثورة الفكرية فى عصر جاویش	
٤٨ حياة جاویش	
٥٦ جاویش فى الاستانة	
٦٠ د ألمانيا وسويسرا	
٦٤ د يعود الى تركيا	
٦٥ عودة جاویش الى أرض الوطن	
٦٦ جاویش فى التعليم الأولى	
٦٦ وفاة جاویش	
٦٩ شخصية د	
٦٩ أخلاق د	
٧٠ جاویش العالم	
٧٠ د المؤلف	
٧١ د الأديب	
٧٢ نماذج من كتابة جاویش	
٧٤ جاویش الشاعر	
٧٤ د الصحفي	
٧٥ د وحركات الإصلاح	
٧٥ د والفكرة الإسلامية	
٧٧ ذكريات عن 'جاویش	
٧٩ جاویش فى عالم الخالدين	

الكتاب الثالث

الشاعر الخالد

ابن هانيء شاعر المدح الفاطمي

قصة

حياته وشعره وشاعريته

الإهداء

إلى الشباب :

الذين يودون أن يعرفوا كل ما يتصل بماضيهم الجيد ، ويحاولون بناء مستقبل بلادهم على أساس وطيء ، ويؤمنون بأن تراثهم القديم حافل بكل طريف وجديد .
إليهم أهدى هذا الكتاب ...

ابن هانيء الشاعر

يثير اسم ابن هانيء حديث المجد الأول ، الذي شاده الفاطميون ، وأقاموا صروحه في المغرب ومصر والشام والحجاز ، وتنفياً العالم الإسلامي ظلاله أكثر من قرنين ونصف من الزمان ، ثم عاد ذكرى مرودة ، وحديثاً مروياً ، وحضارة في الأدب والفن ، وفي الاجتماع والسياسة ، اصطبغت بها الحياة الإسلامية ، وخاصة في مصر ، إلى العصر الحديث .

وليس عجباً أن يقترن اسم ابن هانيء بكثير من هذه الذكريات الخالدة ، فقد عاصرها ، ورآها وهي حقيقة تسعى ، وعاش في ظلالها الجميلة ، فبرته بطولاتها ، وسهرته

(م ٦ — قصص)

عظمتها ، وألهمته آياتها آيات من الفن الساحر ، والأدب الرفيع . كان ابن هانيء شاعر المعز ، اقترن اسمه بذكره ، وخلدت أحاديثهما معا في صفحات المجد ، ومشيت فوق رؤوس الحقب ، وكان الشاعر السياسي للدولة الفاطمية في عصر المعز ، آمن بعقيدتها ، وأوذى في سبيلها ، ثم نافح عنها ، وناضل خصومها ، ونوه بحقها في الخلافة ، وعبر أبلغ تعبير عما كان يختلج في صدر الدولة من آمال كبار ، في الفتح والهيمنة على العالم الاسلامي وتوطيد دعائم الملك لآل البيت العلوي الفاطمي ، والقضاء على الدولتين المنافستين لهم : دولة بني العباس في الشرق ، ودولة بني أمية في الأندلس .

وكان لسان ابن هانيء وقصائده الساحرة جيشا لجبا يسير أمام جيش الفاطميين اللجب ، وسلاحا قويا يناضل عنهم أروع نضال ، حتى بلغ رنين صوته إلى كل سمع ، وردده الشيعة في كل مصر أناشيد تدعم حقهم ، وتشعل عزائمهم في طريق الجهاد ، وتمنحهم روح القوة والإيمان ، كان كما يقول الشاعر نفسه للمعز :

وأقسم أني فيك وحدي لشيعة وكنت أبر القائلين بمقسم
وكما يقول الجعفر بن علي أمير « الزاب » الفاطمي :

تسير القوافي المذهبات أحوكها فتمضي وإن كانت على مجدم وقفا
من اللاء تغدو وهي في السلم مركبي ولو كانت الهيجا قدمت صفا
ولسكن ابن هانيء لقي من الضيم في سبيل عقيدته الفاطمية الشيعية بعد وفاته كثيرا من العقوق ، ونسيه التاريخ الأدبي نسيانا يكاد يصل بينه وبين الخول بأسباب وثيقة ، وناله الكثير من النقد الأدبي الجائر على مر أجيالنا الأدبية ، ورسمت له السياسة صورة مخيفة باهتة ، فتمثله الناس في مظاهر لا يصل بينها وبين الخلق والنبل سبب ، ولا تجمع بينها وبين قلوبهم وعواطفهم جامعة ، ثم ناوا به عن مجال التقدير ، وحالوا بينه وبين حقه من العدالة الأدبية في النقد ، وقالوا : إنه كافر ، وقال خصوم العقيدة الفاطمية السياسيون إنه يرفع المعز إلى مكانة الآلهة .

وكان من آثار ذلك هذا الجور الأدبي الظالم أن مضت ذكرى وفاة ابن هانيء الألفية في نسيان شبيه بالجحود ، وفي صمت يحمل في طياته معاني العقوق ، فلم ينطق قلم ، ولم يتحرك يراع .

إن شعر ابن هانيء ليسكاد وحده يقضى على ما بقي من هذا العقوق ، ويعصف بآثار هذا الظلم الأدبي الجائر ، ويزلزل قدم السياسة في محاولاتها السيطرة على أحكام

— ٨٢ —

النقد الأدبي النزيه ، وحقاً لقد مضى العهد الذي كان للسياسة أن تخضع النقد الأدبي لمشيئتها وأحكامها ، ورفعت الحياة في جميع أنواع النشاط البشري رأسها ، وقضت على أغلال الرق الفكري والاجتماعي ، ورفع كذلك النقد الأدبي رأسه ، ينفض غبار الماضي الطويل ، ويتحرر من كل قيد ينافي حكم الفن والذوق والوجدان .
ونحن في حياتنا الحاضرة أحوج ما نكون إلى ماضيها الأدبي الزاخر ليمدنا في خطواتنا إلى المستقبل المنشود بالروح والقوة والذوق ، وارتفاع به صروحاً سامقة للفن والأدب والبيان ، تصل حاضرتنا الجديد بماضيها المجيد .

نشأة الشاعر الأولى وثقافته

— ١ —

عاش ابن هانيء في ظلال دولتين عظيمتين : دولة بني أمية في الأندلس ، ودولة الفاطميين في المغرب . أما دولة بني أمية فقد قضى في ظلالها أكثر من ربع قرن من حياته الأولى ، ففي الوطن الأندلسي ولد ونشأ ، وهذب وتعلم ، واتصل بالحياة العامة كرها لها ، مبعوضاً للإقامة فيها ، ناقماً عليها ، مؤمناً بعدم حق ملوكها في الخلافة ، مولياً وجهه شطر المغرب الأقصى ، داعياً لحق الفاطميين في ميراث جدهم الرسول الكريم ، واثمراً للملاذبة ليقتلوه ، ونخرج من الأندلس خائفاً يترقب ، حتى وصل إلى عدوة المغرب الأقصى ، فعاوده الأمل ، وأضاء الرجاء له سبيل العيش في الحياة ، وسعى — على وئام بينه وبين بيئته والمجتمع الذي يعيش فيه — إلى ما كان يتطلع إليه من آمال كبار ، في ظلال الدولة التي طالما كان قلبه يهفو إليها ، ويبارك خطواتها ، ويشيد بنفوذها الروحي ، وحقها في خلافة الرسول ، حتى بلغ في حياته هذه كل ما يريد ، وأكثر مما يريد .

— ٢ —

ولد أبو القاسم محمد بن هانيء بن محمد الأزدى في قرية من قرى إشبيلية تدعى « سكون » عام ٣٢٠ هـ ، من أسرة ذات حسب ومجد ، وأدب وعلم ، يتصل نسبها بسلالة المهلب بن أبي صفرة الأزدى القائد الإسلامي المشهور في دولة بني أمية ، وسواء كان من سلالة يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الذي وطد للمنصور ثانی خلفاء بني العباس دعائم ملكه في شمال إفريقيا إلى أن توفي عام ١٧٠ هـ ، أو من أحفاد أخيه روح بن حاتم الذي ولي فلسطين ثم شمال إفريقيا بعد موت أخيه يزيد ، سواء كان هذا أو ذاك ، فإن ابن هانيء على أي حال ينحدر من سلالة أزدية قحطانية

بمنية ، لها ماضيها الحافل ، وتاريخها المجيد ، ولها أثرها في نفس الشاعر وفي أدبه ، فقد ملأ ذلك نفسه شعوراً بهذا الماضي ، وفخرآ به ، وعزماً على مواصلة الجهاد لتجديد ذلك العهد الذي أعيا على الأيام أن يتبدد ، وكان يقرنه الشاعر بمجده الذي شاده بكفاحه في الحياة :

ذرني أجدد ذلك العهد الذي أعيا على الأيام أن يتقشبا
ولم يقبل الشاعر أن يعيش كلا على هذا الماضي في مستقبل حياته ، أو يحيا عيالا عليه ، بل سعى وناضل في الحياة :

ولم أجد الانسان إلا ابن سميه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدر
وبالهمة العليا يرقى إلى العلا فمن كان أرقى همة كان أظهر
ولم يتأخر من يريد تقدماً ولم يتقدم من يريد تأخراً
كان أبو الشاعر هانيء من قرية من قرى « المهديّة » عاصمة ملك الفاطميين الأولى ، وكان شاعراً أديباً ، كما يقول الذهبي (١) وابن خلكان (٢) ، ثم هاجر من قريته بالمغرب إلى الأندلس ، وعاش في إشبيلية ، وانتقل منها بعد إلى البيرة ، وفي إشبيلية ولد ابنه محمد بن هانيء ، فنشأ وترعرع في بيتها الحافلة بالوان الحضارة والعلم والأدب ، وبأسباب المجد السياسي الذي كسبه الأمويون في الأندلس ، وخاصة في عهد ملوكهم العظيم الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) .

واختلف ابن هانيء إلى مجامع العلم والأدب في إشبيلية ، يثقف نفسه ، ويهذب عقله ويكون ملكاته تكويناً يصل بينه وبين الحياة بأسباب الطموح والأمل . ثم رحل إلى قرطبة العاصمة الأولى لملك بني أمية ، والتي كانت تزخر بالجامعات والعلماء ، وبأسباب الحضارة والوان الثقافة ، فعكف على تزويد نفسه فيها بأكبر قسط من الثقافة والمعرفة ، والظاهر أن رحيله إليها في بدء حياته كان لهذا الغرض وحده دون سواه .

كانت الثقافة الأندلسية في هذا العهد وفي ظلال الناصر تنال من عناية الدولة والشعب ، ورعاية الحكومة والملك ، كل ما كان يطمح إليه محب للعلم والمعرفة ، وكان الناصر وولي عهده الحكم بينلان جهوداً جبارة لنشر العلم ، وتشجيع العلماء ،

فاقيمت كثير من الجامعات ، وفتحت كثير من دور الكتب التي تؤنق في اختيار مجموعات من شتى بلاد الشرق ، وساعدت الدولة العلماء في رحلاتهم العلمية إلى بغداد وسواها من عواصم الثقافة الإسلامية في الشرق الإسلامي ، واستقبل الناصر كثيرا من الواقدين على بلاطه من العلماء والأدباء ، كالقالي وسواه (١) ، فشعت في آفاق الأندلس أضواء العلم والثقافة ، وامتلأت دنها وعواصمها بأشباب الحضارة والمدنية والعمران ، وأخذت مشاعل النور ترسل أشعتها القوية الجبارة ، فتضيء ظلمات الحياة في الغرب ، وتزيد اشتعال النور وتألق الضوء في الشرق ، وتملأ الحياة قوة ونشاطا ومدنية وترفا .

وكانت السمة الغالبة على الثقافة الأندلسية حينذاك هي الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة ، أما الدراسات العقلية فقد تجهموا لها وناوأوها ، وصرقهم بيتهم المنمقة بألوان الجمال عنها ، فرأوها عبثا لاخير فيه وحاولوا الحجز بين أنصارها وبين التفكير الحر ، ولكن الحرية الفكرية التي غرس بذورها الناصر وابنه الحكم لم تحل بين آثار التفكير العقلي وانتقال عدواه من الشرق إلى الأندلس ، على يد الرحلين عنها والواقدين إليها من العلماء والمفكرين ، الذين أحصاهم صاعد الأندلسي في كتابه طبقات الأمم . ومن ذلك نستطيع أن نحدد ألوان الثقافات التي تلقاها ابن هانيء في دراسته ، وتفرغ لتحصيلها ، فهي ثقافة دينية واسعة ، ألم بها الشاب الناشئ حين درس القرآن وعلومه ، وأجاده حفظا ، مما نفعه في مستقبله الأدبي ، وصبغ أساوبه بصبغة القرآن القوية المطبوعة ، حتى كان ابن هانيء فيما بعد المجيد في الاقتباس من الذكر الحكيم وآياته فنجد له قوله :

ألا أيها الوادي المقدس بالطوى وأهل الندي إني إليك مشوق
ونجده يقول :

كانت جنانا أرضهم معروشة فأصابها من جيشه إعصار
ويقول لأمير الزاب :

لعمري لقد أيدت يوم الوغى به كما أيدت كفاك بالآتمل العشر

(١) ولد القالي عام ٥٢٨٨ هـ ، وحصل ثقافته اللغوية والأدبية في بغداد ، ثم هاجر إلى الأندلس عام ٥٣٢٨ هـ ، فاستقبله ولي العهد وزحبه به ، وتلقى عليه كثيرا من المحاضرات ، ودعاه إلى إلقاء محاضراته في مسجد قرطبة العظيم ، والتي دونها في كتابه «الأمالي» ، وظل كذلك حتى توفي عام ٥٣٥٦ هـ .

كذلك ناجى الله موسى نبيه فنادى أن اشرح ما يضيق به صدرى
وهب لى وزيراً من أخى أستعن به وشد به أزرى وأشركه فى أمرى
إلى غير ذلك مما يلاحظ القارىء فيه روح التأثير بأساليب الذكر الحكيم . وبجانب
هذه الثقافة الدينية ثقافة لغوية واسعة ، تراها فى كل قصيدة من قصائد الشاعر واضحة
ملبوسة ، ولعل ابن هانىء كان ممن جلسوا إلى القالى وسمعوا محاضراته اللغوية فى مسجد
قرطبة ، كما جلس إلى سواه من علماء اللغة وأساتذتها ، وبما نرى فيه هذه الثقافة اللغوية
أيضاً إيمان قراءته للشعر الجاهلى فى عهد دراسته الأدبية ، واحتناؤه حذوه فى نظم
القريض وصياغته ، فوق مخالطته للقبائل العربية التى كانت نازلة فى مدن الأندلس ،
ومحتفظه بروحها العربية الأولى ، ولا يكاد يضارع ابن هانىء فى هذا المحصول اللغوى
الواسع شاعر سواه غير أبى الطيب المتنبى الشاعر الحكيم . وبجانب ذلك كله كانت
الثقافة الأدبية الواسعة مكمله لجوانب هذه الثقافات فى شخصية شاعرنا ابن هانىء ،
فقد ورث عن والده حب الأدب والميل إليه ، والشغف بالشعر والظهور فى ميدانه
وفى شتى أغراضه ونواحيه ، وأعان ذلك دراسته وحفظه لأشعار العرب وأخبارهم
وأيامهم وأديبهم وشعرهم ، واتصاله بالبيئات الأدبية فى الأندلس . وساعد على ظهور
ملكته الشعر فى نفسه روحه الأدبى الموهوب ، وفطرته الشعرية الموروثة ، وعناية
والده الأديب الشاعر به ، وتوجيهه إياه إلى كل ما يفيد فى مستقبله الأدبى ، وإلى
كل ما ينمى ملكاته ، ويفجر فى قلبه ينابيع الشاعرية والإلهام ، هذا كله فضلاً عن
حياة الشاعر فى بيئة الأندلس الأدبية الحافلة بالادباء والشعراء ، والتقى لى الأدب
والشعر فيها رعاية وتشجيعاً أمداهما بأسباب الحياة والقوة والنضج ، وكما قرأ ابن هانىء
الشعر الجاهلى وتأثر به فقد اطلع على شعر كثير من المحدثين ، وعلى شعر المتنبى ، الذى
عاصره وتأثر به ، وقرأ ديوانه ، كما ترشدنا إلى ذلك قصيدته الحادية والعشرون من
ديوانه الذى نشرته مكتبة المعارف بتعليق الدكتور زاهد على .

وفى قصيدة ابن هانىء الفائية التى مطلعها :

أليتنا إذ أرسلت واردا وحفاً وبتنا نرى الجوزاء فى أذننا شنفاً

وهى القصيدة الحادية والثلاثون فى ديوانه ، وصف دقيق للنجوم وهياتها
وحركاتها فى إشراقها وغروبها ، وقد يدل ذلك على إلمام ابن هانىء ببعض فنون من
الفلسفة ، ويروى لنا التاريخ الأدبى أن ابن هانىء كان مهتماً فى الأندلس بمذاهب

الفلاسفة (١) ، وأنه تعرض بسبب ذلك للقتل ، مما دعاه إلى الهجرة إلى المغرب ، ونحن نستبعد الإمام ابن هانيء ببعض فروع الفلسفة لأن تراثه الشعري بعيد كل البعد عن روح الفلسفة ومذاهبها في التفكير ، وقد يكون الشاعر قرأ أو درس شيئاً من ذلك إلا أنه على أي حال لم يفرغ لهذا اللون من الثقافة ، ولم يشرب قلبه حب مذاهب الفلسفة ، وهجرته سببها أسبابها الصحيحة فيما يلي من هذه البحوث .

وإذا فتقنا ابن هانيء تستمد عناصرها من القرآن واللغة والادب والشعر ، ومن أثر الوراثة الذي كان له مظاهر في نفس الشاعر وعقله ، ومن أثر البيئة التي كان يعيش فيها ، ثم من تجارب الحياة الطويلة والكفاح المستمر ، والرحلة الدائمة ، التي تركت آثارها الكبيرة في عقلية الشاعر وتفكيره وفي أدبه وشعره .

حياة الشاعر في وطنه

أخذ ابن هانيء الشاب يسير في غمار الحياة ، ويخطو خطوات وثيدة في ميدان الطموح والمجد ، وكان قد نضجت روح الشاعرية في نفسه ، فنظم الشعر يصور فيه عواطف الشباب وآماله وآلامه في الحياة .

ثم دفعته همته وماضى أسرته الحافل إلى السعي في طلب الشهرة والمجد ، ورأى الحياة العامة في الاندلس تسمح له أن يطمح إلى أعلى مناصب الدولة . بعد ما حصل ما حصل من ثقافة جعلته شاعراً لا يقل عن غيره من الشعراء الممتازين في بيئته . فبدأ يتصل برجال الدولة ، وخاصة أمير إشبيلية ، بعد أن عاد إليها من رحلته الثقافية في قرطبة ، وأعزه الأمير واصطفاه ، ورفع منزلته لديه وأكرم مثواه ، واتخذ شاعره وندبته ، ولعل الشاعر قد اضطر إلى هذا الاتصال الأدبي اضطراراً ، لفقر جامع ألم به ، أو لموت والده صغيراً وذهاب ما كان يعينه على شئون الحياة من مال .

وقدر ابن هانيء يد الأمير عليه ، فشكره ونوه به ونظم قصائده في الثناء عليه والإعجاب به ، وإن كان ديوانه خلواً من ذلك ، وليس فيه بيت أو قصيدة في أمير إشبيلية ، بل ولا في تصوير حياته في الاندلس ، ولعل شعره الذي نظمه فيما ضاع في أثناء هجرته ، أو أنه لم يعن الرواة الشيعة الذين روا شعره بجمعه ، مع ما جمعه من شعره الذي نظمه وهو مقيم في دولة الفاطميين ، فلم يلتفتوا إلا إلى شعره الذي أيد به هذه الدولة ورجالها .

واستمرت المودة بين الشاعر والامير حينما من الزمان ، ولكن ابن هانيء كان برماً بالحياة في الاندلس ، مبعوضاً لملك الامويين ملوكها ، منكرًا لحقهم في الخلافة الاسلامية ، كان شيعياً يتشيع للفاطميين آل بيت رسول الله ، ويشيد بدعوتهم ، ويذيع محامدهم ، ويؤيدهم بروحه وقلبه ولسانه .

ولا شك عندى في أن ابن هانيء ورث هذا الروح عن والده فيما ورثه عنه من ميراث ، فقد كان هانيء من قرية من قرى « المهديّة » موطن الدعوة الفاطمية وعاصمة دولتها الناشئة ، ثم رحل عنها إلى الأندلس لظروف قاسرة لم يروها لنا التاريخ ، فلا بدع إذا أن يكون هانيء والد الشاعر شيعياً بهفو قلبه وروحه إلى مناصرة دعوة الفاطميين في جهادهم لاسترداد ميراث الرسول الكريم ، ووضعه في موضعه ، في البيت العلوى الطاهر ، ولا بدع أن يغرس ذلك كله في صدر ابنه الشاب قبل أن يتوفاه الله ، وإذا فقد عاش ابن هانيء في حياة والده وبعد وفاته شيعياً ، يستمع وهو في الأندلس لأحاديث جهاد الدولة الفاطمية الناشئة في المغرب ، ويتلقف أنباء مقاومتها لشتى ألوان الضغط السياسى الذى كان يحيط بها ، وأخبار ظفرها وتوفيقيها في تأسيس مثابة صالحة حرة ، وملاذ آمن مستقل ، يلجأ إليه كل مضطهد من آل البيت العلوى ، فيجد الأمن والطمانينة والسلام ، في ظل الراية البيضاء المرفوعة على المهديّة وما يتبعها من بلاد ، والتي تشير إلى معنى الخصومة السياسية للعلم الاسود المرفوع في بغداد . والراية الخضراء التي تظلل بنى أمية في قرطبة والاندلس .

وعلى كل فقد تشيع ابن هانيء ، ورأى المجتمع الاندلسى في إشيلية خطره على نظامه الاجتماعى والسياسى ، فاضمده وقاومه ، وكاد يفتك به أهل إشيلية ، لولا مكانه من أميرها ، وتحدث الناس عن الأمير وكيف يستبيح لنفسه أن يضم اليه أمثال هذا الشاب الثائر ، ورأوا أن يهتموا ابن هانيء بالفلسفة التي كان قد شدا من بعض ألوانها حظاً يسيراً ، وعاد فحجره وملة ، ولم يستغف عقله ، وكانوا يريدون أن ينالوا منه تحت ستار هذا الاتهام الجائر ما يريدون وأكثر مما يريدون ، لأن الوطن الاندلسى لم يكن يسمح لأحد من رجال الفلسفة أن يعيش فيه سالماً ، فإما أن يقتل وإما أن يهاجر وإما أن يتوب .

هجرة الشاعر إلى المغرب

علم أمير إشبيلية بالأمر ، ووصلته أحاديث الناس عنه وعن شاعره الشاب ،
فاشار على ابن هانيء أن يغيب عن المدينة مدة ، حتى ينسى في خلالها أمره ، وتسكن
فيها ثورة الناس عليه ، فامثل الأمر ، وخرج من المدينة خائفاً يترقب .
ترى أين تسكون وجهة هذا الشاعر اليائس ، وإلى أي بلد يسير ؟ والناس
إلب عليه ، والدهر يتجههم في وجهه ، والأحداث تتآمر عليه مع المتآمرين ، وهو
لا يأتوى بين هؤلاء القوم إلى ركن شديد .

فكر الشاعر فلم يجد أمامه إلا غاية واحدة يجب أن يسير إليها ، وإلا ناحية واحدة
لا مناص من أن يقصدها ، ورأى نفسه تحدته : هيا إلى بلاد المغرب ملاذ الفاطميين ،
ومقر العقيدة التي أوذى في سبيلها لما آمن بها ، وإلى المهديّة من بلاد المغرب خاصة
فهى بلاد الآباء والأجداد التي تتلاقى فيها ذكريات الماضي الطويل .

وصمم الشاعر على الهجرة ولم يجد سبيلاً إلى الحياة الآمنة سواها ، فهاجر إلى عدوة
المغرب ، وهو في سن السابعة والعشرين أو السادسة والعشرين على ما يقولون .
هاجر إذأ إلى المغرب عام ٣٤٧ هـ ، أو عام ٣٤٦ ، وبذلك انتهت حياته الأولى
التي قضاها في الأندلس ، وانتهى به المطاف إلى دولة الفاطميين .

لم يكن الشاعر يحمل على كتفيه في هجرته ما لا ولا نشباً ، ولكنه كان يحمل في صدره
عقيدة قوية ، وعاطفة ملتهبة ، وكان يحمل معه فنه وشاعريته ، ويسعى بهما قدماً إلى
أبعد غايات الطموح ومجد الحياة .

ويصور لنا ابن هانيء هذه الهجرة وذكرياتها وأسبابها وما لقي خلالها من
اضطهاد كاد يودي بحياته ، في قصيدة من قصائده في المعز الخليفة ، قال فيها متحدثاً
عن نفسه :

ومستكبر لم يشعر الذل نفسه أبى بأبكار المهاول فأنك
ولو علقت من أمية أحبل لجب سنام من بنى الشعر تارك
ولما التقت أسياها ورماحها شراعاً وقد سدت على المسالك
أجزت عليها عابراً وتركها كأن المنايا تحت جنبي أرائك
وما نقموا إلا قديم تشيعي فنجى هزبراً شدة المتدارك

والشاعر في هذه القصيدة قوى العاطفة ، متاجج الشعور ، ولكن روحه الشعرية
لم تخلص بعد من سمات التكلف الفني ولم يخلص لها بعد الفن المطبوع . ويندفع ابن

هانيء في تيار عواطفه ، فيحمل على بني أمية الأندلسيين حملة ثائرة ساخطة ، ويرميهم بالبخل والجبن وشقي الرذائل ، يقول فيما يقول :
ولم تدم في حرب دروع أمية ولكنهم فيها الإماء العوارك
إذا حضروا المداح أخجل مدح وأظلم ديجور من الكفر حالك
إلى آخر مايقول

اتصال الشاعر بجوهر قائد المعز

استقر الشاعر أخيرا في المغرب ، أو على الأرجح في المهدية وطن والده الأول ، من بين بلاد المغرب كافة ، وأخذ ينتهز الفرص السانحة ليذيع شعره ، ويظهر شاعريته ، فساعدته الظروف على مايريد .
كان ذلك على ما أرجح عام ٣٤٧ هـ بعد انتصار جوهر على خصوم الدولة الفاطمية في سجلماسة وفاس ومكناسة وسواها من بلاد المغرب ، وبعد أن قضى على الثائرين ووطد دعائم ملك الفاطميين في أطراف هذه البلاد ، ورجع من هذه الأعمال الحربية ظافراً منصوراً .

ونظم ابن هانيء قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره ، وجوهر أوطولته وحزمه ، ومجده الحربي ، وولائه للخليفة المعز ، واصطفاء الخليفة له ، ويقول فيها :
وأبيض من سر الخلافة واضح تجلي فكأن الشمس في رونق الضحى
أريك به نهج الخلافة مهيماً بين ، وأعلام الخلافة وضحا
إلى آخر مايقول ، من قصائده على ثورات الثائرين ، وفتن الخارجين على المعز .
وذهب الشاعر إلى القائد فأنشده قصيدته وسط جيشه ومعسكره ، فسربها القائد ، ثم أمر للشاعر بهدية استقبلها ابن هانيء ، ولكنه أخذها لإجابة لداعي الحاجة الملحة ، وأتى تبلغ المائتا درهم من نفس ابن هانيء مايريد ؛ لقد كان يسمع أنباء الجوائز الطائلة التي كان ينفع بها العظماء الشعراء . والتي تقلب حياتهم وأسا على عقب ، وتدعمهم يعيشون في ظلال الترف والنفوذ والنعيم ، ثم لم يجد ابن هانيء عند جوهر شيئاً مما كان ينشده من آمال كبار ، فعلم أنه لا يمت إلى أريحية العرب وسخائهم بصلة ، وفكر في عظيم آخر يعيش في ظلاله ، ويستقر في المغرب في رعايته .

ولكنه مع ذلك لم يتطع صلته بجوهر ، ولم ينسه من الإشارة والتنويه به في قصائده ، وكيف وجوهر بطل العقيدة الفاطمية وموضع ثقة الخليفة ، وقائده المظفر ، ويده على الأعداء .

وفي ديوان الشاعر ظل للصلة المستمرة بين الشاعر والقائد ، فقصيدته في وداع
جوهري وهو سائر لفتح مصر عام ٣٥٨ هـ ، وقصيدته في فتح مصر وتهنئة المعز بهذا
الفتح والثناء على جوهري قائده الفاتح المظفر ، فهما أثر لبقاء هذه الصلات .
وفي الديوان أيضا قصيدة نظمها ابن هانيء عام ٣٤٨ هـ مدح بها المعز ووصف
هدية قائده جوهري إليه ، بعد تسخيره بلاد المغرب جميعا ، وتوطيد الملك الفاطمي
فيها ، ومطلعها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكري وأورد عن رأي الامام وأصدرا
وهذه القصيدة أرجح أن الشاعر نظمها أثناء اتصاله الأول بجوهري ، فقد يكون
جوهري بعد هذا الفتح سعى بجيشه ، وفي حاشيته ابن هانيء ، لمقابلة المعز ، وقدم إليه
هديته ، فنظم ابن هانيء هذه القصيدة في مدح المعز وقائده ، ووصف هدية
قائده إليه .

نستطيع من ذلك كله أن نقول إن الشاعر اتصل بجوهري في أواخر عام ٣٤٧ هـ ،
وظل في حاشيته عدة شهور ، إلى ما بعد مطلع عام ٣٤٨ هـ ، ولكن صلات جوهري
القليلة ، دعتة إلى أن يقصد بشعره أحد الأمراء ليعيش في ظلاله ، وفعلا سار الشاعر
ميمما وجهه شطر أمير عرف بالبذل والسخاء ، وبالأغداق على الأدباء والشعراء ،
فألقي رحاله في فنائه ، وعاش أثيرا لديه ، مقربا عنده ، وذلك هو أمير الزاب ،
و « المسيلة » : جعفر بن علي .

الحياة تبتسم للشاعر في الزاب

عهد الخليفة المنصور الفاطمي في بدء توليه العرش عام ٣٢٤ هـ إلى جعفر بن علي
القائد الفاطمي بولاية الزاب والمسيلة ، وأنزل معه أخاه يحيى بن علي يساعده في
ولايته ، وعنى جعفر بأمور إقليمه ، فبنى القصور والمنتزهات ، وأقام له فيه سلطانا
ومجدا ، وقصده العلماء والشعراء ، وظل في ولاية هذا الإقليم حتى توفي الخليفة
المنصور عام ٣٤١ هـ ، فأقره المعز على ولايته لما جلس على العرش بعد
وفاة أبيه .

وسمع ابن هانيء بأمر الأمير وجوده وأريحته ، فهرع إليه عام ٣٤٨ هـ ، يمدحه
ويشيد بذكوره بقصيدة أرجح أنها القصيدة الخمسون في ديوان الشاعر ، التي أفاض
فيها في الثناء عليه ، والاعجاب به ، ووصف جهاده وبطولته ، وآدابه السامية النبيلة ،
وما يقول فيها :

خلقت شما با تضيء الخطوب ولست شما با يضيء الظلم
 وإنك من معشر طفلم يتوج قبل بلوغ الحلم
 تشيع فيكم لسانى ومن تشيع فى قوله لم يلم
 ولست أبالى بأشئ بدأت بفخرى بكم أو بمدحى لكم
 فشملنى لشملكم جامع وشعبى بشعبكم ملتئم
 وابن هانىء فى هذا البيت يريد أن يؤكد الصلة التى تجمع قومه الأزد بين يقوم
 الأمير ، ثم يقول :

حدث لقاءك حمد الريح وشت نوالك شيم الديم
 ثم يذكر عسف الزمان به ، وتحالف الخطوب عليه ، ويصور عفاؤه وبعد همته ،
 الذين كانوا من أسباب محنته كما يقول ، فيقول :

أذم اليك اعتوار الخطوب وصرف الحوادث فيما أذم
 وما أعان على الزمان عفاف يدي وعلو الهمم
 لسانى من العرب الأكرمين وفى أول الدهر ضاع الكرم
 وتلقى الأمير الشاعر بالتقدير والعطف ، ودعاه إلى الإقامة فى كنفه ورعايته ،
 فامتثل ابن هانىء فى نشوة من البشر والفرح ، وأقام فى ظلاله يمدحه ويشيد بذكره ،
 أو يمدح أخاه يحيى ، أو ابنه إبراهيم .

وفى ظلال جعفر وأسرتة عادت الطلائع نينة إلى نفس الشاعر ، فقد كفى شر
 الحاجة ، وأمن عائلة الأحداث ، وركن إلى ألوان من ترف الحياة ونعيمها ، وهدوئها
 وطمأنينتها ، وفرغ الشاعر لفنه وشعره ، بعد أن كان قلبه نهبا موزعا لا يفيق من
 آلام الحياة وخطوبها ، لقد كان قبل اتصاله بجعفر يزجى لآماله السحاب ، فلا ينبجلى
 إلا عن سراب خادع ، وسحاب مبدد :

قد كنت قبل نذاك أزجى عارضا فاشيم منه الزبرج المنجبا
 لم تدننى أرض اليك وإنما جئت السماء ففتحت أبوابا
 وصارت الزاب عنده جنة النعيم :

إنما الزاب جنة الخلد فيها من نداء غضارة التفريغ
 ولم لا ؟ وقد أخذ جعفر بضبعه ، وألقاه من صولة الخطوب :

صرفت عنان الشعر إلا اليكم وفيكم فانى ما استطعت له صرفا
 أبا أحمد قد كان لي فى الأرض موئل فلم أبغ لي ركنا سواك ولا كهفا

وما الشمس تكسو كل شئ مشعاها بأسبغ عندي من نذاك ولا أضني
أخذت بضبعي والخطوب رواغم فسمت زمانى كله خطاة خسفا
أمنت بك الأيام وهى مخوفة ولو بيديك الخلد أمنتنى الختفا
ويتحدث الشاعر عن نفسه وصنيع يحيى معه :

وما زلت ترمينى الليالى بنبلها وأرمى الليالى بالتجلد والصبر -
وأنجدنى يحيى على كل حادث وتوجنى تاجا من العز والفخر
فلاتسا لاني عن زمانى الذى خلا فوالعصر لاني قبل يحيى لنى خسر
ولما حطت الرحل دون عراضه أخذت أمان الدهر من نوب الدهر
فداؤك حتى البدر فى غسق الدجى منير او حتى الشمس فضلا عن البدر
إلى أن يقول :

أدعو إلهى بالسعادة عندكم وأتم درارى السعود التى تسرى ؟
أأبغى لديه طالبا ما كفيته وأسأله السقيا ودجلة لى تجرى ؟
أسرت بما أسديتمو من صنيعه وما خاتكم ترضون للجار بالأسر
فها بى عمى وأعيان معشرى وأملك قوسى والخضارم من نجرى
فلا ترهقونى بالمزيد فحسبكم وحسبى لديكم ماترون من الوفى
ويقول فيه :

أطفأت عنى زمنى بعدما أوقفت من جمر على حرق
فالיום بدلت سنا من دجى واعتضت صفو العيش بالرنق
واليوم يرقى أملى صاعدا وماله غيرك من مرق
وما وفى شكرى ببعض الذى كسوتنى من مفخر الصدق

وهكذا كانت مدائح ابن هانىء فى جعفر وأسرته ، وكانت كذلك مرآته البليغة
فى أمه وفى حفيده : ابن ابنه إبراهيم بن جعفر بن على ، والتى تبلغ كلها سبعة وعشرين
قصيدة ، كانت جميعها تفيض عاطفة وقوة وروحا ، وتصدر عن إخلاص ووفاء وشعور
بأيادى هذه الأسرة الكريمة عليه ، وتقدير بعيد لحبها به ومعونتها الصادقة له فى الحياة
ولعل فى هذه الايات التى نظمها من قصيدة طويلة فى جعفر ، ما ينم عن روح ابن
هانىء وعواطفه نحو هذه الأسرة الكريمة :

خليلى أين الزاب عنا وجعفر وجنة خلد بنت عنها وكوثر ؟
فقبلنى نائى عن جنة الخلد آدم فما راقه فى ساحة الارض منظر

خليلي ما الايام إلا بجعفر وما الناس إلا جعفر ، دام جعفر
لقد كان ابن هانيء قبل اتصاله بجعفر بائساً محروماً ، لا يجد له نصيراً يخفف عنه
عبء الحياة ، وكان كثير الشكوى من زمنه والاحداث التي كان يصيبها عليه ، فبدل
بالشقاء نعيماً ، وحى برأسه جعفر به ورعايتها له آلامه وبؤسه ، فابتدأ حياة جديدة
فيها أمل ورجاء ؛ وطماً نيتة وصفاء ، ونعمة ورخاء .

وكانت شاعريته في هذه الفترة يقظة قوية مشبوبة ، يشربها في نفسه إلهام الشباب
وحوافز الامل ، والعزم على الظهور في هذا المجتمع الجديد ، وكثرة أيادي جعفر
عليه . لقد كان في نضرة الشباب ، ومتعة الحياة ، وبهجة الامل ، وكان يرى أن جعفر
ليس بغريب عنه ، ولا بقصى منه . فهو من عنصره ونجاره وأصله القديم ، ثم كان
مع ذلك يعيش وسط خصومات أدبية أبطالها شعراء المغرب وأدباؤه الذين أدخل
ذكرهم ابن هانيء ونظمه الجيد الممتاز ، كانت كل هذه البواعث حافزاً له ، على تجويد
قنه ، وصقل شعره ، والابداع في ما يسحر به من قريض ، فكان يخرج قصائده
إخراجاً فنياً خلافاً ، فتخرج وهي مستوية الاطراف ، جميلة السبك ، جزلة اللفظ
في عزوبة ، يشيع فيها أثر التأنق والتهذيب . على أن الشاعر لم يكن مدفوعاً إلى ذلك
كله ببواعث مادية صرفة ؛ بل كان يصدر عن عقيدة قوية غالبة ، كان جعفر من أشد
الذائدين عن العقيدة الفاطمية وسلطانها السياسي ، وهي العقيدة التي أخلاص لها الشاعر
متمسكاً ما في وسعه من إخلاص ، فدحه وكأنه كان يمدح العقيدة التي آمن بها ، وكافح
من أجلها طول الحياة .

ومهما كانت الاسباب فإن إنتاج الشاعر في هذه الفترة القصيرة الحافلة كان بعيداً
عن سمات التكلف ، مصبوغاً بصبغة الشاعرية المطبوعة ، وبدأت تظهر فيه شخصية
الشاعر الفنية بوضوح وجلاء ، وتظهر فيه كذلك صورة حياته التي خضعت لآلوان
الحياة الجديدة المترقة في ظل جعفر وأسرته .

وعاش ابن هانيء في الزاب نحو عامين ، لم يكن همه فيها إلا حضور مجلس الامير
والاتصال برجال الدولة ، والمتعة بنعيم الحياة وجمالها ، وتصوير جوانب هذه الحياة
كلها في شعره ومدائحه التي كان ينشدها الامير وقومه .

ولم يكن ابن هانيء يشعر بأنه غريب في هذه البيئة ، ولا كانت أيادي جعفر عليه
توقفه مواقف الهوان أو الذلة ، ولا كانت قصائده فيه وسيلة للسؤال والاستجداء فحسب
بل كان يرى في صلات النسب بينه وبين جعفر حافزاً له على التنويه به ، والاشادة

بما أثره ، ويرى فيها ما يعزز مكانته لديه ، ويرفع مقامه عنده ، أليست أسرة جعفر
يمانية قحطانية يعربية ، وأليست هي من بكر أحلاف قومه الاولين ؟

إنا لتجمعنا وهذا الحي من بكر أذمة سالف لم تخفر
أحلافنا فكأننا من نسبة ولداتنا فكأننا من عنصر

وكانت هذه الصلة البعيدة بين الشاعر والامير تمد ابن هانيء بروح ملؤها الشعور
بالكرامة والعزة في ظل جعفر ، وتؤيده بأسباب الحياة والقوة في تلك البيئة وبين
خصومه والحاقدين عليه من الأديباء والشعراء ، كالزهراني كاتب الامير الذي أخمله
ابن هانيء ، وصور الخصومات الأدبية التي نشأت بينه وبينه في قصيدته التاسعة
والعشرين التي هجا فيها الزهراني شر هجاء .

وأصبحت هذه الخصومات وسواها لا تضير الشاعر بشيء ، ما دام قوم الامير
هم بنو عمه ، وأعيان معشره ، وأملاك قومه ، والخضارم من نجره ، كما يقول
وبعد فكنت أود أن أعرض آثار الشاعر الفنية في هذه الفترة القصيرة الزاهية
في حياة الشاعر وفنه ، وأحلال في إيجاز تراثه الفني في العهد الذي قضاه مع جعفر
وأسرته ، وآياته الحسان الرائعة في الإشادة به وبهم ، ولكن كثرتها وضيق هذا
الكتاب عن أن يتسع لمثل هذا الاطناب ، يحولان يني وبين ما أريد .

فإذا ما أردنا أن نضع هذا الانتاج الفني موضعه من تراث الشاعر الأدبي ، فإن
حكمنا عليه أنه من روائع الآثار الأدبية في حياة ابن هانيء الفنية .

ونحن لا نعلم بعد هل استقرت حياة الشاعر استقرارا قائما على أساس الحياة العائلية
فتزوج في هذه الفترة التي قضاها في الزاب ، أم لا ؟

وعلى أي حال فقد سارت قصائد ابن هانيء في جعفر وأسرته ، وتحدث بها الناس
ورواها الأدباء والرواة ، وأنشدت في مجلس المعز وهو في القيروان ، فأرسل إلى
جعفر يطلب منه ابن هانيء ، وامثل الأمير الأمر ، وأعد للخليفة هدية نفيسة أرسلها
إليه ، وكان فيها ابن هانيء الشاعر . بل كان هو أغلى ما فيها من نفائس .

الشاعر في بلاط المعز

وفي عام ٣٥٠ هـ وصل الشاعر إلى القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية ، فسعى إلى
الخليفة ومثل بين يديه ، وأنشده شعره ومدائح في الخليفة والخلافة ، وجلال الدولة
وعظمة أيامها ، وتصوير عزها الشاخ ، ومجدها المسكين .

والتاريخ الأدبي والسياسي لا يرشدنا بالتحديد إلى العام الذي اتصل فيه الشاعر

بالمعز ، ولكن دراسة تراث ابن هانيء الشعرى ومدائحـه للمعز ، تـهـدـيـنـا إـلى هـذه الحقيقة المجهولة في ثنايا تاريخ ابن هانيء الأدبي المجهول .
وكذلك لا ترشدنا المصادر الأدبية على القطع واليقين إلى أول قصيدة أنشدها ابن هانيء في مجلس المعز الفاطمي لأول عهده بالمثل بين يديه ، وسأذكر رأي الذي أرجحه في ذلك ، والقارىء حر في اختيار ما يريد .
لابن هانيء في المعز إحدى وعشرون قصيدة من أطول القصائد الفنية وأبلغها وتبلغ نحو نصف تراثه الأدبي ، وقراءة هذه القصائد قراءة واسعة ، وتفهمها تفهما تاريخيا ، وتدوقها تدوقا أدبيا يهدينا إلى كل ما نريد .
من بين قصائد الشاعر في الخليفة أربع قصائد تستوقف نظر الباحث المتمهل ، وتعطيه الدليل الملبوس على رأيه في هذه المشكلات الأدبية .
فأولى هذه القصائد نظمها الشاعر عام ٣٤٨ هـ في وصف هدية جوهر للمعز ، ومنطلعا :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكريا وأورد عن رأي الامام وأصدرا
وفيها يشيد بالخليفة وجوهر ويصف هدية جوهر إليه ؛ وهذه القصيدة قد تدفعنا إلى القول بأن اتصال ابن هانيء بالمعز كان عام ٣٤٨ ، لا عام ٣٥٠ كما نقول ، ورأيي في ذلك أن هذه القصيدة نظمها الشاعر حين كان في حاشية جوهر لما التقى القائد بالخليفة بعد الظفر الحربى الذى ظفر به ، فقدم إليه هديته النفيسة التى وصفها ابن هانيء في هذه القصيدة ، وهذا رأى وجيه مقبول ، فضلا عن أنه يترك لابن هانيء عامين يقضيهما فى الزاب وفى نظم قصائده الماثورة فى جعفر بن على وأسرته .
والقصيدة الثانية ذكر الديوان أنه قيل عنها إنها أول شعر مدح به ابن هانيء الخليفة المعز ، وفيها يقول الشاعر :

ملك أناخ على الزمان بكلـكل فأذل صعباً فى القياد جوحا
ويحذر أعداءه سطوته ويشيد بانتصارات جيوشه فيقول :

ونصرت بالجيش اللـهـام وإنما أعدته قبل الفتوح فتوحا
يزجيه أروع لو يدافع باسمه علوى أفلاك السماء أزيحا
فـكـا^١ إنما ملك القضاء مقـدرا فى كل أوب ، والحمام متيحا

ويصف الأسرى وبؤسهم ، وأسطول المعز وقوته ، وتتبع بنى أمية لحركاته البحرية ، ويذكر ما تتمهم الذى تجاوزت به الدنيا ، ورزء فقيدهم الذى فقدوه ،

ويدعو إلى القضاء على دولتهم في الأندلس ، فيقول :

وأمية تحفى السؤال وما لمن أودى به الطوفان يذكر نوحا ؟
تتجاوب الدنيا عليهم مائما فكأنما صبحتهم تصبيحا
ليسوا معايبهم ورزء فقيدهم كاللإبسات على الحداد مسوحا
أنفذ قضاء الله فى أعدائه لتراح من أوتارها وتريجا

إلى أن يقول :

أعليك تختلف المنابر ؟ بعد ما جنحت إليك المشرقان جنوحا
أم فيك تختلف الخلائق مرية كلا وقد وضح الصباح وضوحا
صورت من ملكوت ربك صورة وأمدتها علما فكنت الروحا

والقصيدة قوية رائعة . ويتجلى من قراءتها أنها نظمت على أثر انتصار حربى لجيوش المعز ، ولكن لا ندرى فى أى عام كان هذا الانتصار ، ونسأل : من هو هذا الفقيد الذى لبست أمية رزءه فى الأندلس ، وتجاوبت بما سمىه الدنيا ؟ لم يفصح الشاعر بشئ ، ولا يبعد عندى أن يكون هو الملك الناصر الذى توفى عام ٥٣٥٠ هـ ، وإذا يكون تاريخ القصيدة هو هذا التاريخ ، وإذا صح أنها أول ما أنشده ابن هانىء أمام الخليفة . فيكون إذا بدء اتصاله به هو عام ٥٣٥٠ هـ .

والقصيدة الشالئة هى الكافية التى ذكر فيها هجرته وبواعثها ، والتى حملنا جانبها منها فى هجرة الشاعر وفيها يقول :

سقى الكونثر الخلدى دوحة هاشم وحيت معز الدين عنا الملائك
وما سار فى الأرض العريضة ذكره ولكننه فى مسلك الشمس سالك
وما كنه هذا النور نور جبينه ولكن نور الله فيه مشارك

ويذكر فيها ولاءه للفاطميين وهجرته فى سبيل عقيدته الشيعية ، ويدعو المعز إلى القضاء على دولة بنى أمية فى الأندلس ، ثم يذكر نفسه وشعره والخصومات الأدبية بينه وبين الشعراء والتى يصورها فى قوله :

أرى شعراء الملك تنحت جانبي وتنبو عن الليث المخاض الأوارك
تخب إلى ميدان سبقى بطاؤها وتلك الظنون الكاذبات الأوافك
تسئ قوافيها ، وجودك محسن وتنشدنا إرانا ومجدك ضاحك
أبت لى سبيل القوم فى الشعر همة طموح ونفس للدنية فارك

(٧ - قصص)

وما سرني تأميل غير خليفة وأنى الأرض العريضة مالك
 نخول وإقتار وفي يدك الغنى فحيا فنى بين هاتين هالك
 والقصيدة ليس فيها أى إشارة تاريخية تدل على تاريخها الأدبي ، ولكنى أرى
 أنها من أوائل القصائد التى نظمها ابن هانىء فى المعز ، بل لا يبعد عندى أن تكون
 أولها كلها ، لأن ذكر هجرة الشاعر ووصفه لحالته ، ودعاء الخليفة إلى العطف عليه
 والعناية به ، وبيان إخلاصه لعقيدته ، وأن هذا الإخلاص كان سبب محنته فى الأندلس ،
 كل هذا دليل على ما أقول ، ويؤيده تصويره لهذه الخلافات الأدبية التى نشبت بينه
 وبين شعراء الدولة مما يرشدنا إلى أن القصيدة نظمت قبل أن يدعم مركز الشاعر
 فى بلاط المعز .

أما القصيدة الرابعة فهى نونية الساحرة ، التى نالت إعجاب الخليفة ، وكوفىء
 عليها الشاعر مكافأة طائلة بلغت خمسة عشر ألف دينار ، وذكر الديوان أنه قد قيل
 فيها لإنها أول ما نشده الشاعر بالقيروان من شعر فى المعز ، ومطالعها :

هل من أعقبة عاج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين ؟
 ويقول فيها :

هذا معد والخلائق كلها هذا المعز متوجا والدين
 هذا ضمير النشأة الأولى التى بدأ الإله ، وسرها المكنون

ويحرض فيها المعز على العبور إلى الأندلس والقضاء على دولة بنى أمية فيها .
 والقصيدة رائعة ، قوية فى نظمها وفى روحها وفى العقيدة التى تملا جوانبها بالحياة
 الفنية المشبوبة ؛ وهى على أى حال من أوائل القصائد التى نظمها ابن هانىء فى المعز
 إن لم نجزم بانها أولها ..

وإذا فاستطيع أن أقول : إن القصيدة الأولى نظمت قبل اتصال الشاعر بالمعز
 بعامين ، وأما القصائد الثلاث الباقية فقد نظمت كلها عام ٣٥٠ هـ ، وهو العام الذى
 اتصل فيه ابن هانىء بالمعز ، وأول قصيدة أنشدها فى مجلسه هى الكافية ثم تلتها
 الحائية ثم النونية ؛ وهذا رأى وإن كان لكل اختيار ما يريد بعد أن بسطنا البحث
 وفصلنا الكلام فيه .

وعلى أى حال فقد أقام ابن هانىء فى فناء الخليفة ، واستظل بظله ، وعاش فى
 القيروان عاصمة دولته ، يروح ويغدو كل يوم إلى الخليفة ، ينشر أمامه الثناء المحب
 والشعر الساحر ، والقوافى البليغة ، التى يشيد فيها بالدولة والخليفة ، ويدعم حقها فى

تراث الرسول ، ويزود عنها أعداءها من الأمويين والعباسيين ، ويشدو بأيامها وانتصاراتها ، كل هذا والخليفة يزيد عطفاً ورعاية وتمسكينا .

وبذلك ابتدأت صفحة جديدة في حياة الشاعر ، فعاش في مجد العرش وظله ، وبين سمع الزمان وبصره ..

عصر المعز

لاقى العلويون كثيراً من الاضطهاد في عهد الأمويين والعباسيين ، وفر لقيف منهم إلى المغرب ، فنشر دعائهم الدعوة الشيعية في ربوعه ، ودعوا الناس إلى بيعه المهدي المنتظر منهم ، وأعلن أبو عبد الله الشيعي في آخر القرن الثالث الهجري عام ٢٩٦ هـ ابتداء قيام الدولة الفاطمية ، وأخرج عبد الله المهدي من الحبس وأقامه على ملك الفاطميين .

والدولة الفاطمية تنتهي في نسبها إلى فاطمة الزهراء ، وكانت عاصمتها الأولى هي « المهديّة » التي تنسب إلى أول الخلفاء الفاطميين المهدي .

حكم المهدي هذه الدولة الجديدة نحو ربع قرن (٢٩٦ - ٣٢٢ هـ) ، ولما توفي خلفه على العرش ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) ، ثم خلفه بعد وفاته ابنه المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) .

وكان ملك الفاطميين في أول أمره يشمل كثيراً من تونس وبعض أقاليم الجزائر وطرابلس ، كما يشمل صقلية من جزر البحر الأبيض ، ولكن الخلفاء الفاطميين دأبوا على التوسع والفتح ، فضموا إلى دولتهم كثيراً من البلاد ، ولقب المنصور نفسه بألقاب الخلافة لما رأى ضعف دولة بني العباس ، وفي عام ٣٤١ هـ توفي المنصور فخلفه على عرشه ابنه المعز لدين الله الفاطمي . . ولد المعز بالمهدية عام ٣١٧ هـ ، وبويع له بولاية العهد في آخر حياة أبيه ، ثم سلم عليه بالخلافة في ٧ ذي الحجة عام ٣٤١ هـ ، ولقب نفسه أمير المؤمنين ، وبابتداء حكمه ابتداء عهد جديد للفاطميين ، وأخذوا يتوسعون في بسط نفوذهم السياسي والروحي في شتى الأقطار ، على حساب الدولة العباسية في الشرق ودولة بني أمية في الغرب ، بالرغم من المقاومة السياسية العنيفة التي كان العباسيون والأمويون يدأبون على إحاطة الدولة الفاطمية بها ، وبرغم الجهود الحربية التي قام بها العباسيون والأمويون للحد من نشاط الفاطميين السياسي والحربي ، وللقضاء عليهم كما كانوا يتمنون .

وجه المعز عنايته في أول عهده إلى تقوية جيشه وأسطوله قبلخ بهما ما أراد ؛ وبدأ يناوش بأسطوله الأمويين في ثغور الأندلس ، والروم في جزر البحر الأبيض ، ثم حرك جيوشه بقيادة جوهر وسواه من القواد ، فاجتاحت بلاد المغرب كافة ورفعت فوق ربوعها راية الفاطميين البيضاء ، ووصلت إلى البحر المحيط ظافرة منصور عام ٣٥١ هـ ، وفي عام ٣٥٤ قامت معارك حربية وبحرية هائلة بين جيش المعز وأسطوله وبين جيوش الروم وأساطيلهم البحرية ، في صقلية وجنوب إيطاليا ، وانتهت هذه المعارك بظفر كبير للمسلمين ، وفي عام ٣٥٦ مات كافور الأخشيدي وسيف الدولة الحمداني ، وبدأت الدولة الأخشيديّة في مصر والحمدانيّة في الشام تسيران إلى الإضمحلال والفتناء ، مما مهد السبيل للتوسع الفاطمي صوب الشرق ، وفعلا خرج جيش عظيم من القيروان عام ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر لفتح مصر ، قبلخ مصر ودخلها في منتصف شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، واختط جوهر القاهرة ، وبني الأزهر ، وأرسل الجيوش إلى الشام ، ودخل المعز القاهرة في منتصف رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، واتخذها عاصمة لملكه الواسع الذي يسير من المحيط الأطلسي إلى الفرات ، وبذلك صار المعز أكبر حاكم لأعظم إمبراطورية إسلامية عرفها القرن الرابع ، وظل في مصر حتى توفي عام ٣٦٥ هـ ، وخلفه على العرش ابنه العزيز .

هذا خلاصة التاريخ السياسي لعصر المعز الفاطمي ، الذي كان كله عصر كفاح وجلاء ، للفاطميين فيه أروع الذكريات وأجمل الانتصارات ، وقد شاهد ابن هاني كثيرا من هذه الأحداث التاريخية العظيمة ، واتصل بالمعز خلالها اتصالا وثيقا ، ونظم فيها كثيرا من أروع قصائده وأعظم آياته ، وتغنى بمجد الدولة ، وناضل عنها خصومها السياسيين ، فلنتحدث إذأ عن التاريخ الأدبي لابن هاني في هذه الفترة فهو وحده صورة واضحة لعصر المعز ، ولأحداثه التاريخية الحافلة .

ابن هاني شاعر الخليفة والدولة

لم يسكن ابن هاني في بلاط المعز شاعر الترف والنعيم الذي يستغرق في ملذاته وشهواته ، ولا شاعر الفن الخالص الذي ينظم الفن للفن ، دون أن يلقى نظره على الحياة العامة ، ودون أن يستمع لضجيجها ، ودون أن يتحدث نفسه بأن يسكون فنه صورة للحياة التي يعيش فيها والأحياء الذين يقومون بأداء رسالتهم في الحياة وفي تاريخ الإنسانية عامة .

لأنما كان شاعر الحياة بأوسع معانيها ، كان شاعر الخليفة ، والشاعر السياسي لدولة الخلافة الفاطمية ، ينطق بمجدها ، ويتحدث عن عظمتها الروحية والسياسية والحربية ، وكان يجد في عظمة المعز وعصره مجالا فسيحا ينظم الشعر فيه .

نعم إن قصائده كانت في أول اتصاله ببلاط المعز تدور حول إثبات وجود الشاعر والتمكين لنفسه ولشخصيته في الدائرة ، وتصوير آلامه والخطوب التي احتملها ، وشكر أيادي الخليفة التي تغدق عليه المال والعطاء ، ولكنها مع ذلك كله لم تخل من الحديث عن مجد الخلافة والدولة وعاهلها العظيم . وفي انتصارات الفاطميين الحربية والبحرية على الروم عام ٣٥١ هـ إلى عام ٣٥٤ هـ ، نظم ابن هانيء كثيرا من القصائد الرائعة التي صور فيها هذه الانتصارات الباهرة بأبلغ تصوير ، ثم كان فتح مصر عام ٣٥٨ هـ فألهم الشاعر بآيات ساحرة من القريض ، ثم نظم ابن هانيء بعد ذلك قصائد هي صورة صادقة لما تلا ذلك من أحداث حتى وفاته عام ٣٦٢ هـ .

وأصبح ابن هانيء في هذه الحقبة ، أي من عام ٣٥٠ هـ إلى عام ٣٦٢ هـ ، شاعر الخليفة بما كان ينظمه في مدحه من آيات الشعر الخالد ، وشاعر الدولة الذي وقف نفسه وفنه وشاعريته ، على الازدياد عنها ، والاشادة بمجدها وأيامها ، وبطولة جيشها ، وانتصارات أسطولها الباهرة ، واحتل في دولة المعز مكانا لم يحتله سواه من الشعراء ، وصار حديث الناس في المحافل العامة والخاصة ، كما صار شعره أنشودة في كل فم ، وأغنية على كل لسان ، وحفل به الشيعة الفاطميون ، وأولوه عنايتهم وإعجابهم البالغ ، وكان لقصائده في الممز وأهل بيته العلوى منزلة خاصة في الأدب والتاريخ لأنها سجلت أهم مظاهر الانتقال في حياة الدولة الفاطمية ، وصورت الكثير من عقائد الفاطميين ، وتقديسهم للخلافة وعاهلها ، فوق مكاتبتها الأدبية الممتازة ، وما امتازت به من الروعة والقوة وللدالخصومة ، وقوة العقيدة وحرارة الإيمان واشتعال العاطفة ، فوق طموح الشاعر واعتداده بفنه وشخصيته فيها ، فضلا عن أنها تمثل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والعقلية والدينية والأدبية في عصر المعز .

وبعد فقد كان ابن هانيء في هذه الفترة العظيمة التي قضاها في بلاط المعز شاعر الخليفة ، والشاعر السياسي لدولته الفتية ، وشاعر العقيدة الفاطمية بمبادئها الروحية وآرائها السياسية ومعتقداتها الدينية ، وصارت شخصيته في هذا العهد أظهر شخصية بين الأدباء والشعراء وبين رجال الدولة والسياسة ، وأغدق عليه المعز المال إغداقا ،

وحسبك أن نونته وحدها قد كافأه المعز عليها بخمسة عشر ألف دينار ، ولنتنقل بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من التحليل الأدبي لبعض قصائد الشاعر في هذه الفترة الحافلة .

معزيات ابن هاني

« ومعزيات ، ابن هاني هي قصائده التي أنشدتها المعز ، والتي بينا مكانتها في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع ، وهي ثروة أدبية ضخمة ، ومجد أدبي كبير لابن هاني وفنه .

لأستطيع أن أحال كل هذه القصائد المعزيات ، التي تبلغ إحدى وعشرين قصيدة ، في هذه الفصول الموجزة ، وإنما أحال قصيدتين منها أو ثلاثا لنرى مدى آثارها الأدبية والتاريخية الكبيرة ، وربما دعا المقام إلى الإلمام بها أكثر من ذلك .

من هذه القصائد همزيتة التي هي أول قصيدة في ديوان الشاعر ، مدح بها المعز وهنائه بشهر رمضان ، وقد بدأها بغزل ظهر في مطالعه بمظهر البداوة التقليدي في الغزل فصور الشاعر عزة قوم حبيبتة ، وغاوم في الغيرة عليها ، وأشار إلى ذكريات التلاق ومآسى الفراق ، وإلى بعض مظاهر الجمال في خلقها ، ثم خلص من ذلك إلى نفسه وإلى مدح الخليفة ووصف عقيدة الفاطميين فيه .

ثم وصف أسطوله وقوته ، وسطوته على الأعداء ، ويقول في هذه القصيدة .

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعله ما كانت الأشياء
من شعلة القبس التي عرضت على موسى وقد حارت به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالة من جوهر الملكوت وهو ضياء
من حيث يقتبس النهار لمبصر وتشق عن مكنونها الأنبياء
ليست سماء الله ماترونها لكن أرضا تحتويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الإصباح والإمساء

ويستمر في الإشادة به ، مدفوعا بعقيدته الفاطمية ، مسائرا لإيمانه الاسماعيلي ، الذي يرى أن الإمام ، أو قل الخليفة ، سبب وجود المخلوقات ، وأنه من أكلها جسدا وروحا ، وأنه متصف بكل صفات النبي ﷺ ، وهو معصوم عصمة الأنبياء وأنه مظهر نور الله ، ويصح اتصافه بصفات الله ، ويشرق نورها عليه وفيه ، وأن معرفته وطاعته واجبة على جميع الناس ، وأنه من معدن الرسالة التي خلقت قبل الخلق ، وانتقلت خلال القرون حتى ظهرت في مظهرها العظيم في شخصية محمد صلوات الله عليه ،

إلى غير ذلك من مظاهر تقديس الشيعة لآل البيت ولأئمتهم العلويين ، هذا التقديس الذي ارتفع إلى مستواه الروحي العظيم ، والقصيدة فياضة بروح اليقين والعقيدة . ومن الجدير بالذكر أن شعر ابن هانيء في المعز خاصة هو السجل الناطق بعقيدة الفاطميين ، وبآرائهم في الخلافة وتراثها ، وشخصية الخليفة ونفوذه الروحي والديني ، فتراه يقول في هذه القصيدة :

هذا الشفيع لأمة يأتي بها وجدوده لجدودها شفعا
هذا أمين الله بين عباده وبلاده إن عدت الأمانا
هذا الذي عطفت عليه مكة وشعابها والركن والبلحاء
هذا الأغر الأزهر المتألق المتدفق المتبلج الوضاء
فعليه من سماء النبي دلالة وعليه من نور الإله بهاء
ويقول في المعز من قصيدة أخرى :

هذا ضمير الإنشأة الأولى التي بدأ الإله وسرها المكشون
من أجل هذا قدر المقدور في أم الكتاب وكون الكون
وبذا تلقى آدم من ربه عفواً وفاء ليونس البتطين
ويقول :

هذا الذي ترجى النجاة بحبه وبه يحط الإصر والأوزار
هذا الذي تجدى شفاعته غداً حقاً وتحمده أن تراه النار
من آل أحد ، كل فخر لم يكن ينمى اليهم ليس فيه فخر
ويقول :

ماشئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فائت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأخبار والأخبار
شرفت بك الآفاق وانقسمت بك الأرزاق والآجال والأعمار
ويقول فيه :

من يشهد القرآن فيه بفضلته وتصدق التوراة والإنجيل
فأفخر من إنشائك الفردوس إن عدت ومن إحسانك التنزيل
وأرى الوري لغوا وأنت حقيقة ما يستوى المعلوم والمجهول

إلى غير ذلك ، مما تراه واضحاً في كل قصيدة من معانياته ، التي صور فيها عقيدته

الفاطمية أبلغ تصوير ، وأظهر مبادئها بكل وضوح وجلال ، وقد كانت أبياتها هذه وما شابهها مجالا كبيرا لخصوم الفاطميين ، الذين غضوا من شعر ابن هانيء وأزروا به ، ورموه بالكفر والبهتان ، وساموه الخسف ، لا شيء إلا لأنه صور في شعره عقيدته ، وتحدث في فنه عن آرائه ومبادئه التي يؤمن بها كل فاطمي .

وللذين يرمون الشاعر بالكفر لإسرافه في مدح خليفته المعز رأيهم الديني ، ولهم أن يتحدثوا عنه من الناحية الدينية كما يريدون ، وإن كان عليهم أن يدركوا أنهم لا يرمون بهذا ابن هانيء وحده ، بل يشركون معه كل فاطمي يدين بالاخلاص لعقيدته ، وهل كان ابن هانيء بين الفاطميين إلا رجلا منهم ، يتحدث عن عقيدته بلغته ولغة قومه التي يعرفونها ، ويترجم شعوره وشعورهم بدون مغالاة أو تكلف ، ويصور جانباً من آرائهم في الخلافة والخليفة كما يعرفون ويعتقدون .

ولكن الذين يريدون أن يفضوا من قيمة الشاعر الأدبية ، ومكانته بين الشعراء من أجل ذلك ، يسومون الأدب سوء رأيهم وما إليه يذهبون . لان العقيدة لا يصح أن يحكمها ناقد نزيه في الفن ، لان تحكيمها جور في الحكومة الأدبية ، وإسراف في الفصل في مكانة الشعراء ، وإلا لاسقطنا الشعر الجاهلي أو الشعر الغربي الحديث من مجال التقدير الأدبي ، لانه أدب قوم يخالفوننا ونخالفهم في العقيدة والرأي .

لقد مضى الزمن الذي كان ترفع فيه الحكومة الأدبية على أساس العقيدة ، والذي كان يستبيح فيه بعض النقاد الغض من شأن أبي نواس لانه كان يقول :
وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق
أو الزراية بالمتنبى لانه يقول :

يتشفن من فني رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

نعم ، لقد مضى ذلك الزمن الماضي ، ورأى نقاد الأدب عدم تحكيم العقيدة في تقدير الفن ، ووزن قيم الشعراء ، وتحديد مكانتهم الأدبية ، ونعى الجرجاني في وساطته على هؤلاء ، وقرر أن الدين بمعزل عن الشعر ، وأن منزلة الشاعر الأدبية لا يبوأه إلا خصائصه الفنية (١) .

وبعد فابن هانيء أشد إيماناً من هؤلاء النقاد الذين يجورون عليه ، وهو غني بإيمانه عن أن يشيد هؤلاء به وبدينه .

ولكن الحقيقة يجب أن تأخذ مكانها من البحث الأدبي ، فيعرف الناس شخصية ابن هانيء من جديد ، ويفرقوا بين شخصيته الفنية وعقيدته الفاطمية ، وعليهم ألا

يجعلوا ابن هانيء وحده محور خصومتهم وسخطهم ، لاشيء إلا لأنه صور آراء
الفاطميين وعقيدتهم في شتى نواحي الحياة ، والتي كان يؤمن بها معهم
أشد الايمان .

ومن معزيات ابن هانيء قصيدته التي مدح بها المعز ، وذكر الفتح الذي كسبه
جيشه في صقلية ، والذي قتل فيه دمنويل ، واجتاز المسلمون بعده البحر إلى
جنوب إيطاليا ، ولا بد أن هذا الفتح هو النصر الكبير الذي تم قبيل سنة ٣٥٤
هـ ... ومطلعها :

يوم عريض في الفخار طويل ماتنقضى غرر له وحجول
ويقول فيها :

سل رهط منويل وأنت عذرتة في أي معركة ثوى منويل
ويشيد بهذا النصر إشادة بالغة طويلة ، إلى أن يختمها بقوله :
شهد البرية كلها لك بالعلي إن البرية شاهد مقبول
والقصيدة طويلة في جودة وسحر وجمال وبلاغة .

وهناك قصيدة أخرى نظمت أيضا في تلك المعارك الحربية بين المسلمين
والروم ، ومطلعها :

قامت تميمس كما تدافع جدول وانساب أيم في نقا يتهيل
ويقول فيها في المعز :

فرغ الاله له بكل فضيلة أيام آيات الكتاب تنزل
هذا الذي تتلى ما أثر فضله فينا كما يتلى الكتاب المنزل
موف يرد على الليالي حكمها فسكائه بالحادثات موكل
ويقول :

نصر الاله على يدك عباده والله ينصر من يشاء ويخذل
ان يستفيق الروم من سكراتهم إن الذي شربوا رحيق ساسل
ويتهكم ببني العباس الذين خذلوا في ثغور الشام أمام الروم ويستمر في الاشادة
بانتصار المعز على الروم في صقلية إلى أن يقول :

ذا المجد لا يبغي سواه وذا الندى يبنى لآل محمد ويؤثل
لى مهجة ترفض فيك تشيعاً حتى تكاد مع المدائح تهمل
والقصيدة جيدة يشيع فيها الايمان وحرارة العاطفة ، ويتجلى من روحها أنها نظمت
في الاشادة بالنصر الفاطمي الكبير على جيوش الروم وأسطولهم عام ٣٥٤ هـ .

وله قصيدة أخرى في الاشادة أيضا بهذه الانتصارات الكبيرة في صقلية وجنوب إيطاليا ، بدأها بالغزل ثم خلاص إلى مدح المعز فأفاض في وصف بأسه وقوته الحربية ونكايته بالروم . ويقول :

إذا ذكروا آثار سيفك فيهم فلا القطر معدود ولا الرمل محسوب
وفيما اصطلوهم من حرب بأسك واعظ وفيما أذيقوا من عذابك تأديب
ويتهكم ببني العباس وبضعفهم أمام الروم في الشرق ، وببني أمية في الغرب ،
تهكمه بالروم ، ويتفائل للمعز ودولته بملك العالم الاسلامي إلى أن يقول :
وأنت معد وارث الارض كلها وقد ختم مقدور وقد خطت مكتوب
ثم يقول :

إذا مامدحناكم تضيع بيننا وبين القوافي من مكارمكم طيب
فإن أك محسودا على حرمه حكم فغير نسكير في الزمان الا ما جيب
أفي كل عصر قلت فيه قصيدة تلى لاهل الجبال لوم وتثريب
وما غاظ حسادي سوى الصديق وحده وما من يجا يا مثلي الا فك والحبوب
وما قصد مثلي في القصيد ضراعة ولا من سلالى فيه حرص وترغيب
أبن موضعي فيهم ، ليفخر غالب يمين بسياه ، ويدسحر مغلوب
وقدأ كثروا فاحكم حكومة فيصل ليعرف رب في القريض ومربوب

والقصيدة طويلة جيدة ، نظمت كسابقاتها في انتصارات المعز على الروم في صقلية ، ووجد الشاعر فيها مجالا للسخرية بالعباسيين والأمويين ، وتفاءل للدولة الفاطمية بالمجد وسيادة العالم الاسلامي ، ويظهر من روحها الأخيرة أن الشاعر كان معرضا لحملات خصومه من الشعراء ، فطلب من المعز أن ينصفه منهم ، ويحكم بينهم وبينه ، عليه أوله ، وقد حكم المعز له لا عليه ، فأثره واصطفاه ، ورفع منزلته لديه وأصبح ابن هانيء في بلاطه شاعر المعز والدولة ، ورب القريض في المغرب الفاطمي . وهناك ظاهرة واضحة في هذه القصيدة وهي روح التأثر الفني بالمتنبي وفنه ، مما لا داعي لبسط الحديث فيه .

فإذا ما تركنا هذه المرحلة التاريخية في حياة الشاعر والدولة ، وجدنا قصيدة تصور هذا العهد التاريخي الذي تلا عام ٣٥٤ ، ومطلع هذه القصيدة :

تقدم خطي أو تأخر خطي فإن الشباب مشى القهقري
خلاص فيها من ذكر شبابه الراحل ، ومشيبه النازل ، وذكريات لهوه وصباياته

وهو اه وحبه ، وشغفه بالصيد على الخيول الكريمة التي يصفها وصفا ممتعا ، خلاص من ذلك كله إلى الاشادة بالمعز ، إلى أن يقول :

فأهون علينا بسخط الزمان إذا ما رأنا بعين الرضا
هو الوارث الأرض عن أبوين أب مصطفى وأب مرتضى
فما لقريش وميراثكم ؟ وقد فرغ الله مما قضى
ويستمر في تقرير حق الفاطميين السياسى دون الأمويين فيقول :

عجبت لقوم أضلوا السبيل وقد بين الله سبل الهدى
أففقوا فما هى إلا اثنتان فإما الرشاد وإما العمى
وما خفى الرشاد ولكنما أضل الخلوم اتبعاع الهوى
وما خلقت عبثا أمة ولا ترك الله قوما سدى
لكل بنى أحمد فضله ولكنك الواحد المجتبى

والقصيدة تؤكد لحق الفاطميين فى الخلافة ، ونضال سياسى ضد الأمويين ، وهى تصور سياسة المعز واتجاهاته بعد عام ٣٥٤ هـ .

وقد مكث الشاعر نحو أربع سنوَاب ينظم الشعر فى المعز ، يضمّنه عواطفه نحوه ونحو دولته ، وآماله الواسعة بملك الفاطميين العالم الاسلامى ، وقصائده فى هذه الفترة خالية من ذكر المعارك الحربية والانتصارات الظافرة ، لأنه لم تقع فيها معارك ولا أحداث تاريخية كبيرة ، ومن بين قصائده هذه قصيدة مدح بها المعز وهنأه بعيد الفطر ، ووصف موكبه إلى المصلى ، وجلالة هذا الموكب ، والمظلة التى كانت تظله ، والخيول التى امتطأها ، إلى آخر ما ألم به الشاعر فى هذه القصيدة من معان وأغراض ، ومطلعها :

قن فى ما تم على العشاق ولبس الحداد فى الأحداق
ومنحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمع طليق ومهجة فى وثاق
حاربهم نواب الدهر حتى آذنوا بالفراق قبل التلاق
ويقول فيها فى المعز :

ليس العيد منه ما يلبس إلا يمان من نصل سيفه البراق
وجلا الفطر منه عن نبوى أبيض الوجه أبيض الأخلاق

والقصيدة صادرة عن ذوق مترف يناسب حياة الشاعر المترفة فى ظلال الخليفة

بعد أن ألقى الأعباء عن كاهله ، ووطدت مكائنه في الدولة ، وهي تصور عهد
الاستقرار السياسي الذي انتهت إليه دولة المعز ، بعد توطيد دعائمها في المغرب ، وبعد
انتصاراتها العظيمة على الروم في صقلية والبحر الأبيض ، أي بعد عام ٣٥٤ هـ .
ثم يدخل عام ٣٥٨ هـ ، فتبتدى مرحلة جديدة في حياة الفاطميين . وكانهم
السياسي ، ويسير جوهر بجيش لجب لفتح مصر فيودعه ابن هاني متمنيا له التوفيق
في أغراضه الحربية والسياسية الكبيرة ، فإذا ما عاد من تشييع جوهر وجيشه العظيم
دخل على المعز ينشده آية من آياته ، ينشده قصيدته التي مطلعها :

سقتني بما مجت شفاه الأراقم وعاتبنى فيها سفار الصوارم
بدأها بالغزل التلميذي ، ثم خالص منه إلى أناشيده في المعز فيقول :
فشيحت جيش النصر تشييع مززع وودعته توديع غير مصارم
ثم يذكر الجيش وبنوه بقائده تنويعها بالغا .

وبعد قليل يصل إلى المعز نبأ فتح مصر على يد قائده جوهر ، فيصور ابن هاني
الفتح وأنباءه ونتائج السياسة تصويراً باهراً في قصيدة بالغة نهاية الروعة والسحر
والبلاغة ، وهي المثل الأول لقوة العقيدة في نفس الشاعر ، ولأثر هذه العقيدة في
فنه الشعري الموهوب ، ومطلعها :

يقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟ فقل لبني العباس : قد قضى الأمر
وقيل إن الشاعر بدأها بدعوة المعز إلى فتح بغداد :
تجهز إلى بغداد قد فتحت مصر وأنجز صرف الدهر ما وعد الدهر
تقول بنو العباس هل بلغ المدى فقل لبني العباس قد قضى الأمر

وهو يدل على طموح الفاطميين السياسي أبعد غايات الطموح ، ويسترسل ابن
هاني في قصيدته استرسالا جميلا ، فيصور الفتح وأثره ومداه وما ترتب عليه من
نتائج ويقرر حق الفاطميين في تراث الرسول ، ويذود عنهم خصومهم السياسيين .
ويصف الجيش الفاتح ، ودخوله الاسكندرية ، ورسول القاهرة إلى جوهر ، ثم سيره
إليها ، وقضائه على الدولة الإخشيدية ، ويدعو الشاعر العالم الاسلامي إلى أن يستغل
بلواء الفاطميين ، وأن يدخل في نطاقهم السياسي ، وإلا فالويل لمن يقف في ضيق
السيل المنهمر ، ويتهم بنو العباس إلى أن يقول :

ألا تلسم الأرض العريضة أصبحت وما لبني العباس في عرضها فتر
فقد دالت الدنيا لآل محمد وفد جرت أذيالها الدولة البكر

ويشيد بالمعز ويده على العلويين :

من انتاشهم في كل شرق ومغرب فبدل أمنا ذلك الخوف والذعر
فكل إمامي يجيء كأنما على خده الشعري وفي وجهه البدر
ويبشر بهذا الفتح العالم الاسلامي ، لا سيما قلبه الخافق ، البيت المحرم ، الذي
يراه عما قريب سيكون في قبضة المعز وسلطانه ، إلى أن يقول :

حبيب إلى بطحاء مكة موسم تحي ومعدا ، فيه مكة والحجر
ويصور آثار الفتح ، ويشيد بالخليفة ، ويهنئه به ، في حرارة وقوة إيمان ،
ويصف الأمن والعدل الذين سادا مصر على يد جوهر ، وينوه بجوهر وأعماله ومجده
وولائه ، إلى أن يقول :

رضينا لكم يا أهل مصر بدولة أطاع لكم في ظلها الأمن والوفر
لكم أسوة فينا قديما فلم يكن بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر
إلى أن يقول :

ألا إنما الأيام أيامك التي لك الشطر من نعماتها ولي الشطر
والقصيدة من أروع شعر ابن هاني ، ومعجزة فنه الخالد

ولما وطد الفاطميون مكاتهم في مصر عزموا على التوغل في الفتح لأخذ الحجاز
والشام والعراق ، ويصور ابن هاني ذلك في قصيدة له ، أشار فيها إلى اندفاع الفتح
الفاطمي ، وسيره في طريقه دون هوادة ، وبشر الشرق بالمستقبل المرتقب على يد
الفاطميين ، وحفز عزيمة المعز لفتح العراق والسير إليها ، وأخذ الحجاز من أيدي
العباسيين ، ويقول فيها :

فتربصوا فآله منجز وعده قد آن للظلماء أن تتكشفوا
هذا المعز ابن النبي المصطفى سيذب عن قبر النبي المصطفى
وكأنني بلواء نصرك خافقا قد حام بين المروتين ورفرفا
والقصيدة طويلة جميلة ، وتاريخها الأدبي يمكننا أن نحدد له عام ٣٥٩ هـ .

وفي عام ٣٦٠ هـ قضى المعز على ابن الخزر الثائر في المغرب ، والذي نقض عهد
الطاعة للخلافة ، وعاث في الأرض فسادا نحو عامين ، ولما قتل جاس المعز يستقبل
تهاني رجال دولته ثلاثة أيام ، وكان من بين هذه التهاني قصيدة ابن هاني التي مطلعها :
كدأبك ابن نبي الله لم يزل قتل الملوك ونقل الملك والدول
ذكر فيها مصرع الثائر ، وصور الاستقرار السياسي للدولة في المغرب بعد القضاء

على ثورته ، وأشاد بالمعز وولى عهده ، إلى أن يقول :
 ليعقد التاج هذا اليوم مفتخرا إن كان توج يوم سائر المثل
 فيه الربيعان : من فصل الربيع ومن وقائع النصر تشفى من جوى الغل
 والقصيدة طويلة ، تقارب المائة مع جودة وسحر ، وهى كسابقاتها دعاية قوية
 للدولة ومبادئها .

وفى عام ٣٦١ هـ انتصرت جيوش المعز على القرامطة فى الشام ، وبلغ هذا النصر
 المعز ، فنظم ابن هانىء فيه قصيدته :

ما شئت لأماشات الأقدار فاحكم فأننت الواحد القهار
 وكأنا أنت النبي محمد وكأنا أنصارك الأنصار
 وهى قصيدة قوية مشرقة الديباجة . ووصف فيها الشاعر جيش المعز وانتصاره
 فى « قراقس » بالشام على القرامطة ، ووصف المعركة والخيال التى اقتحمتها ، والأبطال
 الذين كان لهم شرف النصر فيها ، وأشاد بالمعز إشادة ساحرة ، ونافح عن حق الدولة ،
 وزاد عنه أعداءها من العباسيين ، وهى على أى حال من عيون الشعر ، وتحتل مكانها
 الممتاز فى فن ابن هانىء ، وقد نغم كثير من الناس على مطلعها ، ولكن الشاعر كان
 كما تمليه عقيدته عليه ، وفى آخرها يقول للمعز إن مصر صارت محسودة منذ أن
 صرت قطينها :

ها إن مصر غداة صرت قطينها أخرى لتحسدها بك الأقطا
 ولكن كيف ذلك مع أن ابن هانىء قتل والمعز سائر فى طريقه إليها عام ٣٦٢ هـ
 ولما يبايها بعد ؟ قد يكون الشاعر أراد غداة صرت مليكها أو حاكمها مثلا ، وليس هذا
 بعيد ، بل هو أقرب من أن نذهب إلى أن البيت منتحل على الشاعر وعلى الشعر ، أو إلى
 أن القصيدة نظمت والمعز سائر فى الطريق .

وبقيت من « معزيات » ابن هانىء قصيدة طويلة جدا ، تبلغ مائتى بيت ، وهى
 أطول قصائد الشاعر ، وقد قيل إنه نظمها وبعث بها إلى المعز بالقاهرة وهو مقيم
 بالمغرب ، وأنها آخر قصائده . . ومطلعها :

أصاغت فقلت : وقع أجرد شيطم
 وقد نقد ابن رشيق هذا المطلع فى عمدته (١) ، والقصيدة يبدوها الشاعر بالغزل
 ثم يخلص إلى المعز ومدحه ، ووصف جيشه وسيادته وبطواته ومحتده العريق ، إلى

أن يقول :

ألا إنما الأقدار طوع بنانه فخاربه تحرب أو فساله تسلم
وما التمع التاج المنفصل نظمه على ملك منه أجل وأعظم
ولا عجب أن كنت بالبطحاء خير متوج فذك بالبطحاء خير معمم
وأشهد أن الدين أنت مناره وعروته الوثقى التي لم تفصم
قصارك ملك الأرض لا ما يرونه من الحظ فيها والنصيب المقسم
ويستمر في تفاوله لدولة المعز بسيادة العالم الاسلامي ، ويصور حالة الشرق
وضعه ، واستبداد بني بويه بأمر الخلافة العباسية ، إلى أن يقول :

سوام رناع بين جهل وحيرة وملك مضاع بين ترك وديلم
ويهدد بني أمية بانتقام الفاطميين ، ويطلب من الخليفة أن يحسم داءهم ، ويستمر
في تهكمهم ، وفي الاشارة بآل البيت ، إلى أن يقول :

لئن كان لي عن ودكم متأخر فما لي عن التوحيد من متقدم
ولولا قطاين في قصي من النوى لما كان لي في الزاب من متلوم
يقول : لولا أهلي بالزاب لما كان لي دائما مستقر سوى مستقركم . .

وعندي على بعد المزار ونأيه قصائد تترى كالجمان المنظم
إذا أشاءت كانت لبانة معرق وإن أعرفت كانت لبانة مشم
تطاول عن أقدار قوم جلالة وتصغر عن قدر الامام المعظم
ثم يقول :

ولما تلقتك المواسم آنفا تربصت حتى جئت فردا بموسم
ليعلم أهل الشرق والغرب أنني بنفسى لا بالوفد كان تقدمي

والقصيدة قوية جميلة مبدعة ، وأستبعد أنها أرسلت للمعز في مصر ، لأن المعز
وصل الاسكندرية في شعبان ، والقاهرة في رمضان عام ٣٦٢ هـ ، والشاعر كان مصرعه
في رجب من هذه السنة ، فإذا أن يكون ابن هانيء أرسلها بعد فراقه المعز وقبل أن
يصل المعز مصر ، وإذا أن يكون قد أرسلها اليه والمعز في برقة يرتب أمور الدولة
قبل رحيله إلى القاهرة ، وقد دخل المعز برقة في شوال عام ٣٦١ هـ ، ولم يرحل عنها
إلا بعد أربعة أشهر أو يزيد ، واعتذر الشاعر للمعز في القصيدة عن عدم مصاحبته
له في رحلته إلى مصر بأن أهله تركهم في الزاب ، ولولا ذلك لما كان له في الزاب أمل
ولا حاجة ، وذلك معقول غير بعيد ، ولا يبعد أيضا أن يكون الشاعر نظمها وهو

مسافر إلى الزاب لزيارة أهله وأصدقائه ، وأرسلها إلى المعز في عاصمته بالقيروان قبل أن يرحل إلى مصر ، وذلك أيضا غير بعيد .

وأخيرا فهذه أهم معربات ابن هاني الساحرة ، التي نظمها في الإشادة بالمعز ودولته وفي الدفاع عن حق الفاطميين في الخلافة ، ومناضلة أعدائهم من الأمويين والعباسيين وسواهم من النافرين والروم ، وهي قصائد تحتل في الأدب العربي مكانها الرفيع .

بين الشاعر ورجال الدولة

وفي أثناء هذه الحقبة التي قضها الشاعر في بلاط المعز اتصل بكثير من الأمراء ورجال الدولة ، ومدح بعضهم بقصائد جميلة ، ومن هؤلاء :

١ - الأمير طاهر والأمير عبد الله إخوة الخليفة المعز الفاطمي فقد مدحهما بقصيدته :

امسحوا عن ناظري كحل السهاد وانفضوا عن ضجعي شوك القتاد
أشاد فيها بالأميرين إشادته بالفاطميين وبطولتهم وقوتهم ، ويذكر فيها شعره فيهم :

جوهر آليت لا أوقفه موقف الذلة في سوق الكساد
لا أرى بيت مديح شارد في سواكم غير كفر وارتداد
ولقد جئتم كما قد شئتم ليس في فخركم من مستزاد

والقصيدة جميلة ، ويظهر من قراءتها أنه ناب فيها عن يحيى بن علي ، في شكر الأميرين ، على يد أسدياها إليه ، ولعله نظمها في الفترة التي قضها في الزاب .

٢ - أبو الفرج الشيباني ، وهو صاحب أعمال الصعيد ، ومستخر جبل أوراس بالمغرب عام ٥٣٤ هـ ، كما يقول الشاعر ، ويتجلى من القصيدة الخامسة في ديوان ابن هاني أن أبا الفرج كان من ولاية الصعيد في عهد الاخشيديين ، ثم سار إلى الفاطميين وكان قائداً في حملة جوهر على مصر ، ومرشدا للجيش الفاتح ، ومن هذه القصيدة :

أنت السبيل إلى مصر وطاعتها ونصرة الدين والإسلام في حجاب
أأست صاحب أعمال الصعيد بها قدما وقائد أهل الخيم والطنب
وكم تخلف في أوراس من سير سارت بذكرك في الأسباع والكتب
ثم يصف مساعدته لجوهر في فتح مصر ، إلى أن يقول :

فقد سرى بسراج منك في ظلم وقد أعين بسيل منك في صلب

وإذا كان معنى ذلك أنه يمدحه بأنه رائد جوهر إلى مصر ، فتكون هذه القصيدة

قد نظمت بعد عام ٥٣٥ هـ .

ولابن هانيء فيه قصيدة أخرى ، أكد فيها صلوات النسب البعيد بينه وبين هذا القائد واسترسل في مدحه والتنويه به ، إلى أن يقول :

ومن مواهبه الرايات خافقة والعاديات إلى الهيجاء تستبق
وله فيه كذلك قصيدة لامية جميلة ، يقول فيها :

فنى كل سعى من مساعيه قبله يصلى إليها كل مجد ونائل
ويقول منها فى قومه :

أولئك من لا يحسن المجد غيرهم ولا الطعن شزرا بالرماح الدوابل
فلم يدر إلا الله ما خلقوا له ولا ما أثاروا من كنوز الفضائل
شبهه بأعلام النبوة ما أرى لهم فى الندى من معجزات الشماثل
وينوه بالشيباني كذلك فى قصيدته الياثية التى يقول فيها :

ركن لعمر ك من أركان دولتهم وعروة من عرى الدين الحنيفى
شيعى أملاك بكر إن هم انتسبوا ولست تلقى أدبيا غير شيعى

٣ - جعفر بن فلاح القائد الفاطمى الذى قتل فى أثناء نزاله للقرامطة بالشام عام ٥٣٩ هـ ، وفى ديوان الشاعر عدة أبيات فيه .

٤ - أفلح الناشب عامل برقة ووالها للهمز ، وله فيه قصيدة نونية منها :

حيوا جلالة قدره فكأنما حيوا أمين الله فى الأيوان
ومن هذه القصيدة نعلم أن أفلح كانت الدولة وكلت إليه بعد فتح مصر القضاء
على ثورات آل قره من عرب البحيرة ، فنجح فى ذلك ، نجاحه فى توطيد دعائم الملك
والأمن فى برقة ، ولعل هذه الثورات قامت بتحريض العباسيين عند قدوم جيش
القرامطة إلى مصر عام ٥٣٩ هـ ، فيكون ذلك هو تاريخ هذه القصيدة .

٥ - أبو عبد الله الحسين الكاتب صديق ابن هانيء ، ومدحه بقصيدة صغيرة
ذكر فيها بلاغته ، ومنها :

تمشى البلاغة خلفكم وأمامكم ويطيب ما تطؤون بالأقدام
وأخيرا ، فهذا ما أسفر عنه البحث الأدبى فى تراث الشاعر الفنى ، وحياته الحافلة
وهو على أى حال يوضح لنا الجوانب المجهولة فى حياة ابن هانيء التى نسبها
أو تناساها التاريخ .

مصرع الشاعر

وبعد حياة حافلة عظيمة ، خرج الشاعر مع المعز ، يودعه في سفره إلى مصر عام ٥٣٦٢ هـ ، وهو على عزم اللحاق به ، بعد أن يعود إلى أهله ، فيبشّهم للسفر معه إلى القاهرة : وبعد أن رحل المعز وودعه الشاعر ، تأمر عليه بعض خصومه من رجال السياسة والأدب والشعر ، وأسفرت هذه المؤامرة عن اغتيال الشاعر لسبع لياليتين من رجب عام ٥٣٦٢ هـ ، وهو في سن الثانية والأربعين .

وبذلك انتهت حياة شخصية كبيرة ، لها أثر كبير في الجهاد السياسي والنضال العتيق ، الذي قام به الفاطميون العلويون ضد خصومهم السياسيين .

وطويت حياة رجل كان الأثير العزيز عند المعز ورجال دولته ، وفقدوه أحوج ما يكونون إليه ، وأشد الناس حزنا وهلما عليه ، وختمت صفحة شاعر ممتاز وقف نفسه وفنه في سبيل الدفاع عن رأيه ومبادئه في الحياة .

ووصل نعيه إلى المعز وهو سائر في طريقه إلى مصر لحزن وجزع وقال : « لقد كنا نرجو أن نفاخر به أهل المشرق فلم يقدر لنا ذلك » ، ولكن حم القدر ، وحان الأجل ، ولكل أجل كتاب .

شخصية الشاعر

— ١ —

نشأ وعاش ومات ابن هانيء مجاهداً في سبيل عقيدته ، التي كان يؤمن بها من صميم قواده ، ويتخذها ديناً له في الحياة .

وكان هذا الجهاد الحافل في عصر الجهاد المظفر الذي قام به الفاطميون في المغرب ، كان يحول بين الشاعر وبين الله في الحياة .

كانت أخلاقه أخلاق الرجال الذين يعتزون بأنفسهم ومحتسدهم ، ويقدررون الواجبات الملقاة على كواهلهم في الحياة ، ويصورها لنا ابن هانيء في صورة نبيلة من السخاء والنبيل والوفاء والشرف وبعد الهمة والآتفة من الموبقات .

إني لآتف أن يميل بي الهوى أو أن يراني الله حيث نهاني

وغزل ابن هانيء التقليدي البريء ووصفه القليل للخمر ومجالسها وسقائها ، لا يصوران لنا ابن هانيء في مظهر ينافي هذا المظهر النبيل ، وإن كان خصوم الشاعر أذاعوا عنه — في حياته وبعد حياته — أنه كان صاحب لذات وهو ودعارة ، ولعلهم استندوا إلى آثاره الأدبية القليلة في الراج ومجالسها ، على أنها وحدها

لأنكفى لهذا الحكم الجائر الذى حكم به عليه المؤرخون ، فضلا عن أن ابن هانىء لم تكن أحاديثه عن صبايات الهوى أو نشوة الراح حديث الما جن المستهتر ، فوق أنها لا تنبع من أعماق قلبه ، و خلجات مشاعره ، إنما كان الشاعر مقلدا فى غزله و خمرياته . وكان يجارى فى هذه الناحية الفنية سواء من الشعراء .

لقد كان ابن هانىء فى شغل بنفسه وحياته وفضاله عن أن يحيا حياة المجنون واللهم ، كان رجل كفاح ، ورجل طموح ، فشغلته حياة الكفاح والطموح عن حياة اللذة والهوى والمجون .

ثم إن اتصاله بالمعز ، وهو الزعيم الدينى الأعلى للعلاويين ، وهو هو تقوى ونسكا وحرصا على الظهور بالمظهر الدينى اللائق به وبآل البيت ، كان ذلك أيضا مما ينأى به عن حياة اللهم والاستهتار والمجون ، وإذ رأى ابن هانىء فى اللهم راحة للنفس والفكر ، كما يقول ليحيى بن على ، فانما كان اتجاهه إلى اللهم البرىء ، والمتعة التى لا تبعده عما ألفه وشب عليه وتمسك به من تقوى وورع وجلال خلق ودين .

فحياة ابن هانىء الشخصية إذاً وكما يصورها لنا شعره كانت مثالا للسمو الخلقى ، والطهر النفسى ، والبعد عن شهوات الحياة وأطماعها .. ويدعم من ذلك مكانة ابن هانىء فى بلاط المعز وعند رجالات الدولة وعظماؤها وحسن تقديرهم إياه .

وشخصية الشاعر ، كانت سماتها الغالبة عليه ، الشعور بالنفس ، والاعتداد بالماضى الذى خلفه له الآباء والأجداد ، والبعد بنفسه عن حياة الرذائل والطمع الكاذب فى الحياة ، وكان يكمل هذه الجوانب كلها خلقه الطيب ، ووقاؤه النادر ، ونبل نفسه وصدوره ، فوق ثقافته وأدبه ، وشعره الذى كان يعتز به ابن هانىء كل الاعتزاز .

ثم نرى هذا الشعور المتغلغل فى أعماق نفس الشاعر ، مجده فى جهاده فى الحياة ، وفى كفاحه لخطوبها وشدائدها ، ومجده الذى ناله فى قصور الأمراء والقواد وعنه الخليفة المعز لدين الله .

كل هذه البواعث فى نفس ابن هانىء ، جعلت شخصيته فى الحياة التى يعيش فيها قوية ، واضحة الأثر ، لها تقديرها الأدبى عند العامة والخاصة من الناس .

وأبرز جانب فى شخصية الشاعر هو جهاده وكفاحه فى سبيل حياته وعقيدته .

كافح في شبابه وصدر رجولته ، ليعيش ، وليصل إلى ما كان يطمح اليه من آمال وأحلام ، فكلل جهاده بالظفر .

ثم كافح بعد ذلك وفي عصر اتصاله بالمعز على الخصوص في سبيل عقيدته الفاطمية والدفاع عنها وتمجيد أبطالها ، فكان لجهاده أكبر الأثر في نفس المعز ورجال دولته ، بل في حياة الدولة ومجدها ، وظفرت الدولة التي أيدها ظفرا لامثيل له في السياسة والحرب ، فشارك الشاعر خليفته المعز ثمرات هذا الظفر ، وعاش في مجد الحياة ونعيمها إلى أن مات .

وقصائد ابن هانيء في الدولة ورجالاتها كلها تنطق بهذا الجهاد الحافل الكريم ، وفيها كلها فكرة سياسية استحال عقيدة في صدر ابن هانيء ، عمل على دعمها ونشرها طول حياته بكل ما أوتي من قدرة وقوة .

وهذا الجهاد السياسي في سبيل العقيدة والمبدأ ، والذي وقف الشاعر عليه نفسه وفنه هو أبرز جانب في رسالة الشاعر في الحياة ، وهكذا عاش الشاعر طول حياته مؤمناً قوياً بالآيمان ، وسياسياً واضح المبدأ ، وشاعراً ساحر القصيد ، يدافع به عن الدولة ، ويشيد بمجدها وأيامها ودعاتها وخليفاتها ، وتكونت من آيمانه ، ووضوح مبادئه ، وسحر بيانه ، وقوته في شتى نواحيه الفنية ، العناصر الأولى للفن ابن هانيء الذي مثل رسالته في الحياة أبلغ تمثيل .

قلم يكن ابن هانيء إذاً رجل لذة وترف كما كان أبو نواس ، ولا رجل ثورة اجتماعية وفلسفة إنسانية كما كان المتنبي ، ولم يكن كذلك رجل فلسفة عقلية ، ولا ناقد اجتماعي مسرفاً في التشاؤم من الحياة وخطواتها البعيدة عن جادة الحياة كما كان المعري ، إنما كان رجل فكرة سياسية ، تتصل مبادئها بأصول الآيمان والعقيدة ، فكرس حياته لخدمة عقيدته والتمكين لها ، وتفاني في الدعاية لها والاشادة بها ، والتنويه بمستقبلها الباسم وغدها المنشود ، وفي نضال خصومها وأعدائها السياسيين .

ولقد نال ابن هانيء من التوفيق في حياته وفي سبيل أداء رسالته ما قلنا ناله شاعر قبله ، واستمد من هذا الظفر قوة ومجداً ومالاً ، عاش في ظلها إلى آخر شبابه وصدر رجولته ، إلى أن وافاه أجله ، ولقي ربه هادئاً مطمئناً راضى النفس مستريح الضمير .

على أن كثيراً ممن يقرأون شعر ابن هانيء يتخيلونه شاعر أمداح حسب ، استجدي بشعره الأمراء والقواد والمعز ، ويحسبون فنه فناً شعرياً خالصاً لا حياة فيه ولا روح ،

وهذا خطأ في فهم ابن هانيء وشعره ، وابن هانيء نفسه يرد على مثل هؤلاء الناس فيقول :

وما كنت مداحا ولكن مقوها يلبى إذا نادى ويكنى إذا استكنى
ويقول :

وما قصد مثلى فى القصيد ضراعة ولا من خلالي فيه حرص وترغيب
ويرى مدحه الهمز فرضا لازما عليه :

فرضان من صوم وشكر خليفة هذا بهذا عندنا مقرون
ويقول :

دانوا بأن مديحهم لك طاعة فرض فليس لهم عليه جزاء
والشعر فى رأيه جوهر كريم لا يوقفه مواقف الاستجداء :

جوهـر آليت لا أوقفه موقف الذلة فى سوق الكساد

وفى الحق أن ابن هانيء مغامر سياسى ، كانت تسير معه فى مغامراته دولة ،
ويؤيده ملك ، وكان لسانه دولة ، وسيفا وجيشا يذبان عن عقيدة ، وأناشيد تنطق
بالإيمان وحرارة اليقين وشتى معانى الحياة .

- ٤ -

ومذهب الشاعر فى الحياة كان مذهبا عمليا سار به إلى هذا التوفيق الذى كسبه
وعاش فى ظلاله بعد هجرته إلى المغرب ، وهو فى هذا بعكس المتنبي الذى كان يريد
أن يسير على ضوء ما يتمنى من مثل وآمال كبار ، فطمح فى الملك ، وخاصم الأمراء
والولاة ، وسار فى طريق آماله ، فإذا هى تتكشف عن سراب كسراب الصحراء ،
وعن فشل فيما نشده الشاعر من غايات وأغراض وأمان .

وفى شعر ابن هانيء ما نستطيع أن نجتمع منه فى عناء فى البحث ما يمثل رأيه فى
الحياة ، وسلوكه فيها .

الحياة ومتعها عند ابن هانيء سراب ، فالحب ضحكة وبكاء . والدهر ألفة وشتات ،
والناس ظاعن ومودع ، ومقيم يبكى على راحل ، والناس يبيكون من الدنيا على غير
طائل ، والعاجل المرجو كالآجل ، وأجلها الخشى كما جلها ، والأيام عون لكل وغد ،
بما هو مألوف لنفس العزيز .

أيها الصب لا ترع فالليالى فرحات تشوبها ترحات
هكذا الحب ضحكة وبكاء وكذا الدهر ألفة وشتات

وقد خاض الشاعر أحداث الليالي والأيام :

غرض تراماني الخطوب فذا قوس وذا سهم وذا وتر
فجزعت حتى ليس بي جزع وحذرت حتى ليس بي حذر
ومع هذه الآلام فقد عاش في طموح وإقدام وجد ، وطلب المجد من طريق
السيوف ، فوق طلبه بأدبه وقنه :

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف
وابتعد عن الذلة والهوان ، فذل العزيز لا يطاق :
إن ذل العزيز أفضح مرأى بين عينيه من لقاء الختوف
مؤمنا بأثر الجهاد في الحياة ، وبأثر الحظ فيها معا :
يارب حظ يشقى بأنحسه صاحبه ، وبسمعه يسعد
ومؤمنا بالخلق والكرامة ، والشرف والوفاء ، والهمة والعفة ، والمرءة ومودة
الأصدقاء وابن الجانب لهم :

وقد أذل للأخ الشقيق كذلة العاشق للمعشوق
ومع الجهاد في الحياة فقد كان يروح عن نفسه ببعض اللهو المباح :
فبالسعى للعليا يشاد بناؤها وفي اللهو أيضا راحة النفس والفكر
وحسبه من متع الحياة بريئها :

إني لآتق أن يميل بي الهوى أو أن يراني الله حيث نهاني
ولا يبالى بالفقر ، فالغنى شجن من الأشجان :
لا أرهب الاقتار بعد تيقني أن الغنى شجن من الأشجان
وهو لا يقف من المرأة إلا موقف التقدير :

لأمانتنا نصف أنسابنا وأكفاء آبائنا في العلى
وهذه الآراء متفرقة في شعره ، وهي اتجاه اجتماعي ، وحكمة عامة يطول بنا
البحث لو ذكرنا الكثير منها ، وهي على أي حال تصور نهج ابن هانيء في الحياة ،
وهو النهج العملي المستقيم البعيد عن صنع الخيال أو دنس اللؤم والهوان ، وكان لهذا
الاتجاه الواقعي أثره في نجاح الشاعر في حياته ، من حيث كان لاتجاه المتنبي أثره في
شقاؤه بالحياة ومنجره من المجتمع والناس .

الفن والشاعر

- ١ -

كان لبيئة الأندلس المترفة ، وحضارتها الزاهية في عهد الناصر ، وللنفاضة السياسية بين بغداد وقرطبة والمهدية ، كان لذلك أثره في ازدهار الأدب والشعر في الأندلس الوطن الأول للشاعر ، ثم كان لتنوع مظاهر الحياة والطبيعة في الأندلس أثر في تلوين الشعر بلون خاص ، شاع فيه الوصف ، ودقة التصوير ، وتنقل الخيال ، وسلاسة الأسلوب ، والتأنق في الأداء ، وأوحت هذه الحياة الشاعرة إلى الأندلسيين روح الشعر وإلهام القريض فنظموه فنا يتحدث عن البيئة ومشاهدها ، والعواطف وأسرارها ، والمجتمع وحياته ، والشعراء وحياتهم الخاصة التي كانوا يحيونها ، والآمال واللذات والمشاعر التي كانت تجيش بها نفوسهم ، وتحتلج بها صدورهم . وأصبح هذا الشعر يمثل جانبيين واضحين في الشعر الأندلسي : أحدهما طبيعة البادية التي كانت ما تزال نفوس العرب في الأندلس تحن إليها ، وتؤمن بها ، وتسير على نهجها في التفكير والمعرفة والأخلاق . والثاني طبيعة الحضارة التي كانوا يعيشون فيها ، والترف الذي يملأ حياتهم ، والجمال الذي كان يتيم قلوبهم ويسحر أبصارهم في كل واد وبقعة من بقاع الأندلس الغارقة في الشجر والسحر والجمال .

ويمثل هذا الاتجاه الفني في الشعر الأندلسي قبل ابن هانيء بقليل ، ابن عبد ربه أديب الأندلس وشاعرها ومؤلفها ، والمتوفى عام ٣٢٨ في عهد الناصر ، أي بعد ثمانية أعوام من ميلاد ابن هانيء . وقد حفل « العقد الفريد » لابن عبد ربه بشتى المقطوعات والقصائد الشعرية ، التي نظمها ، والتي صور فيها ألوان الجمال في بيئة الأندلس الساحرة ، والتي صيغت في أسلوب عذب جميل يكاد يسيل رقة وجمالاً وخصباً . وفي هذا الوسط الأدبي نشأ ابن هانيء واستمد ثقافته الأدبية ، ونظم القريض واتصل بالحياة في إشبيلية وفي قصر أميرها ، فهل كان شعره صورة لهذه البيئة الاجتماعية والأدبية التي نشأ فيها وعاش في ظلها ؟

لا يستطيع الباحث الإجابة على هذا السؤال لأن شعر الشاعر في الفترة التي قضها في وطنه حتى هجرته منه إلى بلاد المغرب وهو في سن السابعة والعشرين ، قد ضاع كله ، ولم يبق منه أثر قليل أو كثير .

ومع هذا فنستطيع أن نقول أن ابن هانيء قبل هجرته بفننه الذي نظم به بعد هجرته مباشرة ، ونستطيع أن نقول على ضوء هذا القياس : إن الفن الأدبي للشاعر

في الأندلس لم يكن يصور بيئته ، ولا يجارى فن أمثاله من الشعراء الأندلسيين ، ولا يساير روح الترف الأدبي والحضارة الفنية في الأندلس ووطن الشاعر ، فما السر في ذلك وما السبب فيه ؟

لعل مرجع ذلك إلى أن شخصية الشاعر الفنية لم تكن ظهرت بعد في إنتاجه الفني ، إنما كان مقلدا لسواه من الشعراء ، لم يقلد المحدثين منهم ، الذي يجارى أديبهم وفقهم روح الحياة والحضارة في القرن الرابع الهجري ، وإنما قلد الشعراء الجاهليين الذين عكف على حفظ أشعارهم ، وتأثر بها في إنتاجه ونزعاته في فهم الفن ، وفي نظم القريض ، طول هذه الفترة .

وهاجر الشاعر إلى المغرب ف قضى في ربوعه خمسة عشر عاما ، كل ثروته الشعرية هي من إنتاجه الأدبي في هذه الفترة الصغيرة في حياة الشاعر ، وليس من المعقول أن يكون ابن هانيء قد تأثر في شعره وشاعريته بشيء ما في حياته بالمغرب ، نعم لم يتأثر بأي مؤثر أدبي فيه ؛ وإنما تأثر بأشياء أخرى لا تمت إلى طبيعة الفن بصلة ما ، تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية في المغرب ، وظهر هذا الاثر في شعره واضحا جليا ، أما فنه وروحه الشعرى واتجاهه في نظم القريض فلم يتغير بأي حال ، ذلك أن بيئة المغرب لم تكن إلى ذلك الحين بيئة أدب وفن ، يقومان على اتجاهات أدبية مستمدة من عوامل البيئة وأثرها ، وإنما كانت بيئة كفاح وجلاد بين شتى القوى السياسية في العالم الاسلامي إبان ذاك ، وكان الادب والفن فيها يسيران على نهج الادب والفن في قرطبة وبغداد ؛ ولقد وفد الشاعر على هذه البيئة وهو تام الاداة ، موفور الملكات ، ناضج الاستعداد ، فشدوا بالشعر في المغرب كما كان يشدو به في الأندلس فنا وبيانا وأساليبها وخيالها ومعاني ونزعات ، اللهم إلا أن الشاعر قد بدأت شخصيته الفنية تأخذ مكانها الأدبي الواضح في إنتاجه وشعره ، وأخذت سمات التكلف الفني تتلاشى من قصائده ، بتلاشى روح التقليد الأدبي من نفسه ، وبعد قليل من هجرة الشاعر إلى المغرب كانت شخصيته الأدبية قد استكملت عناصر استقلالها الفني ، فظهر ذلك واضحا ملبوسا في شعره وقصائده ، فليس إذا بنا حاجة إلى البحث عن الحياة الأدبية في المغرب ومبلغ أثرها في نفس ابن هانيء ، وإنما سنبحث عن مدى أثر ابن هانيء فيها فذلك هو الملائم لاتجاه البحث في تراث ابن هانيء ونزعاته الأدبية . والخلاصة أن شخصية الشاعر الفنية لم تتأثر بالحياة الأدبية في الأندلس ، لإثباته

كان مشغولا عن يئسته بروح التقليد المتأصلة في ثقافته الأدبية في شبابه ، ولم تتأثر كذلك بالحياة الأدبية في المغرب ، لأنه كان قد ترك عصر التأثر الأدبي في حياته ، ولأن هذه البيئة التي هاجر إليها لم تكن لها شخصيتها الأدبية المستقلة التي تمثل مذهباً أدبياً خاصاً .

ووفد ابن هانيء على المغرب ، فوجد فيه شعراء ، اتخذهم أندادا لا أساتذة . كان من شعرائه على التونسي الشاعر ، الذي قال فيه ابن هانيء لما هجاه شعراء المغرب بعد هجرته : « لا أجيب منهم أحدا إلا أن يهجونى على التونسي فأجيبه » (١) . وكان منهم عبد الله بن الحسن الجعفرى ، ومقداد بن الحسن الكتامى وسواهم من الشعراء . فماذا كان موقفه منهم ؟ وماذا كان موقفهم منه ؟

لقد بذ ابن هانيء بفضله جميع هؤلاء الشعراء ، لحسده ونقموا عاياه ، ثم أخذوا في هجائه والزراية به وبفضله . ولكن ابن هانيء عصف بهؤلاء الشعراء جميعا ، وأخل مكانهم ، فصاروا بعد قليل من بقاءه في المغرب رعاعا في دولة القريض ، من حيث صار ابن هانيء أمير الشعر في المغرب كافة ، وكان هجاء خصومه الشعراء له لا يزيده إلا إجادة وإبداعا ، وفتن الأمراء والخليفة بفضله ، ورآه الشاعر مؤلفا من نظام كواكب :

صنع يؤلف من نظام كواكب طلمعت لغير كثير والاحوص .
ويصور الشاعر اختلاف نزعاته الفنية والنفسية عن نزعات سواء من الشعراء
فيقول :

أبت لى سبيل القوم فى الشعر همة طموح ونفس للذنية فارك
ويقول للمعز :

فإن أك محسودا على حر مدحك فغير نكير فى الزمان الأعاجيب
أفى كل عصر قلت فيه قصيدة على لاهل الجهل لوم وتثريب
أبن موضعى فيهم ليفخر غالب يمين بسياه ، ويدحر مغلوب
وقدأ كثروا فاحكم حكومة فيصل ليعرف رب فى القريض ومربوب

وقد حكم المعز له فأصبح شاعر الخليفة والدولة ، وملك القريض فى دولة الفاطميين . وجميع نقاد الادب يسلمون لابن هانيء زعامة الشعر فى المغرب كافة ؛

ويقولون إنه لم يبيذه أحد من الشعراء في المغرب أو الأندلس ، ممن سبقوه أو جاءوا بعده ، ويرون أن فنه ارتفع بمميزاته الخاصة والعامة عن مستوى الفن والشعراء في المغرب والأندلس ، وأنه كان طبقة وحده في البلاغة الأدبية وفي الإنتاج الشعري في شتى عصور المغرب الأدبية ، وإن كان يرى بعض المحدثين أن ذلك إجحاف بأمثال ابن زيدون .. ورأي في ذلك أن ابن زيدون كان صورة من صور بيئته الأدبية ، أما ابن هانيء فقد كان وحده بيئة أدبية خاصة ، وشخصية فنية مستقلة بعيدة عن شخصية ابن زيدون وغير ابن زيدون ، كما كان المتنبي شخصية فنية مستقلة ، ولذلك قال النقاد : « ابن هانيء متنبى المغرب ، وأبو الطيب متنبى المشرق » .

— ٤ —

وقد وضع الشعراء في المغرب والأندلس فن ابن هانيء - بعد عصره - موضع الإكبار والتقدير ، ونهجوا نهجه في مذاهب الشعر ومعانيه وخيالاته وأساليبه ، وجعلوه مذهباً أدبياً لهم على مر العصور الأدبية ، ونبغ شعراء في الأندلس والمغرب كابن الحداد وابن عائشة وسواهم من الشعراء الذين كانوا تلامذة له في فن الشعر ونظمه ، مما تراه مفصلاً في الذخيرة ونفح الطيب ، وذلك مظهر لمكانته الرفيعة في الشعر في بلاد المغرب طول عهده بالحياة الأدبية .

مذهب الشاعر في شعره

— ١ —

الاتجاه الفني عند ابن هانيء ينزع إلى روح البداوة ، التي تأثر بها فيما قرأ من شعر الجاهليين والاسلاميين ، وهو كما يقول في أبي الفرج الشيباني كان ولا شك مما لا يحتذى حذو المحدثين في اتجاههم الفني في نظم القريض ، بل كان يرجع إلى الشعر الجاهلي يأس به وينزع منزعه ويحاكيه ، ويقول من قصيدته في الشيباني ، وقوله في مدوحه صورة لنفس نزعاته الأدبية التي سار عليها ، يقول :

من لا يفاخر بالطائي (١) في زمن ولا الخزاعي (٢) في عصر الخزاعي
ولا الفرزدق أيضاً ، والفخار له ، ولا جرير ولا الراعي النميري
لكن بعلقة الفحل الذي زعموا في الشعر أو بامرئ القيس المراري
فهو لا يفاخر بالمحدثين كآبي تمام ودعبل ، ولا بالاسلاميين كالفرزدق وجرير

(١) هو أبو تمام الشاعر م ٢٣١ هـ

(٢) هو دعبل الشاعر م ٢٤٩ هـ

والراعى ، ولما سكن يجعل فخره فى الفن بعلقة وبامرىء القيس ، وإن كان الفتح بن خاقان يذكر فى مطمح الأنفس (١) أنه كان يتبع فى أغراضه الفرزدق وجريير .
وبعد شعر الشاعر صورة لهذه الروح ، وذلك الاتجاه والنزعة الفنية ، فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهولهم وخيالهم الفنى وإغراقهم فى التصوير ، وتهويلهم فى التمثيل والخيال ، وإنما يمثل روح الجد والإقدام والبداوة والقوة ، والصدق فى التصوير والتعبير ، ومذهبه التى مطلعها :

أصاغت فقاالت : وقع اجرد شيعظم وشامت فقاالت : لمع أبيض مخدم
التى حاكى بها معلقة عنثرة فى روحها وأسلوبها واتجاهها الفنى ، هذه المذبة صدى لهذا الاتجاه . كما أن خلو شعره من آثار الامعان فى المعانى والأخيلة كذلك أثر لهذا المذهب الشعرى الذى نزع إليه الشاعر ، وكذلك هو فى أسلوبه ينهج منهج الجاهليين فى قوة الطبع وضخامة الأسلوب وجزالة الألفاظ وإشراق الديباجة ، وفى كثرة الأساليب المختارة التى تمثل روح البداوة فى التعبير والأداء ، ولعل هذا الروح أثر من آثار الوراثة فيه .

ومعانى الشعر عند ابن هانئ قريية واضحة تشبه معانى الاسلاميين ، وإن كان الشاعر يحاول فى أحيان كثيرة أن يبرزها بأسلوبه وصنعتة فى مظهر جديد مبتكر .
وفى شعره ألوان من الخيال الواقعى المجرد . وقد يحيد الشاعر أحيانا عن نهج الفن الواضح ، فيمدح بمدوحه بالجمال ، كما يقول فى جعفر بن على :
وسنان من وسن الملاحه طرفه وجفونه ، سكران من خمر الصبا
يقول فى أبى الفرج الشيبانى وكأنه يغازله :
أهواه والصعدة السمراء تعذانى والقلب يدلى بعذر فيه عذرى
وقد يقبح أحيانا فى صوغ معانيه وتصويرها ، كما يقول :
وأحمل أياى على ظهر غارة وتحملنى منها على مركب وعر
ويأخذ عليه كثير من النقاد مبالغاته ، وإسرافه فى معزياته ، وقد سبق أن أبنا أن هذه المبالغة لا ترجع إلا إلى شىء واحد هو نفس العقيدة الفاطمية التى اتخذها الشاعر مذهباً له فى الدين والسياسة والاجتماع .

— ١٢٤ —

— ٣ —

وأسلوب ابن هانيء له ميزاته الخاصة التي تميزه عن أساليب من سواه من الشعراء .

هو فيه بدوى جزل ، يرق حيناً ، ويبلغ في الجزالة والقوة والحوشية مبلغاً كبيراً أحياناً أخرى .

وكان في طبع ابن هانيء ميل إلى نوع من الغرابة والتكلف ، حتى حسبته بعض النقاد من الشعراء الذين يهرون بالفاظهم ، ومن هؤلاء النقاد المعري وابن رشيق وابن خلكان .

وكثيراً ما ترى الشاعر قد عمد إلى التحويل والتفخيم ، أو إلى الصنعة وتكلف أساليب البديع في شعره ، فيجيد وتخفى قوة أسلوبه مظاهر التكلف في صناعته الفنية أحياناً ، ويشذ عن الجودة وطبعه وصناعته في أحيان أخرى .

وظاهرة واضحة في أسلوب ابن هانيء هي كثرة إطنابه وتفصيله ، مما كان يؤدي به في بعض الأحيان إلى النزول عن مستواه الشعري ، فتراه يكرر كثيراً من الصفات التي لا طائل تحتها والتي لاحظ فيها إلا إظهار مقدرة الشاعر اللغوية . وهذه الظاهرة سبب من أسباب طول نفسه في شعره ، الذي امتاز به ابن هانيء ، ويشاركه فيه ابن الرومي ، إلا أن منشأه عند ابن الرومي المعنى وبسط الحديث فيه ، وعند ابن هانيء الأغراض والبواعث الفنية التي نظم فيها ، وجانب اللفظ الذي كان يؤثره . وأسلوبه على العموم سليم مطبوع ، لا يشذ منه عن سلامة الطبع إلا القليل جداً من أبياته ، مثل قوله :

« لو كنت قبل تكون جامع شملنا » ، مما تلحظ فيه أثر التعقيد ، ومثل قوله :

ما كنت أحسب أن أرى بشراً كذا ليثاً ولا درعا يسمى غاباً

فكلمة « كذا » هنا نازلة مردودة في حكم الذوق الأدبي .

وهذا القليل النادر من الأبيات التي خان فيها ابن هانيء طبع الشعر واستواء التأليف وقوة النظم ، لا يكاد يقاس بشذوذ المتنبي في فنه ، ولا بشذوذ غير المتنبي من الشعراء الممتازين .

وجودة ابتداءات القصائد ، وحسن انتهاءاته فيها ، سمة لابن هانيء في شعره ، حتى ضرب المثل بمطامعه :

فتقت لكم ريح الجلال بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

و قرن بمطلع معلقة امرىء القيس « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » ، في الجودة والجمال ، وابن هانيء فوق ذلك مجيد في اقتباسه من أساليب القرآن الكريم ، ومجيد في حسن تخلصه إلى المدح في كثير من قصائده ، ويمتاز أسلوبه بقوة البيان ، وحسن السبك والتأليف ، وقوة الارتباط بين أجزاء البيت الشعري ، وتلاحم أجزائه القصيدة في شعره ، كما يمتاز بخلوص شعره من سمات التعقيد والغموض معا ، وتشيع في إنتاجه روح الطبع والشاعرية القوية ، وفي أسلوبه كثير من الجمال في صورته البيانية من الاستعارة والتشبيه والمطابقة والمقابلة ، ويشبه الممدوح بهذه الصور الشعرية المجتمعة فيقول :

كبدردجى ، كالشمس ، كالنجر ، كالضجى
كصرف الردى ، كالليث ، كالغيث ، كالبحر
وفي شعره أساليب مختارة كثيرة جيدة ، تسير الطبع ، وتستدعى الإعجاب .

وموضوعات فنه ، وأغراض القصيد في شعره ، كثيرة متنوعة :
فمن مدح سياسى يشيد فيه الشاعر بالدولة ومبادئها ورجالاتها وأعمالها وأيامها ، وبنفوذها الروحي ومستقبلها الباسم ، مما كان يصدر عن عقيدة قوية ، وعاطفة ممتلئة إيمانا بمبادئ الفاطميين ، ولقد امتاز هذا الشعر السياسى « بكثير من المعانى الخصبة ، كما امتاز بالقوة والروعة وسعة خيال الشاعر فيه . وهو في هذا الجانب الفنى يضارع المتنبي .

ومن وصف رائج لجيوش الدولة وأساطيلها ، ولأيامها وانتصاراتها ، والمعارك العظيمة التى خاضتها ، وللخيول التى كانت تقتحمها ، والأبطال المعلنين الذين كانوا يسرون بالدولة من مجد إلى مجد ، ويكلون هامتها فخاراً على فخار . نعم لم يكن ابن هانيء وصافاً للطبيعة ، كما كان ابن المعتز وابن خفاجة ، ولم يكن وصافاً للعواطف الانسانية كما كان المتنبي وأبى العلاء ، إنما كان وصافاً مجيداً لحياة النضال السياسى والحربى الذى شغل الدولة والناس فى عصره وفى بيئته ، أما أوصاف الشاعر التى لا تتصل بهذه الناحية ، فهى كلها من الأوصاف التقليدية التى لا تمت إلى نفس ابن هانيء بصلة ، وهو فى كثير منها ناب عن الذوق والإجادة ، كما فى وصفه لرجل أكل ، وكما فى وصفه لراح ومجالسها وآلات الغناء التى تكون فيها ، فهذه الأوصاف وسواها لا تبلغ شيئاً من وصفه الممتع البالغ حداً كبيراً من الجمال والسحر ، عندما كان يصف

الجيش وآلات القتال والمعارك الحربية الضخمة . والشاعر في هذا الباب يضارع
أبا الطيب ، فهما في هذه الناحية صنوان . ووصف ابن هانيء مفعم بالوان الخيال
وصوره التي كان يستعين بها في تصوير المعنى الذي يريده .

وللشاعر هجاء ولكنه هجاء ضعيف ، لأن الهجاء بعيد عن نفسيته النبيلة المجدة
في الحياة ، وكان إذا أراد أن يهجو صور من يهجو به بالشفاق والسكيد للدولة ومبادئها
كما فعل مع الوهراني كاتب أمير الزاب ، فهو هجاء سياسي لا غير ، أما الهجاء الفني الذي
نراه عند ابن الرومي مثلاً فليس للشاعر فيه نصيب .

ولابن هانيء غزل يبدأ به قصائده ، ولكنه في جملة غزل تقليدي متكلف
مألف المعاني والأساليب ، يكره فيه ماسبق اليه من : تصوير موقف الوداع وهول
الجفاء ، والشكوى والرجاء ، والأرق والبكاء ، وبؤس الحب في حبه ، وذكر طيف
الخيال من محبوبته الذي يزوره أحياناً ، وتشبيه حبيبته بالمها والظباء والغصون ،
وذكر الحافظ وأثر فتكها ، وغيرة أهلها عليها ، إلى غير ذلك من المعاني المألوفة
التي للشاعر فيها حسن الصوغ ، ونظمها في أسلوب خلاب وعبارات بليغة . وفي الحق
أن حياة ابن هانيء وجهاده فيها وشغله بعقيدته والدفاع عنها كان يحول بينه وبين
الاجادة في النسب شأنه في ذلك شأن المتنبي ، ومع بداوة ابن هانيء في غزله التقليدي ،
فقد يرق حتى يأتي بالجديد الساحر ، كما في قصيدته :

امسحوا عن ناظري كل السهاد وانقضوا عن مضجعي شوك القناد
أو قصيدته :

قن في ماتم على العشاق ولبسن الحداد في الأُحداق
أو قصيدته :

هل من ألفة عاج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين ؟
أو قصيدته :

أمن أفقها ذاك السنن وتألقه يورقنا لو أن وجدنا يورقه
وقد يتفلسف في حبه ، فيذكر الشمع المبدد ، والسعادة الزاهية ، كما في قصيدته :
هل آجل بما أؤمل عاجل ؟ .

فليس ابن هانيء من رجال الهوى العذري . ولا من شعراء الحسن واللذة
المترقين ، وإنما هو في غزله مقلد كغيره من الشعراء المقلدين ، الذين قد يجيدون فيه
وقد لا يجيدون .

ولابن هانيء ثلاث قصائد جيدة في الرثاء . منها مرثيتان في والدته جعفر بن علي أمير الزاب ، ومطلعهما :

صدق الفناء وكذب العمر وجلا العظات وبالغ النذر
: آلا كل آت قريب المدى وكل حياة إلى منتهى
والمرثية الثالثة رثى بها طفلا صغيرا من أحفاد جعفر بن علي ، ومطلعها :

وهب الدهر نفيسا فاسترد ربما جاد لثيم فحسد
والمرثيات الثلاثة فيها جودة ، وفيها حكمة ، وقد حاول بها ابن هانيء أن يصل
إلى منزلة المتنبي في حكمته الخالدة ، ولكن المتنبي في ذلك ، لا يضارعه شاعر
من الشعراء .

والحكمة على أي حال في شعر ابن هانيء قليلة متفرقة ، وتكثر في مرثيته ، وهي
حكم اجتماعية قريية تناول مستمدة من أثر التجارب العامة في الحياة .
وقصارى الحديث أن ابن هانيء أجاد في شعره السياسي ، وفي مدحه ، وفي وصفه
الحربي ، وفي رثائه ، ووقف متخلفا في غزله وهجائه ، وفي خمرياته ، وهو في حكمته
لا يصل إلى منزلة حكمة أبي الطيب الخالدة وإن كان يرسم لنا صورة كاملة لفلسفة الحياة
العملية التي سبق أن أشرنا إليها فيما مضى من بحوث .

- ٥ -

وفي ابن هانيء يقول الفتح بن خاقان م ٥٢٦ هـ في كتابه مطمح الأنفس :
« له نظم تمنى الثريا أن تتوج به ، وبدائع يتحير فيها ويبحار ، ويخال لرقتها أنها أسحار ،
اعتمد فيها التهذيب والتحرير ، واتبع في أغراضه الفرزدق وجريير ، وتشبيهاته خرق
فيها المعتاد » (١) .

ويقول فيه المعري م ٤٤٩ هـ في رسالة الغفران : « كان من شعراء المغرب المجيدين
وكان يغلوا في مدح المعز غلوا عظيما » (٢) :

ويقول ابن خلكان م ٦٨١ هـ : « ليس في المغرب من هو في طبقة ، لا من متقدمهم
ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق ، وهو عندهم كالمتنبي عند المشاركة ،
ثم نوه بنو نيتة « هل من أعقة عاج يبرين » . وأخذ عليه إفراطه في المدح (٣) ..
ويفتخر الشقندي أديب الأندلس به في مناظرة أدبية رواها نفح الطيب (٤) .

(١) ٨٤ مطمح الأنفس . (٢) ١٥٤ رسالة الغفران نشر اليازجي

(٣) ٥/٢ ابن خلكان (٤) ١٤٠/٢ النفح

وأشاد به لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة (١) ، وابن شرف في مقامته
دأعلام الكلام ، (٢) .

وجعله ابن الأبار هو وابن دراج الشاعر الأندلسي نظيرين للبتني وأبي تمام (٣)
ونوه الحميدى بشعره ، وأخذ عليه قعقعة ألفاظه (٤) ، وذلك رأى المعرى فيه ، وإن
حملة ابن خلصكان على فرط تعصبه للبتني (٥) .

وجعله ابن رشيق من الشعراء الذين يهرون بألفاظهم أكثر مما يهرون
بمعانيهم (٦) . ونوه به الذهبي في تاريخ الإسلام (٧) .
ويعجب ابن حجة الجوى في خزانة الأدب (٨) بقصيدته :

فتقت لكم ريح الجلال بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر
ويراه ياقوت أشعر المغاربة ويجعله في المغرب نظير المتنبي في المشرق (٩) .
وذكره ابن أبي الحديد في نهج البلاغة ، والعامل في السكشكول ، وكثير من
مؤرخي الأدب في العصر الحديث .

وترجم فان كريم شعره إلى الألمانية ، ورأى فيه قوة بيان وكثرة تمثيلات وجودة
الفاظ مما يعتبر من خصائص وأوصاف شعره ؛ وذكره أيضا هامر ، وهوارت ،
وسواهما من المستشرقين .

وقد عني بشرح ديوانه شرحا لغويا واسعا الدكتور زاهد على الهندى ، وطبع
هذا الشرح في مطبعة المعارف عام ١٣٥٢ هـ في نحو تسعمائة صفحة ، قدمها بمقدمة
في حياته وتاريخه (١٠) .

وهذا هو كل ما كتب عن ابن هاني في الأدب العربي على مر القرون .

-
- | | |
|--|---------------------------------------|
| (١) ٢١٢/٢ الاحاطة | (٢) ص ٢٦ |
| (٣) ١٠٣ تسكلة الصلة | (٤) ٤١ جذوة المقتبس |
| (٥) ٥ / ٢ ابن خلصكان | (٦) ٨٠ / ١ العمدة |
| (٧) ٨١ | (٨) راجع باب تجاهل المعارف في الخزانة |
| (٩) ١٢٦/٧ وما بعدها معجم الأدباء | |
| (١٠) ومن ديوان ابن هاني نسخة خطية في مجلد بقلم نسخ في ١١٧ ورقة في مكتبة
الأزهر (رقم ٥٠٠ أباطة - ٧٠٩٦) . راجع فهرس المكتبة الأزهرية ص ٩٢ ج ٥ . | |

بين المتنبي وابن هانيء

- ١ -

عاش المتنبي (٣٠٤ - ٣٥٤ هـ) في العصر الذي عاش فيه ابن هانيء (٢٢٠ - ٣٦٢ هـ) ، ولقد كان أبو الطيب شاعرا ، ولكنه أراد أن يكون ملكا على عرش من العروش ، وأميرا على ولاية من الولايات فأخفق . أراد أن يترك الشعر إلى السياسة ، فردته الأيام عن السياسة إلى الشعر ، فبرم أبو الطيب بحياته التي لم يدرك فيها آماله وأحلامه ، وعاش ساخطا على الحياة والناس ، داعيا إلى مذاهب وآراء أوحى بها اليه سخطه وغضبه . بعد أن كان يدعو إلى القوة والطموح والتفائل ، وظل كذلك حتى خر صريعا مضرجا بالدماء .

ونال أبو الطيب بعد حياته من المجد الأدبي ، ماناله في حياته من جلال الذكر ، وشيوع الشعر ، فهتفت الأجيال بذكره ، وعد شاعر العربية في عصره ، بل جعله كثير من النقاد شاعر العربية الفذ في شتى عصورها الأدبية ، وأحيط ذكره بهالة من التقدير وجلال الذكر وعظمة الفن ، تشبه الهالة التي يحيط بها الأوروبيون ذكر شكسبير وجوته وهوجو وليوباردى وسواهم من شعراء الغرب الخالدين .

- ٢ -

ومن الغريب في البحث الأدبي حقا أن نجد بين أبي الطيب وابن هانيء وجوها كثيرة من الشبه في الحياة وفي العقيدة وفي الشخصية والشاعرية وفي المنزلة الأدبية العامة .

فحياة ابن هانيء ، واتصاله بقصور الأمراء والخلافة ، وجهاده العام ، تشبه في ذلك حياة المتنبي ، والعقيدة الفاطمية التي آمن بها ابن هانيء هي نفس العقيدة الاسماعيلية التي كان يؤمن بها أبو الطيب كما ثبتت بالبحث والدراسة . . وابن هانيء في طموحه ، وفي مكانته عند الأمراء والملوك في عصره ، شبيه في ذلك بالمتنبي أبعد حدود الشبه ، وكان ابن هانيء شاعر المغرب في عهد المعز ، لا يطاوله في مكانته الأدبية شاعر من الشعراء ، كما كان المتنبي شاعر المشرق لا يطمع في أن يكون له بجانبه ذكر لأحد من الشعراء .

وشاعرية الشاعر بين تشابه من وجوه كثيرة ، فالمدح وأوصاف الحروب تكادان تتعادلان من الناحية الفنية في شعر الشاعرين ، ولكن ابن هانيء لا يضارع المتنبي (٩ - قصص)

— ١٣٠ —

في الحكمة والأمثال وفي الرثاء وفي بعض أغراض الشعر الأخرى ، كما أنه لا يصل إليه في دقة المعاني وعمقها ونضوج الثقافة العقلية في شعره وتنوعها ، وإن جازاه في ذلك إلى حد ما .

وروح الشاعرية في الشعارين تتشابهان من وجوه كثيرة ، من حيث قوة الأسلوب وفخولته وجزالته وطلبه ، ومن حيث البعد عن ألوان الترف في الأداء ، والامام بكثير من الغريب ، وتشابه في كثير من السمات الفنية الخاصة التي تراها في شعر الشعارين وتراثهما وإنتاجهما الفني الخافل .

— ٣ —

ويشبهه النقاد وعلما الأدب ابن هانيء بالمتنبي ، ويلقبونه بمتنبي المغرب ، ويعطونه بهذا اللقب زعامة الشعراء في المغرب والأندلس في عصره وبعد عصره ، كما كان المتنبي أمير الشعر في المشرق ، كما أنهم بهذا اللقب يشركونه في كثير من سمات وخصائص شاعرية أبي الطيب المتنبي الخالدة .

ومع ذلك ومع اتحاد عصر الشعارين ، وتوافقهما في البيئة والمؤثرات العامة وفي كثير من خصائص الشعر وسمات الشاعرية ، مع هذا كله فإن لكل من الشعارين طابعه الخاص ، وروحه الفنية المستقلة ، ونزعاته الأدبية المقصورة عليه ، وإن كان ابن هانيء أقرب الشعراء إلى المتنبي ، وأشبههم به في مكانته الأدبية العظيمة ، في عصر الشعارين وبعد عصرهما .

ويكاد المجد السياسي الذي لافاه ابن هانيء في حياته يضارع الشقاء الذي لاقاه أبو الطيب في عصره ، كما يكاد الذكر الأدبي السائر الذي ناله المتنبي بعد حياته يضارع الخول الأدبي الذي لازم اسم ابن هانيء بعد وفاته إلى العصر الحديث .

— ٤ —

وهناك أسطورة أدبية يرويها البديعي في كتابه « الصبح المتنبي في حيثية المتنبي » تحدثنا بأن أبا الطيب حين كان في مصر عزم على السير إلى المغرب ، فلقيه ابن هانيء في الطريق ، فأنشده أبو الطيب من شعره ، ثم أنشده ابن هانيء بعض قصائده ، فقفل راجعا إلى مصر ، تاركا المغرب لشاعره ابن هانيء .

وهي أسطورة أدبية تريد أن تذكر رأي المتنبي فيه ، وإشاداته بفننه وشاعريته ، ولعل ذلك سبب اختلاقيها .

وعلى أى حال فقد كان ابن هانىء بطبيعة سنه تليذا أو كالتليذ لأبى الطيب ،
قرأ ديوانه وتأثر به فى كثير من معانيه وأساليبه وخيالاته وروحه الشعرية فى بعض
قصائده ، وحاول أن يقلده فى حكمته وتجاربه التى كشف بها النقاب عن
وجه الايام .

استعار ابن هانىء ديوان المتنبي بعد وفاته - أى بعد عام ٣٥٤ هـ - من أديب ،
أساء بعد فى طلبه منه ، فنظم ابن هانىء فى ذلك قصيدته :

تنبأ المتنبي فيكم عصرا ولورأى رأيكم فى شعره كفرا
مهلا فلا المتنبي بالنبي ولا أعد أمثاله فى شعره السورا
تهتم علينا بمرآه وعلكم لم تدركوا منه لآعينا ولا أثرا
وابن هانىء فى قصيدته هذه يحاول أن يخفف من غلواء المتعصبين ، ثم يحاول أن
يشكر فضله فيقول :

ويله شاعرا أخلتموه ولم نعلم له عندنا قدرا ولا خطرا
ثم يصف جنایة القوم على شعره ، وتصحيفهم إياه ، ويتهكم بهم إلى أن يقول :
أريتموني مثالا من روايتكم كالأعجمى أتى لا يفصح الخبرا
أصم أعمى ولكنى سمعت له حتى رددت اليه السمع والبصرا
كانت معانيه ليلا فامتعضت له حتى إذا ما بهرن الشمس والقمر
ضجرتم وأتانا من ملامتكم ومن معارضكم ما يشبه الضجرا
ولو حرصتم على إحياء مهجته كما حرصتم على ديوانه نشرنا

ويظهر من هذا أن الديوان الذى كتبه هذا الأديب واستعاره منه ابن هانىء
كان كثير التحريف والخطأ ، وأن ابن هانىء صححه وكتب منه نسخة أخرى ،
فاختلفت رواية ابن هانىء لشعر المتنبي عن رواية هذا الأديب وأمثاله ، فاكثروا
من الضجر من ابن هانىء .

وقول ابن هانىء « ولو حرصتم على إحياء مهجته » ، أى مهجة المتنبي ، دليل على
أن ذلك كان بعد وفاة المتنبي .

وابن هانىء على أى حال فى أول قراءته لديوان المتنبي لم يعترف له — كما
يقول — بقدر ولا بخطر ، ولكنه بعد ذلك عكف على احتذاء أبى الطيب وتقليده ،
لأسيما فى أمثاله وحكمته ، ولذلك كانت الحكمة فى شعر ابن هانىء متأخرة الظهور فى

حياته الأدبية ، وفقى شعر ابن هانيء قصائد يتجلى فيها روح التأثر بفن المتنبي وشاعريته ، وتشابهه في كثير من الأساليب والمعاني ، مما يطول بنا البحث لو حاولنا تفصيل الحديث في ذلك كله ، والإلمام بشتى نواحيه .

خاتمة الكتاب

وبعد فهذا هو ابن هانيء شاعر المعز ، وأمير الشعر في المغرب ، وصنو المتنبي في مكانته الأدبية ، والشاعر الخالد الذي كتب بشعره أسفار المجد والخلود لدولة الفاطميين على مر الأحقاب . . نجلوه صورة واضحة لحياته وتراثه الفني ، ولذوقه ومشاعره الشاعرة ، لنزيل عنه ما علق به من الأوهام والأضاليل .

وابن هانيء حرى بعناية الأدب والأدباء والنقاد ، وتراثه في الشعر أولى أن يتزود منه الشباب ، ففيه ألوان كثيرة من الشاعرية القوية ، وآثار من ذكريات الماضي التليد . . وهو بعد إهمال الأدب والزمن له خليق بأن يوضع في العصر الحديث في مكانته الحققة التي تليق به ويستحقها . وفي ذكره الألفية التي مضت منذ أعوام ، ما يحفز الأدباء والنقاد ، أو ما لعله يحفزهم ، إلى تخليد ذكره والعناية به وبشعره . ولعل الأدب العربي يظفر ببحوث جديدة عنه في المستقبل القريب ، ترد له من كرامته ومجده الأدبي بعد وفاته ما كان له منهما في حياته .

وأخيرا فهذه خاتمة تلك البحوث الجديدة عن ابن هانيء شاعر الدولة والخلافة الفاطمية . وأدبه وشعره ، ألفته تخليدا لهذه الذكرى الكريمة ، مرور ألف عام على وفاة الشاعر . وأرجو أن أكون قد وفقت في بلوغ الغاية ، وإصابة الهدف ، وتحقيق ما أنشده من آمال طيبة ، قصدها بتأليف هذا الكتاب .

فهرست الكتاب الثالث

الموضوع	صفحة
الاهداء	٨١
ابن هانيء الشاعر	٨١
نشأة الشاعر الاولى وثقافته	٨٣
حياة الشاعر في وطنه	٨٧
هجرة الشاعر إلى المغرب	٨٩
اتصال الشاعر بجوهر	٩٠
الحياة تبسم للشاعر	٩١
الشاعر في بلاط المعز	٩٥
عصر المعز	٩٩
ابن هانيء شاعر الخلافة والدولة	١٠٠
معزيات ابن هانيء	١٠٢
بين الشاعر ورجال الدولة	١١٢
مصرع الشاعر	١١٤
شخصية الشاعر	١١٤
الفن والشاعر	١١٩
مذهب الشاعر في شعره	١٢٢
بين المتنبي وابن هانيء	١٢٩
خاتمة الكتاب	١٣٢

الكتاب الرابع

قصص من الحياة

من قصصنا الاجتماعي

إحسان قصة جديدة للأستاذ محمد رضوان أحمد ، الكاتب الأديب الشاعر ،
والمؤلف الممتع الجيد ، والذي يعد من أرصن كتابنا في الشؤون الاجتماعية والخلقية
والقومية .

وقصة إحسان تمثل حياة فتى وفتاة تربطهما صلة قرابة قريبة ، نشأ في بيئة واحدة
ونهما من منابع العلم ما شاء الله أن ينهلا ، وعاشا في سن الشباب ، يزينهما طموح
لا حد له ، وأمل لا ينتهى عند غاية ، وخلق فاضل لا يشبهه خلق ، وأدب كريم هو
أمنية كل رجل مهذب ، وفهم صحيح للأمور ، وتقدير كامل للمسئولية ، وشعور صادق
بالواجب الملقى على الرجل والمرأة في الحياة .. وقد وقعت بطلة القصة « إحسان »
عند نهاية التعليم الثانوى ، وعاشت في القرية مؤمنة برسالتها عاملة على خدمة بنات
جنسها وتوجيهن التوجيه الصحيح السليم المثمر . واستمر بطل القصة « حسنى » ابن
عم « إحسان » في التعليم حتى نال الدكتوراه ، وصار محاميا نابغا يشار إليه بالبنان .
وقد ربط الحب الطاهر بين قلبى حسنى وإحسان منذ بداية الشباب برباط وثيق ،
وخطب حسنى بنت عمه وهو في نهاية مرحلة دراسته العالية الجامعية . وشاء له وفاءه
لإحسان أن يرفض ما عرضه عليه أستاذه بوساطة صديق له من أن يكون صهرا له
وزوجا لابنته الوحيدة « بدور » ، وانتهى الأمر بزفاف « إحسان لابن عمها الدكتور
حسنى المحامى ، فعاشا معا في القاهرة في سعادة ونشوة ووفق دائم يمثلان في بيت
الزوجية أكل صورة من صور الوفاء والإخلاص .

وبطلا القصة يعرض المؤلف آراءهما في جميع شؤون الحياة عرضا قويا عميقا
سليما . . ويصور أفكارهما في شتى نواحي التهذيب والاصلاح والتوجيه الخلقى
والاجتماعي تصويرا رائعا ممتعا . لا يترك ناحية من نواحي الاصلاح إلا أنطق بها

بطل القصة أو بطالتها بالحجة الصادقة والبرهان المتين .
ويعبر عن أفكارها العامة والخاصة في شتى نواحي التربية والأسرة والمجتمع
والأمة والوطن والثقافة تعبيراً دقيقاً واضحاً سهلاً جميلاً مقبولاً ، لا غموض فيه
ولا التواء .

وهدف المؤلف من ذلك كله هو توجيه المجتمع إلى الأخلاق الكريمة ، والآداب
المثلّية ، والتقاليد السامية ، والعواطف النبيلة ، والمشاعر الرقيقة ، وإلى كل صالح مفيد
من ألوان التفكير والعمل والاستقامة والطهر والشرف والعفاف والوفاء .
وليس ذلك كله بعسير على مؤلف « في جنة الفردوس » وسواه . وإن في إيمان
المؤلف بضرورة اقتران النهضة والتقدم بترائث الفكر والروح والأدب القديم ،
وبأن نوااميس الدين لا غنى عنها في إصلاح الحياة وتهذيبها ، وبأن مجد الوطن لا بد
من قيامه على الأخلاق الفاضلة وهمم الشباب الطامحين المتوثبين المثقفين .. في كل هذا
ما فيه مما يرشد إلى أهمية هذه القصة وقيمة ما عرضه المؤلف فيها من آراء وأفكار
ومبادئ ومناهج للإصلاح .

في العيد

انتظرت القرية قادمها الكريم ، وضيئها العظيم ، في شغف المحب ، وبسمة الأمل
وفرح الشباب ، ووقار الكهول .. حتى إذا ما أزيّنت ، وأخذت زخرفها ، طفقت
تستقبل العيد بشغف باسم ، ونفس مريحة ، وفؤاد طروب .
هذا فجر اليوم المشهود ، والأمل المنشود ، يرسل شعاعه الفضي على الليل الحالك ،
فيبديدها ظلمات ودياجي ، ويرسلها أهاليها وأناشيد ، تعلن في فرح ، وتبشر في بهجة
بقدوم العيد .. وهام أولاء أهل القرية يسرون إلى المسجد بقلوب مستبشرة ، ووجوه
مسفرة ، تعرف فيها نضرة البشر ، وروعة الإيمان .. ثم هام أولاء يذهبون إلى مدينة
الأموات في لوحة الحزن ، ولذعة الذكرى ، فيصلون العبرة بالعبرة ، والحياة بالموت
والأولى بالآخرة ، ويقرأون أمانى الدنيا وحقات الآخرة ، في كتاب مسطور ،
تنشره الذكرى ، ويطويه النسيان .

هنالك بين الموائد المصفوفة في شوارع القرية وطرقاتها ، جلس كل أب بين أبنائه
يأكل ويأكلون ، ويدسم ويدسمون ، يرفرف حنان الأبوة ، وجمال البنوة عليه
وعليهم بجناح ينفذ إلى ظله العطف والرحمة .. وهنالك بين مئات الموائد ، تلمح والمداء
شيخاً ، يرنو بعين يائسة ، وقلب مهموم إلى مائدة الحزينة الصامتة ، لقد فقد نعمة

البنوة فسكاً إنما فقد بهجة العيد ، ونعمة الحياة . وهبه الله بنات ، وحرمة من البنين ، عاش في شبابه يدعو الله أن يرزقه ابناً يكون قرّة عينه ، ووارث نعمته ، وطفق يدعو حتى وهن عظمه واشتعل رأسه شيباً ، فكف عن الدعاء ، وطفق يطفى بلوعة الذكرى بلوعة البكاء ، وجلس يأكل وحده في العيد على مائدته ، ويرنو إلى الآباء والأبناء بنفس حزينة ، وقلب صبور .

انتثر الأطفال في القرية يلعبون ويمرحون ، وعرج الرجال على المنازل يهنئون بالعيد ، ويصلون الأقارب والأرحام ، وسار كل شاب يحمل إلى خطيبته هدية العيد في ابتسام الشباب ، ووعود الزفاف .. واستمرت القرية تضحك ، من ميلاد الفجر إلى غروب الشمس ، تجوب أركانها مواكب الطفولة وجعاعات الشباب .
ما أجمل العيد ، لقد نسي فيه الناس كل شيء إلا المعاني الإنسانية ، التي كملت بها مباحجه وأفراحه .. نسي فيه الزارع حقلة والراعي سوائمه ، كما نسي فيه الموتور وتره ، والمهموم همومه .

ليت الأيام كانت كلها أعياداً ، فيطرح الناس آلامهم وأحزانهم ، ويعيشون في جو إنساني جميل ، يكمل رجولتهم وإنسانيتهم ودينهم .. ليت الأيام كانت كلها أعياداً تكفكف فيها دموع اليتامى والمحزونين يد العطف والبر والاحسان .
هكذا كان الشيوخ المسنون في القرية يقولون ، وبهذا كانوا يتحدثون . ماعداً هذا الشيخ السكيب ، فقد كان يقول : ليت الأيام لم يكن فيها هذا اليوم . ولت الله لم يجعل للناس هذا العيد .

تضحية وفداء

بين جبال مكة وآكامها ، وسهول منى ووديانها ، سار شيخ كبير قد وخطه الشيب ووراءه شاب في الثالثة عشرة من عمره ، تطيف به نضرة الصبي ، وفتوة الشباب ، وتعلو وجهه سمة النبيل وروعة اليقين ... سار هذا الشيخ ومعه ذلك الغلام ، حتى أدركهما الجهد ، وأنهكهما اللغوب ، فانتبذا مكاناً قصياً ، لا تراهما عين ، ولا يسمع حديثهما إنسان .. وجلس الشيخ ساهم الوجه مشرد الفكر مروع الفؤاد ، وجلس الغلام وعلى قسماته براءة الطفولة ، وطهارة الصبي ، ومسحة الحزن والتفكير .
ومرت الدقائق والساعات وهما صامتان لا يتحدثان ، مطرقان لا يرفعان رأساً ، وفي نظراتهما الموزعة معاني الاشفاق والرجاء . ثم بدد ذلك الصمت الرهيب حديث رائع مبين نطق به ذلك الغلام الشاب ، قال : يا أبت اقض ما الله قاض ونفذ ما أمرت

به ، فإلهون الموت في طاعة الله ، وما أعذب العذاب والتضحية في هذا السبيل ، وإني لأطمع أن تكون لي منزلة الشهداء يوم الدين . فأجاب الشيخ : نعم العون أنت يا بني على أمر الله ، وسلام عليك يوم ولدت ويوم تموت ويوم تبعث حيا .. وأقبل عليه يقبله ويودعه الوداع الأخير ، وعلى وجهيهما عبرات حرى تسيل ، ثم كفكفا هذه الدموع وقام الشيخ إلى حبل كان معه فشد به وثاقه ، وإلى سكين فشحذها ، وصرع الغلام وأخذ المديّة ليرها على رقبتة .

ليت شعري من هذا الشيخ ؟ ومن هو ذلك الغلام ؟ وما شأنهما الفذ ، وأمرهما العجيب ، ولم يبك هذا الشيخ ثم يقبل إلى الغلام ليذبحه ، ولم يصبر هذا الغلام طائعا مختارا ذلك الصبر الجليل ؟

أما الشيخ فهو إبراهيم خليل الله ، وأما الغلام فهو ابنه اسماعيل ، وهبه بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، فأغدق عليه عطفه وحنانه ، وقصر عليه حبه ورعايته ، حتى بلغ مبلغ الشباب وأصبح قرة أبيه الشيخ ، وسلوى أمه الرؤوم ، وتجمعت فيه آمالها الجميلة ، ورجاؤها الوطيد ، وتكشفت أخلاقه عن هدى مهدي ، ورشد رشيد ، فأشرقت على وجهه مخايل النبوة ، ومظاهر السؤدد والشرف الموروث .

ولكن الله أراد أن ينوّه هذا الغلام الذي سيرث مجد إبراهيم ، وسيكون من ذريته سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وقضى — تعالى جده — أن يبتلي هذا الشيخ الكبير في أعز شيء لديه ، في ابنه اسماعيل ، فأمره في المنام أن يذبح ابنه الوحيد وأصبح حزينا كئيّبا ، وماذا يفعل ورؤيا الأنبياء حق ؟ استشار ولده . فقال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين .

وخرج إبراهيم والغلام — كما رأيت — إلى مكان بعيد ، فأخرج إبراهيم جبلا ومديّة كانا معه وشد بالحبل وثاق إسماعيل ، ثم صرعه على وجهه ، وأخذ المديّة بيده ولم يبق إلا أن يهوى بها على رقبتة ، فإذا الغلام صريع .

موقف رائع فذ ، ليس له في تاريخ الإنسانية مثيل ، وما أخرى أن يذهب بشرفه إبراهيم وإسماعيل !! أيتها القرون الماضية والأجيال البعيدة ، وأيتها الجبال الشامخة ، والوديان السحيقة : هل رأيتم أشد لله طاعة ، وأعظم لله رهبة من ذلك الكهل الرحيم ومن ذلك الطفل الكريم ؟ أية نفس تطيق أن تجني يدها عليها ألم الشكل ، والشكل شديد ، أو ترضي بفراق وحيدها ، والفراق مرير ، أو تسمح أن تمد يدها لتفري

أوداجه ، وتسفح دمه ؟ اللهم إلا أن تكون هي نفس إبراهيم . ثم أية نفس ترضى بإزهاق روحها ، والروح عزيزة ، وبمفارقة الحياة ، والحياة جميلة ، وأن يكون ذلك عن طاعة واختيار ؟ اللهم إلا أن تكون هي نفس اسماعيل ١١ يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدني إن شاء الله من الصابرين ! ما أخلدها من كلمة صريحة مدوية زلزلت الأرض وشدت بها السماء . قبل إبراهيم الشكل ، ورضى إسماعيل بالموت ، ولم لا يقبل هذا ويرضى ذاك ؟ مادام في ذلك طاعة لله ورضى ، وقد قضى الله وليس لهما عما قضاه من مرد ، وإذا أمر فقد ذهب التردد ، وذهب الاختيار ، ولم يبق للتردد ولا للاشفاق مجال .. فمن يكن قد ضحى لله بالبقروالغنم ، أو يكن قد جادله بالفضة والذهب ، فهذا قد ضحى لله بولده والولد أعز شيء في الوجود ، وهذا قد جاد لله بنفسه والوجود بالنفس أقصى غاية الوجود . وفي لمح البصر نزل من السماء فداء لإسماعيل ، فداه الله بذبح عظيم . تضحية وما أروعها من تضحية ، وفداء وما أكرمه من فداء .

شاعر الألمان بعوته

على ضفاف الرين ، وفي ظلال فرنكفورت خرج جوهان وفجانبج جوته إلى الحياة في ٢٨ أغسطس سنة ١٧٤٩ ، ، ورنى في بيت تقلب في مهاد النعيم ، ووحلىء بساط الرفاهية ، وعاش بين أبوين مختلفا سنا ومزاجا وثقافة ، فورث عن أمه الفتاة حب اللعب والمرح ، وورث عن أبيه الشيخ روح الشك والرزانة والهدوء .

ابتدأ جوته حياته العلمية في البيت فتعلم اللاتينية والإيطالية والفرنسية في طفولته من أبيه ، وتلقى عنه أيضاً مبادئ العلوم — وكان والده حائزاً لقب دكتوراه في الحقوق ..

وكانت والدته كاترينا تهص عليه القصص فتدكي في روحه الخيال والعاطفة . ثم شبت حرب السنين السبع بين النمسا وبروسيا عام ١٧٥٦ فاحتلت فرقة فرنسية كانت تساعد النمسا مدينة فرنكفورت . وكان قائد الفرقة (توران) ضابطاً ظريفاً أديباً يميل إلى رجال الفن والأدب ، فأذن لجيتي أن يشاهد حفلات المسرح المرافق للفرقة ، فازداد جوته حبا للفنون ، وولوعاً بالقصص وشغفاً بالمسرح . وقد دفعه هذا الشغف إلى تعلم الموسيقى والتصوير والرياضة ، كما تعلم الإنجليزية وهو ما يزال في نهاية الطفولة ومقتبل الشباب .. ثم قرأ التوراة ودرس العبرية ونظم قصته الشعرية باللغة الألمانية — يوسف واخوته — ، وفي سنته السادسة عشرة أرسله أبوه إلى جامعة ليبزج ليدرس علوم الدين . ولكن روح جوته التخيلية زهدته في الدراسة فأرس الفنون الجميلة ،

وعاش بين ربّات الجمال . ينهل من مورد الحب ، فيطغى ضمناً الروح والقلب ، ومكث على هذا المنوال حتى لبس جسمه رداء سقم فعاد إلى بيته مريضاً عليلًا يتنازعه الموت والحياة .. ثم لبس جوته الشفاء فمكث في منزله انراحة والاستجمام . وانهز فرصة فراغه فقرأ في علوم الكيمياء والسحر والطب ماشاء .

وبعد قليل استأنف دراسته العالية في جامعة استراسبورج . وخرج منها سنة ١٧٧١ وهو في سن الثانية والعشرين من عمره حاملًا لقبًا عليًا عاليًا ، وعبقريّة نابغة فائقة .

وأخذ يتدرب على أعمال الحمامة في فيزلار من عام ١٧٧٢ .. وفي هذه المدينة تلاقى بفنائه أحبا وأحبته وشغف بها وشغفت به ، لأدبه وكرامته ، لاللاقران به ، وكانت تلك الفتاة مخطوبة لفتى نيل يسمى ألبير سافر ليعود لخطيبته بالجاء والمال ، وبعد حين رجع إلى فيزلار ظافرا متصورا ، فصدفت عن جوته وتركته بين اليأس والانحدار ، يحجب إلى نفسه الانتحار .

واستمد جوته من حبه الأول وفنائه المرحّة ، وأمنياته المنشودة ، مصادقته الخالدة ، آلام فرتر ، وأخرجها للناس في ثوب قشيب وأسلوب رصين . تخاطب القلب والمواطن وتناجي العقل بالحكمة ، وتحدث الفكر والروح ، فنالت كل إعجاب وتقدير ، وذاع اسم جوته بعد ذلك ذيوعا عجيبا . وشاعت حتى ترجمت إلى جميع اللغات الحية بعد إخراجها بأمد وجيز . .

وبعد فرتر ، صدف جوته عن الحمامة ، ورغب في الأدب فكان ذلك سلبا لشهرته ، وسببا لخلوده ...

وكان « أمير فيمارالفرنديق شارل أوجست ، يهيم حبا بالآداب والفنون ، فقرأ فرتر ، وأعجب بها وبعبقريّة كاتبها ، فدعاه إلى عاصمته كما كان يدينه مع جميع رجالات العلم والأدب .

واستقر المقام بجوته في فيمار فاخذ ينزو المحافل الرفيعة ويتشج بأثواب المجد والجلال ، وعامله الأمير معاملة الصديق للصديق فتوطدت صلات الشاعر بالأمير وتوثقت بينهما عرى الحب والاخلاص .

وارتقى جوته الشاعر في ظلال الأمير العظيم مدارج الرقي فتقلب في الإمارة الصغيرة مناصب كثيرة حتى صار لها وزيرا .

وبعد حين توفي الأمير العظيم تاركا لفيمار اسما دائما ، ووحيتا طائرا ، ونهيبا من الخلود كبيرا .

واعتزل جوته بعد موت الإمبر من منصبه الخطير ، وعاش للأدب والتأليف
فاخرج روايات أجودت سنة ١٧٧٥ ، ووليم مستر سنة ١٧٧٧ ، وايفجينى سنة ٧٩ ،
ثم سافر إلى إيطاليا وأقام بها ثلاث سنين أخرج فيها « تركا تاسو » ، وبعد ذلك أظهر
كنوزه القصصية : « طالب الكنوز والله » ، « الراقصة » ، « القرابات
المختارة » ، وترجمة حياته الشعر والحقيقة ، « الديوان الشرقى » . وغير ذلك من المؤلفات
الخالدة التي ما تزال درة في جبين الأدب الألماني .

كانت حياة جوته في هذه الفترة متلازمة منسجمة ، فقد أمضى وقته بين القراءة
والتأليف والحب والهوى .. كما كانت هذه الفترة أخصب أيامه بما أخرج فيها من
مؤلفات قيمة هي أجل تراث للفكر الانساني الحديث .

وفي عام ١٧٩٤ اتصلت روابط الصداقة بين جوته الشاعر وشيلر الفيلسوف ،
فاكتسب جوته من صداقته روحه الفلسفية ، التي تبدو مواهبها في غضون قصصه
التي ألفها بعد ذلك التاريخ ، وبعد ذلك نشر كثيرا من القصائد الرائعة ، ثم أخرج
الجزء الاول من رواية فوست فاستقبلها الادباء بالتهليل والاعجاب .

وفي سنة ١٨٠٨ زار نابليون جوته في أفرت بعد غزوة يينا فاستقبله الشاعر بما
يليق بمكانة الامبراطور العظيم من ترحاب وولاء ، وقلده الامبراطور وساما عاليا
تقديرا لعبقريته وجهوده .

وفي سنة ١٨١٥ عين الشاعر العبقري وزيرا للحكومة دوق ساكس ديمر ،
فشغل فراغه بالتأليف وأخرج الجزء الثاني من فوست ومذكرات عن رحلته
إلى إيطاليا .

وهكذا نجد جوته جذوة مشتعلة لا يطفى طبعها المنصب ولا المشيب .

كانت حياة جوته الخصب الهادئة تلعب في سماها دائما بروق الحب والهيام ،
فأحب في شبابه وفي رجولته ، كما لم تثنه شيخوخته الطويلة التي لفته بأبرادها عن
المرأة والجمال .

ولجوته في حبه مذاهب شتى فقد هام بالمرأة وأحبها حينما حبا عذريا فيه
الطهارة والعفاف ، وحينما حبا ماجنا فيه المتعة واللذة واستيفاء شهوات النفس
الانسانية . وحينما حبا اجتماعيا لبناء البيت وتأسيس الأسرة ، وقد أفادته
هذه الحياة المرحية أيما فائدة ، فقد اتخذ خيلاته وصديقاته بطالات لرواياته

وقصصه ، وإلهاماً لقلبه وعاطفته ، وغذاء لروحه وفنه .
ومن أشهر صديقاته شارلوت إيف بطلة فتر ، وأنا اليصابات ومرجريت
بطلتا روايته الشعرية فوست ، والبارونة فون شتين التي شاطرته ردحا طويلا
أفكاره وخياله ، وآلامه وآماله ، « وبنياتا برتناو » التي خلدت في كتابها عن
جوته أسرار عبقريته وعظمته ، « وكريستيان فلييوس » التي اتخذها شريكة حياته
وهو يعدو في سن الأربعين إلى كهولته ، فكانت زهرة ناضرة في دوحة جوته
الذابلة ، ونجمة ساطعة في سمائه الداجية ، ومنها ولد له ابنه الأكبر « أوغست » ، وكانت
كما يقول « سعادته رهينة بهذه الفتاة » ، وجعلها في روايته فوست محور الرواية
وبطلة القصة .

وتوفيت كريستيان عام ١٨١٦ فجزع جوته لفقدائها أيما جزع ، ورثاها
بالدموع الغزار .

عبقرية جوته في شهرتها عبقرية شاعرة ولكنها تجمع في حقيقتها عبقرية العالم
الفنان النابغ ، فقد كان ملها بكثير من المعلومات والمعارف ، وله نظريات في النبات
والتشريح والضوء والجيولوجيا تدل على عبقريته الخارقة .

وجوته مع تعدد نواحي ثقافته محدود من علماء المشرقيات البارزين ، فقد
عنى بالعلوم والآداب الشرقية ، فنهل من مناهلها العذبة ومواردها الصافية : واطلع
على القرآن والسنة والسيرة حتى أنه شرع في نظم رواية شعرية عن محمد الرسول الكريم ،
إلا أن أعماله الكثيرة منعه من تحقيق هذا الحلم الجميل ، فترجم رواية محمد لفولثير
الكاتب الفرنسي العظيم .

وقد طالع جوته كثيرا من دواوين الشعر العربي التي ترجمت إلى الألمانية ونظم
قصائد على منوالها ، فاجتمع له منها ديوان كبير أسماه « الديوان الشرقي المؤلف العربي » ،
وهو خير تراث لجوته الشاعر العبقرى .

وفي سنة ١٨٣٢ أسلم الشاعر العظيم جوته ، نفسه للبو ، فصعدت روحه إلى
السماء ، وسطرت ذكراه في سجل الأبطال العبقرين .

أدبية وكتاب

من هذه الفتاة العربية ، التي تتحدث وفي حديثها فكرة ، وبين جوانحها سكينه ، وعلى لسانها ألحان شجية عذبة ، تغنى أناشيد القوة والحياة والآباء ؟ .

من هذه الفتاة التي تسير وإن أجهدتها السير ، وتنظر إلى الحياة بعين واعية ، وقلب كبير ، ونفس هادئة ، لا يشغلها الحزن العميق عن الفرح والتفاؤل بالحياة ؟ من هي هذه ، التي أحبت الخيال البعيد ، وعشقت الظلال الغامضة ، وجعلت اللانهاية محبوبتها ، والأشواق خمرها ، وعاشت في أحزان كثيرة أنستها كل شيء حتى البكاء — وإن ذرفت دموعها حزناً على أرض الوطن الذي اغتصبه الأعداء من أيدي أبنائه — وآمنت بأن الدموع لون من ألوان الضعف ، وإن لم ترض على بلادها بدموع الحنين ؟

من هي هذه المتعبة ، التي تريد أن تهرب من نفسها ، وتفر من قلبها ، الحائقة الساخطة على العواطف البليدة ، والقلوب المتحجرة ، الحائرة المضطربة ، بكل ما في هذه الكلمة من معان ، التي عاشت وحدها مع الأيام ، تتألم لآلام الفقير الشقي ، وللزارع يزرع الحقل لسيد ، وتتألم حتى لسطحية الأفكار وعامية الأذواق ، والتي شربت الكأس حتى الثمالة ، وهي صابرة على أحداث الليالي وآلام الغربة وأشجان الحياة ، تتغنى بالحرية وتؤمن بها في أوسع معانيها ، وتطيل التأمل في الطبيعة وتعشقها وتؤمن بالمحبة والسعادة والعمل والسلام ؟ .

إنها الأدبية السكاتبة الشاعرة دعد الكيالي ، العربية الفلسطينية المقترية زميلة د فدوى طوقان ، في الجهاد الأدبي ؛ وصاحبة هذه الموسيقى الحية التي تتجاوب مع الحياة والمثل الأعلى والنفس الإنسانية ، والتي أودعتها كتابها الأول المتسع د سكينه الايمان ، ، على الرغم من أن فلسفتها في الشك تدفعها إلى التساؤل : أين هي سكينه الايمان ؟

دعد الكيالي أدبية بطبعها ، أحبت الأدب وتذوقته ، ونطقت به شعرا منشورا وأنغاما عذبة : تكتب المقالة والقصة ، وتنظم الشعر ، مؤمنة بقلبها ، معترزة برسائنها تفنى في آثارها الأدبية التي تودعها أعز أفكارها وأسمائها ، تحب شمرها كما هو لا كما يجب أن يكون ، لأنه غناؤها وتسليحها وروح إلهامها الأبدى العميق المتصل بأعماق نفسها المؤمنة برسالة الأدب .

هي — وأخوات لها من أدبيات العروبة أمثال : وداد سكاكيني ، ونازك

الملائكة ، وفدوى طوقان ، وبنت الشاطئ ، وجميلة العلاليلى — ترفع فى قوة وعزم وصلابة رأى علم الأدب النسوى الجميل فى نهضة العربية والعروبة الحافلة بأسباب القوة والحياة . . وهن جميعا يذكرننا بأخوات هن أضفن إلى الأدب العربى على مر العصور ألوانا جميلة من المشاعر والتصورات والخيالات وفنون البيان . من أمثال الخنساء ولىلى الأخيلىة وولادة وعائشة التيمورية ومى .

ولدعد الكيالى سماتها الخاصة فى أدبها ، إنها تؤمن بالبساطة فى الأسلوب ويمتاز أثرها بالجمال فى التعبير ، وبفتون الخيال وسحره وثورته ، وبصدق العاطفة وقوتها واستوائها وسذاجتها ، تحب الخيال وتهرب على أجنحتها من عذاب الواقع الضيق المحدود ، وتتناول فلسفة الكون والحياة ببساطة عجيبة ، وتصور فى أدبها عقلا الذى يشك فى كل شىء وهو عميق الايمان ، وتنادى فى قوة : « البساطة شعارى والطبيعة كتابى ، والحياة مدرستى ، والصدق مذهبي ، والاخلاص مبدئى ، فى هذه الحياة » ، وتردد فى ثقة : « إما أن أكون شيئا وحيدا عظيما ، وإما أن لا أكون مطلقا فى هذه الحياة » . وذلك هو سر ما نراه فى كتابها الأول من روعة وحيوية وقوة لا نراها فيما يؤلفه أدباؤنا الكبار ، لأنها لم تؤمن بالحد الوسط أبدا فى حياتها ، كما ترى الطبيعة سلواها ، والآلام نجواها .

عاشت أديبتنا على الآلام وهزتها أحداث الحياة من حولها هزا عميقا ، وشعرت بأن الزمن يحاربها ، ككل فلسطينى وفلسطينية ذاقا بأيدي اليهود فى فلسطين مرارة الاغتراب ، إن أشجانها لتبدو فى صورها الأدبية الجذابة التى تستحق إعجاب الناقد ، تقول دعد فى غفوة الحزن العميق : « لا الصلاة تعزىنى ، ولا المجد يغربى ، ولا الطبيعة تسلىنى ، ولا الذكرى تواسىنى ، ولا الاحلام تصيبى » . ثم تفيق قليلا فتردد : « ساعنى فلعل الآلام تخرج مع صوتى » ، وتقول :

« الموت فى قلبى ولكن فى عيني الحياة ، فى عيني حياة الموت ، وفى قلبى موت الحياة أبداً إن أبكى فإنتى أكبر من البكاء » . ثم يعود إليها إيمانها فنراها تقف فى ميدان الحياة مرددة : « نزلت سكينة الايمان على نفسى المترددة المضطربة فقوتها وثبتتها » ، هذا الايمان العميق هو الذى تتحدث عنه وتصفه فتقول : « أنا مؤمنة بربى ، مؤمنة بنفسى ، مؤمنة بقلبى » . . وفى لحظات من السعادة النفسية العميقة ، والشعور الخفى المنبعث من عقل باطن يقظ تأخذ الأدبية فى تحليل نفسها وعواطفها ، فنراها تقول : « أنا سعيدة ، وسأقول دائماً إننى سعيدة » ، و « ساعنى وأبسم » فإذا ما عادت إليها .

أشجانها تصورات المموج حلوة جميلة ، فكتبت تقول : « ما أحلاك أيها المموج » .

إن أدبيتنا حين تعزل الحياة والأشياء ترى الحياة جميلة ، وتشعر بسعادة هادئة ، وبظلال السكينة والطمأنينة والسلام ، وتعتقد أن المرح طبع أصيل فيها ، وأنها لم تفقد الأمل ، وتنادى إيمانها العميق ليزفوا دهاويبعثه على جلائل الأعمال ، وترى أن نفسها دائما طروب تترنم ، وأن الابتسامة ستظل مطبوعة على شفيتها ، مهما ادهمت الأحداث ، وبهذا التفاؤل الروحي تسير دعد في الحياة .

دعد التي فقدت وطنها ، وأسر أخوها وماتت أمها ، واغتربت في دمشق وبغداد والكويت ، ومرضت جدتها فتمنت لها الشفاء ورؤية الأعراف في أرض الوطن ، وتسلمت بغابات النخيل على شواطئ جدول النجف ، وقالت للناس في نعمة أخاذة : « بي ضيق ، بي حيرة ، بي ألم ، أين مني جمال الأمس ، وأين مني أحلامه ؟ » وتساءلت : « أين النور ؟ » ، ونادت : « قطرة من الماء يارب » ومرضت فرأت أشباح الموت قريبة منها ، ومقتت الناس الذين لا يعرفون غير الأخذ دون العطاء ، وجثمت الحيرة على صدرها .. هي هي نفسها دعد الممتلئة إيمانا بنفسها وبالله وبالحياة ، الثائرة في وجه الأقدار ، تحدث قلبها : « اتد يا قلب فستسطر بدمائك سطور أمجادك وآلامك ، ستحيا ولكن لتنتقم من الموت والحياة ، ستحيا ولكن للذكريات وليس لغيرها » .. إنها تجرب الشك وهي مؤمنة من أعماق قلبها تنادى في السكون « لقد ضللت يارب فاهدني » ، « يارب اسكب في قلبي المحبة ، وفي روحي الطمأنينة والسلام » ، « أنت عادل يارب وإننا ظالمون معتدون حينما نسألك عن سر عدلك ، وذلك لأننا ملئنا بملكك وأنت حر في ملكك ، وليس علينا غير تمجيدك وحمدك » ، وإيمانها العميق هو الذي دفعها إلى الاستسلام للحوادث ، وتوطين النفس على كل شيء .

إن أدب دعد لفريد : في غزارة معانيه ، وسعة خياله وخصبه وعمقه .. وهو مظهر لعقلية ملهمة مفكرة ، تقول في سخرية وفلسفة وشك وحيرة : « الأقدار عمياء فلم نسير في هذه الحياة مبصرين ؟ الأقدار ظالمة فلماذا نسير في هذه الحياة عادلين ؟ إن كان غيرنا يجلب إلينا الضرر فلم نجلب له النفع ؟ أريد أن أسير في هذه الحياة سيرا أعمى ، أريد أن أعطل عقلي فلا أفكر ، أريد أن أغمض عيني فلا أبصر ، أريد أن أصم أذني فلا أسمع ، لماذا أنتقم من نفسي بالشعور بالمرهف الحساس ؟ » .

فإذا تركنا دعدا في فلسفتها وحيرتها وشكها وتحليلها للعواطف الإنسانية النبيلة في الحياة ، فإننا سرعان ما نجد ما نجد أنفسنا تأخذ علينا الطريق من ناحية أخرى ، وتستبد بإعجابنا في أدبها القوي الحي في وصف ما قدرته الأيام لوطنها المبيض من مصير ، وحسبك أن تقرأ لها قطعها الممتعة « يقولون » : « يقولون إنه كان هناك مدن جميلة آمنة دافئة بالنشاط .. الخ » ، أو أن تقرأ لها ما ساءت العرب الدامية ، في الاندلس الشبيهة بمصرع فلسطين العربية ، أو أن تقرأ ما سوى ذلك من أدبها النخب الجليل ، فإنك ولا شك ستجد « دعدا » طرازا فريدا في أدبنا النسوي العربي والقومي والانساني في العصر الحديث .

وبعد فسكنة الايمان ليس كتابا ، ولكنه ثورة أدبية ، تسير منطلقة لتجدد من صورنا الادبية ، ولتبعث في نفوسنا الثقة بنتاج العبقريّة في أدبنا المعاصر ، وأحسب القارئ واجدا للخطوط الرئيسية لهذا الادب الجديد القوي الصادق الجذاب التي وجدتتها أنا ، في مقدمة الادبية لكتابتها ، في هذا الاهداء ، في ذكرى أمها العزيرة في عالم الأبدية ، في موسيقى أسلوبها الجليل التي تشدو بها وهي تقول : « ما أجمل اسمك يا أماء ، إنني لم ألفظه لم ألفظه منذ تلك الايام السعيدة الباسمة ، إنني لم ألفظه حتى لقلبي ، وإنني ألفظه الآن كطفل فقير يضع في فمه قطعة من الحلوى التي لم يذوقها منذ عهد بعيد ، ولكنني ألفظه متأوّهة باكية ؛ بينما يعضغ ذلك الطفل قطعة الحلوى بلذّة وشغف ؛ إنني ألفظه والغصة في حلقى ، ودموعي تنحدر على وجنتي بحرارة وعمق » .

ولا ترك القارئ يتذوق وحده « سكنة الايمان » ، ويحكم عليه بملكات الناقد الأمين .

وطنية خالدة وأزاهير الصحراء

الأديب العربي الكبير ، الأستاذ روكس بن زائد العزيزي الأردني ، من صفوة علماء العربية وأدبائها وكتابتها ، وله مؤلفات كثيرة خضبة ممتعة ، تدل على طبع أصيل ، وذوق رفيع ، وملكات موهوبة ، ومنها : كتابه المشهور « المنهل في تاريخ الأدب العربي » ، وقد صدر منه جزآن ، ويعد الجزء الثالث منه للنشر ، والكتاب موسوعي الدراسات ، ويمتاز بدراساته عن الأدب المعاصر في البلاد العربية عامة ، وفي الأردن خاصة ، وكذلك كتابه الزابقي وهو سلسلة من المختارات في الأدب العربي ،

وقد صدر منه حتى اليوم خمسة أجزاء ، ويعد خمسة أجزاء أخرى للنشر ، وتقديراً للكتاب ومؤلفه قررت وزارة المعارف العراقية تدريسه في مدارسها المختلفة . . ومن كتبه المطبوعة كذلك : سدة التراث القومى ، وأبناء الفساسة .

أما كتابه الذى نتحدث عنه الآن ، وهو « وطنية خالدة » ، فهو أحدث إنتاجه الأدبى ، وقد قامت بطبعه ونشره مجلة العرفان بصيدا ، ويقع فى ١٢٠ صفحة من القطع الصغير ، وقد قدم له صاحب العرفان الأديب الأستاذ أحمد عارف الزين بكلمة ، أشاد فيها بالمؤلف ، ونوه بمكانته الأدبية ، وبكتابته النفيس « وطنية خالدة » .

وكتب العزيزى إهداء الكتاب إلى أخيه الحبيب توفيق مرار ، رمز تقدير ومحبة .

والكتاب عبارة عن أقاصيص متنوعة ، تمثل الحياة الأردنية فى حاضرها الراهن ، وماضيها القريب ، خير تمثيل .

ويبتدىء الكتاب بقصة الفساسة ، التى ترمز إلى اعتزاز الأردنى بوطنه ، وبذاته النفس والنفيس من أجل بلاده ، وهى قصة حقيقة وقعت حوادثها عام ١٨٣٢ فى الكرك من أعمال شرق الأردن ، وبطلها هو الزعيم إبراهيم الضمور رئيس إحدى القبائل العربية الكبيرة فى الأردن ، وزعيم الكرك ، وتفصل القصة مواقفه الوطنية الرائعة لإبان فتح إبراهيم باشا للشام ، وتضحيته بولديه ، ورفضه التسليم لجيش إبراهيم ، فى أنفة وعزة وكبرياء ، والقصة رائعة التصوير ، دقيقة التفصيل لحياة الأردنيين الاجتماعية ، ولعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ، وهى بحق من أروع القصص الصغيرة التى قرأتها .

وينتهى الكتاب بقصة ممتعة عنوانها الريبة ، وبطلتها امرأة عربية تدعى خضرة غاب زوجها ، وبقيت وحدها هى وطفلها فى خيمتها بين مضارب البدو فى الصحراء وأرادت النوم فلم يطاوعها النوم ، وظلت قلقة حائرة مضطربة ، لغياب زوجها فى الصحراء ، ولميبتها منفردة دون حارس ، وأخذت الا وهام تلاحقها ، ثم شاء زوجها أن يعود ، وأن يختبر خلقها وعفافها ، فاقتحم خيمتها متسكراً فى آخر الليل ، وإذا المرأة تهب مذعورة حين ترى يدا تمتد إليها وتلامس شعرها ، وإذا هى لاسلاح معها تدافع به عن نفسها ، إلا وتد صغير خباته تحت وسادتها ، وإذا هى ترفع هذا الودد الحديدى وتدمى به وجه الرجل وعينه ، فيخرج الرجل ، ويعيش فى الصحراء ، يداوى جروحه ، وإذا هى قلقة على زوجها الغائب الذى لا تعلم سبباً لغيابه الطويل

هذا ، وإذا هي تخرج اليه في الصحراء ، فتري وتعرف الحقيقة الالهية ، والنهاية المحزنة لريبة زوجها بها ، فتبدأ آلاما جديدة ما كانت لها في حسابان .. والقصة حافلة بالصور والكثيرة للحياة الاردنية في شتى ألوانها ومشاهدها ومظاهرها .

وبين هاتين القصتين قصص كثيرة ، منها القصص التي لها هدف اجتماعي وإصلاحى مثل : فريسة التقاليد ، والتمردة وسكرة الموت والشرف المظلوم وسواهما ، ومنها ما ترمز إلى مثل عليا وأخلاق إنسانية رفيعة مثل : دموع فتاة ، وأيام الحصاد ، وضحايا الوفاء ، وغيرها .. ومنها ما يمثل عادات الأردنيين ؛ ومنها ما يشير إلى وطنيتهم وأنفقتهم وشممهم .. ومن هذه القصص القصير والمتوسط .

ومهما كان موضوع هذه القصص ؛ فكلها تحتوى على خير الصور عن الاردن في حاضرها وماضيها القريب ، وعن حياة سكانها وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ومظاهر معيشتهم المختلفة ، وهو من هذه الناحية سجل فريد للحياة العربية المعاصرة في هذه البلاد ، أو قل لحياة الشعب نفسه فيها .

والكتاب - بما يحتوى عليه من قصص - قوى في تصويره ؛ يمتنع في تعبيره ، جذاب في عرضه وتسلسل حوادث القصة فيه .. أما لغته فهي لغة الشعب نفسه ، اللغة العامية التي لا تزويق فيها ولا تكلف ، لغة التخاطب والحديث بين الناس في شئون حياتهم المختلفة ، ومن حسن الحظ أن هذه اللغة العامية في الاردن قريبة إلى العربية الفصحى . ، ولا شك أن الكتاب يعد مرجعا خصبافريدا لللهجة العامية العربية الحديثة في الاردن ، ومن هنا يكتسب الكتاب ميزة جديدة أخرى له .

قصة الأزهر الجامعى بعد عشرين عاما

الأزهر القديم حافل بالذكريات المجيدة الخالدة المشهورة ، التي فصل الحديث فيها المؤرخون والباحثون .

أما « أزهرنا » اليوم فلا حول ولا قوة إلا بالله ، فليس فيه من الأزهر القديم شبه ، وليس بينه وبينه صلة ، وهو حائر الرأى ، متبعثر الخطى ، كإنما يريد أن ينقض ، إشفاقاً على حملة تراثه ، من جسامته المسئولية ، وفداحة التبعة ، وهول الحساب .. وأما « أزهرنا » في الغد ، فأتخيله منارة مشرقة ، وجامعة تعود إلى فهم رسالتها ، وإلى أدائها ، وإلى الجهاد مرة أخرى من أجل الاسلام والمسلمين وتقدم النهضة الفكرية ومن أجل ازدهار حركة الاحياء والتجديد والاصلاح الدينى .. وسيكون الفضل في ذلك راجعا إلى يقظة الرأى العام في الأزهر بعد سنوات ، وإلى انتباه الشباب فيه

بعد غفلة ، وإلى حرص الأئمة والمسؤولين على إصلاح الأزهر وتجديد معالم النهضة الدينية والعلمية في أرواقته ومحاربه :

سيكون الأزهر بعد عشرين عاما جامعة هيكلا وروحا ورسالة ، بعد أن كان في القديم جامعة بهيكله ، وبعد أن كان في عصرنا الراهن جامعة اسما فحسب .. وستؤدي هذه الجامعة الأمانة العلمية والدينية الملقاة على كاهلها على خير الوجوه وأجملها ، وستعود حلقات الدرس في الأزهر إلى نشاطها العلمي من جديد ، منقحة ومحقة ومجددة مبتدعة ، وسيحفل الأزهر آنذاك بعدد الأعلام من بنيه ، الذين سيكونون خير سند لمنهضته الفكرية والروحية .

وستتملى نفوس الأزهريين بعد عشرين عاما بالعزة والكرامة ، فلا تجد فيهم ضعيف الرأي ، أو منافق اللسان ، أو هداما يستر عيوبه بالحق على الناس ، أو أنانيا يسعى لنفسه ولو كان في ذلك الهلاك للجماعة .. وستقوى صلة الأزهر بالأمة ، فتنزله منها منزلة الرائد الأمين ، ويحلمها من نفسه مكانة عزيزة بالتوجيه والإيثار والنصح ، والدعوة إلى المثل العليا الكريمة التي يدعو إليها الإسلام الكريم .

أما مناهج الأزهر وكتبه وكنوزه القديمة فسينالها ثورة العصر الجديد ، فتعود كنوزنا العلمية إلى التأثير في العقل العربي الحديث تأثيرا قويا نافعا ، وتصبح مناهج الأزهر وكتبه ونظمه محقة لرسائله الجامعية الصحيحة .. وسبكون منصب « شيخ الأزهر » بالانتخاب من حملة الدكتوراه أو ما يعادلها من الأزهر ، وسيعود لمنصب المشيخة سالف مجده ودظامته وهيمنته الروحية الكبيرة على العالم الاسلامي كافة ، وستنال جماعة كبار العلماء ولجنة الافتاء ومجلة الأزهر ومكتبته وأرواقته ومعاهده وكلياته وبعوثه الاسلامية نصيبها من الاحياء والبعث والتجديد ، وستسهم البحوث الاسلامية الأزهرية في ميادين النشاط الديني والعلمي بنصيب كبير ، وستحمل مدرجات الأزهر أسماء الخالدين من أبنائه .. ويطلق على الكراسي العلمية المنشأة في كلياته كذلك أسماء الأعلام من علمائه .. وسنرى مدينة الأزهر الجامعية ، واتحاد الأزهر الجامعي ، وحفلات الذكرى الألفية لإنشاء الأزهر ، واللغات الحية التي تدرس في جميع أقسامه وفروعه ، وقلوبنا يملؤها البشر والفخر والاعجاب .

وسوف تقيم كليات الأزهر مواسم علمية وأدبية ضخمة ، وسيعلم أنذاك عن رحلات طلبة كليات الأزهر في البلاد العربية والاسلامية خلال إجازة نصف السنة وفي الإجازة الصيفية .

وسيكون في كلية اللغة عدة كراسى علمية ، للنقد الأدبي ومذاهب الأدب وأصول النحو والبلاغة واللغات السامية واللهجات القديمة والحديثة ، وسيتبعها معهد للصحافة وتنطق باسمها مجلة علمية ضخمة ، وسيعلن عن مناقشة رسالة للدكتوراه فيها آنذاك ، عنوانها : « مذهب أدبي جديد » ، يبشر صاحبها فيها بالمثالية الأدبية .. وفي كلية أصول الدين ستنشأ كراسى أخرى للفلسفة والتصوف الاسلامي وعلم الأخلاق الديني وعلم الاجتماع ومناهج الوعظ ، وسواها . وسيعلن آنذاك عن مناقشة رسالة للدكتوراه فيها موضوعها « فلسفة الشك » بن ابن عربي وديكارت ، وعن مناقشة رسالة ثانية موضوعها « علم الاجتماع بين أرسطو والفارابي وابن خلدون وغوستاف لوبون » ، وسيكلف أحد طلبة الدكتوراه فيها آنذاك على كتابة رسالة عن « الذرة عند فلاسفة الاسلام » .. وفي كلية الشريعة ستنشأ كذلك كراسى علمية جديدة لأصول الاجتهاد والقانون « المقان » ، والشريعة الاسلامية ومذاهب المجتهدين وسواها ، وسيعلن عن قيام طلبه الدكتوراه في الكلية بنشر مجموعات القوانين الجنائية والمدنية والاقتصادية والقانون الدولي في الشريعة الاسلامية ، وستناقش رسالة للدكتوراه عنوانها أصول مذهبي الأوزاعي والليث بن سعد .. وستبادل الجامعات في الشرق والغرب رسائل الأزهر العلمية .

ومن أهم حركات التجديد في الأزهر توطيد النظام الجامعي ورفع مستوى الكادر الجامعي في كلياته وتبادل الأساتذة بين الأزهر وشتى جامعات العالم ، وستقوم الدول الاسلامية بعبء الأموال اللازمة للبعوث الاسلامية الازهرية ، وسيتولى الأزهر الاشراف على المساجد والمعاهد الكبرى في العالم الاسلامي . وستعلن جامعة هارفرد ، عن قدوم أستاذ أزهري زائر فيها لتدريس « أصول التشريع الاسلامي وأثرها في نشأة علم الاجتماع وفي الحضارة العالمية » .

ويومذاك سيكون للأزهر معاهد علمية ثقافية في الخرطوم وإشبيلية والقدس وكراتشي وبغداد ولندن وبرلين وباريس ونيويورك ، وسترسل ثلاثون بعثة علمية لشتى جامعات الغرب .. وستستعين جامعة إيران وجامعة موسكو وبرلين ولندن والسوربون وجامعات الهند والصين وباكستان وسواها بأساتذة من الأزهر . ومن أهم ما سنراه في الأزهر بعد عشرين عاما تبادل الطلاب بين كلية اللغة وكليات الآداب في مصر والغرب ، وبين كليات الشريعة وكليات الحقوق ، وبين كلية أصول الدين وكليات الفلسفة في الغرب ؛ وكذلك اعتراف الجامعات في العالم بشهادات الأزهر

العلية ، وسيدرس الطب العربى القديم فى الأزهر ، وسيباح لخريجي كلية أصول الدين فتح « عيادات » نفسية للطب النفسى العلاجى . وسيكون لخريجي الأزهر دخول الكلية الحربية عاما واحدا يمنحون بعده رتبة عسكرية ويعملون فى الجيش فى شتى وحداته ، وسيكون القائد العام للجيش المصرى آنذاك أزهري التعليم ، وسينشئ الأزهر كلية جامعية للفتاة المصرية .. وستنال المعاهد الابتدائية حظها من الرعاية والتجديد والإصلاح ، ويباح تبادل الطلاب بين الأزهر والمدارس الابتدائية والثانوية ، وسيوحد الزى بين الأزهر والجامعات المصرية .
ويومئذ سيكون الأزهر الصرح الإسلامى الأكبر فى البلاد الإسلامية .

فهرست الكتاب الرابع

صفحة	الموضوع
١٣٤	من قصصنا الاجتماعى
١٣٥	فى العيد
١٣٦	تضحية وقداء
١٣٨	شاعر الألمان جوته
١٤٢	أدبية وكتاب
١٤٥	وطنية خالدة وأزاهير الصحراء
١٤٨	قصة الأزهر الجامعى بعد عشرين عاما

الكتاب الخامس

أبو الطيب المتنبي شاعر العربية

٢٠٣ - ٥٣٥٤

قصته

حياته وطموحه وعبقريته

حياة الشاعر

نشأة الشاعر :

حياة أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي قصة رائعة من قصص البطولة ، ورواية حافلة بألوان الطموح إلى المجد ، والنزوع إلى الرفعة ، وصدى مدو لما تعانيه النفس الكبيرة من آمال ، وما تجيش به الهمة العالية من رغائب .

ولد بالكوفة من أبوين فقيرين ، وكان أبوه سقاء بها ، ثم تنقل به بينها وبين بلاد الشام ، يسلمه إلى المسكاتب ، ويردده في القبائل ، ويسرحه في البوادي ، حتى إنه قضى زمنا طويلا في بادية السماوة يتلقى عن الأعراب ، ويشافه أرباب الفصاحة . ولعل هذا هو السر في تمكنه من اللغة وإحاطته بأسرارها ، وهو في هذه البيئات الأدبية يشب على الفصاحة ، ويكرع من حياض البلاغة . وغنايله تنطق بما ينتظره من مجد ، وتبشر بإمامته في دولة البيان .

أقبل في طفولته على الدراسة والعلم يلتمسهما التهاما في مكاتب الكوفة ومساجدها وحلقات العلم فيها ، واختلف إلى مجالس الأدب ومكاتب الوراقين اختلافا إلى أعراب البادية ، حتى تم له ما أراد من نضج الثقافة واكتمال الشاعرية .

والكوفة بمساجدها ومكاتبها وحلقات العلم فيها ، وبأتمتها في الدين واللغة والأدب والبيان والشعر ، أحفل بيئة في ذلك العصر ، وكانها جامعة كبيرة تخرج الشباب إلى الحياة مزودين بثني الثقافات ، فتلقفهم مصر والشام وبغداد وغيرها من العواصم

انتهى لهم سبيل المجد في بلاط الخلفاء والأمراء . والكوفة بعد ذلك مسرح لصراع عنيف بين شتى الأحزاب والفرق الإسلامية ، من شيعة وخوارج ومعتزلة ومرجئة وغيرها ، وفيها الراية العباسية تظللها حيناً ، وتعصف بها ثورات القرامطة ، ودعوات الاسماعيليين أحياناً أخرى ، وفي هذه البيئة واصل أبو الطيب دراسته ، متصلاً برجال الكوفة كآبي الفضل الكوفي وسواه ، معللاً نفسه بكبار الآمال ، وعذاب الأمانى ، يردد هاهنا قصائد من شعر الشباب تنضح بشعوره وطموحه وأحلامه ، متخذاً من سمو حسبه في أدبه بديلاً عن ضعة حسبه في نسبه ، مفتخراً لا بأبائه وأسرته ولكن بنفسه وعصاميته ، متطلعا إلى سبيل المجد يسلكها بعزيمة وقوة واتضحية .

إلى الشام :

وطارده شبح الطموح والمجد حين ضاقت الحال به في وطنه فهاجر في سن السادسة عشرة إلى الشام ، وفي صدره فؤاد يدفع آلام الحياة بعجيج الآمال ، وبين جذبيه نفس كبيرة فضجت ثقافتها ، ونبغت شخصيتها ، وتفجرت شاعريتها ، فتطلعت إلى مجد أدبي كبير ومستقبل سياسى خطير ، تلبس هذا الطموح البعيد في أبياته :

أى محل أرتقى أى عظيم أتقى
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر فى همى كشجرة فى مفرقى

وتنقل الشاب بين بوادى الشام وحواضرها ، ولكن الحياة لم تمنحه السعادة المرموقة ولا الآمال المرتجاة ، فامتلات نفسه ثورة وصم على أن ينهج سبيلاً جديداً : ضاق صدرى وطاب فى طلب الرزق قيامى وقل عنه قعودى
أبدأ أقطع البلاد ونجمى فى نحوس وهمى فى سعود
عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح أذهب للغيظ وأشفى لغل صدر الحقود
وانتهى به المطاف إلى اللاذقية ، فأقام يذيع فيها آراء مسرفة فى السخط على الولاة الذين ملأوا البلاد جوراً ، وفى التبشير بإمارة جديدة يقام فيها على يديه للحق صرح جديد يكون منارة العدالة فى ظلمات الحياة الاجتماعية إذ ذاك .

وسار أبو الطيب بدعوته - التى مزج فيها السياسة بالدين على نهج الدعوات التى شاهد القرامطة يقومون بها فى الكوفة - فى طريق التنفيذ ، فخرج إلى أرض من أقليم حمص ، ليعان فيها الثورة بتأييد بعض أنصاره ومريديه ، ولكن يقطعة أولؤ والى

حمص جماعته يشعر بمراحمي أبي الطيب فاعتقله ، وأبث في السجن بضع سنين ، وهكذا قذف به الطموح إلى تضحية ليس بعدها من نهاية ، وإن كان أبو الطيب لا يزال بأية تضحية يبذلها في سبيل آماله :

فاطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود
واستشفع الشاعر إلى الوالي بقصائد كثيرة نفى عنه فيها كل تهمة وأخذ يردّها إلى
وشاية الحاقدين ورماية الناقين :

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلي وأوهن رجلى ثقل الحديد
فما لك تقبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر الشهود -
فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبان بمحك اليهود
وكن فارقا بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد

وأخيراً أطلق سراح الشاعر فتجددت في نفسه آماله ، وأخذ يناضل في سبيلها بإسلاح
من عاطفته وفنه وإلهامه ، بعد أن قل سيفه وكل رنحه في محاولاته وثوراته ، ونشد
الشاعر الإمارة والولاية في ظلال الملوك والأمراء فسعى اليهم بمواهبه الشعرية القوية
الأسباب الرائعة الأشجان ، طالباً منهم لنفسه المجد والإمارة وأسباب الحياة ، فاتصل
بعلي بن المنصور الحاجب وبدر بن عمار من ولاية الشام ثم سار إلى أبي العشائر وإلى
أنطاكية من قبل سيف الدولة فامتدحه ، وأكرم أبو العشائر مشواه ،

ووثق به أسبابه ، وفتح له باب الأمل على مصراعيه من جديد ، حتى قدمه إلى
سيف الدولة حين قدم أنطاكيه سنة ٣٣٧ وأثنى عليه عنده وعرفه منزله في الشعر
والآداب ، فضمه الأمير إليه ، وحسن موقعه عنده وعلمه الفروسية والطراد ،
وأفعم وطابه .

في ظلال سيف الدولة :

نعم المتنبى في ظلال سيف الدولة ، بيد أن نفسه أبث عليه أن يكون مظهره مظهر
رجال الحاشية الذين يفتنون شخصياتهم في شخصية العرش ، فشرط عليه أن يعفيه من
قيود التقاليد وأعباء المراسم فلا يكلف تقبيل الأرض بين يديه ولا أن ينشد شعره
قائماً في مجلسه وألا ينظر إليه إلا نظرتة إلى الصديق الحميم ، وقيل سيف الدولة ، فأقام
أبو الطيب في بلاطه تسع سنين ، لم ينس فيها آماله وأمانيه ، وكان يرى نفسه خلالها
صديق الأمير ومستشاره والعزيم المسكين لديه ، فالازمه في سلمه وحربه ، وجهده

ولطوه وحله وترحاله ، ينفحه الأمير بنعيم الحياة ، ويهبه الشاعر مجد الأدب وعز الأبد ، ففي كل مناسبة خطيرة ينشد الشاعر الأمير قصيدة يسجل فيها عواطفه ومشاعره وآماله ويرسم فيها شخصيته ونفسيته ، ويذكر فيها ما تستدعيه هذه المناسبة الحافزة من معان تدور حول الإشادة بالأمير والثناء عليه وذكر بلائه في الحروب وسياسته للدولة وقتكه بالأعداء وبطشه بالعابثين ورحمته للعافين ، وقد لا تزيد هذه القصائد في العام على ثلاث . وكانت هذه الحقبة أخصب طور في حياة الشاعر وشاعريته ، ففيها عاش بحلب في بلاط سيف الدولة ، الذي تسلم العرش بعد والده من (٣٣٣ — ٣٥٦) فأسكن الفتن ووطد دعائم الملك ورد عادية أعداء الدولة من الروم والأخشيديين والفاطميين وسواهم ، وفيها عاصر أبو الطيب النهضة الأدبية واللغوية التي رعاها سيف الدولة ، والتي كان من رجالها أبو فراس ابن عم الأمير والسرى الرفاء والسلامي وأبو العباس النامي (١) وكشاجم والخالديان وأبو الفرج البغفاء وابن نباتة السعدي ، وسواهم من الشعراء .

وفيها اتصل في بلاطه بابن نباتة الخطيب وابن خالويه النحوي وأبي الطيب اللغوي الأديب والفارابي الفيلسوف وسواهم من رجال الدولة وزعمائها في الدين والأدب وفي الفكر والثقافة وفي السياسة والاجتماع ، مما كان له أثره الفكري والأدبي في نفس أبي الطيب ، وفيها رأى الشاعر عيون النقاد والمنافسين ترنو إليه وأسماعهم تصغى له فأذكت المنافسة عاطفته ، وهاجت شاعريته ، وفيها كانت تجيش في صدره كل حوافز الشعر ودواعيه من الشباب الناضر والمجد الباهر ، والشاعرية الطامحة ، مما كان يحفزه إلى الجودة في القول والابداع في القصيد ، حتى إنه لما فارق بلاط الأمير فقد الكثير من هذه الحوافز والأسباب فتجوز في قوله وأعفا طبعه واغتم الراحة كما يقول المتنبي نفسه .

ولم يكن أبو الطيب في شتى اتصالاته « تاجرا من تجار الأدب » (٢) ، كما ظن بعض الباحثين الذين جهلوا نفسية أبي الطيب وغاياته فرموه بالجنون حين التجأ إلى أمير بعد أن كان يطلب لنفسه الإمارة ، وبالتجارة بالأدب بعد أن كان يطمح إلى أسمى ما يطمح إليه الطامحون ، وايتهم علموا أن قصائد أبي الطيب التي كان يهديها إلى الملوك

(١) توفي عام ٣٩٩ عن تسعين عاما ١/٤٦ ابن خلسكان

(٢) ١١٩٤ إلى ١١٩٩ العدد العاشر من الحلال عام ١٩٣٥

والأمراء ، إنما كانت وسيلة إلى المجد ولم تكن مدائح بالمعنى الضيق المحدود . إنما كان أغلبها تصويراً لنزعات الشاعر واتجاهاته وآرائه في الحياة ، وإشادة بنفسه هو قبل كل شيء ، وقد عاش رجال الفن والأدب في كل العصور على اتصال برجال السياسة ووجدت أمثال هذه الصلات في الغرب كما وجدت في الشرق : ورعاية أصحاب العروش للنهضات الفكرية والأدبية ولرجال هذه النهضة لم يزر بها ناقد عربي ، وكان لها أثرها الخطير في توجيه الحياة الإنسانية في شتى مناحيها ونزعاتها .

جفوة :

وغيرت الحوادث قلب الصديقين : الشاعر والأمير ، فكبرياء المتنبي ، وكثرة منافسيه ، وشاياتهم به — لاسيما أبو فراس الأمير — ، وثورة النقد والخصومة بين أبي الطيب وابن خالويه في مجلس الأمير ، وطموح المتنبي وعدم وصوله في ظل سيف الدولة إلى كل ما كان ينشده من آمال كبار . كل ذلك كان له أثره في هذا التطور الجديد ، وسكن الشاعر سكون من يتبين اتجاهات الأمور وعواقبها ، ولكنه لم يعد يجد في الأمير صديقه الوفي ، ولا في صداقته عزته العزيزة لديه ، وقاتل الله غربة الرجل في وطنه :

شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وأخذ الشاعر يلوح له بما في نفسه وبالتمايح الدامية التي تعقب هذا الجفاء :
يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
ما كان أخلاقنا منكم بشكرمة .. لو أن أمركم من أمرنا أمم
إن كان سركم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاكم ألم
ويبتسما لو رعيتم ذاك معرفة إن المعارف في أهل النهى ذمم
أرى النوى تقتضي كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركت ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
وما ضمير إلا جبل عن يمين السائر في الطريق من الشام إلى مصر فهو يصرح له بأنه إذا اضطر إلى الخروج من بلاطه فسيئد لأنه لا بد ذاهب إلى بلاط أعدائه الإخشيديين .

إذا تزحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

رحيل :

وأخذ أبو الطيب يحمل حملاته العنيفة على خصومه ومنافسيه فلم يبق أمل في

الوثام ، نخرج أبو الطيب من حلب إلى دمشق حيث زين له أحد أتباع كافور أن يرحل إليه بمصر فيسمع وجهه شطر مصر قاصدا بلاط بني الإخشيد ، وكفت صلات الصداقة القديمة المباشرة الشاعر عن أن يرمى الأمير بداهية من لسانه وآبدة من شعره . ولكن سيف الدولة لم يترك الشاعر حذارا من لسانه ومن أن يطلع أعداءه على أسرار دولته فأرسل إثره الجنود ليردوه فرجعوا خائبين ، وكانت هذه منة امتن بها الشاعر بعد على كافور .

فلو لم تكن في مصر ما سرت نحوها بقلب المشوق المستهام المقيم
ولا نبحت نخيل كلاب قبائل كأن لها في دياجى الليل حملات ديلم
ولا اتبعت آثارنا عين قائف فلم تر إلا حافراً فوق منسم
وسمنا بها البيداء حتى تفجرت من النيل واستدرت بظل المقطم
في بلاط كافور :

واستظل الشاعر بظل المقطم كما يقول ، فنزل في فناء كافور عام ٣٤٦ ، وكانت الخلافة العباسية آنئذ في ضعف سياسي ، وولاية الأقاليم في شبه استقلال عن الخلافة وعهد الخليفة الراضى إلى محمد بن طنج الإخشيدى في القيام بأعباء الحكم في مصر عام ٣٢٣ فاستقل بها استقلالاً داخلياً ، وأخذ يوسع حدود بلاده شمالاً في ملك الحمدانيين ، وكان كافور مولى الأمير آنس فيه الكفاءة ، وحسن التدبير ، ونضوج الثقافة ، فعهد إليه بتربية ولى عهده ثم عينه عام ٣٢٣ قائداً للجيش التى أرسلها لهدم هجمات الحمدانيين على دمشق وحصص ، ولكن الأجل أسرع بابن طنج ، إلى لقاء ربه فأعلن كافور ولاية ابنه العرش وأقام نفسه مقام الوصى عليه يدبر الأمور ويسوس الدولة ، ومات الملك الطفل بعد بلوغ سن الرشد بقليل ، فانفرد كافور بالامر وظل يحكم مصر ثلاثاً وعشرين عاماً (٣٣٤ - ٣٥٧) ، وكان اسم أبى الطيب وشاعريته قد ذاعا في أرجاء العالم العربى إذ ذاك ، ثم علم كافور أن الثرى قد جف بين الشاعر وسيف الدولة ففاوضه ليتوجه إلى بلاطه فتم له ما أراد ، واقد ترك أبو الطيب لنا صورة رائعة لنفسيته العميقة الثائرة حين فارق سيف الدولة في قصيدة يقول فيها الرواة إن أبا الطيب نظمها لما بلغه وهو في مصر أنه نهي في مجلس سيف الدولة ، وهى قصيدة رائعة فيها عتاب مرير وهجاء ناثر لسيف الدولة وأبياتها كلها موجهة إليه ، وتعريض به كما يقول العكبرى (٤/٢٢٦) ولعل فيها سمات من الألم العنيف تجاه الحوادث التى حالت بين الشاعر والوفاء لصديقه الأمير ، فهو يقول فيها إنه لا يهون العرمض جاره

ولا يدر على مرعاه اللين وانه ينقم على من نال رفته ، والغريب لا يجازيه إلا مللا ،
والحب لا يجازيه إلا فتورا ، وانه اضطر إلى هذه الهجرة تضحية براحته وطما نيته في
سبيل كرامته وعزته ، وان ذكريات الصداقة بين الشاعر والامير قد أخذت تتلاشى
من مخيلته ، وانه يعيش في طور جديد من التجربة لكافور ومطالع هذه القصيدة :

بم التعلل ، لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن
أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
ومنها :

يا من نعتت على بعد بمجاسه كل بما زعم الناعون مرتين
كم قد قتلت وكم قد مت عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن
رأيتم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللين
جزاء كل قريب منكم مال وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفته حتى يعاقبه التنغيص والمال
إني أصاحب حلبي وهو بي كرم ولا أصاحب حلبي وهو بي جبن
ولا أقيم على مال أذل به ولا ألد بما عرضي به درن
سهرت بعد رحيلي وحشة لكم ثم استمر مريري وارهوى الوسن
وإن بليت بود مثل ودكم فإنني بفراق مثله قمن

وسام الشاعر طموحه آلام هذه التجربة الجديدة التي عصي في الدخول في غمارها
آراء أصدقائه ومشيريه ، كما صنع كافور في تقريب الشاعر مخالفا رأي وزيره ابن الفرات
وأباج يعصى باختصاصي مشيره عصيت بقصديه مشيري ولومي
ولم تسكن هذه الهجرة الجديدة في سبيل مال بل كانت في سبيل الملك والدولة كما
يقول الشاعر نفسه في كافور :

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب
وأخذ الشاعر يدعو الامير إلى تحقيق آماله فهو وإن كان شاعرا إلا أنه قد خلق
للسياسة والملك :

فادم بي ما أردت مني فإني أسد القلب آدمي الرواء
وقوادى من الملوك وإن كان لساني يرى من الشعراء
وانتظر الشاعر في الوطن الجديد وعد كافور انتظار المستبطين المترقب .

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا وآمل عزاً يخفض الببيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقام التعم
والح عليه يطالبه عاجل وعده فالعمر يضيق عن طول الانتظار :
ولو كنت أدري كم حياتي قسمتها وصيرت ثلثها انتظارك فاعلم
ولكن ما يمضي من العمر فانت لجد لي بحظ البادر المتعم
ويتأخر عن الشاعر وعد الأمير فلا تن آماله :

وإن تأخر عني بعض موعده فما تأخر آمالي ولا تن
وطال مطال كافور لأنه كان يحذر على نفسه وعرشه من أبي الطيب وكانت
الوشايات تملأ صدره بالحقده عليه ، وكان وزيره ابن الفرات الذي ترفع أبو الطيب عن
مدحه يحول بينه وبين البر بما وعد وكان وجود أبي الطيب في بلاطه مجال الحديث ،
ومنبع الوشايات من رجال الحاشية ورجال السياسة والأدب ، فأخذ أبو الطيب
يعرض لكافور بأمانيه وآماله :

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله فإني أغنى منذ حين وتطرب
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب
ثم أخذ يلح في الطلب والتعريض :

أرى لي بقربي منك عينا قريبة وإن كان قريبا بالبعد يشاب
وهل نافع أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي أملت منك حجاب
وما أنا بالباغي على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي على أن رأي في هواك صواب
وأعلم قوماً خالفوني فشقوا وغربت اني قد ظفرت وخابوا
ثم أخذ يكرر الطلب والرجاء :

إذا اكتسب الناس المعالي في الندى فإنك تعطى في ندادك المعالي
وغير بعيد أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقيين (١) واليا
وعلم أبو الطيب بالوشايات ، فطلب من كافور أن يتخذ واليا ولو على سبيل
التجربة والاختبار :

فكن في اصطناعي محسناً كجرب بين لك تقريب الجواد وشده
إذا كنت في شك من السيف قابله فإما تنفيه وإما تده

وأعلن اليه رغبته في السلطان لأحاجته إلى المال :
وما رغبتي في عسجد أستفيده ولكنني في مفخر أستجده
وأنه سيحمده على ما يفعل حمداً يفوق كل حمد :
يجود به من يفضح الجود جوده ويحمده من يفضح الحمد حمده
ولكنه فقد الأمل وعز عليه الرجاء :
أقمت في أرض مصر فلا ورائي تنجب بي المظي ولا أمانى
قليل عاتدى سقم فراشى كثير حاسدى صعب مرامى
وما صعوبة مرامه إلا لما يطلبه من الملك والامارة كما يقول شارح ديوانه
(١٤٥/٤) ، فآخذ أبو الطيب يسخر بكافور ويتهكم به بخرية الممحر في الاغراب
لحين يمدحه بسواد لونه مع عليه أن ذكر السواد على مسامع كافور أمر من الموت - كما قال
الوحيدى (١) - زاعماً أنه لون المسك :
وبمسك يكسني به ليس بالمسك ولكنني أريج الثناء
وأن يياض الجلد خير منه يياض الفؤاد :
إنما الجلد ملبس وايبضاض النفس خير من ايبضاض القباء
وحينما يبالغ في التهكم والاستخفاف :
وما طربني أنى رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب
حتى قال ابن جنى لصديقه الشاعر لم تزد على أن جعلته قرداً (٦٥ صبح) ، وفي
هذه القصيدة بيت بلغ مبلغ الإعجاز في التهكم والسخرية :
وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب
يريد أن كافور يحسده ظلماً وعدواناً على ما يتقلب فيه من نعمة هي من يد كافور
ولكنه أخفى غرضه بصياغة البيت صياغة فنية رائعة ذات معان كثيرة ، وهكذا
تقرأ له في كافور :
ولله سر في علاك وإنما كلام العدا ضرب من الهديان
وساءت علاقة أبي الطيب بكافور فوضعت عليه رقابة شديدة دقيقة استطاع المتنبى
أن يفلت منها هارباً يوم عرفة عام ٣٥٠ هـ بعد أن يئس من الحياة ومن مجد الفن
واتخاذ وسيلة لمجد الحكم والسلطان :
حتى رجعت وأقلامى قوائلى المجد للسيف ليس المجد للقلم

ونظم الشاعر في رحيله قصيدته :

عيد . بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟
التي وسم بها وبسواها من قصائده كافورا بميسم الذلة والهووان إلى الأبد .
وأكفر يا كافور حين تلوح لي ففارقت مذفارتك الشرك والكفرا
عودة إلى الكوفة :

ويمم الشاعر وجهه نحو الكوفة فأقام بها حيناً تردد خلاله على بغداد وسواها من
مدن العراق ، تسومه نفسه السكيرة عذاب العبقرية :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

ويطارده دهره في سبيل العظمة وحيداً غريباً :

أهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارده
وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد
يسأله كثير من الناس في عجب عن غاياته البعيدة التي لا تنتهي إلى غاية :
يقولون ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن يسمى

وعاش كذلك قريباً من ثلاث سنوات في هدنة بينه وبين نفسه بعدها

لعظام الأمور .

في بغداد :

وأخيراً قذف به طموحه إلى بغداد مرة أخرى عام ٣٥٣ هـ ففاوضه رجالها
كالصابي الكاتب والمهمل الوزير وسواهم على أن يتوجهم بشنائه فاعتذر وانتظر معز
الدولة الملك والخليفة العباسي أن يعيش أبو الطيب في ظلالهم أو يشيد بدواتهم ولكنه
لم يفعل ، وأثار وجود المتنبي في بغداد مشكلات سياسية وأدبية ، فأغرى به رجالات
الدولة بعض أدباء بغداد كالحاتمي وبعض الشعراء كالحجاج وابن سكرة والحسن
ابن لشكك البصري وسواهم ، وعقدت مناظرة أدبية بين الحاتمي الأديب والمتنبي
الشاعر ، دونها الحاتمي بعد حين (١) ، وهجاء شعراء بغداد والبصرة حتى قال فيه
بعض الشعراء :

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشياً ؟

عاش حيناً يبيع بالكوفة الماء وحيناً يبيع ماء الحميا

(١) راجع المناظرة الحاتمية في ٢/٢٣٢ ابن خلكان ، ٧١-٨٠ صبح ٦/٥٥٦

ياقوت ، ٢/١١٤ النشر الفني

في إيران :

ولكن طموح المتنبي كان يشغله عن هذه الترهات ، فتوجه إلى إيران ميمها وجهه
 شطر عضد الدولة بشيراز ، وطمع الصاحب ابن عباد في زيارته بأصفهان وكتب
 إليه يرحب بقدومه ويعلن استعداد له لمشاظرتة جميع ماله فأبى أن يسير شعره في شاب
 كالصاحب ، فكان ذلك باعثا على عداوة ابن عباد له ونقده إياه (١) ، وعلى حمله
 الأدباء والكتاب كأبي هلال العسكري وأبي بكر الخوارزمي ، غملى ثلبه ومهاجمته بسلاح
 النقد .. وعرج الشاعر على ابن العميد بارجان في أوائل سنة ٣٥٤ هـ وأقام عنده يشيد به
 ويطلب منه الولايات لا الصلات :

إن لم تغنني خيله وسلاحه فمتى أقود إلى الأعادي عسكرياً ؟
 وبعد قليل شخص إلى شیراز حيث عضد الدولة ، لنفس غاياته لأرضية في
 إشباع شهواته :

ول السلاطين من تولاهما والجا إليه تسكن حديها
 يقول : كل أمر السلاطين إلى من يتولى أمرهم واعتمد عليه في أمالك تسكن واحداً
 منهم كما يقول شارح ديوانه (٢) . وفي بلاط عضد الدولة وثقت صلات الأدب بينه
 وبين أبي علي الفارسي وأبي الفتح ابن جني ، وأغدق عليه عضد الدولة عطاءه ولكن
 الشاعر استأذن في الرحيل بعد قليل على أمل أن يعود :

لعل الله يجعله رحيلاً يعين على الإقامة في ذراكا

مصرعه :

وودع الشاعر الملك ، وسار ، وفي طريقه إلى بغداد لقي أبو الطيب حنيفة على يد
 فائلك ابن أبي جهل في رمضان عام ٣٥٤ ، وكان يحنق على المتنبي لهجائه ابن أخته ضبة
 كما يقولون ، وأرى أنه كان مدفوعاً مع ذلك ببد السياسة الحانقة على أبي الطيب .. وغربت
 العبقرية الطامحة ، وانطفأت شعلة القريض الساحر ، وفيض الشاعرية التثر ، وكما يقول
 صديقه ابن جني في رثائه :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب وصوحت بعد رى دوحة الكتب
 وهذه هي قصة طموح المتنبي وتفصحياته التي ملأت كل طور من أطوار حياته

(١) راجع الكشف عن مساوي المتنبي للصاحب

(٢) ٢٨٠/٤ عكبري

عظمة وخلوداً ، فأبو الطيب في طفولته وفي شبابه المثقف المتطلع إلى مجد السياسة ، بعد أن ملأ جعبته من شتى ألوان الثقافة ، وفي رجوانته حين شعر بالاختناق ومرارة الفشل فيما قام به من محاولات كان يرجو من ورائها العز والجاه ، والأمانة والملك ، فسعى إلى سيف الدولة ، ثم إلى كافور ، ثم إلى عضد الدولة . أمه ينال في ظلالهم ما ينشده من مجد وما يطمح إليه من جاه . هو هو الطامح إلى أبعد حدود الطموح ، الساعى لعظيمات الأمور ، مهما كلفه هذا السعى وذلك الطموح من تضحية وألم ، وهو الذى شقى بطموحه ، وسامته نفسه عذاب المجد وجحيم العبقرية ، فأب بعد طوافه بالفشل والحرمان .

تنبؤ المتنبي

أحقا أن أبا الطيب قد ادعى النبوة فاستحق هذا اللقب ؟ أم أنها فرية نبذه بها أعداؤه الحاسدون له الحاقدون عليه ؟ إن الكتاب والأدباء ليختلفون في ذلك ويندبون مذاهب شتى في الاستنتاج والتعليل .

والحق الذى يمكن أن نستسيغه أنها نبوة أدبية ، وأن الناس لا يطلقون عليه ذلك إلا من باب التشبيه : تشبيه الرسالة الأدبية بالرسالة الدينية ، وأن أبا الطيب كان صاحب دعوة سياسية ، كان يطلب الملك ويمنى نفسه به ، ويعد العدة له ، ويطوف بالبوادى ويستجمع للوثبة . ومهما يكن من أمره ، فقد أراد أن يترك الشعر إلى السياسة فردته الأيام من السياسة إلى الشعر ، وهكذا يخطئ أبو الطيب من حيث يصيب القدر ، فما المجد السياسى الفانى إلى جانب مجده الأدبى الخالد .

هذا ما نقبله في حق أبي الطيب ، أما ادعائه النبوة فلا نستطيع أن نتقبله في سمرهما قيل في الظروف التى كانت تهيئ لذلك في عصره من كثرة الدعوات الدينية والسياسية ، وإلا فكيف كان أبو الطيب يأمن على نفسه من الناس وهو كثير الطواف والتردد عليهم ، وكيف يمكن أن يصح هذا عنه وهو المثقف الواسع الأمل النافذ البصيرة .

إننا نستبعد ذلك ونستعرض الأمور الآتية دليلاً لرأينا :

١ - سئل المتنبي نفسه : على من تنبأ ؟ فقال : على الشعراء فقليل له : إن لكل نبى معجزة فما معجزتك ؟ فقال : معجزتى هذا البيت :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له مامن صداقته بد (١)

وكان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة أى المرتفع من الأرض

فهم يفسرها : حينما بما كان في نفسه من كبرياء وعظمة واعتزاز بشخصيته ، وحينما
بإعجاز فنه وسحر قريضه .

ب - وكذلك صديقه وتلميذه ابن جني م سنة ٣٩٢ فقد قال في تعليقه على بيت
أبي الطيب :

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود
« وهذا البيت لقب المتنبي (١) ، فهو يرجعها إلى أن المتنبي كان يتشبه بالأنبياء ويردد
ذلك في شعره :

ج - وكذلك رأى الثعالبي م ٤٢٩ هـ حيث يقول في يتيمة : « ان المتنبي بلغ من كبر
نفسه وبعدهمته أن دعا إلى بيعته قوما من رأتشي نبلة وحين كاد يتم له أمر دهورته تأدى
خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه (٢) ، ثم قال : « ويحكى أنه تنبأ في جبال ، وفتن شرذمة
بقوة أدبه وحسن كلامه (٣) » ، إلى أن يقول : « وما زال في برد صباه إلى أن أخلق برد
ثيابه ، يدور حب الولاية والرياسة في رأسه ، ويظهر ما يضر من كامن وسواسه في الخروج
على السلطان والاستظهار بالشجعان والاستيلاء على بعض الأطراف ويستكثر من
التصريح بذلك » (٣) . . وذلك في ترجمة الثعالبي للمتنبي (٤) .

د - وكذلك رأى الواحدى م ٤٦٨ إذ يقول متبعاً رأى ابن جني في شرحه
لبيت المتنبي :

مامقامى بأرض نخلة إلا ك مقام المسيح بين اليهود
وهذا البيت لقب المتنبي لتشبيهه نفسه بعيسى في هذا البيت وبصالح في بيت
آخر (٥) .

هـ - وكما رأى الشعراء المعاصرون لأبي الطيب ، فأبو القاسم المظفر الطبستى الشاعر
يقول في رثائه :

ما رأى الناس ثانياً المتنبي أى ثان يرى لبكر الزمان
كان من نفسه السكيرة في سجد ش وفي الكبرياء ذا سلطان
هو في شعره نبى ولكن ظهرت معجزاته في المعاني
د - ورأى عبد الكريم النهشلى أن أبا الطيب إنما سمي متنبئاً لعظمته ، وقال

(١) ١/٣٢٤ عكبرى	(٢) ١/٩٢ اليتيمة
(٣) ١/٩٣ المربع	(٤) ٩٠ — ١/١٩٠ اليتيمة
(٥) ١/٣١٩ العكبرى	

غيره : بل قال أنا أول من تنبأ بالشعر (١) .

ز - وقد عرض المعري م ٤٩٤ ، لنبوة المتنبي ، نقل الأساطير التي رددت في ذلك وأدلى برأيه فيها في أسلوب دقيق من أساليب المعري التي خفي وجهها على كثير من الباحثين ، قال أبو العلاء :

« وما صح أن ذلك الرجل — المتنبي — حبس بالعراق ، فأما حبسه بالشام فمشهور ، وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال هو من النبوة أي المرتفع من الأرض ، وكان قد طمع في شيء طمع فيه من هو دونه ، وإنما هي مقادير ، وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألها ، ومثل غيره من الناس متدلها ، فمن ذلك قوله :

تغرب لا مستعظما سوى نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وإذا رجع إلى الحقائق فنطلق اللسان لا ينبيء عن اعتقاد الإنسان ، لأن العالم يجول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل القول تدينا ، وإنما يجعل ذلك تزيينا (٢) ،

وقد أخطأ العقاد في فهم رأى أبي العلاء حيث قرر في مطالعته أن أبا العلاء وقف موقف الشاك المتردد في فهم ما نسب إلى المتنبي من دعوى النبوة ، وإذا كان هذا الحافظ الثقة القريب العهد بالمتنبي يشك ويتردد فغاية جهة الأدب والتاريخ أن يقف هذا الموقف (٣) ، والعقاد بعد ذلك لا يستبعد دعوى النبوة على المتنبي ولا يجدها غريبة منه ، لأن نشأة المتنبي ، وحالة عصره ، وشعره ، وترجمته ، كلها بما يوسع العذر للشك فيه ويوائم مقتضيات الدعوى التي نسبت إليه . فنشأته في الكوفة منبع الفتن وثورات القرامطة التي خالطها دعوات الاسماعيلية ، وسلوكه الذي يظهره صاحب مطامع دنيوية ، ونظره في كتب الفلاسفة ، واستعراضه بعض آرائهم ، وغيظ المتنبي من كان يذكر له دعوى النبوة ، ورغبته في دفن هذا الحديث ، من كل ذلك نرى أنه ليس غريبا عنه أن يطلب المجد من طريق الدين ، ولكن هل فعل الرجل ذلك فادعى النبوة ؟ هذا ما لا سبيل إلى البت فيه برأى قاطع ، ولكننا بين قولين : أرجحهما أنه فعل وادعى ، والمرجوح منهما أنه لقب ، على أنني أرجح الأول ترجيحا قويا حتى

(١) ١/٥٩ العمدة

(٢) ١٩ و ٢٠/٢ رسالة الغفران — كيلاني ، ٢٣ و ٣٣ صبيح

(٣) ١١٨ مطالعات

أكد أرفض الاحتمال الثاني ، . هذا هو رأى العقاد (١) .

وإذا رجعنا إلى رأى أبي العلاء وجدناه يقرر :

١ — أن أبا الطيب لم يحبس بالعراق ، إنما كان حبسه بالشام ولأمر بعيد عن النبوة ودعواها ، وهو أمر يتصل بطموحه إلى الملك والولاية .

٢ — أن في شعر المتنبي ما يدل على نزعات دينية تناقض نزعة ادعاء النبوة .

٣ — وأبو العلاء يشك في دلالة الأدب على حقيقة ما تجيش به النفس الانسانية من شك أو يقين .

١ — فأما أن حبسه كان بأسباب طموحه إلى الملك فهذا ما رأيناه من دراسة نفسية المتنبي وشعره وبسطنا فيه القول في كلامنا على طموحه وما أبداه ثقات الباحثين ب — وأما أن أبا الطيب لم يخامره شك في العقيدة كما يدل على ذلك أشياء في ديوانه فذلك ما اختلف فيه الباحثون اختلافا كثيرا . فكثير من النقاد شك في عقيدة المتنبي ونقد أبياته البعيدة عن روح التقديس للعقيدة : كالصاحب (٢) وكالثعالبي (٣) والبديعي (٤) ، وكذلك رأى باحث معاصر أن المتنبي كان ضعيف العاطفة الدينية ، وأن في شعره إشارات كثيرة تختلف وضوحا وخفاء تتم عن وهن العقيدة ، وضعف الايمان ، وشأنه في ذلك شأن شكسبير ، وأن المتنبي آثر أن يسلك طريق الفن وحده ولئن كان نصيبه من الدين قليلا فلقد فاز من الفن بأعظم نصيب (٥) ، وكذلك ذهب العقاد في مطالعاته فرأى أن نشأة المتنبي وحالة عصرة وبيئته وجملة ترجمته كلها دليل على ذلك (٦) ، وغير هؤلاء من الباحثين . وقد نعى القاضى الجرجاني م ٣٩٢ هـ في وساطته على من أزرى بالمتنبي لأبيات وجدها في شعره ، تدل على ضعف العقيدة ، وقرر أن الدين بمعزل عن الشعر ، وأن منزلة الشاعر الأدبية لا يبوته إياها إلا خصائصه الفنية (٧) . أما أبو العلاء فقد رأى أن المتنبي كان كغيره قوى العقيدة بعيد الايمان ، ورأى أن أبا العلاء كان مصيبا فيما يقول ، وأنه يجب أن نفرق بين شيئين : جنون العظمة والكبرياء في نفس المتنبي ، وروح المتنبي الدينية ، وأن نرد إلى كل مصدر

(١) ١١٨ — ١٢٣ المرجع

(٢) ١٩ و ٢٠ رسالة الصاحب (٣) ١/١٤٢ اليتيمة

(٤) ٢٣١ و ٢٣٢ الصبح

(٥) ١٢٠٤ — ١٢٠٨ هلال أغسطس ١٩٣٥

(٦) ١١٩ مطالعات (٧) ٦١ الوساطة

منهما مظاهره الفنية والنفسية في شعر المتنبي وأدبه . فالمتنبي شاعر طموح ، ساخط
 حيناً وراض حيناً آخر ، وهو يمثل في شعره عواطف سخطه ورضاه ، في ثورة وقوة
 وفي حرية واسعة في التفكير وفي التعبير ، وفي مبالغة مغرقة في الابتداع والخيال
 والتصوير ، وليس ما يأخذه عليه الباحثون عندي ضعفاً في إيمان للشاعر وعواطفه
 الدينية ، إنما هو جنون الطموح وحرية الفكر وإلهام الفن وثورة الحياة في سخطها
 ورضائها وألمها وأملها . وأبو الطيب في أعماق نفسه وقرارة قواده متدين كل التدين
 مثاله غاية التأله ، وجنون الطموح والكبرياء يقتربان غالباً بروح قوية من الإيمان
 في نفس الرجل العظيم ، على أن ما أخذ على المتنبي في هذه الناحية لم يدع أحداً من
 المنصفين إلى القول بأن أبا الطيب كان في عقيدته وهن ، فإذا قال أبو الطيب في
 معرض المدح :

مذل الأعزاء المعز وإن يحن به يتمهم فالموتم الجابر اليتيم
 له راحة تحيي العظام وغضبة بها فضلة للجرم عن صاحب الجرم
 فليس ذلك ضعفاً في إيمانه وإنما هو الاغراق في التصوير يدفعه كبرياء العظمة
 في نفس الشاعر . وإذا قال في كافور :

ألا متى يورد الهندي هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم
 فإنه حجة يؤذى القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم
 فإنما هو هادم للظواهر الاجتماعية التي يحملها الشاكون من جور القضاء وفوضى
 الحياة . وإذا استعان برجال لا يرون للدين قداسه كما يقول :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستبيح دم الحجاج في الحرم
 فإنما هو غرور الكبرياء ، وثورة الغضب على من يعيشون في الأرض فساداً تحت
 ستار واه من العقيدة . وإذا وقف من خلود الروح موقف الشاك :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
 فقليل تخلص نفس المرء سائلة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
 ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين المعجز والمطرب

فليس من رقة دين ، بل من اعتقاد جازم بصعوبة الوصول إلى رأى حاسم في هذه
 المشكلات العقلية والفلسفية ، وليس هناك من إيمان بمذاهب مادية في قوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
 فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من ترابه

بل هو ذهاب إلى أن الروح نفحة من السماء كما أن الجسد قطعة من الأرض ،
فالروح داعية الخير ، والجسم باعث الشر والهوى ، وإذا قال :
أبني أبيتنا نحن أهل منازل أبدأ غراب البين فيها ينشق
فليس ذلك لأنه تملأه أشباح الفناء من كل واد ، وإنما هو إعراب عما يراه من
لحاج الموت في طلب البشر . وإذا قال :

تمتع من رقاد أو سهاد ولا تأمل كرا تحت الرجام
فإن لثالك الحارين معنى سوى معنى انتباهك والمنام
فذلك ليس إنكارا للموت ، ومن ذا الذي يشك في الموت ، إنما هو تفاؤل
بالسلامة من حماء ، وتفريق بين آلام المرض : في الرقاد والسهاد ، وآلام الموت في
الضجعة الأخيرة وعند النفس الأخير . وليس سخرية بآدم ما يقول :
يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان
إنما هو إيمان بالشقاء المفروض على جبين الناس فرضا ، والذي لاقى أبو الطيب
منه نصيبا مفروضا ، وإذا شبه نفسه بالأنبياء في قوله :

ما مقامى بارض نخلة إلا ك مقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في قوم
فليس استهانة بمقامهم العظيم الكريم ، إنما هو باوغة بنفسه — في كبرياء — إلى
أسمى الدرجات الروحية ، وكذلك ما كان في قوله :

لو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل جبينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء يمينه عبت فكان العالمون بجوسا
تناول لمعجزات الأنبياء بالتهوين ، إنما هو إغراق في المدح والتعبير . وليس
عدولا عن العقيدة ما يقول ابن العميد :

لنا مذهب العباد في ترك غيره وإتيانه نبهى الرغائب بالزهد
رجونا الذي يرجون في كل جنة بأرجان حتى ما يثسنا من الخلد
إنما هو تصوير بالغ لما في أرجان من مدنية وترف حتى كأنها جنة ، وكأن العيش
فيها حياة في دار الخلود . وإذا جعل أبو الطيب سلافة الرصاب أحلي من روحية
التوحيد :

يترشفن من ففى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد
 أو جعل شرف من مدحه من العلويين فخرا لجده الأعلى الرسول (ص)
 وأكبر آيات التهامى أنه أبوك وأجدى مالكم من مناقب
 أو رفع بمدوحه إلى المقام الأسمى :
 تنقاصر الأوهام عن إدراكه مثل الذى الأولاك فيه والدنا
 أو رفعه إلى رتبة الرسالة :
 لو كان عليك بالإله مقسما فى الناس ما بعث الإله رسولا
 أو كان لفظك فيهم ما أنزل القرآن والتوراة والإنجيل
 أو جعله أعظم من أن يؤتمن عليه جبريل الأمين :
 لعظمت حتى لو تكون أمانة ما كان مؤتمنا بها جبرين
 أو قال :

ونصنى الذى يكفى أبا الحسن الهوى ونرضى الذى يسمى الإله ولا يكفى
 أو جعل الرعية عبادا للولوك :
 أنلت عبادك ما أملوا أنالك ربك ما تأمل
 أو جعل طاعة الممدوح كعبادة الله :

الناس كالعابدين آلهة وعبيده كالموحد اللاها
 فذلك كله لم يكن من ضعف عقيدته بل من شدة تأثر عواطفه الحساسة بمحنان
 الأيدى الكريمة التى كانت تؤازره فى سبيل الوصول إلى ما كان يتمناه من فخر ومجد
 وبعد فذلك تحليلنا لهذه الآيات التى أخذت على المتن فى شعره — بما رماه بها
 بعض النقاد بضعف العقيدة — على ضوء نفسيته وعقليته واتجاهاته ونزعاته ،
 ولا يضيرنا بعد أن نقول إن أبا الطيب كان إسماعيليا من الإسماعيليين ، لقن آراء
 هذا المذهب فى الدين والاجتماع والسياسة ، بمن اتصل بهم من رجالاته وأبطاله فى
 الكوفة ، فأمن به ، واتخذ شعاره ، شأنه فى ذلك شأن ابن هانىء الأندلسى ،
 شاعر المعز لدين الله . والإسماعيليون يرون أن صفات الله عز وجل واقعة على
 الامام : فإذا قال ابن هانىء للمعز : « فاحكم فأنت الواحد القهار ، فإن لآبى الطيب
 بذلك نظيرا وهو قوله للمدوح « مذل الأعزاء المعز . . الخ » ولم لا يكون أبو الطيب
 إسماعيليا ؟ والكوفة كانت من أهم بلاد دعوات الإسماعيليين ، وكانت أهم منبع
 لنشاط الإسماعيليين ، ذلك معقول ، وهو يفسر لنا ناحية أخرى من النواحي الغامضة

في حياة أبي الطيب ، وهي هدم مدحه لأحد من الخلفاء العباسيين ، أفلا تكون اسماعيلية أبي الطيب وخصومتها السياسية للخلافة العباسية سببا من أسباب مقاطعة المتنبي للخلافة العباسيين والخلفاء العباسيين ، ذلك أمر غير بعيد .

ثم لنفرض فرضا آخر وهو أن أبا الطيب لم يكن اسماعيليا ، أفليس من المعقول بعد هذا أن يكون قد تأثر بنزعات الاسماعيليين الذين كانوا يعيشون معه في محيطه الاجتماعي وبلدته الأولى الكوفة ؟ والاسماعيليون يرفعون إمامهم إلى أسنى درجات التقديس والتقدير ، ويخلعون عليه أوصاف الخالق العظيم ويرونه نور العالم ومصدر سعادته ، فليس بغريب أن يتأثر أبو الطيب بهذه النزعات وتلك الآراء التي كانت تزخر بها مجامع الكوفة ونواحيها الثقافية والسياسية ، فظهرت تلك النزعات واضحة في شعره وبعد فخلاصة رأينا في عقيدة أبي الطيب أنه كان قوى العاطفة الدينية ، أو ليس هو القائل عن نفسه ؟ :

تغرب لا مستظلا سوى نفسه ولا قابلا إلا لخالفه حكما

والرائق بالله الشديد الثقة حيث يقول :

فنب وائقا بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

والذي يشيد ببطولة النصر ويجعله من هزيمة التوحيد للشرك :

ولست مليكا هازما لنظيره ولكنه التوحيد للشرك هازم

والذي يقول كما يروي عنه (١١٩ وساطة) :

لست المألوم ، أنا المألوم لأنني أنزلت آمالي بغير الخالق

والذي يقول :

ولعل مؤمل بعض ما أبلى بالطف من عزيز مجيد

إلى غير ذلك من الآيات... وردنا للآيات السالفة الذكر في وهن العقيدة إلى أحد

أمور ثلاثة :

١ - أنها لم تكن تعبر عن وهن في العقيدة ، بل عن جنون العظمة في نفس

أبي الطيب .

٢ - أو أن أبا الطيب كان اسماعيليا تبيع له عقيدته ما أباحته لابن هاني .

٣ - أو أنه تأثر بنزعات الاسماعيليين في تقديس أئمتهم تقديسا روحيا بعيد

المدى ، فألف ذلك وظهر في شعره واضحاً جلياً

٤ - وأما عدم ثقة أبي العلاء بدلالة الأدب على ما في الضمير الإنساني من شك ويقين

فهو في ذلك جرد معذور ، فقد عاش في عصر ضعف سياسي جرد النفوس المسلمة من فضائلها وحجب إليها كثيرا من الرذائل الاجتماعية الموبقة ، كالملق والرياء والنفاق والخداع والدهاء ، فحكم أبو العلاء على الأدب حكمه متأثرا بعصره وبيئته ، وإن كان لا يطرد في الحكم على عصور القوة التي حررت فيها النفوس من وهن العبودية ومداجاة المجتمع والناس ، بل لا يمكن أن نطرح دلالة الأدب على الضمير الإنساني في أي عصر مهما بلغ من ضعف وهوان ، فالأدب مرآة الروح الإنسانية تشف عما حجب عنا من غيوبها ، ومهما بالغ الأديب في إخفاء عواطفه حتى لا تظهر صورتها في أدبه فليس يمتنعنا ذلك من أن نستدل بالآثار التذيلية الخافتة على جوانب هذه الحياة للغامضة .

هذا هو تعليقنا على رأى أبي العلاء في نبوة المتنبي ، ولا ننس بعد أن نذكر أن كل من أرخ للمتنبي من ذكروا أمر نبوته قد ذكروا الآراء الأخرى التي تصف المتنبي مدعيا للنبوة ، كابن خلكان (١) وسواه .

ثقافة المتنبي

وثقافة المتنبي العقلية والأدبية ثقافة واسعة ، وهي ثقافة عملية لا نظرية ، جعلها وسيلة إلى غاياته من المجد والسلطان ، فدراسته الطويلة في صباه ، واختلافه إلى أعراب البادية في السكوفة ، والمختلاط بهم في الشام ، ولزومه مجالس العلم واللغة والأدب والفن ، وتردده الكثير على مكاتب الوراقين (٢) ، ودؤوبه على القراءة في شبابه ورجولته وحتى في أيام مجده مع سيف الدولة (٣) ، وإثارة الكتب على كل شيء ، ثم اتصالاته برجال الثقافة وزعماء النهضة العلمية والفكرية في شتى أرجاء العالم الإسلامي ، ثم حدة ذكائه وخصب عقله ، ونشأته في عصر ازدهرت الحياة الفكرية والأدبية فيه (القرن الرابع) .

كل ذلك جعل المتنبي ذا ثقافة فكرية وأدبية ولغوية بميدة ، حتى تعجب أبو علي الفارسي من إحاطته باللغة ، وشهد له بالتفوق فيها ، والإلمام بعلومها وغريبها (٤) ، وحتى كان شعره فوق آثاره الأدبية ثروة لغوية واسعة في ألفاظه وأساليبه ، وفي إحيائه للغريب المهجور من الألفاظ ، وحتى أعجب بثقافته الأدبية وذوقه الشاعر وملاحظته الدقيقة في النقد ، صديقه سيف الدولة ، وهو هو أدبا وشعرا ونقدا (راجع ٤٣ صبح) .. ولكن ثقافته العلمية في البيان كانت ضئيفة حتى لقد أخذ عليه النقاد قوله :

أمدد عنك تشبهي بما وكأنه فما أحد فوق ولا أحد مثلي
وقالوا : إن مالاتكون للتشبيه ، أما ثقافته الفكرية فهي ثقافة رجل من خاصة
رجال الفكر في عصره ، يدل عليها عمق الثقافة العقلية في شعره ، وكثرة تجديده وابتكاره
في أفكاره ومعيانيه ، وروعة حكمه ، التي أرجعها الخاتمي إلى حكم أرسطو وآرائه
في فلسفة الحياة ، ونرجعها نحن إلى ثمرات التجربة للحياة ، وبعد غور فكر الشاعر ،
وكثيرا ما تشابه آراء المفكرين والمبشرين كما يقول شكيب أرسلان (١) .

ولكن هل تأثر المتنبي في ثقافته الفكرية بالفلسفة وعلومها ؟ ينبغي بعض الباحثين
ذلك كابن الأثير في مثله السائر وسواء من الباحثين القدامى والمعاصرين ، ولكنني أرى
أن المتنبي قد تأثر بثقافة الفلسفة لأنه عاصرها في عصر النضوج الفكري والعقلي الذي
غمرت موجته الحياة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، وكانت كتب الفلسفة
اليونانية المترجمة ، والإسلامية المؤلفة ، في متناول يده في كل مكان يحل فيه ، ولا شك
أن المتنبي وقد اتصل بسيف الدولة سنة ٣٣٧ قد اتصل بالفارابي الفيلسوف م ٣٣٩ ،
واطلع على مؤلفاته وترجماته في الفلسفة ، وكان الفارابي يقيم في حلب تحت رعاية سيف
الدولة . كما اتصل بسواء من رجال الفلسفة . وعلوم المتنبي لابد قد حفزه إلى توسيع معارفه
الثقافية والفكرية حتى حين خطا نحو الرجولة المستقلة ، فلم لا يطلع على الفلسفة وهي
محور الثقافة الفكرية في عصره ، ثم إن في شعر المتنبي كثير من النظرات الفلسفية العميقة ،
وأسلوبه أسلوب فكري دقيق يتردد فيه أساليب المنطق ، وآراؤه تراها أبدا مقرونة
بأسبابها وحججها ، على نغمة لا تكاد تفرق بينه وبين أساليب الفلاسفة في
التدليل ، فقله :

إذا أتت الإساءة من لئيم ولم ألم المسىء فمن ألوم ؟
وقوله :

فطعم الموت في أمر خطير كطعم الموت في أمر حقير
وقوله :

إلف هذا الهواء أوقع في الأنفس أن الحمام مر المذاق
والأسي قبل فرقة الروح عجز والأسي لا يكون بعد الفراق
وسوى هذا ، يتجلى كله في أسلوب ليس بينه وبين أسلوب المنطق فرق كبير (٢) .

(١) ١١٨٩ الهلال أغسطس ١٩٣٥

(٢) راجع ١٢١ و ١٤٥ و ١٤٦ معلومات

وإذا فرأى أن المتنبي قرأ بعض كتب الفلسفة ، وسمع الحجاج فيها في مجالس الأمراء وبيات الفلاسفة في شتى الأقطار التي أقام في فناء أمراثها وملوكها ، وتأثر بهذه النزعات العامة الفكرية والعقلية التي كانت تسود الثقافة في القرن الرابع ، وزادته خبرته بالحياة وتجاربها فيها سعة في آفاق تفكيره ؛ وأن ذلك كله أثر في عقلية الواعية وغير الواعية ، وأثر في ذهنه النخب المتبع ، فظهرت آثار هذا كله في شعره : حكمة بعيدة الغور ، وأسلوباً دقيق التفكير ، وأفكاراً عميقة المنزع ، وتعرضاً لبعض المشكلات العقلية العامة التي كانت محور حجاج الفلسفة والفلاسفة في عصره ، حتى إن النقاد لكل ذلك سموه الشاعر الحكيم ، وأشركوا معه في ذلك أبا تمام ، من حيث خلعوا على البحتري لقب الشاعر المطبوع ، ثم أخذوا عليه بعد ذلك اتجاهه بالشعر إلى الفلسفة .

وبعد فكثيراً ما نرى أبا الطيب يمدح رجالات العالم الإسلامي بأنهم كأرسطو فكرياً وثقافة ، كما يقول في ابن العميد :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متعلكا متبديا متحضرا

وأثر هذه الثقافة الفكرية في نفس المتنبي لم يجعله على كل حال فيلسوفاً لأنه لم يخلق للفلسفة ، إنما خلق للأدب والشعر ، ولكنه أفاد منها دقة نظر وصدق فكر ونخب عقل ، وكون له من وراثتها مذاهب اجتماعية ترسم مناهج جديدة لعلاقة الفرد بالمجتمع لا تصلح أن نسميها مذاهب فلسفية . . أما الكلام في مصادر الحيسة ومصادرها فقد عافه المتنبي ، وقد عاج في صباه فتح رتاجه كما يظهر من قصيدته الميمية التي نظمها في المكتب ، فأثبعه فتحه ثم مل هذا البحث الذي لا تسكن إليه نفسه ، أخذ - كما يقول الأستاذ العقاد - حيناً بمذهب القائلين بأن الإنسان ربيب هذه الأرض ، وريب الزمن ، فهذه الأرواح من جوه ، وهذه الأجساد من ترابه ، ثم رأى الناس مختلفين في خلود النفس فوقف منهم موقف الشك والحيرة :

فليل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في المطب

وماله ولهذا الشجب المقيم ؟ فزوى وجهه عن مباحث وراء الطبيعة ، ولم يكن له صبر على هذه النزعات والفلسفات التي تبحث فيما وراء الطبيعة ، إنما هو فيلسوف الحياة والمجتمع ، وأثر ثقافته الفكرية الواسعة إنما يظهر بوضوح في فلسفته الاجتماعية .

فلسفة المتنبي الاجتماعية

والمتنبي شاعر ، ولكنه شاعر ذو رسالة ، وقل من كان كذلك من الشعراء ، وقد استمد رسالته من أملة وفشله ، وطموحه وإخفاقه .

١ - فنشأته في السكوفة ورؤيته ثورات القرامطة فيها ، وكيف يستبد بملكها رجال لا يستحقون شرف الحياة فضلا عن شرف الملك ، ذلك مما جعل أبا الطيب يعتقد العزم على أن ينال مناهم طامحا رافعا رأسه إلى السماء .

ب - ودم أبي الطيب العربي وروحه العربية ونشأته في بيآت عربية صميمة ، كل ذلك جعله في نفسه وخلقه وفي شخصيته واتجاهاته وفي شعره وفنه مطبوعا على طابع عربي خطير الأثر في حياته ، ولكن مجد العرب السياسي ونفوذهم الأدبي في عصر المتنبي كان عاملا خافئا ، ففي بغداد وإيران النفوذ البويهى يعصف بمقومات الروح والمجد العربي ، وفي مصر العرش الإخشيدى تضع دعائمه من كرامة العرب الأدبية ، وفي البلاد الأخرى الملك عربى لكن الملك والنفوذ والدولة للعناصر الأجنبية ، وهكذا تغفل النفوذ الأجنبي في كل بلد ومكان كما يقول المتنبي في معرض النهم والسخرية أو الحمية والاشفاق :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم
وتلك حال لا فلاح معها للعرب :

إنما الناس بالملوك وما تغلح عرب ملوكها عجم
ودفع المتنبي طموحه وروحه ودمه إلى أن :

١ - يطلب الملك بالسيف والرمح في بدء شبابه ، ثم بأدبه وفنسه وشعره في اتصاله بالملوك والأمراء في بدء رجولته بعد ما أخفق في ثورته ووسيلته الأولى ، فما هؤلاء الأعبد القزم الذين يحكمون العالم الاسلامى ؟ ماشأوهم وما شأنهم ؟ :

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذمم
في كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنهم غنم
يستخشن الخنز حين يلبسه وكان يبرى بظفره القلم

لقد كانوا هم شغل أبي الطيب الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، وجدير بهم أن يساموا
سوء العذاب :

ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم وليس لنا إلا السيوف وسائل
وهم أحق بضرب الرأس من الوثن :

ولا أعاشر من أملاكهم أحدا إلا أحق بضرب الرأس من وثن
لأنهم لا يستحقون من الملك إلا لفظه ، ولا من الإنسانية إلا اسمها :
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
وأبو الطيب يمتهم ويتجنبهم في بدء حياته :
وجنبني قرب السلاحين مقتها وما يقتضيني جماجها النسر
وأين هم من هذا الفتى العربى الطموح الأبى العزيز :
أيملك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعة اللحم على وصنم
من لو رآنى ماء مات من ظمأ ولو مثلت له فى النوم لم ينم
ودعائهم الملك الخاق والمال أو الطموح والإباء ، وقوة التضال مع
قوة الصحة :

١ - لذلك ربي أبو الطيب نفسه على حب الفضائل النفسية والاجتماعية والإيمان
بها والمبالغة فى تقديرها وتقديسها ، فترك لذاته وشهواته وآرب الشباب :
وترى الفتوة والمرورة والابوة فى كل ملبعة ضراتها
هن الثلاث المانعاتى لذتى فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها
وصرف نفسه عن العذارى الغيد :
وغير فؤادى للغوانى رمية وغير بنانى للرخاخ ركاب
وزهد أولا فى حياة الأسرة حذارا من أن تشغله الأسرة عن كبار أمانيه التى كان
فى شغل بها عن كل شئ :

شغلت قلبه حسان المعالى عن حسان الوجوه والأعجاز
ولئلا يلد نسلا ضعيفا خائرا :

فى الناس أمثلة يدور حياتها كحياتها ، وبماتها كحياتها
هبت الشكاح حذار نسل مثله حتى وفرت على النساء بناتها
ولأن الدهر ليس أهلا لأن يشتاق فيه إلى النسل :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل
وعاش أبو الطيب فى الحياة وبقلبه منها ملالة :

بقلى - وإن لم أرو منها - ملالة - وبى عن غوانيتها - وإن وصلت - صد
نعم وقف أبو الطيب أمام متع الحياة ولذاتها بين إقدام وإحجام ، لحينا يطلق لنفسه
الحرية فى ما تريد من لذات :
دع النفس تأخذ قبل بينك وسعها ففترق جاران دارها العمز

ويقول :

انعم ولد فللأمور أواخر أبدا إذا كانت لمن أوائل
ما دمت من أرب الحسان قائما روق الشباب عليك ظل زائل
ثم ينظر إلى غاياته ومطامحه حينما آخر فيهجر اللذات سميا إلى أكرم الغايات وطلبا
للمجد المنشود :

وللخود منى ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب
وكيف لا يغلب المجد نفسه على شهواتها :

تلك النفوس الغالبات على العلا والمجد يغلبها على شهواتها
وليس المجد زقا وقينة ، إنما هو كفاح طويل في سبيل العظمة والفخار :
ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتك البكر
وتضريب أعناق الرجال وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

فالمجد هو لذته الكبرى وأنشودته المسكورة وغاياته من الحياة ، وأبو الطيب
هو قبل كل شيء رب المعالي ، لا ترب الحسان ونحدين الغواني الصيد ، ولذلك لم
يكن من الشعراء الغزلين كجميل وابن أبي ربيعة ، ولا من دعاة اللذة كبشار وأبي نواس
إنما كان غزله صناعيا تقليديا لا يمت إلى نفسه بأوثق الأسباب ، وهو حريص على
التجديد فيه والمبالغة في شتى أخيلته ومعانيه ، وكثير من غزله تبدو عليه سمات التكلم
والإغراق ، وإن بدت فيه أحيانا مظاهر الطبع والجمال كقوله :

إن الذين أقمت وارتحلوا أيامهم كديارهم دول
الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل كلما نزلوا
ويذكر أبو الطيب أن حبيبته إنما كنى بهن في شهره عن رماحه وسيوفه
الآثيرات عنده :

محب كنى بالبيض عن مرهفاته وبالحسن في أجسامهن عن الصقل
عدمته فؤادا لم تبت فيه فضلة لغير الثنايا العز والحدق النجل
ومطامع أبي الطيب كانت تسعى به إلى السكال الإنسانية المنشود ، وتقربه منه ،
حتى كان الشاعر يرى نفسه مجموعة من الفضائل :

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم
وكان حريصا على الظهور بمظهر العزة والإياء والشمم والكرامة والوفاء وعلى

الصدق والصراحة وعلى شتى الفضائل والأخلاق ، وبإلغ في الاعتزاز بشخصيته ،
حق رأى نفسه كما يقول :

أنا الذى بين الاله به الاقدار والمرء حيثما جمعه

ورأى كل رجل - مهما عظم - دونه :

أعط عنك تشبيهاً بما وكأنه فما أحد فوق ولا أحد مثلى
مفتخراً بعصاميته لا بأسرته :

لا بقوى شرفت بل شرفوا بى وبجدى سموت لا بجودى
ويقول يرثى جدته :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونا لى أما
كما بإلغ في الاعتزاز بشاعريته :

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل

وكان هذا الاعتزاز مثار وشايات طويلة بينه وبين من اتصل بهم من الملوك
والأمراء ، وسببها من أسباب فشاه في إدراك ما كان يصبو إليه من غايات :
وقوة الخلق عند أبي الطيب هى فضيلة الخلق ، فساكان من الأخلاق قويا أو
صادرا عن قوة فهو محمداً فاضلة ، وما كان منها ضعيفا أو صادرا عن ضعف فهو مذمة
مرذولة ، كن حلما مع القدرة :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللثام

وكن حيا إذا لم يضع عليك الحياء غنيمتك :

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تنقى حتى تكون ضواربا
وكن قانما إذا وصلت إلى ما تريد من مجد :

ذكر الفقى عمره الثانى وحاجته ما فاته وفضول العيش أشغال
واحرص على المسال :

ليس التعلل بالآمال من أربى ولا القناعة بالاقلال من شيمى
، فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

وأما المسال فقد حرص أبو الطيب على جمعه وادخاره لأنه كما يقول وسيلة
المجد ودعامة التوفيق فى الحياة ، وما أشقى الفقير الطموح :

وأبعد خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهى النفس وجده

فلا ينحلل فى المجد مالك كاه فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذى المجد كفه إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا خير فى مجد لمن قل ماله ولا خير فى مال لمن قل مجده

٢ - وأما الصحة فآها أبو الطيب وسيلة العيش وآلة الحياة :
وإذا الشيخ قال أف فما مل الحياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فإذا وليا عن المرء ولي
٣ - وأما النضال فعنده به طویل قعاياته التى لا تنتهى عند حد والى يصورها
فى قوله :

يقولون ما أنت فى كل بلدة وما تبغى ؟ ما أبغى جل أن يسمى
وقوله :

تتوهم عندى همى كل مطلب ويقصر فى هينى المدى المتناول
غايات تتطلب بذل تضحيات عظيمة ، ولا بد للمجد من ثمن :
تريدن إدراك المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل
والسيادة مخوفة بالمشقات من كل جانب وصفو الحياة من نصيب العاجزين
الغافلين أو الحالمين المتهملين الذين ينعمون فى الشقاوة بجهلهم ويشقى كبار النفوس فى النعيم
بعقولهم ؛ وقد بذل أبو الطيب هذه التضحيات راضياً مبتسماً فعاش معاش ساعياً فى
سبيل آماله بين الأقطار والأمهصار :

لولا العلى لم تجبى ما أجوب بها وجناء حرف ولا جرداء قيدود
يؤجج قبح الأمل والظفر فى قلبه شعلة الإقدام :
فلا قضى حاجته طالب قواده يخفق من رغبه
فتستوى عنده الحياة والهلاك :

ومن يبغي ما أبغى من المجد والعلا تساوى المحايا عنده والمقاتل
ويستعذب فى سبيلها سرير العذاب مضيقاً فى طلبها جسمه وصحته :
وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

ب - وأخذ أبو الطيب يثير الروح العربية ويوقظها من سباتها العميق ، فدعاها
إلى فضائلها الأولى من العلم والروح والشمم والإباء ودعاها إلى التردد من قيود الوهن
والجبن والذلة والرياء ، فالذل موت وسقام :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الأجسام

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
من يمت يسهل الهوان عليه ما الجرح يمت إيلام
ودعاها إلى أن تعز بشخصيتها وعزتها :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
وإلى أن تؤمن بشخصيتها وتسعى لاسترداد حقها الماسلوب ، فذلك سبيل المجد
لمن يطلب المجد وطريق الحياة لمن يؤثر الحياة ، وكان ذلك أبرز دعوة في رسالة المتنبي
وكانت عاملاً قوياً في إيقاظ الروح العربي من ناحية وفي امتداد شهرة المتنبي - التي
كانت من صنع القدر لا تغالب ولا تقهر كما قال رجل لابن العميد - في كل مكان حل
فيه عربي صميم من ناحية أخرى ؛ كما كانت سبباً كبيراً في فشله وإخفاقه كما سنذكره
بعد قليل .

دعا أبو الطيب دعوته السياسية في بادية الشام فأخفق ، فذهب إلى الدولة العربية
التي أقامها بنو حمدان في حلب يرضى بمجدها كرامته ويثلج بسلطانها قواده ، وأطال
المسك مع سيف الدولة ، ولسكن كرامته هو قد أهينت ، ولا حياة بدون كرامة ،
فليرحل المتنبي ، وإلى من وفي أي اتجاه يسير ؟ ليرحل حيث يرى لآماله الظفر
والتوفيق ، إلى بلاط كافور ، ولسكن أحلامه لم تتحقق ، فالويل لكافور الذي لا ينتمى
إلى العرب بشيء ، وبعد له وهجرة من بلاطه إلى السكوفة وبغداد ؛ ولسكن أبا الطيب
لا حياة له في بغداد لأن من فيها من الوزراء والعظماء لم يكن لهم مثل عزمه ولا همته
وهم يريدون منه الثناء ، ولا ثناء حيث تخرج كرامته وعزته ، فليترك بغداد إلى بلاط
عصد الدولة ، ولسكن الروح العربية في نفس المتنبي توقظه وتدعوه إلى الرحيل ،
فليس عصد الدولة بالعربي الذي يشعر الشاعر أن مجده يجد له ولقوميته ، وبلاطه
بعيدة عن بلاد الضاد والعربي إن نزل بها فهو الغريب الوجه واليد واللسان :

ولكن الفتي العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
وهكذا عاش المتنبي مخفقا في أمه ، غريباً في أهله وفي وطنه ، يسير من فشل
إلى فشل ، ومن إخفاق إلى إخفاق ، طلب من الدنيا أن تمطره مجداً وجاهاً فأمرتته
مصائب وآلاما :

أظمتني الدنيا فلما جثتها مستسقى مطرت على مصائبها
وعركته الأيام حتى كأن الأحداث حليفته ، وكأنه كان لها نقيبها :
عرفت نوائب الحدثن حتى لو اتسبت لسكنت لها نقيبها

وأخذ ينمى حظه من الحياة :

فقال وللدينا طلابي نجومها ومسماي منها في شذوق الأراقم؟
ورجع من ذلك كله بشيئين خطيرين كان لهما أكبر الأثر في حياته ورسالته :
أولا : أورثه فشله سخطاً على الحياة ، ونقمة على المجتمع وتشاؤماً بالناس حتى
لو برز إليه الزمان شخصاً لقتله :

ولو برز الزمان إلى شخصاً لخصب شعر مفرقه حسامى
وامتلاً غيظاً من الأيام :

وغيظ على الأيام كالنار في الحشا ولكنّه غيظ الأسير على القد
ورأى الحياة كذباً وخداعاً :

ومن صعب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذباً
والزمان إن أحسن عادت لياليه فسكدرت الاحسان :

ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الاحسانا
وايسست آراؤه فيها إلا ثمرة التجربة الطويلة :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهنتى لم تزدنى بها علماً
ولقد كان حقد المتنبي شيئاً في زمان ذهب لغيره خيره ، وبقي له شره :
أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم
وذلك غير بعيد من الحياة فإنما :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يشوق
ولن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
، لحا الله ذى الدنيا منا خالراك فكل بعيد الهم فيها معذب
، وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجند والفهما
وهل بعد إخلاف الدهر آماله من شيء ؟ .

لله حال أرجيها وتخلفنى وأقتضى كونها دهرى ويطلنى
وليت القدر نخلة في أمة غير أمته :

وقت يضيع وهمر ليت مدته في غير أمته من سالف الأمم
وكذلك كان مع الناس ، فهو يحتقرهم ويندمهم ، ويرى أعلامهم قدماً :

أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلامهم قدم وأشرفهم وغد
ويراهم مفطورين على شتى الرذائل الاجتماعية من شر وخداع وبهتان ونفاق .

إذا ما الناس جربهم لييب فإنى قد أكلتهم وذاقا
فلم أر ودهم إلا خداعا ولم أر دينهم إلا نفاقا
ويقولون : العدالة ، وأين هى العدالة بين الناس :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
كما يتشادقون بالصدقة ، والصدقة خداع وزور :

خليبك أنت ، لا من قلت خلى وإن كثر التجميل والكلام
ولما شمت ود الناس خبأ جزيت على إبتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفاه لعلى أنه بعض الأنام
وكثيراً ما تكون الصداقة سبب الشر للصديق :

ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم
وكيف يمجّد أبو الطيب الناس وهم مثيرو الشر فى الحياة :
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا
يتنافسون على الحياة :

إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جمرة واغتيالاً
من أطاق الناس شئ غلاباً واغتصاباً لم يلمسه سؤالاً
والحياة لا تستحق أن يتنافس عليها :

ومراد النفوس أصغر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى
وأبو الطيب يترفع بنفسه عن أن ينسب إلى هؤلاء :

وما أنا بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
وإذا كانت الدنيا بأسرها ليس فيها مكان يسر بأهل الجار المقيم :

أما فى هذه الدنيا مكان يسر بأهل الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبدى علينا والموالى والصميم
وما أدرى إذا دام حديث أصاب الناس أم دام قديم ؟

فليضطرب فى الأرض ان فقد فى مكان منها عزته وكرامته :

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد عن أختها بدل
فلا صحبته مهجته إن استكانت إلى ظلم أو نامت على ذل :

فلا عبرت فى ساعة لا تعزنى ولا صحبتي مهجة تقبل الظلما

ولم يقف أبو الطيب أمام مخطئه على الحياة ونقمته على الناس موقف الحائر

المتردد بل مضى قدما إلى غاياته التي لم يتخل عنها داعيا : إلى احتقار الناس لأنهم مهما عظمت منزلاتهم لا يستحقون الاجلال ، وإلى البطش بهم لأنهم لا يستحقون الرحمة والرحمة ليست في قلوبهم :

ومن عرف الأيام ممرقتي بها وبالناس روى رحمه غير راحم
فليس يرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجارى عليهم بأثم
وإلى إحلال مبادئ القوة والعنف والقسوة محل العدالة والخلق والرحمة ، فذلك
جدير بالناس وبالمجتمع ، وجعل الحق للقوة وحدها :

من أطلق التماس شيء غالبا واقتسارا لم يستطعه سؤالا
وهذه هي سنة الحياة في نظر المتنبي ، وهي حياة حرب يجب أن نخوضها في سبيل
القهر والعز والسيادة أو عملا بإرادة القوة كما يقول العصر الحديث ، وإذا كان داروين
يروى أن أصل الفضائل هو إرادة الحياة ، ونيته يراها في إرادة القوة فرأى المتنبي
توفيق بين الرأيين :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصا عليها مستهما بها صبا
لحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا
فكل إنسان إنما يحب حياته هو لا كل حياة ، فلا تناقض بين حب المرء حياته
وحبه القوة في بعض الأحيان (١) .

ثانيا : وكانت هذه الحياة العميقة الفسكرة البعيدة الأمل الخصبة التجارب سببا
في انضوج ملكات المتنبي الفكرية حتى أصبح أبعد شعراء العربية منزعا فكريا وعميقهم
تجربة وحكمة وأصدقهم إفصاحا عن خبايا النفس البشرية ، وشدوا بشمات التجارب
الإنسانية التي فهمها المتنبي ووعاها وأحاط بها عن تجربة واقعية ، وأبو الطيب كان
رجلا واقعا في ثقافته واتجاهاته العقلية والوجدانية ، ولما كان مضطربا في حياته
السياسية والاجتماعية ، يسير في اتجاه غير الاتجاه الذي كان يسير فيه الناس ، ويدعو
إلى آراء لا تتلاءم مع ما ألفه الناس ودرجت عليه المجتمعات ، ويتوسل إلى غاياته
بوسائل تبعده عن الظفر والفوز ، فالمتنبي كما يقول العقاد « كان شريكا في العظمة
الدنيوية والأخلاق العملية لرجال عصره في ما هو من باب الشعور والملاحظة ولم
يسكن شريكا فيها في كل ما هو من باب الانجاز والتنفيذ ، كان يشعر شعور عظماء

الرجال ولكنه لا يتم الأمور كما يتمونها ولا يسوس الحوادث كما يسوسونها، (١) وقد أيقن أبو الطيب أن الشعر لا يكفي وحده للوصول إلى ما يطمح إليه من أحلام فغمر نفسه في مجال الحياة السياسية لعله يظفر بتقدير السياسة له وخدمتها إياه ، فقضى جل حياته في بلاط الملوك والأمراء ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بهذا التقدير وتلك المكافأة ، لأن أبا الطيب لم يكن من رجال السياسة ، وكانت روحه ونفسيته وأخلاقه ومناهجه العملية بعيدة عن ديباوماسية السياسة وخداعها ، كان يؤمن بشخصيته ويجعلها فوق شخصية الملك أو الأمير ، بما كان يغضب عليه الملك أو الأمير ، ويريان فيه مغامرا سياسيا خطرا على عروشهم وكيانهم ، وكان يحاول أن يغطي على رجال الحاشية والسياسة والأدب والشعر ، فثقموا عليه ، وكان يتعصب للعرب والعربية تعصبا كبيرا لأن نفسه العربية لا تريد أن ترى شيئا في الحياة العربية لغير العرب ، ولكن العالم الإسلامي في ذلك الحين كانت تدير أموره أيد غريبة عنه من أبناء الترك والفرس والروم وسواهم من العناصر القوية التي اندمجت في الدولة الإسلامية وثقفت بثقافتها ونالت الخطوة والتقدير في قصور ملوكها ، فنظرت هذه العناصر القوية إلى المتنبي بعين الخذر والخوف ، والمتنبي الذي حلم في شبابه بتكوين دولة عربية صرفة في الشام يسوسها ، والذي لم يكف عن طلب الحكم والولاية من كل أمير يتصل به ، والذي دأب على التمسك بهذه العناصر الأجنبية ، والسخرية بالملوك الذين لا يمتون إلى الروح العربية بصلة ، أفما يكون مصدر خطر على نفوذ هذه العناصر الكبيرة بدعواته الجرئية وتهكمه الساخر ؟ ، لقد كان أبو الطيب بمزاجه وطبيعته أرسقراطيا إلى أبعد حدود الأرسقراطية ، حتى احتقر أن يرضى بالخط الجليل إذا ساواه فيه من هو دونه ، ويأبى الصيد الشهى إذا اجتمعت عليه كرام الطير وبغائها :

وشر ما قنصته راحق قنص شهب البراة سواء فيه والرخم

وهو قد يؤثر الموت على حياة يشاركه فيها حساده :

وما موت بأبغض من حياة أرى لهم معي فيها نصيبا

لذلك حارب أبو الطيب من كل عنصر وكل طبقة وفي كل بلاط ، ولم يدعه هؤلاء ولا هؤلاء يظفر بما كان ينشده من آمال ، ودعوه إلى أن يعيش مشردا في البلاد غريب الأهل والوطن ، بل كان مصرعه بسبب منهم ، ففتك فانك به إنما كان مؤامرة سياسية دبرتها السياسة أولا ودفعتها الأغراض الشخصية أخيرا ، فقضت على حياة هذا

الشاعر العظيم ، ويؤيد ذلك ما ذكره الصبيح من أن المتنبي كان يستقل عطاء عضد الدولة بجانب عطاء سيف الدولة وأنه جهرز إليه حين أنصرف من بلاطه قوما من بني ضبة فقتلوه (٩٩ و ١٠٠ الصبيح) ونقله عنه العباسي في معاهد التنصيص (١٠ و ١١ - ٢) ، ولو أن المتنبي كان كسواه من الزعماء الذين يسعون إلى مجد أشخاصهم ويفنون شخصياتهم في شخصية الملك أو الأمير لعقد على رأسه إكليل الظفر والفخار ، وظاهرة أخرى في حياة أبي الطيب تستحق العجب والتساؤل ، فما بال أبي الطيب السكوفي يسمى في شجابه إلى الشام ثم في رجولته إلى مصر ولم يسع إلى بغداد ؟ وما باله يمدح الحمدانيين الأخشيديين وسواهم من الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي في عصره ، ولم يمدح خلفاء بني العباس ولا من اتصل بهم من الأمراء والوزراء والعظماء ، ورفض الأيدي الكثيرة التي مدت إليه في بغداد بالرجاء ؟

أعتقد أن ذلك مبهمه المتنبي نفسه وما كان يتأجج به صدره من غيظ على العناصر الأجنبية التي استبدت بخلافة بني العباس في بغداد ، ومن عقيدة إسماعيلية تأثر بها أو آمن بها ، فسكره بسبب أيهما الخلافة العباسية وخلفاء بني العباس ، ومن طموح إلى الملك في بلاد بعيدة عن سيطرة بغداد وولاتها ، ولم تكن تلك الأقاليم إلا الشام ، حيث تتصارع فيه القوى السياسية بين بني حمدان وبني الأخشيد ، ثم حلب حيث الدولة والملك والرعية عربو الدم والعقيدة واللسان ، ثم مصر حيث الملك ضعيف العنصر ضئيل الشخصية لا يغطي على الشاعر ولا يبعد عليه أن ينال في دولته آماله ، ثم شيراز حيث يستريح من آلام الخصومة والحقد والمنافسة في دولة يطمح أن ينال في ظلالها غاياته ، وعلى كل حال فإن ذلك لم يمح من قلب الشاعر هذه الصلات الروحية التي يشعر بها كل مسلم نحو الخلافة العباسية في بغداد مما ترى مظهره في شعر الشاعر ، فهو حيناً يمدح سيف الدولة بتبعية لدولة الخلافة ويذكر أنه سيف من سيوفها :

وشركت دولة بني هاشم في سيفها وشققت خيس الملك عن رثاله
ويكرر هذا المعنى في قوله :

ياسيف دولة هاشم من رام أن يلتق منالك رام غير مرام
يقول هو سيف دولة الخلافة وبه تصول على الأعداء كما يقول شارح ديوانه ،
ويقول (١) : لقد الله دولة سيفها أنت حساما بالمكرمات محلي

وله فيه :

إن الخليفة لم يسمك سيفها حتى ابتلاك فكنت عين الصارم
وإذا تتوج كنت درة تاجه وإذا تختم كنت فخر الخاتم
وحينما يذكر دولة الخلافة بالتقدير فيقول في سيف الدولة :
إن الهام الذي نخر الأنام به خير السيوف بكفى خيرة الدول
ثم ترى الشاعر حين عصف بموطنه الكوفة ثورة القرامطة وأبادها دابر القائد
إلى نفوذ دولة بني العباس يمدحه بقصيدة من رائع شعره (١) ، فهل ينبى ذلك عن
حب المتنبي لتبعية الكوفة للخلافة العباسية ؟ وأيا ما كان فإن المتنبي لم يقيم ببغداد
حذارا على نفسه وعلى مكانته من عسف النقد ولدد الخصومة وبطش هذه العناصر
الأجنبية الساخطة .

شاعرية أبي الطيب

تمهيد :

بلغ التراث الشعري قبل عهد المتنبي وفي عصره مبلغا كبيرا من الحياة والقوة
والابتداع ، فشدأ بآمال الحياة وآلامها ، وترنم بالجمال الإنساني في شتى مظاهره ،
ونطق بما يحتلج في قلوب الناس من عواطف هذبتها الحضارة ، ومشاعر أغرقها
الترف والنعيم ، وعبر عما يتردد في صدر المجتمع من رجاء وشكوى ، وما تطمح
إليه الإنسانية من مثل عليا في الاجتماع والسياسة وسواهما من شتى نواحي الحياة
وتطور الشعر في أسلوبه مثل ما تطور في اتجاهاته ، فاتسع للتعبير عن جميع هذه
الأفكار ، والدعوة إلى كل تلك المذاهب ، وغلبت على أساليب الشعرية سمات الجمال
والترف البياني ، وأخذ يسير بعد عهد أبي تمام والبحتري في سبيل النضج ، والقوة
يغلب عليه الروح الشعري المطبوع ، وتظهر في أسلوبه القدرة على أداء الفكرة
الهميدة مهما طالت واستعصت ، في انسجام وتسويق . لا يشوبها شائبة من التفسك
أو الضعف أو الاستكراه .

وجمع أبو الطيب هذه الثروة الأدبية من الشعر فأوعى ، قرأ وحفظ ، وهزته
طبيعته الشاعرة وفطرته الحساسة ، هزة الطبع الشاعر والعاطف المبدعة والروح
الوثاب ، فاجتمعت في نفسه الشاعرة القادرة أسباب الشعر : من الذوق الأدبي البليغ

والعاطفة الشعرية المتأججة ، والدراسة الأدبية العميقة لألوان الأدب وفنونه ، والنشأة الأدبية القوية بين رجال اللغة والأدب في البادية ، وبين أئمة العربية وشيوخها ، في مجالس العلم ونواحي الأدب ، ثم ذلكم الخيال الشاعر ، وهذا الطموح الوثاب ، كل ذلك لجريتنا بين الشعاعية في صدره ، وأجرى جداول الشعر في قلبه وعلى لسانه .

شعر أبي الطيب :

صاغ أبو الطيب شعره صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحرية والحياة ، وقوة التعبير سمة من سمات شعر أبي الطيب نجدها في ألفاظه وأسايبه ، كما نجدها في معانيه وقد أفاضت روح القوة في نفس الشاعر على شعره وفنه هذه السمة الواضحة ، وكذلك حرية التعبير من أهم خصائص المتنبي الفنية ، فقد كان مع إحاطته التامة باللغة وأسايبها يطلق نفسه وفنه من كل قيد لا يتلاءم مع شعوره وإلهامه الشعري وذوقه الفني الحساس ويختار من الصيغ اللفظية أو البيانية ما يوائم شعوره ، ويعبر عن عواطفه ، ويترد مع روحه وشخصيته وأمانه ، يرسل القصيدة إرسالا لا يبالي بنقد النقاد :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسر الخلق جراها ويختصم

وهو في ذلك نظير الفرزدق وأبي تمام اللذين كانا ينهجان هذا الأسلوب ، ولقد هب النقد في عصر المتنبي وبعد عصره يؤاخذونه على ما أسرف فيه من استكراه لفظ ، وتعقيد معنى ، وخروج على قواعد اللغة ، أو على الوزن الشعري ، ومن استعماله الوحشي النابي ، وهبوطه أحيانا إلى مستوى الركاكة والسفسفة ، ومن إفراطه في المبالغة والأغراق ، وخروجه على المنهج العربي ، وذلك ما أخذه عليه الثعالبي في اليتيمة ، فقد لاحظ شدة التفاوت في شعره وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، هذا إلى تعسفه في اللغة والتراكيب وقبح المطالع أحيانا . . غير أن هذه الحرية كشفت لنا عن نفس الشاعر وآرائه وآماله في أسلوبه ، ولم تستطع قيود البيان والشعر أن تحد من نزعاته ، وتقيده من حريته ، أو تخفي في ثناياها اتجاهاته وأفكاره ، لا ولم تستطع هذه القيود أن تطمس روح الشاعر في شعره أو تضعف شخصيته في أسلوبه ، بل تستطيع أن تقرأ أية قصيدة من قصائده ، أو بيت من أبياته ، فسترى فيما تقرأ روح الشاعر تطل عليك ، وتحدث إليك ، وتتناجى بآمالها وآلامها اليك ، فتز من عواطفك ، وتدعك مؤمنا بما آمنت به من : نزوع إلى المثل العليا ، وثورة صاخبة على الحياة ، ثم تحفز همتك إلى السير في النهج الذي يريده الشاعر الناثر الداعية وفي شعر أبي الطيب تظهر سمة أخرى لها خطرها وأثرها ، فالشاعر لا يترك هذا

المذهب الفني الذي رفع لواءه من قبل أبو تمام ، إذ يؤثر تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فهو من شعراء المعاني وشعره امتداد لمذهب أبي تمام الشعري ، والخصائص الفنية البارزة تتجلى بوضوح في شعر الشاعرين ، لاسيما في روعة التعليل ، وسمو التخيل ، ودقة الطباق ، وجمال الجناس ، وسحر الاستعارة والسكناية والتشبيه ، وبلاغة التقسيم والمقابلة والتفسير ، والتورية والتوجيه ، ونحو ذلك .

وهو كما في تمام في كثرة الحكم والأمثال حتى قيل : « أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحتري » ، غير أن أبا الطيب كما قلنا خرج على أساليب العرب المعروفة في اللغة والتراكيب في بعض شعره ، وأطلق الشعر من بعض القيود التي قيده بها أبو تمام ، ومن ثم أطلق عليه زعيم الطريقة الابتداعية في الشعر العربي لخروجه على هذه الأساليب وقلة كلفه بالقيود الصناعية .

على أن في شعر المتنبى روح العمق والقوة التي لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف ، وإن كان يبتغى يضيق أحيانا بمعناه فيعسر فهمه . ولقد سئل أبو الطيب عن صلته بأبي تمام فقال (١) :

« أولاً يجوز للأديب أن يعرف شعرا أبي تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر ، ويقول ابن الأثير : « إن أبا الطيب أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، وكان المتنبى ينشد بدائع أبي تمام ويروي جميع شعره » ، ولقد امتاز أبو الطيب كما أسلفنا بعمق الفكرة الشعرية ، وبقفلة وبعد الخيال الأدبي ، الذي وعى التراث الشعري للقدامى والمحدثين ، فحضمه وأخرجه أدبا حيا جديدا ، رائعا في فكرته وحكمته ، روعته في مادته وصياغته ، قويا في دعواته ومراميه ، قوته في أسلوبه ومعانيه .

وبذلك الطبع وفي هذه الأساليب نظم أبو الطيب روائع فنه وإلهامه ، داعيا إلى حياة اجتماعية وقومية قوية ، تتحرر فيها نفوس بني قومه من أغلال الذل والاستعباد ، وتتطلع إلى حياة العزة والكرامة ، لتسترد الروح العربية نفوذها ومجدها ، ويستعيد أبناء الشعوب العربية تراثهم المفقود ، ومجدهم المنشود .

وكان شعره مثالا رائعا للحياة القومية في عصره ، وصورة بارزة للحياة الفكرية والأدبية ، ثم كان فيه تصوير للنزاع بين المثل العليا والحقائق الواقعية ، ونضال بين الأمل واليأس ، وبين الرجاء والسخط والرضا ، والحب والبغض ، وفيه

صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة ، ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة والطموح التي دعى إليها ، نشته ، في العصر الحديث ، ولقد حارب أبو الطيب الضعف الإنساني في جميع مظاهره كما حاربه ، نشته ، ، ودعى إلى الثقة بالنفس والعمل للحياة بأقصى ما يمكن من قوة وإقدام كما دعى إليه ، نشته ، . وأصل الفضائل جميعها عند الرجلين هو إرادة القوة والسعي إليها والظفر بها في شتى صورها وذلك هو السعادة المنشودة المرغوبة ، وبين أرائهما كثير من ألوان الاتفاق تراها في ، مطالعات ، للعقاد (١٥٧ - ١٦٣) . وشعر المتنبي يتحدث كثيرا عن منازع الحياة البشرية ويصف الطباع الإنسانية وصف المحيط بها الذي أكلها تجربة وبحسناً ، وقد امتاز شعره بسمو الحكمة الإنسانية ودقة تغلغلها في صميم الحياة وإدراكها لبواطن الأمور وتمشيها مع ثمرات التجربة والواقع .

وشعره فوق ذلك تصوير بارع لحياة الشاعر نفسه بما كان يحتلج في صدره من طموح إلى المجد وثورة على نظم السياسة والاجتماع ، ودعوة إلى القضاء على مظاهر الضعف فيها بظلمة السيف أو بشبابة اليراع . . . وأبو الطيب رائع في رثائه كما هو رائع في مدحه ونحره وهجائه ووصفه وحكمته .

وعلى رثائه مسحة من الفلسفة الحائرة التي يستمددها الشاعر من ثقافته وحياته ، ويضمدها فلسفة الحياة والموت والفناء والخلود ، كما يودعها فلسفة الحزن والبكاء والصبر والمراء ، ومدحه ليس تقانياً في شخصيات بمدوحه ، إنما هو اعتزاز بشخصيته ونفسيته ، والشاعر يتخذ سلباً يصعد عليه إلى ذروة المجد والسلطان .

وتشيع في أعطاف هجائه روح التهمك والسخرية والإقناع ، وفلسفة السخرية نشدها المتنبي في ثورات غضبه وسمطه فأجاد الحديث فيها في دقة وخفاء ، ولكنها عند ابن الرومي نزعة طبيعية في نفسه ظهرت في شعره ، فكان أبعد الشعراء منزعا في تصويرها ، وإبعاد مرماها ، وإسماء وقعا ، وتري روح السخرية عند المتنبي في أهاجية الكافور ، وفي مدائحه التي كان يثنى بها عليه وكان يطوى فيها المدح على الهجاء حذفاً منه بهنمة الشعر كما يقول ابن جني (١) ، ويمكننا أن نرجع روح الشاعرية عند المتنبي إلى بعد آماله ، وطول إخفاقه فيها ، وسخطه على الناس والحياة ، وإلى روح العظيمة وشذوذ العبقرية في نفسه ، وإلى نهمة في الانتقام ممن يتعرض له بشر أو يعول بينه وبين غاياته ، وهي في وضوحها وغلبتها على شعره لا يعادها إلا دعواته

الساخطة وآراء المتشائمة الناقصة على الحياة والأحياء ، وأبو العلاء يستمد من أبي الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان يخالفه في بواعثه وفي نتائجه ، فسخط أبي العلاء وتشاؤمه يقوم على شعور وثيق ببعد الإنسانية عن حياتها المثلى ، أما تشاؤم أبي الطيب فراجع إلى إخفاقه في آماله ، وسخط أبي الطيب ينتهي به إلى خو من نهار الحياة دون مبالاة بالحياة ، وسخط أبي العلاء ينتهي به إلى الزهد فيها والانصراف عنها .

وقد كان هجاء أبي الطيب معولا هدم به صروح المجد التي أقامها من هجاءهم ، فإذا هم صورة مشوهة هي سخرية الأجيال وحديث القرون .

ويبلغ وصفه مبلغ الروعة والقوة حين يصف به معارك القتال وحومات الونى ، وروح البطولة واخنة من قصائد المتنبي لاسيما في الفترة التي قضاها في بلاط سيف الدولة حيث الصراع الدائم والكفاح الطويل بين سيف الدولة وأعدائه .

وفخره حديث عن عصاميته واعتزاز بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله ونهاياته . وللمتنبي نسيب ولكنه متكافئ مصنوع ضئيل في معانيه ، بعيد عن روح الغزل في أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغواني وقلب أبي الطيب صلة ، فهو طالب مجد وداعى قوة وشاعر سيف ورسول فضيلة ومثل ، فأله وللغواني والنسب بينه والنسب إنما هو وحى الحب الصادق والروح الواحدة والعواطف المتينة حين يقع القلب في أسر الهوى ، وما أبعد المتنبي عن ذلك ، وهل عرف الحب من يقول :

وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادى للغواني رمية وغير بنانى الرخاخ ركب
وهو الذى يدعو على الغواني مثل هذا الدعاء الجاف :

أياخذد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان الغيد
وليس لنسيب المتنبي خطر في روحه ، إنما أثره في فنه وأسلوبه كقوله :
سقاك وحيانا بك الله إنما على العيش نور والخدود كآئمه
وقوله :

نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبنا
ندم الحسان الغر في فعلها به ونعرض عنه كلما طلعت عتبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفر به وعيشاً كأنى كنت أقطعه وثبا

ونسيبه على العموم تقليدى بحت ، ولم يكن المتنبي من شغفوا به جمال الطبيعة وأسرارها ، ولا من تأصلت في نفوسهم روح المرح والفكاهة ، ولكن هجاءه ، أقبل

بجملته على جهاد الحياة ، وشعره صورة لما يحتاج في النفوس المجاهدة من آمال .
وروح الخيال عنده كما هو عند أبي العلاء ضئيف ، إذ كانا رجلا حقيقة وتفكير
لاخيال وتصوير .

شهرته :

وشهرة المتنبي الأبية الذائعة ترجع إلى خصائص فنه الأدبي كما ترجع إلى عوامل
أخرى سياسية واجتماعية :

حياة أبي الطيب في قصور ملوك الشرق وأمراة : الحسدانيين والانشيديين
والبويعيين ، وفي عواصم العالم الإسلامي إذ ذاك : حلب ودمشق ومصر والسكوة
وبغداد وهيران ، وتعرفه برجالاتها وزعماء النهضة الثقافية والفكرية والأدبية
والاجتماعية والسياسية فيها مما أذاع في العالم الإسلامي شهرته ، ثم هذه الخصومات
العنيفة التي منى بها المتنبي في كل بلد حل فيه ، وتضاؤل الشعراء عن مجاراته أو تحديه
في سحر القريض ، ثم ذلك التجارب بين عواطفه وشتى العواطف الإنسانية ، وهذا
التسابق بين آرائه وتعارفه وحكمة الحياة ، والتمازج بين مشاعره ومشاعر خاصة
الأدباء والمفكرين ، وهذا السمو بنفسه وبالفن الذي يؤدي رسالته كل ذلك كان من
عوامل إذاعة شهرته الخالدة .

وقد تأثر بشعره الكتاب والشعراء والأدباء في عصره وبعد عصره ، فالصافي
والصاحب وسواهما من الكتاب المعاصرين له اقتبسوا من شعره في رسائلهم ،
وكذلك تسبح الشعراء على منواله وحاكوه في شتى العصور ، لاسيما في حركة الأحياء
الأدبي في العصر الحديث ، وعصبية شاعر كآبي العلاء له هي عصبية للفن والأدب
قامت برغم بعد الزمن وانتفاء المؤثرات بينهما .

المتنبي والنقد الأدبي

ولا نكاد نجد شاعراً اختلف الناس في منزلته الأدبية ومكانته بين لحول الشعراء
في عهده وبعد عهده مثل المتنبي ، فقد افرق النقاد فيه فرقاً ثلاثاً :

فطائفة بالغة في التعصب له ورفعته إلى منزلة كبيرة في الأدب وعلى عرش القريض
ومناقبه بالغة في التحامل عليه والوضع من شأنه وشعره ، فوضعت في مكانة
دون مكانته ، ومنزله دون منزلته اخصومة خاصة بينهم وبين الشاعر وحده ، أو
لخصومة عامة بينهم وبين المحدثين جميعاً ، وأغلب هذه الخصومات نشأت بتأثير

عواطف شخصية ومنافسات أدبية وأغراض سياسية ، والقليل الأقل منها كان بريثا من الغايات لم تدفعه إلا يد النقد الأدبي النزيه .

وطائفة أخرى جعلت تعصبها للأدب ، لاله فعرضت ووازنت ونقدت وحكمت على ضوء العدالة الأدبية ، وكانت هذه الخصومات سببا في كثرة الدراسات الأدبية التي تدور حول شعره ، وكان فيها ثروة كبيرة للنقد الأدبي خاصة والأدب والشعر والبيان عامة .

وحسبك أن المتنبي شرح شعره وعلق عليه وألف في نقده وكتب عن شعره حول الأدباء والنقاد والعلماء ، من المشرقيين والمستشرقين .. كتب عن المتنبي الثعالبي م ٤٢٩ في الجزء الأول من اليتيمة كتابة فيها دراسة لحياته ونقد شعره ، وترجم له ياقوت م ٦٢٦ هجرية (١) ، وابن خلكان م ٦٨١ هجرية (٢) ، وألف البديعي م ١٠٧٣ هجرية في حياته وشعره كتابه « الصبح المنبي » ، وكذلك فعل كثير من كتاب الأدب في العصر الحديث نخص منهم المرحوم السيد محمد توفيق البكري في كتابه « أخبار أبي الطيب المتنبي » ، « المتنبي » للأستاذ جبري ، و « مع المتنبي » في جزأين للدكتور طه حسين ، و « ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « المتنبي » للأستاذ محمود محمد شاكر ، وقد نشرته مجلة المقتطف في عدد خاص ، ومجلة الهلال العدد العاشر عام ١٩٣٥ الخاص بالمتنبي ، وصحيفة دار السلام ، ثم هذه الدراسة للوآلف ، وكان العيد الألفى لذكرى أبي الطيب عام ١٩٣٥ هو المثير لهذه الدراسات ، فامتلات الصحف والمجلات بالحديث عن حياته وشعره وظهرت المؤلفات الحافلة بالبحوث الأدبية فيه ، وفي « مطالعات » للعقاد و « حصاد المشيم » للباراني دراسة واسعة للمتنبي وفنه ، وقد شرح ديوانه شرح دراسة وتحليل ونقد ابن جني م ٣٩٢ هجرية في ثلاثة مجلدات ، وله كتاب في « معاني أبياته » . ولابن فورجة : « التجنى في الرد على ابن جني » و « الفتح في الرد على أبي الفتح » ، ورد على ابن جني كذلك على بن عيسى الربيعي المتوفى سنة ٤٢٥ هـ في كتابه « التنبيه » ، وشرح ديوانه كذلك ابن الأفلح م ٤٤١ هـ ، وأبو العلاء م ٤٤٩ هـ في كتابه « اللامع الغريري في مهجز أحمد » ، والواحدى م ٤٨١ هـ ، وعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ ، والتبريزي م ٥٠٢ هـ ، والعسكري م ٦١٦ هـ ، واليازجي والبرقوقي في عصرنا الحديث .

(١) ٣٦٦ ج ١ طبقات الأدباء

(٢) ٣٦ ج ١ ابن خلكان .

ونقد شعره كثير من النقاد في مختلف العصور ، فالصاحب م ٣٨٥ هـ في نقد شعره رسالته « الكشف عن مساوى شعر المتنبي » ، وللخوارزمي م ٣٨٣ هـ كتاب مفقود (١) ، ولأبي الحسن الجرجاني م ٣٩٢ هـ كتابه الممتع « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وللحاتمي م ٣٨٣ هـ « رسالته الحاتمية » وكتاباه « جبهة الأدب » تحدث في الأولى عن مناظرته للبتبي ، وفي الآخر عن سرقاته من أرسطو (٢) ، ولمحمد بن وكيع المصري الشاعر م ٣٩٣ هـ كتابه « المنصف » فصل فيه سرقات المتنبي (٣) ، وللمعدي كتابه « الأمانة » وقد نقل عنه البديعي كثيرا من نقده وناقشه (٤) ولأبن حسنون المصري كتابه « نزهة الأديب في سرقات المتنبي من حبيب » ، وألف أديب آخر كتاب « المأخذ الكندية من المعاني الطائفة » أي سرقات المتنبي من أبي تمام ، وغير ذلك من كتب النقد التي تدور حول شعر المتنبي .

وقد أبدى علماء الأدب في شتى العصور رأيهم في المتنبي وشعره كالشريف الرضى م ٤٠٥ هـ (٥) وابن رشيق م ٤٥٦ هـ في « عمدته » وابن خلدون م ٨٠٨ هـ في « مقدمته » وابن الأثير م ٦٣٧ هـ في « مثله السائر » وابن شرف القيرواني م ٤٦٠ هـ في « مقامته عن الشعر » (٥) وسيف الدولة الحمداني م ٣٥٦ هـ (٦) وابن العميد م ٣٦٠ هـ وأبو فراس الحمداني م ٣٥٧ هـ (٧) وابن خالويه النهوي (٨) وسيبويه المصري (٩) والحاتمي (١٠) . وقد عرض الكيلاني في كتابه « صورة جديدة من الأدب العربي » مناظرة الحاتمي لأبي الطيب . وغير هؤلاء من الباحثين . ونقده كثير من الكتاب المحدثين ، وكثير من المستشرقين :

مثل : راييسكي ، دى ساسي ، بولين ، بركلان ، نيكلسون ، هامر ، ديتريشي ، وكتب المستشرق الإنجليزي هندلي في تاريخ حياة أبي الطيب بحثاً قيمة نشرها في القرن التاسع عشر .
ويطول بنا البحث لو أحصينا رأي كل ناقد وأديب ، من هؤلاء وغير هؤلاء .

(١) ١٦١ صبح ، ٢٦١ ج ٢ النثر الفني .

(٢) ١١١ - ١١٩ ج ٢ المرجع . (٣) ١٥٨ و ١٦١ صبح

(٤) ١١٤ - ١٥٩ صبح . (٥) ١٠٣ صبح .

(٦) ٤٣ صبح . (٨) ٤٦ - ٤٨ صبح .

(٩) ٦٣ صبح . (١٠) ٧١ - ٨٠ صبح ، ١٠٦ - ١٣٧ صور جديدة لكيلاني .

وبعد فهذا هو أبو الطيب المتنبي شاعر العربية في حياته وشعره وشاعريته وحكمته
.. وإلى هنا نمسك القلم ، محيين عبقرية ذلك الشاعر العظيم .

فهرست الكتاب الخامس

صفحة الموضوع

١٥١ حياة الشاعر

١٥١ نشأة الشاعر

١٥٢ إلى الشام

١٥٣ في ظلال سيف الدولة

١٥٥ جفوة

١٥٥ رحيل

١٥٦ في بلاط كافور

١٦٠ عودة إلى السكوفة

١٦٠ في بغداد

١٦١ في إيران

١٦١ مصرعه

١٦٢ تنبؤ المتنبي

١٧٠ ثقافة د

١٧٣ فلسفة د

١٨٤ شاعرية المتنبي

١٨٩ شهرة د

١٨٩ المتنبي والنقد الأدبي

الكتاب السادس :

قصص من الادب

مع أديب تونسي

من حظ الأدب العربي المعاصر أن يصدر كتاب « حصاد القلم » الأديب التونسي الموهوب « أبي القاسم محمد كرو » ، جامعا بين المقالة والقصة والبحث ، في أسلوب بليغ متنوع بين النثر والشعر المنشور ، وأغراض شتى تتردد بين الشعر والأدب والنقد والثقافة والاجتماع والوطنية .

والمؤلف يقدم كتابه إلى القراء في تواضع جمة ، وأدب كريم ، وشعور بليغ بالرسالة التي يحملها . . . ويعرف القراء بكتابته فيذكر عنه أنه « آراء وخواطر ، قد يرضى عنها أناس ، وقد لا يرضى عنها آخرون ، ولكنها في كلا الحالين لا تستهدف رضاهم ولا سخطهم ، بل تسعى إلى خدمة الحقيقة ، والتعبير عن مظاهرها الواقعية في مناحي حياتنا المختلفة » (١) . . . ويرى أن من واجب الكاتب « أن يبذل من دم قلبه ، وإكسير قلبه ، زكاة صالحة لوطنه ولأمته » (٢) .

وبمثل هذا الشعور بالمسؤولية ، والإحساس بواجب الأديب نحو وطنه ، يمضي المؤلف في فصول كتابه ، رائعا جليلا ، قوى التصوير والتعبير والتأثير ، سامي الأهداف والغايات ، هاتفا بالحرية والمجد لوطنه وأمه وللعرب في كل مكان . . . ينحو نحو الواقعية الحديثة في أدبه وكتابته ؛ يعزز ذلك كله طبع أصيل ، ومساكن قوية ، وشعور إنساني ووطني كريم ، وإيمان بحق شعبه في الحرية والحياة العزيزة بين الأمم والشعوب .

والأستاذ أبو القاسم كرو يعرفه الأدباء والقراء في البلاد العربية كافة ، كاتبا مخلصا ، وأديبا حرا ، ومؤلفا مجيدا في مؤلفاته : « الشابي » ، و « كفاح وحب » ، و « مايس شهر الدموع » . . . ولقد كانت مقالاته ودراساته وبحوثه خير تعريف

(١) ص ١٨ من الكتاب

(٢) ص ١٩ من الكتاب

(١٣ - قصص)

لأبناء البلاد العربية بتونس وأدبائها وشعرائها الماضين والمعاصرين ، بعد أن كان الأدب التونسي في شبه عزلة عن العالم العربي في مختلف أقطاره وأمصاره . . . وهو كذلك زميلنا في عضوية رابطة الأدب الحديث بالقاهرة . . . ومن ثم كان فرحنا بظهور هذا الكتاب شديدا ، وتهنئتنا لمؤلفه مزدوجة ، وإنا نرجو له التوفيق كل التوفيق في خطواته الأدبية الرائعة الرائدة ، ولكتابته هذا الذيع والعناية من القراء في كل مكان . . .

حياة الأديب

كان الناس في العصور القديمة يضربون بشقاء الأديب المثل ، وكانوا يعتبرون الأدب مهنة تجلب على صاحبها الحظ التمس ، وإذا أرادوا أن يقولوا عن إنسان إنه صار شقيا قالوا « أدركته حرفة الأدب » .

ويقول ابن بسام الشاعر القديم يرثي ابن المعتز الخليفة العباسي الشاعر حين مات مقتولا :

لله درك من ميت بمضيعة ناهيك في العلم والآداب والحسب
ما فيه لو ولا ليت فتنفعه وإنما أدركته « حرفة الأدب »

وأول من ضرب المثل بحرفة الأديب هو المفكر العبقرى الخليل بن أحمد المتوفى في أواخر القرن الثاني الهجرى ، حين شاهد شقاء الأدباء ، ورأى حظوظهم التمسة وحياتهم الشقية . وأمامنا في تاريخنا الأدبى القديم ابن الرومى وأبو تمام وأبو العلاء المعرى ومهيار والبهاء زهير وسواهم من الشعراء ، الذين أطلوا الحديث عن شقائهم في المجتمع لحرفة الأدب التى كانت السبب في هذا الشقاء . ويطلق الأديب الكبير أبو حيان التوحيدى في كتبه الحديث عن شقاء الأدباء في حياتهم وعن شقائه هو بأدبه .

هنا في قديم العصور التى كان الملوك والأمراء والخلفاء والولاة ينفقون العطاء فيها على الأدباء والشعراء والكتاب والمؤلفين ، وكان الشاعر يقصد أميرا من الأمراء يمدحه بقصيدة ، فيهنز الأمير أريحية وكرما ، ويمنح الشاعر المكافآت السنية ، كما كان الأدباء ينفقون بلاط الخلفاء والوزراء ويعيشون في ظلالهم الوارفة متمتعين بالمال والثراء والنفوذ ، وكان المؤلفون كذلك يؤلفون الكتب ويهدونها لأمير من الأمراء ، فما يلبث أن يهدى لإيهم جليل المنع ، وجزيل العطاء . ولقد أئيب الجاحظ عل كتابه « الحيوان » بعشرة آلاف دينار ، وأئيب الإصفيهانى بآلاف

الدنانير على كتاب « الاغانى » من سيف الدولة الحمدانى ، وكان أبو تمام والمتنبى والبحتري وسواهم من الشعراء يعيشون فى بدخ ورفاهية ونعمة لامثيل لها ، من الأموال المتدفقة عليهم ، من كبار رجالات الدولة .

ونحن مع ذلك نعيب عليهم حياتهم على أموال الملوك والوزراء ، ونرى ذلك بما قيد حريتهم فى القول ، وأضعف شخصيتهم الفكرية والتوجيهية فى المجتمع

والآن فى العصور الحديثة لانزال نرى مظاهر الفاقة والشقاء التى يعيش فيها أدباؤنا وشعراؤنا ، دون ماعناية من المجتمع ، أو رعاية من الدولة ، فلا أديب لا يستطيع الحياة بقلبه إلا إذا عمل فى مهنة ، أو كانت له وظيفة ، والصحافة ليست ميدانا لتشجيع الأدباء ، وإنما ينتفع بها كثير من العالة على الأدب ، والأدعياء للشعر ، ويدخل أبوابها المتافقون والمرامون ، بمن لهم فى كل يوم لون ، وعند كل كبير وجه ، وفى كل مقام كلام . والصحافة لا تهتم بتشجيع المواهب واستنباط ذوى الماسكات ، ولا تبحث عن العبقریات المدفونة فتحييها ، والدولة لا تعمل على مساعدة الأديب فى حياته ورزقه ، وقد يحفى بعض الأدباء فى سبيل البحث عن عمل فلا يجد معينا ، وإيست الأدباء جماعات تعارفية أو نقابة جماعية على نمط نقابة الصحفيين أو المحامين مثلا ، فترعى حقوقهم ، وتسهر على مساعدة المحتاج منهم ، وتوفر لسكل أديب حياة كريمة ، وعونا ماليا مناسبا ، وخاصة لمن يقعد به المرض أو الشيخوخة ، ولا يزال المؤلفون حتى الآن يؤلفون دون أن يكون هناك قانون يحمى حقوقهم ، وقد بادرت حكومة الثورة بالانفسكير فى وضع قانون جديد لهم نرجو أن يكون له أثره الحميد فى محيطنا الأدبى . . فنسلا عن عدم اقبال المجتمع على العناية بالآثار الأدبية وتشجيعها ، وضعفت ثقة الأديب بالجمهور الذى يعتقد أنه لم يعد حريصا على قراءة الأدب والشعر ، حرصه على قراءة القصص المأجنة والروايات الخليعة . .

هذا إلى غير ذلك من المؤثرات السكثيرة ، التى تجعل الأديب يروح تحت أعبائها ، ويصطلى بنارها ، فهو يجهد نفسه فى السكتابة والتجديد والبحث والاثارة والامتناع ، ومع ذلك لا يجد لأدبه قارئاً ، ولا يجد صدى لما يكتبه فى أذهان الناس ، ولا يحس بتجاوب بينه وبين الجماعات حتى المثقفة منها . . . مما يدل دلالة واضحة على انصراف الناس بتأثير مادية القرن العشرين عن الأدب ، وزهدهم فى الشعر ، فأى شقاء للأديب أكثر من هذا الشقاء ؟ .

وكثيرا ما يحمل الأدباء كتبهم إلى دور النشر لتنشرها لهم ، فلا يجدون إلا صدا

وإعراضاً ، بدعوى عدم رواج الكتب الأدبية في هذه الأيام . . والدولة كذلك لم تعد تفكر في شراء كتب الأدب المختلفة لمكتبات مدارسها ، تخفيفاً عن ميزانيتها المرهقة التي تصرف على مصالح الشعب الأخرى .

ونحن لم ننس بعد ما لاقاه أمثال أبو شادي وزكي مبارك وإبراهيم ناجي وعبد الحميد الديب والشراوي وأحمد محرم والهمشري وسواهم من شقاء وظلم ، وشعراؤنا الممتازون مثل حسن كامل الصديقي وكمال نشأت والفيتوري وحسن جاد والعتيل وسواهم لا يستطيعون اخراج دواوينهم الشعرية المخطوطة حتى اليوم .

فن مبلغ الناس ان الأدب يحتضر اليوم ، وأنتا مقبلون على عهد لانسكاد يود فيه انسانا يؤمن بالأدب وبالشعر ، مادام الأديب يعيش شقياً بأدبه ، والشاعر يحيا تمسا بشعره ؟

ومن مبلغ الأدباء أنفسهم بأن عليهم أن يعيشوا على مهنة أخرى ، فكل مهنة أفضل من حرفة الأدب عند الناس ؟

ومن مبلغ أبناء العروبة بأن مفاخر العروبة في القديم والحديث لن تجد بعد زمن قريب من ينظمها أناشيد علوية ساحرة عذبة ؟

إن الأدب لا يجد له قارئاً أو ناشراً أو صدى بين الناس ، فكيف يجد الناس بعد اليوم أديبا يحيا بالأدب وللأدب ؟

ندوة أدبية

هذه الندوة التي دعا إليها الشباب ، من أبناء كلية اللغة العربية ، تركز على دعامة ثابتة قوية ، من ماضي الأزهر الأدبي التليد ، وتسير بعزم متوثب مبشرة بكل طريف وجديد ، وتؤمن بالأدب رسالة ، وبالفن غاية ، وبالتجديد منهجا ، وبالدقة والعمق أسلوبا . . غايتها أن تضيف إلى تراثنا الأدبي القديم ، كنوزا من ابتداع الخيال ، وإلهام الشاعرية ، وعمق التجربة ، ووحدة القصيد ، ووسيلتها إلى ذلك الدرس والبحث ، والفهم والنقد ، والدعوة إلى خير ما في الأدب القديم من عناصر ، وإلى أجل ما في الأدب الحديث والمعاصر من أصول ومذاهب ومقومات .

ولشباب الأزهر ماض عريق في الأدب : شعره ونثره ، وجهود كريمة في تغذية نهضتنا الأدبية بالمواهب ، وآثار طيبة محدودة في المحافظة على تراثنا الأدبي القديم ،

واصطناعه نهجا في البيان ، ومذهبا في الأسلوب ، وطريقا إلى الوضوح والإفهام والإمتاع والجمال الفني الخالص .

ونحن في الأزهر نؤمن بمواهب الشباب ، كما نعتد بأذواق الشيوخ ، ونحاول جاهدين أن نصبح إنتاجنا بصيغة ترضى أذواق أولئك الذين يهيمون غراما بالقديم ، وتوائم طموح هؤلاء الذين يذوبون هياما بالجديد ، فلم نعد نؤمن بالقديم وحده ولا نحن نؤمن بالجديد وحده ، وإنما نؤمن بهما معا طريقا إلى التجديد الأدبي المنشود .

والأزهر الحديث يعتز بأعلامه في الأدب والشعر والنقد ، ومنه خرج أفواج من العلماء والأدباء يبشرون برسالة الأدب والشعر في الجامعة ودار العلوم وشتى المعاهد والجامعات المختلفة في مصر والشرق العربي ، ونحن لانسى محمد عبده وسعد زغلول وطه حسين والمنقلاوطى والمرصفي والبشري ومصطفى عبدالرازق والزيات ، كما لانسى القاياتي وأحمد الزين ومحمد الأسمر وسواهم من أعلام الشعراء والأدباء والمفكرين .

ونذكر بالفخر : حسن جاد ، وإبراهيم نجما ، وإبراهيم بديوى ، والفيتورى ، وتاج السر ، وعبد الحميد ربيع ، وسند كيلانى ، وغانم أبو النصر ، وسواهم من الشعراء ، كما نذكر السيد صقر وفهمى عبد اللطيف وأحمد الشرباصى وعبد اللطيف بدر وطه حراز وسواهم من الأدباء .

والندوة تضم عدة شعراء ، ذوى مواهب فنية أصيلة ، وآخرين توشك مواهبهم أن تفتح وتجر من إسهار الصنعة والاحتذاء والتقليد . . ونحن نحتفى هؤلاء وأولئك ونرى في شعرهم صورة جميلة لإلهام الشباب وطموحه الأدبي . . والشعراء من الشباب قد تنطق بشاعريتهم قصيدة ، أو أبيات من قصيدة ، يستدل منها على الأصالة الفنية ، ، الموهبة الشعرية المطلقة في أفق رحيب ، من الابتداع والخيال المشبوب والعامقة الثائرة . . ولنا نقدر أمثال الشاذلى والتهيجانى بشير والديب والهمشرى والشرنوبى ، بكثرة ما نظموا لأنهم ماتوا في زهرة الشباب ، وإنما نخلد ذكرهم في الشعر المعاصر لأن في قصائدهم لمحات بارعة مشرقة بالأصالة والموهبة والحرية الفنية والشخصية المتميزة في الشعر ونظمه .

ونحن نرحب بالندوة مظهرا قويا لفكرة أدبية جديدة ، وشخصية فنية متميزة ، ونرجو أن تستكمل يوما بعد يوم كل أسباب القوة والأصالة والجودة والابتداع .

في الطريق إلى مجتمع جديد

يصدر هذا الكتاب الجديد والسفر النفيس من تراث المرحوم العالم الكبير مصطفى الصاوي الأستاذ بالأزهر الشريف ، فترجع بفكرنا قليلا إلى الوراء ، لنذكر هذا الرجل الجليل ، والعالم البحاث ، والأديب الكاتب الشاعر الناقد ، والصحفي الممتاز اللبق ، والداعية إلى الإصلاح الاجتماعي والديني في مصر ، وساحب مجلة البشير الذي اتخذها منبرا عاليا سمجيا كرما للجهر بدعوته ، وإذاعته آرائه ومبادئه ورسائله ، ولندكر مع ذلك سماحة الرجل ونبله وكريم أخلاقه ، وشمسه وإيمانه وحمته ومروءته وشخصيته القوية ، ونفسه العالية الوثابة المتحفزة إلى الإصلاح ، ولندكر هذا الماضي الجميل العذب الذي كنا نسعد فيه برؤية الشيخ وزيارته ، والتمتع بعون لقائه وطيب مجلسه وعف أحاديثه ، والإفادة من دقيق آرائه وأفكاره ونظراته الثاقبة إلى الحياة .

قضى الأستاذ حياته العلمية في الأزهر طالبا ومدرسا ، وحمل أعباء الجهاد في الحياة شابا قويا جريئا متحمسا ، ورجلا صلبا مثقفا حليما دقيق النظر إلى الأشياء ، وشيخا كهلا حكما يرضيه المرض فيقعدة ، وتدعوه ففكرته إلى الإصلاح فتنهض به وبجسمه المجهود .

وفي صيف عام ١٩٤٩ ، في منتصف شهر يونيو تقريبا ، هاوينا صحيفة هذه الحياة الحافلة ، ومات الرجل الذي كان يسخر من الحياة ، وانتهى عمل حافل بجلال الأعمال ، وأودع الشيخ قبره بين ذكرى الذاكرين ، وبخاء المشيعين وعبراتهم الثرة الهائلة .

من منا لا يذكر الشيخ مدرسا قويا البديهة الملمى الفكر ، متوفد الذهن ؟ ومن منا لا يذكره كاتباً أديبا شاعرا ، يربى تلاميذه على حب الأدب والشغف به والذوق ؟ ومن لا يذكر مجلته البشير وكيف كان الفقيد الكبير يسجل فيها دعواته وآراءه في حماس المؤمن ولباقة الأديب ، وجمال أسلوب البليغ ، وكيف كانت مقالاته إلهاما بما جدد من أحداث الحياة ومن مشكلاتنا الاجتماعية في الحرب العالمية الثانية وبعدها ؟

لقد ضمن الخلود لهذا العبقري النابغة أن يحى دائما في الناس ذكراه ، وأن ينشر بيننا كل وقت صحيفة حياته الحافلة الرائعة .

ولما في مداهم الأحداث والمشكلات الاجتماعية التي تحيط بنا لنترحم على هذا

الرجل الذي أنار الطريق وكان رائدا من رواد حركة الإصلاح الاجتماعي في وطننا العزيز .

وإذا نسيه الناس فستردد اسمه وذكره مؤلفاته القوية العميقة الممتعة ، التي منها هذا الكتاب وكتاب « الورد الصافي لطالب العروض والقوافي » وكتب أخرى في علوم الدين والشريعة ، وستحيي دائما سيرته بيننا مقالاته الباقية الممدوية التي كان يذيعها في مجلته « البشير » ، وفي سواها من المجلات : كمجلة الأزهر الشريف ومجلة الشؤون الاجتماعية .

هبة وذكرى

كان أستاذنا الكبير المرحوم الشيخ محمد عبد الله أبو النجا من أفذاذ العلماء ، ومن أمثلهم خلقا ودينا وروعا ، وحجة ثبنا في علوم الدين والعربية ، وكان يسيطر على قلوب تلامذته ومريديه : بأدبه الجهم ، وتواضعه المأثور ، وصلاحه النادر ، وعفة لسانه ، وقوة بيانه ، وشجاعته في قول الحق والجهرب . وكانت محاضراته ودروسه في كاية اللغة — في النحو والصرف وأصول الفقه والحديث والتفسير وغيرها — ميدانا لتسابق العقول ، وشجذ الملكات ، وتربية المواهب . ولا يزال إخوانه وأبناءؤه في العلم يذكرون ذلك بالوفاء والتقدير وعرفان الجليل . أية موهبة كان يضمها إهابه ، وأي دين كان ينطوى عليه قلبه ، وأي عقل كنا نعز بالأنصت لتفكيره والتأدب بأدبه .

كان رحمه الله من خيار أساتذته في طلب العلم : والده المغفور له الشيخ عبد الله أبو النجا ، العالم الكبير ، والأزهري النابغة ، الذي اختير للتدريس بمعهد الاسكندرية الدينية (١٩٠٨ - ١٩٢٢ م) ، وعند إنشاء أقسام التخصص في الأزهر اختير للتدريس الفقه والأصول فيها .

وكان من خيار شيوخه في الله : العارف بالله الشيخ منصور أبو هيكل ، وولده الشيخ عثمان الذي وصل عليهما أستاذنا ، والشيخ عبد الخالق الشبراوي الذي كان ملازما له ، والشيخ عبد الحميد إبراهيم . وسواهم من أولى الصلاح والولاية . وكانت لذة البحث والعلم عند أستاذنا الكبير واضحة جليلة في جميع أطواره فكان يلازم والده في غدواته وروحاته ، ويناقشه في مسائل العلم والدين حتى حين تناول الطعام وفي

أوقات الراحة ، وكثيرا ما كانت تعقد الندوات العلمية في منزل والده فيشارك فيها سامعا ومناقشا وموجها .

وقد ولد رحمه الله عام ١٨٩٧ في قرية كفر عيسى ، من بلاد مركز فافوس ، ونال العالمية بتفوق كبير عام ١٩٢٥ . ثم عين مدرسا في المعهد الابتدائي الأزهرى ، ونقل للتدريس في المعاهد الثانوية ، ثم مدرسا في كلية اللغة العربية منذ إنشائها عام ١٩٣١ ، إلى أن نقل وكيلا لمعهد القاهرة ، ففتشا بالأزهر ، فوكيلا لأكاديمية اللغة العربية . وفي ٨ مارس عام ١٩٤٩ شعر الفقيه الكبير بتعب وإجهاد ، فاستراح في منزله يومين استأثرت به بعدهما رحمة الله تعالى في ١٠ مارس سنة ١٩٤٩ ، خمرت لديه اللغة بوفاته علما من أعلامها ، وركنا من أقوى أركانها ، واذملت لوعة المصاب فيه عقول تلامذته ومريديه وعارفي فضله .

ومن آثار أستاذنا الجليل ، كتاب في علم أصول الفقه ، يجمع صواب الرأي ودقة الملاحظة وعمق الدراسة ، وقوة الماسكة . وقد توليت نشره وطبعه عام ١٩٥٠ ، وانتفع به تلاميذ كثيرون . . فعليه رحمة الله .

تجنب هذه الأخطاء

كنا في حياتنا الطويلة في الأزهر لا يؤمن بأنفسنا ولا بعصرنا ونرى أننا شيء تافه بالنسبة إلى الماضي المجيد الزاخر بأسباب العظمة والفخار ، وأننا نقبس أنفسنا بمقياس ما نملك من أسباب مادية نستطيع بها التغلب على صعوبات الحياة . . ثم دارت الأيام دورتها ، وأخذنا نسترد ثقتنا بأنفسنا وبمقوماتنا وبعصرنا وبمجتمعاتنا الذي نعيش فيه ، وعلقتنا الحياة أن تلك الثقة لا بد منها لارجل الذي يجب أن يؤدى رسالته وأن انعدامها معناه انعدام الأمل الذي يمدنا بالقوى الروحية والمعنوية في معيشتنا ، فأياك أيها الأزهرى أن تفقد الثقة بنفسك أو تنعدم الأمل في الوجود الروحى لك .

وكنا ننظر إلى أنفسنا وإلى شيوحننا فنتضائل ، نعتقد أنهم أو تواعل الدين والدنيا ، وأننا لن نصل إلى ما وصلوا إليه أبدا ، ثم دارت الأيام دورتها ، ووجدنا أن أساتذتنا ما هم إلا كائن حتى مثلنا ، فيهم النابغة والمتوسط والضعيف ، وأن إجلالهم وتوقيرهم شيء وادعاء أنهم معصومون شيء آخر ، أيها الأزهرى إياك أن ترفع أساتذتك إلى درجة التقديس ، فإن ذلك معناه أنك ستعيش لا تهتكر ولا تستطيع التجديد والمثابرة على الحياة العلمية الطويلة .

— ٢٠١ —

وكنا نعيش ننظر إلى المجتمع كله على أنه شر محض وإلى كل مستحدث على أنه بدعة . وإلى كل تجديد على أنه عبث ، وعلبتنا الأيام أن الأزهرى يجب عليه أن يزن كل شيء بميزان سليم معقول ، وأن يعطى لكل شيء حقه ، وأن يتجنب سوء الظن والفهم للحياة والمجتمع وللبيئة التي يعيش فيها ، وأن ذلك كله شيء لا بد منه له .

وكنا - أدبا مع شيوخنا - لانجرف على أن نصارحهم بما في نفوسنا لهم ، وعلبتنا الأيام أن الإنسان لاغنى له عن أن يعود الصراحة في القول ، والشجاعة في الرأي ، والحرية في التعبير عن أفكاره ، وأن ذلك بالنسبة له شيء ضروري جداً . فإياك أيها الأزهرى أن تفرط في الحرية التي وهبها الله لك .

رسالة الفكر في الحياة

— ١ —

قرأت بإممان في مجلة « صوت البحرين » ما كتب حول « الاستعمار وهل يمكن أن يكون فكراً ؟ » وتبيئت - كما تبين القراء - الدوافع النفسية للكتابة في هذا الموضوع ، وكلها تهدف نحو هدف كريم واحد ، هو تلبيس العزة والحرية والحضارة للشعوب العربية ، وتنبع من معين واحد هو الروح الوطني الفياض ، الذي يحيش في صدر كل عربي حر ، يؤمن ببلاده ومجدها ورفاهيتها .

ففي عدد ذي القعدة ١٣٧١ هـ من المجلة كتب الأستاذ « جبران مسوح » من بونس آيرس ، ينهى على الأحرار في لبنان اشتراكهم في الاحتفال بافتتاح مكتبة أمريكية في « زحلة » ، ويرى أنها قاعدة ثقافية للاستعمار الأمريكي . . وفي عدد جمادى الآخرة ١٣٧٢ هـ كتب الأستاذ وديع فلسطين كلمة رأى فيها أن افتتاح مكتبة في مدينة مانعمة ، وأن الثقافة إنسانية ، وإن اتخذت لوناً وطنياً ، وأن اللغة والآداب والعلوم ترفع عن حدود القومية أو العنصرية أو المذهبية الضيقة ، ومن ثم فالاستعمار لا يمكن أن يكون فكراً ، لأن هناك تعارضاً جوهرياً بين رسالة الاستعمار ورسالة الفكر ، وقد أبدى في ذلك « أبو موسى » من كلمته في عدد ذي الحجة ١٣٧٢ هـ ، من حيث عارضه في ذلك « ابن الصحراء » بالظهران في كلمته المنشورة في عددي رجب وشعبان ١٣٧٢ هـ ، وروز غريب من لبنان في كلمتها في العدد نفسه ، و « حر » في كلمته في عدد شوال ١٣٧٢ هـ .

وإني مع احترامى لحرية الكاتب ورسائله الفكرية والوطنية ، وتقديرى للجوانح النبيلة التى تدفع الكاتب الحر فى بلادنا للنضال من أجل حرية الوطن وحرية الفكر معاً . . أحب أن أسجل رأيي فى الموضوع ، دون أن يكون تسجيل هذا الرأى تنازلاً لكاتب أو لرأى بالنقد والتعليق :

للشعوب العربية العريضة ، إبان عهود قوتها وبجدها وعزتها ماضى كريم فى احتضان الفكر والثقافة ، مهما اختلفت القوميات المناصرة لها ، والأجناس التى اشتركت فى تكوينها فى أواخر الأمويين ، وفى عهد العباسيين أقبل العرب فى شغف أبدي وظلم شديد ، ينهلون من معين الثقافة الفارسية والهندية واليونانية والرومانية والسريانية القديمة ، فترجموا إلى العربية أصول هذه الثقافات ، واحتفوا بها ، وتلقاها عليها ، دون أن يعد أحد ذلك غزواً فكرياً تقوم به جماعات من الشعوب لحساب الخاص ، على حساب العرب أنفسهم وفى العهد الحديث ذهبت جماعات من شباب الشرق تنهل من ينابيع الثقافات الحديثة فى أوروبا وأمريكا ، فلم يؤمل ذلك أحداً بأنه غزو فكري لبلادنا ، ثم افتتحت مصر وبعض البلاد العربية منذ أمد قريب مداخل الثقافة الإسلامية فى العواصم الكبرى فى أوروبا وأمريكا ، فلم يقل إنسان إن ذلك غزو عربى للفكر الأوروبى والأمريكى بل إن مراكز الثقافة العربية القديمة فى صقلية وإيطاليا والاندلس كانت تعج بالشباب من مختلف شعوب أوروبا وقبيل مصر النهضة بقليل ، ومع ذلك لم تدع الشعوب المختلفة حينذاك إلى عدم الإقبال عليها ، والتعليم فيها وإقبال المستشرقين فى الغرب على دراسة الثقافة العربية والإسلامية عمل جليل لم يفض من قيمته كاتب أوروبى .

وإذا رجعنا إلى أصول الأديان السماوية وجدناها تدعو أول ما تدعو إلى الإحسان والتعاون والتعارف والمحبة ، وإلى اشتراك العقول والأفكار جيماً فى العمل الخير الشعوب والأمم ، ومستقبل الإنسانية جمعاء ، دون نظر إلى مذهب أو دين أو جنس أو أمة أو طائفة بعينها .

إن الثقافة إنسانية خالصة ، وإن من الظلم للثقافة أن نعشر فيها حشراً ببعض مقالات تسكتب للدعاية وحدها ، دون أن يكون فيها طابع البحث والثقافة والفكر ، ثم نحاول من أجل بعض مقالات تسكتب للدعاية هدم صرح الثقافة ، أو التشكيك فى أثرها الإنسانى ، وأهميتها بالنسبة لجميع الشعوب .

— ٢٠٣ —

إن اليابان - منذ اتصلت بالثقافات الحديثة في آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - كانت أظهر مثل في استفادة الشرق المتحضر من الثقافات العالمية الحاضرة الحديثة ، الاستفادة الروحية والمادية معاً . ونحن الشعوب العربية لم نبداً عصر التحرير القومى في بلادنا إلا بعد تيقظنا على مجلجلة الثقافات الحديثة في أوروبا وأمريكا ، وبعد أن شاهدنا أثر هذه الثقافات في الحضارة العالمية الراهنة .

— ٣ —

وأذكر أنه منذ نحو عشرة أعوام صحبت رجلاً كبيراً إلى صحيفة كبرى في القاهرة ، وكان هذا الرجل مثقفاً بثقافة انجليزية واسعة حيث عاش في إنجلترا نحو عشرة أعوام وكان معه مقالة وطنية ، وكانت المقالة ثورة وطنية مشتعلة ضد الاستعمار . . ولما قدمت الرجل إلى رئيس تحرير الصحيفة الكبرى أردفت كلامى ذلك بقولى : « إني أعجب ياسيدى من أن يكتب بهذا الأسلوب الوطنى المتطرف رجل درس في الغرب وثقف بثقافته ، فقال لى رئيس التحرير : « لا ياسيدى ، وهل حمل مشعل الوطنية والحرية إلا هؤلاء الذين تثقفوا في أوروبا ؟ » .

إن غزو الاستعمار ياسيدى القارىء لا يمكن أن يحمله أو يساعده الفكر والثقافة بأية حال ، فالاستعمار كما قال الكاتب الصحفي الوطنى « وديع فلسطين » عنصرى النزعة والهدف ، والفكر والثقافة تسيطر عليهما النزعات الإنسانية الحرة ، التى تؤمن بأن من حق الناس جميعاً أن يعيشوا أخوة متحابين فى الأرض ، وأن يقتبس بعضهم من الآخرين العلم والحكمة .

وان نساعد على تقدم شعوبنا وبلادنا العريقة ، إلا إذا أصابها حمى الثقافة والفكر فأقبلت على القراءة والإطلاع ، وترجمت للعربية أصول الثقافات العالمية الراهنة ، وزاد انتشار المعرفة باللغات الحديثة زيادة كبيرة فى محيطنا العام .

إن المفكرين لا يخافون أبداً من افتتاح مؤسسات ثقافية أوروبية أو أمريكية فى بلادنا . . فضلاً عن افتتاح مكتبة ثقافية ، لا تحمل إلا طابعاً واحداً متميزاً هو طابع العلم والروح الإنسانى الكريم الأهداف والنزعات . إننا نبغض الاستعمار ، ونبغض وسائله السكرية فى محاربتنا ، ولكننا نقدر رسالة العلم والفكر والأدب ونسوق بها على كل اعتبار ، ونحب الحكمة ولا نبالي من أى طريق تصلنا ، واليد التى تمتد إلينا تحمل اللهب والنار غير اليد التى تحمل نور العلم والفكر وشعلة الثقافة المقدسة .

معاني الشاعر

المعاني التي يصوغها الشاعر الملهم هي المعاني الرفيعة المختارة ، والجديدة المبتكرة ، والخاصية الشريفة ، التي لا يصل إليها عقل العامة وإدراكهم . . فهو يستمدّها من كل شيء في الحياة ، وكل جديد في الكون ، وكل مشاهد من مشاهد الطبيعة ، ومنظر من مناظر الوجود . ، وفطنة الشاعر بالمعاني لا تقف عند حد ، ولا تنتهي إلى غاية . فهو ينظر إلى الأشياء نظرة خاصة ، ولا يكتفي بالنظرة العابرة وما توحى به من أفكار في بادئ الرأي ، وإنما يدقق وينظر إلى التفاصيل ، يأخذ ما يأخذ ، ويدع ما يدع في دقة وحذر شديدين ، فإذا نظر إلى الزهرة لا يكتفي بملاحظة ألوانها وإدراك عبيرها ووصف جمالها ومتعة المحبين بها ، وإذا نظر إلى البحر الناثر لم يرض أن يقف عند وصف أمواجه العاتية ونهايته الغير المحدودة ، ومياهه التي ليست لها نهاية ، وإنما يتحدث عن مصدره ومورده وأسرار الأبدية الخالدة التي أودعها الله فيه ، والحياة المتدفقة التي يفيض بها ، والشباب المتجدد الذي تنطوي عليه قطراته وترتدى به أمواجه ، والسكون العجيب الذي يضم عليه جوانحه ، وعوامل الجاذبية والمد والجزر المستمرة المشاهدة على شاطئانه ، إلى غير ذلك من دقائق فطنة الشاعر بالمعاني ، ومحاولته الكشف عن كل جديد في الوجود .

والشعراء يختلفون في فطنتهم الذهنية . وفي المعرض الذي يعرضون فيه معانيهم ، اختلافاً كثيراً ، ومرد كل ذلك إلى الصفات الفكرية ، والمواهب الذهنية عند الشاعر . فالشاعر لا بد أن يكون دقيق الإحساس ، مرهف الشعور ، سريع التذوق للجمال وأسراره ؛ قوى الإدراك لكل شيء ، وهذه هي فطنة الشاعر التي نعنيها ونقصدها ونطالب بها ، وهي تنافي السطحية والعامية والعموم في الفكرة والإجمال في المعنى ، وتنافي وقوف الشاعر عند المشاهد المرئية العامة يصفها وصفاً عادياً لا عمق فيه ولا متعة ولا دقة ولا شعور بالجمال .

وفطنة الشاعر يقويها في ذهنه تجربته العميقة . وثقافته الواسعة ، وذكاءه اللامح ، وخياله الخصب ، وتصوفه وتبته في موضوعه ، ووقوفه موقف التأمل المفكر في كل ما يناجيه به خاطره ، ويهجس في خلده . . . ووحدة القصيدة عند الشاعر ، والتحام معانيها وأغراضها وأفكارها ما هي إلا أثر لهذه الفطنة الشعرية العميقة .
إن الشاعرية الأصيلة تحرم على نفسها التفاهة ، وتأتي إلا أن تكون مجددة مبتكرة ،

تضيف إلى ثروة الشعر في المعاني جديداً ، وتبعث اليقظة الذهنية والوعى الفنى فى كل أثر أدبى جديد ، يحدثه الشاعر ويبتكره . والناقد مهمته أن يكشف عن الموهبة ويجليها ويشيد بها ، ويظهر أدعاء الشعر ومنتحليه ، وينيف غرورهم ودعاواهم الكاذبة الموهمة ، وشعورهم السطحي الذي لا أثر له فى الحياة ، ولا قيمة له فى التفكير .

وقد يولد الشاعر فى المعانى التى يعرفها ، ويحاول التجديد فى حواشيها وتفصيلها ، فيضيف إليها زيادة تحسنها ، أو ينفي عنها عيباً يهجنها ، مما يدل على فطنته . . . فالتوليد فى المعانى ، ومحاولة التفصيل فيها ، والاحتراس مما يهجنها ، مظهر من مظاهر فطنة الشاعر ودقة بصره ونفوذ فكره ، وهى ما نطالب به شعراءنا ، فلا يكفى أن يصوغوا معانيهم عامية مبتذلة سوقية ، ولا أن ينظروا إلى الأشياء نظرة سطحية لا تعمق فيها ، ولا أن يسوقوا من معانى القدماء ما يشاءون . . . وإنما نريد أن يكون للشاعر موهبة فنية كاملة تفهم الحياة وتتذوقها وتعبر عنها فى إجادة .

وقد لا تكون المعانى الجديدة فى شعر الشاعر كثيرة ، وقد يستعير معانى السالفين ويحاول التجديد فى أسلوبها ، وإضافة شئ إليها ، والتفصيل فى بعض جوانبها ، فيأتى بما يعجب ويروق . . . ولا ضير على الشاعر فى أن يستعير من معانى القدماء ما يشاء ، ويحذو حذوهم فى التعبير عما أعجبه من دقائق الآراء والأفكار ، متى كانت المعانى التى استعارها منهم ذائعة معروفة ، وعامية مشهورة . . . أما المعانى الخاصة التى تنسب لشاعر بعينه وأنه مبتكرها والذى كشف عن غوامضها ، فإن أخذها واستعارتها سرقة شعرية ، لا يكون للشاعر معها فضل ، ولا مخصصه النقد من أجلها بمحمدة ، وقد تغفر له هذه السرقة متى أضاف إلى المعنى ما يحسنه ، أو إلى الأسلوب ما يزينه .

ونحن نطالب الشاعر بدقة الإدراك وعمق الشعور ، وصدق الإحساس ، وبساطة التعبير ، وتقديس المثل السكرية ، ومشاركة الناس فى آلامهم وآمالهم ، مشاركة حية موجهة ، قوامها الإخلاص والجمال والحرية ، والحناف بكل جميل وحق وخير فى الحياة .

فهرست الكتاب السادس

- ١٩٣ مع أديب تونسى
- ١٩٤ حياة الأديب
- ١٩٦ ندوة أدبية
- ١٩٨ فى الطريق إلى مجتمع جديد
- ١٩٩ عبرة وذكرى
- ٢٠٠ تجنب هذه الأخطاء
- ٢٠١ رسالة الفكر فى الحياة
- ٢٠٤ معانى الشاعر

الكتاب السابع

قصص

من الشعر الحديث وحياة الشعراء المعاصرين

مدرسة أبولو وأثرها في الشعر المعاصر

كان الشعر العربي المعاصر قبل « مدرسة أبولو » ينحو غالباً منحنى التقليد والاحتذاء والمعارضة للشعر القديم ، لم تكن هناك في مصر أو في البلاد العربية ، مدرسة أدبية واضحة المناهج ، بيئة الأهداف والرسالة ، وكان الشعراء يخضعون لشتى التيارات السياسية والاجتماعية والأدبية المختلفة ، فلم تكن لهم شخصية ظاهرة ، ولا وجود ذاتي مستقل ، ينظم الشاعر قصيدته متأثراً بالمناسبة الطارئة ، والضرورة الوقتية الملحة ، يجعل موضوعها مدحاً لكبير ، أو تهنيئاً لصديق ، أو رثاء لفقيد عزيز ، ويصوغ معانيها من المعاني المألوفة أو شبه المألوفة ، محتذياً القديما في معانيهم ، مقلداً للمجيد في خيالاتهم وتصوراتهم وأفكارهم . أما الأسلوب فهو عربي في الأكثر ، لكنه لا يمين عن فطرة ، ولا ينطق عن طبع ، ولا يترجم عن عاطفة ، ولا يصور شيئاً من خلجات نفس الشاعر ومداعره وأحاسيسه ووجدانه ، هو أسلوب يغلب عليه الصنعة والتكلف والابتذال والتنافر في أحيان كثيرة . وكان الشعراء في مصر يرمون في أحضان السياسة كسباً لجأه ، أو حبا لمفهم ، أو طمعاً في عطف ، فإذا أقبل العيد مثلاً لا يهتم الشاعر بوصف مشاعره ومشاعر الشعب وآلامه وآماله وطموحه إلى الحرية ، وتطلعه إلى الكرامة والعزة ، وإنما يصوغ القصيدة يهنئ فيها الأمير ، أو يتعلق بها سدة العرش ، أو يوافق بهالدي سياسي كبير ، أو رئيس حزب من الأحزاب ، ولكل حزب شاعر أو شعراء لا تعرف سواهم ، مهما كانت مكانتهم الأدبية ، ومهما كانوا ناشئين في الشعر أو غير ناشئين . وشاعر القصر يحلج شعره في كل مناسبة رسمية ، وينشد قصائده في كل حفل يؤمه الأمير ، والصحف السياسية كانت قلماً تنشر إلا لشاعر كبير ، ثم هي لا تنشر إلا ما ترضى عنه وتباركه السياسة . . وكانت العصبيات الأدبية فوق ذلك متعددة متخاصمة ، فكل أديب كبير

أو شاعر خطير حلقة يجلس فيها أنصاره ومريدوه ومبايعوه بالإمارة ، لا ينشدون إلا شعره ، ولا يرون معه أحدا سواه ، ولا يعترفون بفضل إلا له ، والويل لمن يهاجم عميدهم بنقد أو يمسه بكلمة سوء ، حينئذ تشرع الأعلام للهدم والتسفيه ، والذم والتشويه ، ولسكيل السباب والرمى بالإثم والعيب . . وظل الجو الأدبي كذلك ، حتى ظهرت مدرسة أبولو في أول عام ١٩٣٢ ، تبشر بمذهب أدبي جديد ، وتدعو الشعراء إلى الإيمان برسالتها وأهدافها وغاياتها

وكان الفضل الأول في ظهور هذه المدرسة الأدبية الجديدة راجعا إلى رائد من رواد التجديد في أدبنا الحديث ، هو الشاعر الناقد الكاتب الدكتور زكي أبو شادي .

وأبو شادي شخصية متميزة في الشعر المصري ، وعلى الرغم من أنه طبيب متفوق في الطب ، فقد عاش طول حياته للأدب يحمل في يمانه مشعل التقدم والبناء والإصلاح والتجديد ، ويحمل في قلبه رسالة الفن والشعر والأدب الرفيع ، وقد درس الطب في إنجلترا ، ولكنه كان متأثرا بنزعات أدبية عميقة ، غرسها في نفسه حب الأدب ، وتذوقه له ، ومواهبه فيه ، ونماها في قلبه وعقله نشاته الأدبية الأولى ، بين أب أديب وأم شاعرة ، ثم استاذية مطران له ، وتوجيه إياه ، وتخرجه على يديه في الشعر ، ثم اطلاعه على الآداب الغربية وتأثره بنزعاتها الحرة الرائدة ، هذا فضلا عن أن البيئة المصرية في أوائل القرن العشرين كانت جرد حفية بالأدب والشعر ، وكانت الأذان المرفهة أكثر إصغاءا لنشيد الشاعر ، وأكبر إقبالا على قراءة آثار الشعراء ، مما لفت عقل الشاعر الناشئ ، ووجهه نحو الشعر منذ صغوره .

وفي أوائل الربع الثاني من القرن العشرين ، كان الشاعر أحمد زكي أبو شادي يفكر ، ويعطيل التفكير ، في حاضر الأدب والشعر ومستقبلهما في مصر والشرق العربي ، كان حينها التفت لا يحمدا إلا رجعية وجهودا وبغضا عن فهم حقيقة الأدب وروحه ، وإلا تقليدا في الشعر لا يجعل له معه خطرا ، ولا يدع له في توجيه الحياة شأنا .

واندفع أبو شادي بحماسة الشباب ومضائه ، وبمقل الكهولة وتفكيرها ، يؤلف الجماعات الأدبية ، للنهوض بالأدب والشعر ، وبعث روح الحياة والتجديد فيهما ، وكان بما أنشأ « جمعية أبولو » الشعرية المشهورة ، ذات الأثر البعيد في مستقبل الشعر العربي المعاصر ، وحاملة لواء التجديد فيه على أوسع نطاق ، والداعية إلى مبادئ

خطيرة في تاريخ الفكر الأدبي الحديث ، في مصر والأقطار العربية على السواء .
وجمعية أبولو هي هيئة أدبية ، أعلن أبو شادي ميلادها في سبتمبر ١٩٣٢ ،
وجعل مركزها القاهرة ، وحصر أغراضها فيما يلي :

١ — السمو بالشعر العربي ، وتوجيه جهود الشعراء توجيهها شريفا .

٢ — مناصرة النهضة الفنية في عام الشعر .

٣ — ترقية مستوى الشعراء أدبيا واجتماعيا وماديا ، والدفاع عن كرامتهم .
وكانت عضوية الجمعية مفتوحة في جميع الأقطار العربية ، للشعراء خاصة وللأدباء
ومحبي الأدب عامة ، ممن يهمهم تقدم أغراض الجمعية .

وتولى أبو شادي سكرتاريته بصفة دائمة . وأنشأ مجلة لتسكون لسانها الناطق ،
سماها كذلك « مجلة أبولو » ، وقد صدر العدد الأول منها في سبتمبر ١٩٣٢ ، وكان
هو رئيس تحريرها . . وقد اختير الشاعر أحمد شوقي رئيسا للجمعية ، ورأس جلساتها
الأولى في دار « كرمة ابن هاني » بالجيزة يوم الاثنين ١٠ أكتوبر ١٩٣٢ ، ولما
استأثرت به رحمة الله في فجر يوم الجمعة ١٤ أكتوبر من العام نفسه ، اجتمع الأعضاء
في يوم السبت ٢٢ أكتوبر ١٩٣٢ بمقر « رابطة الأدب الجديد » بالقاهرة ،
واختاروا الشاعر خليل مطران رئيسا للجمعية ، وكان من أعضائها : أحمد محرم ،
وحسن كامل الصيرفي ، والدكتور علي العناني ، وإبراهيم ناجي ، وأحمد
الشايب ، ومحمود أبو الوفا ، وأحمد ضيف ، وعلي محمود طه ، ومحمود صادق ، وكامل
كيلاني ، وسيد إبراهيم . . ثم انضم إليها الكثير من الشعراء والأدباء والنقاد ،
وفي مقدمتهم مصطفى عبد اللطيف السحرتي ، ومختار الوكيل ، وصالح جودت ،
وعبد العزيز عتيق ، وسواهم .

ويقول أبو شادي في مطلع أول عدد من أعداد مجلة « أبولو » ، وقد صدر في
سبتمبر ١٩٣٢ : « لا يختلف اثنان في أن الشعر العربي تسامى وانحط في آن :
تسامى بتأثره بنفحات الحضارة الراهنة ، ونزعاتها الانسانية ، وروحها الفنية ،
وانحط بما أصاب معظم رجاله من الخصاصة ، التي ما كانت لتدركهم في عصور
الحفاوة بالأدب الخالص ، فتدلى الشعر معهم تبعا لعجزهم المادي ، وتبرمهم بالحياة ،
وعزوفهم عن الانتاج الفني ، الذي يطالبهم بالجهد والتدبر » . ويستمر أبو شادي

(١٤ - قصص)

في كلمته فيقول : « ونظرا للنزلة الماسة التي يحتلها الشعر بين فنون الادب ، ولما أصابه وأصاب رجاله من سوء الحال ؛ حينما الشعر من أجل مظاهر الفن ، وفي تدهوره لإساءة الروح القومية . لم نتردد في أن نخصص بهذه المجلة التي هي الاولى من نوعها في العالم العربي . كما لم نتوان في تأسيس هيئة مستقلة لخدمته هي جمعية أبولو ، وذلك حبا في إحلاله مكانته السابقة الرفيعة . وتحقيقا للتآخي والتعاون المنشود بين الشعراء . » ثم يقول في ختام كلمته : « هذا هو عهدنا للشعر والشعراء ، وكما كانت الميثولوجيا الإغريقية تتغنى بألوهة « أبولو » رب الشمس والشعر والموسيقى والنبوة ، فنحن نتغنى في حمى هذه الذكريات التي أصبحت عالمية . بكل مايسمو به جمال الشعر العربي ، وبنفوس شعرائه . »

ويعمل أبو شادي سر اختيار هذا الاسم لمجلته بأنه الرغبة في أن تحمل اسما فنيا عالميا يلائم صبغتها (١) .

وقد حيا شوقي المجلة بقصيدة عصماء ، نشرت في صدر العدد الاول منها ، وجاء فيها :

أبولو مرحبا بك يا أبولو فإنك من عكاظ الشعر ظل
عكاظ وأنت للبلغاء سوق على جنباتها رحلوا وسلاوا
عسى تأتيننا بمعلقات نروح على القديم بها ندل
أهل مواهبنا خفيت وصناعت تداع على يدك وتستغل

ومجلة أبولو كانت أول صحيفة عربية تقف نفسها على الشعر ، وتعمل على النروض به ، والتجديد فيه ، وتهذيبه من التقليد والصناعة والابتذال ، وتحرير الشعراء من كل قيد لا يقبله الذوق ، ومن كل تقليد تأباه شخصية الشاعر ومزله الفنية ومكانته في عصره ومجتمعه .

وكانت مجلة أبولو تفسح صدرها للأدب والنقد والدراسات الأدبية ، وإن كانت مهمتها الأولى هي العناية بالشعر والشعراء المعاصرين . فكانت تنشر الروائع : لشوقي ، ومطران ، وأحمد محرم ، ومصطفى صادق الرافعي ، وعباس محمود العقاد ، وإبراهيم ناجي ، وحسن كامل الصيرفي ، وزكي مبارك ، وخليل شيبوب ، وعلى محمود طه ، ومختار الوكيل ، وصالح جودت ، وأحمد نسيم ، والسيد حسن القاياتي ، ومحمد

الأسمر ، وتوفيق البكري ، ورمزي مفتاح ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ، وسهير القلماوي ، وجميلة العلايلي ، والشاعر أحمد الزين (١٩٠٠ - ١٩٤٣) ، ومحمد عبد الغني حسن ، ومحمود حسن اسماعيل ، والشاعر محمد عبد المعطي الهمشري ، ومحمود غنيم ، ومحمود رمزي نظيم ، ومحمود أبو الوفا ، ومحمود عماد ، والشاعر عبد الحميد الديب ، ومحمد صادق عنبر ، وعبد العزيز عتيق ، ومحمد فريد عين شوكة ، ومحمد مصطفى الماحي ، وسيد قطب ، وبشر فارس ، وطاهر الطناحي ، وعبد اللطيف النشار ، وكامل كيلاي ، وعامر محمد بحيري ، وعثمان حلي ، ونصري أبو السعود ، والعوضي الوكيل ، وطاهر أبو فاشا ، ومحمد زكي إبراهيم ، ومحمد عبد الغني بخيت ، وحبيب عوض الفيومي ، وعلي با كثير ، ومصطفى الدباغ ، ومصطفى كامل الشناوي ، ومأمون الشناوي ، واسماعيل سري الدهشان ، وزكي غازي ، ومحمد سعيد السحراوي ، ومحمد برهام ، ومحمد المهدي مصطفى ، ومحمد الهياوي ، وسواهم

وقد أفسحت المجلة صدرها لشعراء السودان ، وفي مقدمتهم: عبد الله عبد الرحمن (١) ، ومحمد أحمد المحجوب ، وتوفيق أحمد البكري ، وسواهم . . كما كانت تنشر لشعراء البلاد العربية ، وفي مقدمتهم : أبو القاسم الشابي ، ومحمد الحليوي ، الشاعران التونسيان ، وكذلك محمد مهدي الجواهري وحسين الظريفي العراقيان ، وغيرهم من شعراء سوريا ولبنان وشتى الأقطار العربية .

ومن شعراء المهجر الذين كانت تنشر المجلة لهم : إيليا أبو ماضي ، وإلياس أبو شبكة ، وشفيق المaulوف ، ورياض المaulوف ، وشكر الله الجر ، وسواهم . . ومن صار شعراء أبولو بمن كانوا أعضاء في جمعيتها ، يسكونون مع رائدهم أحمد زكي أبو شادي ، مدرسة شعرية وأدبية جديدة ، لها أهدافها ومناهجها ، وقد أطلق عليها أبو شادي نفسه اسم « مدرسة أبولو » ، وذلك في صدر عدد إبريل سنة ١٩٣٣ من مجلته ، حيث يقول : يعمل شعراء أبولو على تطهير بيئات الشعر ، وعلى التسامي بالنقد الأدبي ، ومدرسة أبولو مدرسة تعاون وإنصاف وإصلاح وتجديد وقد أصدرت أبولو الكثير من دواوين الشباب ، ومنها ديوان الشاعر عبد العزيز عتيق ، وديوان الشاعر صالح جودت ، وديوان مختار الوكيل ، وديوان « الألحان الضائعة » للشاعر حسن كامل الصيرفي ، وديوان أزهار الذكرى للشاعر الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتي . . كما نشرت كتاب « رواد الشعر في مصر »

(١) راجع مجلة أبولو - عدد أكتوبر ١٩٣٢ - قصيدته « ملجأ القرش بالسودان »

للشاعر مختار الوكيل ؟ وغيره من مؤلفات الشباب
وكان أبو شادي يبشر دائما بالأدب الرفيع والشعر الجديد ، في مجلاته العديدة ،
التي أنشأها ، ومنها : الامام ، ، ود أدبي ، وسواهما ، كما كان يبشر بهما كذلك في
الهيئات الأدبية والثقافية التي كونها ، ومنها : رابطة الأدب الجديد في الاسكندرية (١)
وشقيقتها في القاهرة (٢) ، وندوة الثقافة ، والمجمع المصري للثقافة العلمية ، وغيرها ..
ولكن الفضل الأكبر فيما وصلنا إليه من نهضة أدبية مرموقة ، يرجع إلى جمعية أبولو
ومجالاتها ذات الأثر الكبير في تشجيع الشعراء من الشباب ، والتنويه بالموهوبين
المغمورين منهم .

وكان لأبي شادي كثير من التوجيهات الصائبة للشباب من شعراء مدرسة أبولو ،
سواء في علم الفكر أم الأدب أم الشعراء الاجتماع .. وكان بأحاديثه المتنوعة
معهم وديمقراطيته الجذابة الجميلة في معاملتهم ، وبمناقشاته معهم في القديم والجديد ،
وفي كل ما يمس حركة التجديد في الشعر ، وبآرائه في النقد ومناهجه ، والأدب وأصوله
وبروائحه الفنية الخصبة من شعره وقصائده المتعددة الألوان والسمات ، كان بذلك
كله قدوة عالية للشباب ، ومثلا كريما لمن يتطلعون إليه ويتأثرون بخطاه في نظم القصيد .
وكان أبو شادي يحارب الفردية وروح الذاتية والأنانية في الأدب ، ويؤمن
بجمهورية الأدب وديمقراطيته وبوحدته ، وبإخاء الأدب والإخلاص فيه ، كما يؤمن
بضرورة خدمة الفكرة . وكان يحرص على الدقة في المعنى ، ويميل غالبا إلى الثورة
على مناهج الأداء ، ميله إلى العناية بالناحية القصصية ، والجانب الصوفي في الشعر ،
مع تميزه بالروح الانسانية العالمة في شعره ، وبالرومانتيكية التي اتسم بها أغلب
شعره وقصائده .

وترجع مدرسة أبولو إلى الأديين : العربي والغربي معا ، تأخذ منهما أختلتها
ومعانيها ومصورها المتعددة ، مع التناول الفني السليم للفكرة والموضوع والمعاني ،
والدعوة إلى الحرية الفكرية والأدبية والفنية ، وإلى تمثيل الشعر الحاجات النفوس ،
وتأملات الفكر ، وهزات العواطف والمشاعر ، وإلى الطلاقة والحرية وظهور
الشخصية الفنية ووضوح الطاقة الشعرية الخلاقة ، التي هي الجوهر الأول لآلية
شاعرية متفوقة ، وتوكيد الحفاوة بالأصالة ، والاهتمام بالفكرة ، وتوسيع آفاق

(١) أنشأها أبو شادي عام ١٩٢٧

(٢) أنشأها أبو شادي عام ١٩٢٩

التفكير والتأمل والذوق ، وكسر قيود التقليد ، مع الابتعاد عن الافتعال والتكلف والتصنع ، ونبذ المذهب الفردي في الأدب ، واحترام النقد والمذاهب الأدبية المختلفة ، ومع إيثار الطبع ، والإيمان برسالة « الشعر بالشعر للشعر » ، وتجاوب الشاعر مع الطبيعة ، وتناول الموضوعات الإنسانية والعالمية ، والاعتماد على القوة الشعرية في ذاتها ، حتى يؤدي الشعر رسالته ، من إعزاز الخير وتقديس الجمال ، وتحرر الشخصية الفنية ، والطلاقة في التعبير ، والاتصال والفطرة الشعرية ، وصدق العاطفة ، والوحدة التعبيرية ، والاعتقاد بتطور لغة الشعراء وأخيلته وتعاييره ، بالإضافة إلى تطور تفسيته وأفكاره ومثله العليا . . ولقد نظم شعراء مدرسة أبولو من الشعر المرسل ، والشعر الحر ، وأعلنوا بدء الحركة التحريرية للنظم ، ودخلوا في معارك كثيرة من معارك النقد ، كان الطرف الآخر فيها أصحاب الذوق اللغوي القديم من لا يؤمنون بفتح باب التجديد على مصراعه ، ومن الجامدين ذوي الثقافة المحدودة ، والرجعيين الذين يريدون أن يعيشوا في ظلال العصر الجاهلي وحده . وكان إيمان مدرسة أبولو بالتجديد على أوسع نطاق ، وبعدهم في أحيان كثيرة عن المناهج المألوفة في النظم ، وتطور معهم اللغة والأسلوب للفكرة والخيال والمعنى والقصة الشعرية ، كان كل ذلك مدعاة لزللهم في بعض الأحيان ، وحجة المحافظين عليهم ، ولكنهم انطلقوا في أفقهم الرحب لا يلوون على شيء ، ينظمون وينظم رائدهم الشعر الوصفي أو التأملات الصوفية والفلسفية ، وينظمون القصة والتبليغ ، والألوان الغنائية المتعددة السمات ، ويصوغون الأناشيد في الهيام بالطبيعة ، ووصف الجمال ، والتحدث عن أعماق خطرات النفس ، غير مباليين بالمناسبات الطارئة ، والحاجات الوقتية الملحة .

ومع ذلك كان أبو شادي رائد هذه المدرسة يعان في غير لبس أن الشعر إنما هو بأحاسيسه وارتعاشاته ومضاته وخیالاته وبحقائقه الأزلية ومثالياته ، وأنه إذا قدر ألوان الشعر المرسل أو الحر أو الرمزي أو السريالي ونحوها ، فليس معنى ذلك أنه يبخس الضروب الأخرى من الشعر حقها ، أو يدعو إلى إغفالها . كما يدعو إلى ذلك بعض الأدباء الذين لا يقدر أن ثروة أية لغة إنما هي بمجموع آدابها ، وأن الخير كل الخير في تنوع ضروبها لا في حصرها ، فذهب الحصر مضاد للحرية ، في حين أن الحرية هي صديقة الآداب والفنون بل المعارف عامة ، فالإملاء على الشعراء والتحكم فيهم هو أول قتل لمواهبهم ، ثم قتل للشعر وبمسكناته ، ثم إفقار للغة وآدابها . . هذه وقفة قصيرة حول مدرسة أبولو ومذاهبها في الأدب والنقد والشعر ، مما تأثر به

الشباب بل الكحول في مصر ، تأثرا عميقا . عن قصد أو غير قصد : بل إن الذين خاصموا هذه المدرسة في مصر تأثر بها عقلمهم الباطن ، وأخذوا يقلدونها دون أن يشعروا بأنهم يقلدونها . . . وقبل أن أختم هذا الحديث ، لأرى بأسا في أن أتحدث قليلا عن بعض الأعلام من شعراء ونقاد مدرسة أبولو .

وفي مقدمة هؤلاء الناقد الكبير مصطفى عبد اللطيف السحرقى مؤلف « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ، و « أدب الطبيعة » ، وصاحب « ديوان أزهار الذكرى » ، ورئيس تحرير مجلة « الإمام » ، والذي لا يزال في كل مناسبة ينشر البحوث الأدبية والنقدية العميقة الخصبة التي تقابل من القراء بالاهتمام والتقدير والإعجاب .

ومن شعراء مدرسة أبولو الممتازين المحققين : الشاعر حسن كامل الصيرفي ، ويصفه أبو شادي في المقدمة التي كتبها عام ١٩٣٤ لديوانه « الألحان الضائعة » ، فيقول : انتظمت مدرسة أبولو شعراء ممتازين ، ولها أن تفخر كل الافتخار بالصيرفي وشعره ، فهو ثروة جديدة للشعر المصري الحديث ، وللشعر العربي عامة ، وكيف لا يكون كذلك وهو الجامع ما جمع : من الطلاقة البديعة والخيال الرائع ، والموسيقى المستحدثة ، في نظام هو نظامه ، لا يقلد فيه أحدا ، وإن تجاوب مع أقرانه من أعلام النهضة الشعرية في العالم العربي . ويستمر أبو شادي في حديثه عنه فيقول : والصيرفي شاعر مبتدع ، بعيد الخيال ، رومانطيقي النزعة غالبا ، رمزي أحيانا ، بعيد في طوره الحاضر عن المثل القديمة ، رسالته في شعره هي رسالة الحياة الفنية الخاصة ، حيث يرى الفن وحده هو خلاص الإنسانية وسعادتها ، والفن ينتظم الجمال بما يعنيه الجمال من حب ورحمة وتجاوب شامل للوجود . . . وقد صدر ديوانه « الألحان الضائعة » عام ١٩٣٤ ، وفي عام ١٩٤٨ أخرج ديوانه « الشروق » ، وفيه مجموعة من القصائد تمتاز بجذتها وبروح التجديد والابتكار فيها في كل ما تناولته القصيدة من عناصر . . . والصيرفي عدة دواوين مخطوطة ، منها : « حول النور » ، و « رجوع الصدى » ، ودموع وأزهار ، و « قطرات الندى » . . . وله دراسة نقدية متمعة عنوانها « حافظ وشوقي » ، ويعمل الآن في تحقيق ديوان البحترى وشرحه ، معتمدا على صور فوتوغرافية لجميع نسخ الديوان الخطية في مكتبات العالم . . . وهناك عدا الشاعر حسن كامل الصيرفي شعراء آخرون ، في مقدمتهم الدكتور مختار الوكيل ، والشاعر صالح جودت ، وسيكون لنا جولة قريبة في شعر هؤلاء الشعراء وخصائصهم الفنية .

هذه هي مدرسة أبولو في صورتها الحقيقية ، دون مبالغة أو مغالاة ، وهذا هو

ما نخص لنشاطها الأدبي ، الذي لم يتوقف بتوقف مجلة أبولو عن الصدور عام ١٩٣٥ ، ولا بهجرة الشاعر أحمد زكي أبو شادي إلى نيويورك عام ١٩٤٦ ، وإقامته بها حتى اليوم ، فلاتزال مبادئ أبولو حية في قلوبنا وأفكارنا ، ولاتزال الدعوة إلى مناهجها أصل من أصول دعوتنا الأدبية ، ولقد قامت « رابطة الأدباء » في القاهرة عام ١٩٤٧ برئاسة الشاعر إبراهيم ناجي على أصول مبادئ مدرسة أبولو ، ثم خلفتها رابطة الأدب الحديث التي كونت في القاهرة عام ١٩٥٣ ، لتدعو إلى مادت إليه « مدرسة أبولو » العتيدة من مناهج ، مع مساهمة روح النهضة والتجديد والحياة في أوسع نطاق ، وهي تضم العديد من حواريين أبولو وأدباءها وكتابها وشعرائها ولا شك أن مدرسة أبولو كانت هي أول مدرسة أدبية حرة مجددة عرفها الشعر المصري والعربي الحديث ، كما كانت مدرسة بكل ما في هذه الكلمة من معان ، فلها آراؤها في الأدب ، وفي النقد ، وفي الشعر ، وفي التجديد ، ولها مجلاتها ومؤلفاتها ودواوينها ولها من الحيوية والفتاء والقوة والمثابرة ما كان يدعو إلى العجب ، وهي التي أشاعت روح التقدم في الشعر المعاصر ، وحولته من كلاسيكية غالبة ، إلى ألوان جديدة خصبة من الرمزية والرومانتيكية والسريالية ، لاتعادي شعر الكلاسيكية وإنما تعاونه وتواخيه .

وقد كان ظهور مدرسة الشعراء الشباب اليوم من أمثال الفيتوري وكال نشأت والعنتيل ، وتاج السر ، والجيلي ، وكامل أمين ، وسواهم ، أثرا ضروريا ، ونتيجة منطقية لمبادئ مدرسة أبولو الشائخة ، التي لا يزال نشاطها الأدبي يدوي صداه في البلاد العربية ، وفي أذهان الشعراء المعاصرين وعقولهم

الشعر السوداني المعاصر

- ١ -

هناك في الوطن الحبيب في الجنوب ، في مدنه وقراه ، التي يلفها النيل بذراعيه ، ويضمها الكفاح من أجل الحرية بجناحيه . وتعبق في أرجائها أطراف المجد الخالد . هناك : في الخرطوم ، وأم درمان ، وعطبرة ، ووادي مدني ، والأيمن وسواها ، يحيا الكثير من شعراء السودان المعاصرين ، بمن أهتمهم الطبيعة والذكريات الجميلة آثاراً عديدة من القصيد ، وروائع الآيات في الحرية والحب وأوصاف الجمال . وهنا في شمالي الوادي ، في القاهرة والاسكندرية ، وغيرهما من مدننا الجميلة ،

يحيا الكثير من الشباب السوداني يلتمسون المعرفة والآداب ، وينظمون مائجود
به عواطفهم من صادق الإلهام ، وروحى الشعرية ، ويعفون للشعر السوداني
المعاصر صرحا من الذكر والمجد والنخود

وهنا وهناك ، تتطالع بعقولنا إلى ذخيرة السودان من شبابه الاحرار الاباة ،
وقياناه الأبرار المكافحين ، وشعرائه العبقريين الملمحين ، الذين يمدون أعذب أناشيد
الحرية والعزة والجهاد ، ليدفعوا بها لإخوانهم فى الجنوب إلى اليقظة والحياة ، وإلى
النضال من أجل شعب يريد أن يتبوأ مكانته الكريمة بين الشعوب .

وقد ألفت على «رابطه الأدب الحديث» ، عبء الحديث عن الشعر
السوداني المعاصر ، الذى لاتزال الدراسات عنه معدومة أو شبه معدومة ، والذى
هو فى أمس الحاجة إلى بحوث الشباب السودانى ، من خريجي السكليات المختلفة فى
مصر .. وإن دراسة الأدب السودانى ، ونشر المطوى من ذخائره ، والكشف عن المجهول
من تاريخه ، والكتابة عن المنسيين من أعلامه ، لدين فى أعناقنا جميعا ، يجب أن
نؤديه بقوة وعزم ومثابرة ، وإخلاص لوطننا المحبوب فى الجنوب

ترجع النهضة الأدبية والشعرية المعاصرة فى السودان إلى أسباب عديدة ،
من أهمها ما يلى :

١ - أثر مصر الثقافى والفكرى والأدبى فى الجيل الجديد من أبناء السودان ،
عن يواظبون على قراءة صحافة مصر ، وأحدث ما تخرجه المطابع فيها من آثار أدبية
وفنية ، أو عن يختلفون معنا إلى شتى السكليات فى مصر ، وإلى الحلقات العلمية
والنوادي الأدبية فيها ، ويتصاون بالفكر الأدبى المصرى المعاصر اتصالا روحيا
وثيقا ، يترك أثره ، ويدوى صده ، فى عقولهم وعواطفهم وتصوراتهم ونرجاتهم
وأساليبهم .. ويصور شاعرنا المرحوم التيجانى بشير (١٩١٢ - ١٩٣٧) ذلك
بوضوح ، فى قصيدته «ثقافة مصر» ، فىقول متحدثا عن السودان وأثر مصر
الفكرى فى شبابه :

مصر راشت وثقفت وأعدت منه شمسا ، وأطلعت منه بدرا
هيات فكره فازغب فاستش رى ، فأعجب ركضا وأبجز طفرا
فقرى الدهر خابرا ، وشأى الس هم مضيا ، وزاحم الريح مسرى
كيف يا قومنا تباعد من فكر رين شدا وساندا البعض أذرا

كيف قولوا بجانب النيل شطبي ، ويجرى على شواطئه أخرى
كلما أنكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعاً وفكراً
وأثر شعراء مصر وأدبائها واضح في الشعر والأدب السوداني المعاصر ، بل هو
أعمق في عقول الشعراء من الأدبيين : العربى والمهجرى ، وكان لمدرسة أبولو الشعرية
كثير من الأصداء البعيدة في السودان ، وكذلك كان للمجلات الأدبية المصرية شأنها
هناك . وتبدو هذه الآثار واضحة في شعر التيجانى ، الذى كان معجباً بشوقى وشوقياته ،
وكان يقول عنها : « إنها تكاد أن تكون قرآنا » ، وبسبب كثرته هذه فصل من المعهد
العلمى ، ولم تتح له الفرصة لإكمال دراسته فيه . . . ويضرب الشاعر محمد سعيد العباسى
المثل بشوقى الشاعر والرافعى الكاتب ، وهما من أعلام البيان فى مصر ، بمن تأثرهم
العباسى معجباً ومقدراً ، فيقول من قصيدته المؤتمر ، (١) :

كمثل شوقى إذ شعر والرافعى إذ نثر

٢ - البيئة الأدبية فى السودان ، التى يشترك فى تكوينها المعهد العلمى بأم درمان ،
وقد نشأ فيه التيجانى ، وعبد الوهاب القاضى ، وسواهما من الشعراء ، وكلية
الخرطوم الجامعية ، ويمثلها الشاعر الدكتور سعد الدين فوزى . . . واخلوة
السكتياني حفظ موقور فى كثرة من خرج منها من الشعراء ، وفى مقدمتهم : التيجانى
بشير ، والشاعر المرحوم محمد عبد الوهاب ، ومحمود عبد الوهاب ، وعبد المنعم حسب
الله ، ومحمد أحمد عبد الله السكتياني . . . وللمهرجانات الأدبية التى ينظمها مؤتمر الخريجين
سنوياً ، وتلقى فيها روائع من الشعر والنثر وفنون الأدب والدراسات الأدبية ، أثر
جليب فى رفع مستوى هذه البيئة الأدبية فى السودان ، وكذلك تعمل الصحافة
والنوادي الأدبية هناك عملها فى نهضة الأدب ، ويقبل الشباب على قراءة هذه الصحف ،
والتزود بقسط من ثقافتها ، وفى مقدمة المجلات الأدبية فى السودان : مجلة النهضة وقد
صدرت عام ١٩٣١ ، ثم مجلة الفجر وقد أصدرها الأديب السودانى : عرفات محمد
عبد الله عام ١٩٣٤ ، وكان يكتب فيها التيجانى بشير ، ويوسف مصطفى التنى ، ومحمد
أحمد المحجوب ، والمرضى محمد خير (ميان) ، ولما مات صاحب الفجر تولى بعض
أصدقائه إخراجها ، ثم صممت إلى الأبد بعد قليل . . . ومن صحف السودان التى تولى
الشعر والأدب قسطاً من عنايتها : جريدة الصراحة ويصدرها الأستاذ عبد الله رجب
بالخرطوم مرتين فى الأسبوع ، ومجلة كردفان الأسبوعية ، وتصدر فى الأبيض ،
وصحيفة النيل اليومية التى يصدرها الأستاذ محمد أحمد عمر ، وكذلك صوت

السودان ، والرأى العام ، والأمة ، وهى مخوف يومية .. أما النوادى فى جنوب
الوادى فى مقدمتها : النادى الثقافى بأم درمان ، والنادى المصرى بالخرطوم
ودار الثقافة بالخرطوم كذلك ، ولها مكتبة ضخمة .. وكذلك أخذت آثار الأدباء
والشعراء السودانيين أنفسهم تقوى من نهضة الأدب والشعر وازدهارهما فى ربوع
السودان الحبيب ، ويتأثرها الشباب السودانى ، ومن أهمها : ديوان (إشراقة)
للتيجانى بشير ، وينطق عن موهبة شعرية خصبة ، وديوان (الشاطئ والصخرى) للشاعر
حسين منصور ، وديوان (دموع وأشواق) للشاعر حسن عزت ، وديوان (الحرية
والجمال) للشاعر جعفر حامد البشير سكرتير تحرير جريدة صوت السودان ، وديوان
الشاعر سعيد العباسى ، وديوان البنا ، وديوان (الفجر الصادق) للشاعر عبد الله
عبد الرحمن الضير ، ويصور التاريخ المعاصر للسودان تصويراً واضحاً ، وكان الشاعر
مفتشاً للغة العربية بمعارف السودان سابقاً ، وسوى ذلك من الدواوين الشعرية
الحديثة .. ومن الكتب الأدبية التى ألفها أدباء سودانيون : كتاب (نقات اليراع)
للأستاذ محمد عبد الرحيم ، وقد صدر عام ١٩٢٤ ، وكتاب (شعراء السودان) ويجمع
مختارات لكثير من الشعراء المشهورين إبان ذلك .

٣ - تأثر بعض الشعراء بمدرسة شعراء المهجر ، التى يعمل لواءها إيليا
أبو ماضى ، وإلياس أبو شبكة ، ومبختايل نعيمة ؛ وسواهم من الشعراء ...
ويظهر هذا التأثر واضحاً فى شعر (ميجان) الذى كان يعد أقرب الشعراء إلى الشعر
المهجري مع خصبه فى التصوير ، ورقته فى التعبير ، ووضوحه فى الأداء ، وكان
ينادى فى شعره بمبدأ اللذة أينما كانت .. والغموض والإبهام والرمزية فى شعر
التيجانى بشير أثر لقراءته فى الشعر والأدب المهجرى ، ولأدب (جبران) على ما أرجح
وإن كان لأدب (الرافعى) المصرى نصيب من هذا التأثير ، ويعمل الأستاذ إحسان
عباس هذا الغموض بأنه كان أثراً لمحاولة التيجانى تحليل الأجزاء الصغيرة فى المعنى
العام ، والإحالة المفرطة فى تصوير النواحي المعنوية (١)

٤ - أثر الآداب الغربية - مترجمة أو فى لغاتها الأصلية - فى الشعر السودانى
المعاصر ، مما يظهر أحياناً فى شعر سعد الدين فوزى ومحمد السيد الباقر ، وسواهما

والشعر السودانى المعاصر تمثله مدارس أو حلقات ثلاث من الشعراء :

(١) مجلة الأدب - يناير ١٩٥٤ - إحسان عباس

١ — أما الطبقة الأولى فهي طبقة الشيوخ ، وفي مقدمتهم : محمد سعيد العباسي وهو اليوم في الثالثة والسبعين من عمره ، وعبد الله عبد الرحمن الضير ، وأحمد محمد صالح ويقب بشاعر البيان وهو عضو في مجلس الشيوخ السوداني ، وعبد الله عمر البنا ويلقب بأمير شعراء السودان ، وكان عميد الأدب العربي في كلية غوردون سابقا ، وبإبراهيم بدرى ، والطبيب السراجي ، ومحمود الفسكي ، ومحمد الأمين القرشي ، ومدرش البوشي ، ومحمود أنيس ، وحسيب علي حسيب ، وصالح عبد القادر ، وعبد الرحمن شوقي ، وحسين منصور ، وهو اليوم موظف بالمجمع اللغوي في القاهرة ، وقد أقام بمصر منذ سنوات طوال ، وللتيجاني بشير قصيدة جديدة أهداها إليه حين نزح إلى مصر ، وكان أستاذا في المعهد العلمي ، وتتلذذ عليه التيجاني حيننا .

وهذه الطبقة تنظم شعرها متأثرة غالبا بمذاهب البيان القديمة الرصينة ، وبالشعراء القدامى الذين خلد ذكرهم في صحائف التاريخ الأدبي ، وبأعلام الشعر في مصر من المحافظين والمجددين في أفق الاتباعية الفنية ، كشوقي وحافظ والجارم والزين والرافعي وسواهم .

ويمثل هذه الطبقة محمد سعيد العباسي ، الذي يجمع شعره ألوانا أنيقة من الديباجة والموسيقى والتصوير والخيال والمعاني مع قوة العاطفة ، وهو يجود في قصائده حتى لتكاد تبلغ في المنزلة الأدبية ما بلغت قصائد البحري والمتنبي والشريف الرضي والخيام والبارودي ، وشوقي ، والرافعي ، وسواهم من فحول الشعراء . ونجده يعارض المتنبي في قصيدته :

باتت تبالغ في عدلى وتفنيدي وتقتضيني عهود الخرد الغيد

وهو يشيد في قصيدته « وادي هور » بالمرى والخيام ، فيقول فيهما :

نظما القصائد مشرقا ت ، نظم أسلاك الدرر (١)

ويعارض الشريف الرضي وينوه به في قصيدته « رسائل الصفا » ، ويثني على شوقي والرافعي في قصيدته « المؤتمر » ، وهو يحب لوطنه مصر ، داعية للوحدة بين شمال الوادي وجنوبه ، يقول : (٢) .

فصر هي اليوم كهف الرجاء لنا ، وهي الموضع الحانية

لها ولأبنائها الأكرمين أياد بنا برة آسية

(١) ص ٥٢ ديوان العباسي .

(٢) ص ٦١ ديوان العباسي - من قصيدته « رسائل الصفا » .

ويصف شعوره الخلى فهو مصر فيقول :

مصر ، وما مصر سوى الشمس التي بهرت بثاقب نورها كل الورى
ولقد سميت لها فكنت كأنما أسعى لطيبه أو إلى أم القرى
وبقيت مأخوذاً ، وقيد ناظري هذا الجبال تنقنا وتحمرا
ويذكر مصر بالخير والحب العميق ، فيقول :

إن يورى عنكم أناس فما من مذهب الحب والوفا أن أورى (١)
وينوه العباسى بالوحدة بين الشمال والجنوب ، ويدعو إخوانه الحذر من مطامع
الاستعمار الغربى فى قصيدة له (٢) ، ويؤكد مذهبه فى الوحدة فى قصيدته « يوم التعليم » ،
فيقول فيها :

إنا بنى النيل لا نرضى به بدلا فما جفانا ، ولا يوماً بنا ضاقت
ولا أخص به دارى ولا سكنى بل ساكنى النيل نسميا وإطلاقا
هذى سبيلى ، وهذا مذهبي ، بهما أعطيت ربى والأوطان ميثاقا
وللشاعر الكبير أحمد محمد صالح شعر كثير ، منه قصيدة عنوانها « يوم التحرير » ،
يقول منها :

يوم تغرد بالخلود عيد لعمر ك أى عيد
فأقد تحرر فيه وا دى النيل من ذل القبود
المجد للأقوى فلا تعد السيوف إلى الغمود
حقى تطهر مصر من أعلى الصعيد إلى رشيد
وترد للسودان حقاً فى الحياة وفى الوجود

وهى نموذج لشعر هذه الطبقة ونهجها الفنى فى نظم القصيد .

٢ - أما الطبقة الثانية فهى طبقة الشعراء الشباب ، وفى طليعتهم : سعد الدين
فوزى ، ومحمد أحمد المحجوب ، ويوسف مصطفى التنى ، وخلف الله خالد ، والمرضى
محمد خير (ميان) ، وحسن عزت ، ومحمد السيد الباقى ومحمد السيد حمد ، ومحمد عثمان
عبد الرحيم ، وأحمد عبد الله المغربى وهو من أم درمان ، وعبد القادر إبراهيم ،
وحسن طه وله ديوان شعر ، وهو مدرس بمدرسة المؤتمر الثانوية فى الخرطوم ، ومحمد
عبد القادر كرف وكان زميل التيجانى فى الدراسة ، ومحمد على بخيت ، وإدريس محمد

جماع ، والشاعر توفيق أحمد البكرى ، والشاعر مبارك المغربي صاحب ديوان عصارة قلب .

ويحمل الكثير من شعراء هذه الطبقة لواء التجديد في الشعر السوداني المعاصر ويمثلون المدرسة الحديثة فيه : ويعد التيجاني بشير (١٩١٢ - ١٩٣٧) أول الشعراء من دعاة التجديد ، وهو يمثل فكرة جديدة في الشعر السوداني : فقد طفر الشعر على يديه إلى طور الاستقلال والذاتية والنضوج الفني . وأصبح تعبيراً واضحاً متميزاً عن البيئة والمجتمع والشعب وآماله وآلامه وثورته في سبيل الحرية ، وشعره صورة رائعة للطبيعة والوصف ، ولوجدان الشاعر وأحاسيسه النفسية العميقة ، وتسوده نزعة غالبة من القلق الفكري والروحي ، ومن الصوفية العميقة الممزوجة بموسيقى عذبة ، ومن الفلسفة الحرة التي تمثل مذهباً في الفكر والحياة .

والكثير من شعراء هذه الطبقة اطلعوا على الأدبين : المصري والغربي . وتأثروا بالتيجاني ومذهبه الفني في الشعر : فنجد في شعر المحجوب موهبة وطلاقة ، وثناء في تجاربه الشعرية الأصيلة ، وتأثراً بالأدب الغربي الذي اشتدت صلته به . وينادي جعفر البشير في شعره بحق الشعب في الحياة والعيش الكريم ، ويعطف على الكادحين والفقراء من أبناء وطنه : من حيث وقف جماعة من الشعراء يتحدثون عن المناقب الإسلامية ، والنزعات العربية الحرة .

٣ - وأما الطبقة الثالثة فهي طبقة الجامعيين والمهنيين ، الذين يدرسون في جامعات مصر وكلياتها المختلفة ، ومعاهدها المتنوعة ، وفي طليعتهم : الشاعر محمد مفتاح الفيتوري والجيلي سيد عبدالرحمن ، وتاج السراطين ، وصالح آدم بيلا ، ومحيي الدين فارس ، وإبراهيم عبده شعراوي ، ومحمد أحمد عبد الله السكتياني ، والعوض أحمد الحسين ، ومحمد زروق محمد شريف ، ومحمود عبدالوهاب ، وأحمد عبدالله المغربي ، وعبد المنعم حسب الله ، وسواهم .. وإذا كانت الطبقة الأولى كلاسيكية النزعة ، والثانية رومانطيقية المذهب والاتجاه غالباً ، فإن شعر الطبقة الثالثة يميل في أغلبه إلى المذهب الواقعي ، ويؤمن بضرورة مشاركة الشعر للمجتمع مشاركة قوية ، مع الإيمان بالتجربة والالتكاء على الحس ، والبراعة في تصوير الحقيقة وواقع الحياة ، ووصف المجتمع وحياة الكادحين من أبنائه ، والثورة على الفروق الاجتماعية الصارمة . والواقعيون لا يستمدون موضوع الفن من الخيال أو الأساطير أو المبالغة ، بل من التجربة والواقع والآمال المدفونة في أعماق مشاعر الأمة ، وهم ينكرون أن يكون هدف

الشعر التسلية أو المتعة ، ولا يؤمنون بمذهب الفن للفن ، وينادون بأن الفن للحياة
ويشاركون في بناء الحضارة الروحية والاجتماعية والاقتصادية ؛ وشعرهم مرآة
لحياة الجماعة وما يعرج فيها من آلام ومسررات ، ويؤمن الشاعر الواقعي بوجود
اطراح العزلة ، وبالاتصال بالحياة ، ليحمل أعباء مسؤوليته كاملة . وهذه المبادئ
يصيغ شاعرنا السوداني (ابراهيم عبده شعراوي) قائلا :

أهوا الفن فما الفنان في شرعة الواقع عبد للفصور
أدخلوا الفن إلى الكوخ فما عمل الفنان إحراق البخور
صف لنا سخطك يا فنان لا تخدع الناس بلحن وعطور
أنت مثلي جائع مستعبد أنت مثل تتلقاك القبور
صف حياتي فهي يؤس خالدا صف طريق فوشوك وصخور
صف وجودي أنت في الخطب أخى أنت درعي وعزائي في الشرور

وقلنا يعني شعراؤنا الواقعيون بشعر العاطفة ، أو بالشعر الغنائي ، أو بشعر
الطبيعة والوصف ، لأنهم في شغل برسالتهم الاجتماعية التي حملوها فوق كواهلهم المتعبة
وللواقعية صورها العديدة الجميلة الاخذة في شعر الفيتوري .. فهذا قصر
مترف لغنى متر ، يقف أمامه الشاعر فيصيح قائلا :

ماذا أرى بادموع ؟ قصر أرادته المجد أن يكونا
كأن جدران الزواهي سقين بالشمس أو طلينا
يا جنة الخلد في همداء وحوله ، تفتن العيوننا
إنا عندمناك مشتهينا كما اشتينناك معدميننا
لا ترقصى للرييح إنا من ظلة الكوخ قد غميننا

ويرى العائدين المنهوكين من الحرب يعودون لا لينعموا بالحياة والعيش والأمان
والسلام ، ولكن ليصنعوا لآسيادهم الثراء ، وليعملوا مرة أخرى مسخرين في خدمة
السادة وفي صنع القنابل والمدمرات والبطارات لحرب جديدة ، فيقول على لسان
واحد منهم :

ألا يا ليتنا متنا بعيداً عن أراضينا
لقد عندنا من الحرب إلى الحقول ، إلى المصنع
لسكى نحرث ، كي نبيد ر ، كي نحصد ، كي نجمع
لسكى تبنى للفساد لسكى نطهر ولا نشبع

لكى نعلم بالفجر الذى من يدنا يسطع
لكى نصنع حرباً ضخمة أخرى ، لكى نصنع
لقد عدنا إلى الأكوخ : أكوخ أهالينا
ألا ياليتنا متنا بعيداً عن أراضينا

وينظم الفيتورى الأناشيد فى تمجيد كفاح الأحرار للاستعمار ، وثورتهم على
المستعمرين ، فنراه بجودا فى قصيدته « ماو ماو » ، أو « نشيد إفريقيا » التى صور فيها
ثورة المارد الجبار ، وتحديه للقوة الغاشمة التى أذاقت بلاده الوبال ، واستمع له من هذه
القصيدة الرائعة يقول :

يا أخى فى الشرق فى كل سكن	يا أخى فى الأرض فى كل وطن
أنا أدعوك فهل تعرفنى ؟	يا أخا أعرفه رغم المحن
لأتى مزقت أكفان الدجى	لأتى هدمت جدران الوهن
لم أعد مقبرة تحكى البلى	لم أعد ساقية تبكى الدمن
لم أعد عبد جهود ، لم أعد	عبد ماض هرم ، عبد وثن
أنا حى خالد رغم الردى	أنا حر رغم قضبان الزمن
إن نكن سرنا على الشوك سنينا	ولقينا من أذاه مالقينا
إن نكن بتنا عراة جائعينا	أو نكن عشنا حفاة بئسنا
إن نكن أو هنت الفأس قوانا	فوقفنا نتحدى الظالمينا
إن نكن سخرنا جلا دنا	فبنينا لأمانينا سجوننا
فلقد ثرنا على أنفسنا	ومحونا وصمة الذلة فينا
الملايين أفاقت من كراها	ماتراها ؟ ملا الأفق صداها
خرجت تبحث عن تاريخها	بعد أن تاهت على الأرض وتاهها
حملت أقوسها وانحدرت	من روايبها وأغوار قراها
فانظر الإصرار فى أعينها	وصباح البعث يحتاج الجباها
يا أخى فى كل أرض وجهت	شفتها واكفرت مقلتها
قم تحرر من تواييت الأسى	لست أعجوبتها أو موميها
انطلق فوق ضحايا ومساها	يا أخى قد أصبح الشعب لها
ها هنا وارىت أجدادى هنا	وهم اختاروا ثراها كفننا
وسأقضى أنا من بعد أبى	وسيقضى ولدى من بعدنا

وستبقى أرض إفريقيا لنا فهي ما كانت لقوم غيرنا
وبهذه الواقعية المحببة إلى القلوب والاسماع ينظم الفيتورى قصائده وأناشيده
الممعة في الجمال الفني ، وفي الرمزية في بعض الأحيان .
ولنتقل إلى شاعر آخر من شعراء هذه المدرسة الواقعية ، إلى جيلي سيد عبد الرحمن ،
لنرى صوراً أخاذة من التصوير الفني الدقيق في قصيدته « عبرى » ، التي يصف فيها حياة
أهله في هذه القرية النائية ، حيث يقول فيما يقول :

أنا ظمآن يا عبرى إلى الأمواه والطير
إلى كشبانك الغرق هناك بحافة النهر
يذهبها سسنا الشمس بأكرام من الثبر
ونخلف جبالك الشكلى عتاة الجن والشر
وأعراب ، والغاز تحير عالم الفكر
وساقية مرنجة تخرجها قوى الثور
تدلت أذنه تعباً من الإنهاك والسير
ويمشى خلفه القلا ح وهو مقوس الظهر
تغيم بعينه الدنيا ويلعن ذلة الفقر

ثم لنراء بعد ذلك في قصيدته « أبى » ، يصف حياته وحياة شعبه الشعبية ، في تناول
فنى لطيف ، وواقعية حلوة بديعة ، ووحدة للفصيدة متلاحمة ، يقول فيما يقول :

لماذا أبى فى عروقى النشيد يمور دماً عاصفاً ساخننا
لماذا يورق تلك الليالى وكانت لظى راكداً آسنا
ويضرم قلبك مثل اللهب وقد كان يا أبى آمنا
وأنت ركزت على الأمانى وأنت عقدت على المنى
ولسكنهم يا أبى قد أرادوا بأن أستذل وأن أسجننا
ومن قبل قد كموا شعبنا وبلوا المشاق من دمنا
ليبنوا القصور ويبنوا الغنى وتذوى هنالك أشلاؤنا
ونمضى نبارك أهل الحنا ويضحكهم كالدى فننا
وأقسم أنى أن أذعنا فما كنت يا أبى حائنا
وما كنت يا أبى كافرا بشعبى ، بدمعى ، بحنى ، أنا
وفى غدنا سوف يزهر الصباح رشيق الخطا مشرقاً لنا

ويرقص في العيد أحفادنا ويمزج بالنصر أولادنا
ويبقى بنا شعبنا خالدا ويبقى لنا خالدا فننا
وانظر إلى حديث الجليلي عن نفسه ، وعمها يملسكه أبوه ، من موقد ، وحصير
قديم وأشياء أخرى تافهة ، وإلى حديثه عن الشقاء الذي يحيط به من كل جانب ،
انظر إلى جمال الواقعية في هذه الأبيات من قصيدة أخرى له :

أبي : أنت تسمع هذا الصراخ صراخ من العمق : قلبي ، أبي
وأنت هناك مع الاخوة تقص عليهم لظي قصتي
وتطرق في صمتك العبقري وتنزو الحديث مع السعلة
وموقدنا والحصير القديم وموت السراج مع الفجوة
وأختي الصغيرة فيها روى وعيني التي أحرقت مهجتي
دموع صفار على خدها دموع التعاسة والغربة
فيا قلبها لاتزدها أسى من البؤس ، من حظها الميت

وكذلك الشاعر تاج السر ينسى كل شيء إلا فنه الواقعي ، الذي يستمد من
جهاد الأحرار ، من الحرية ، من حياة اللاجئين ، من دموع الغربة ، من كل شيء
واقعي في الحياة . يصف حركة التحرير في إفريقيا فيقول :

بعث جديد يتحدى الظلمات الغاشية
قد أشرق الأسود في يديه دمدمات الهاوية
يقذفها في أوجه المستعمرين الذائبة
وتنتشى بجثة السفاك نار عالية
حيث تعود الأرض ، أرض حرة ، إفريقية

ويتحدث كذلك في قصيدته « حريق » عن الحرية ، فيقول في لحن أخاذ جميل .

ساظل يا حريق لحنا تفجره الحياة
وأظل آملا تشارك كل محروم أساء
ويثور قلبي يملا الدنيا نداء للحياة
حتى تعود الأرض لي ، للشعب حرا في رباه

ويصور في قصيدته (قصة لاجئ) حياة أولئك اللاجئين المترفة قبل تشريدهم ، ثم
يصف انقراض الذئب الإسرائيلي على الوطن العربي في فلسطين ، والدم الأحمر الذي سال
(١٥ - قصص)

في رباهما ، والأشلاء الطاهرة التي مزفت على الأرض ، والأمن الذي صار خوفاً ،
والسلام الذي استحال فزعا ورعباً وأنينا ودموعاً ، ويختم هذه القصيدة بقوله :
فأنت منى ، نحن ترنيمة ونحن صوت يتحدى القرون
ليسمع الخلود أنشودة رائعة التصوير حرى الرنين
وسوف نحدو ونغنى الشعوب وسوف ينداح الدجى والظنون
ونبعث المستضعفين الألى ماتوا هنا في ظلام القرون
وقصيدته (عرف الغربة) من روائعه ، وتمتاز برمزية غالية ، وموسيقى حلوة
وخيال جميل ، ويقول فيها :

الغربة الحقاء تطفئ عليه وترسم الحيرة في مقلتيه
وقصة واغلة في الأسى* كان يغنى صوتها مسمعيه
وقلبه نأى بعيد الصدى صدى حياة أفلتت من يديه
ولنترك هؤلاء إلى الشاعر يحيى الدين فارس ، لنرى لونا من ألوان الواقعية في
شعره ، يتحدثنا عنه الشاعر في قصيدته (نفي الكفاح) حيث يقول :
ودوى النفي ، نفي الكفاح من العالم الحر في موعد
من الهند والصين من كل أرض يلوثها الغاصب المعتدى
ملايين ثارت على أمسها على ذلك الشبح الأسود
سينهار يوما جدار الظلام وينبثق الفجر من هاهنا
وتمشى الملايين مزهوة تطرز للغاصب الأكفنا
وأبصر في الأوجه البائسات دماء الحياة ، ديب المنى
وأزرع أرضي ، أرضي أنا وأجنى الزنايق والسوسنا
وكذلك نجد أنه الواقعي في قصيدته (أحرار الباستيل) التي نظمها من وحي
شمال إفريقيا ، وفي قصيدته (أطلال قرية) ، وفي قصيدته (خذوا حذرکم) ، ويتلاقى
فيه التصويرى مع واقعيته في قصيدته (طفل) التي يقول فيها :

هناك في سرحتنا الخضراء ، عند النهر
عربدت الأطفال في المنعطف المزدهر
تسلقت ضفائر الصفصاف تحت القمر
وعانقت أرجوحة الظلال في المنحدر
مثل فراشات الضحى ترف بين الشهر

ويستمر في وصف هذه الطفولة المرحية البريئة ، حتى يقول :

سوى غلام شاحب مستغرق في الفكر
تفجرت دموعه كاللهب المستعر
مات أبوه ، أمه ماتت ، فيا للقدر
تمزق الشراع في نهر الحياة العكر
وانطفأ المصباح في دنياه دنيا الصغر
ومر لم يحفل به قلب الزمان الحجري

وهو في قصيدته « انتظار » يصعد في جو الأحلام كما شاء له الحب أن يصعد ،
ويقول منها في موسيقى لطيفة :

عد يا حبيبي متى أنا في انتظارك في الخيلة
أرعى خيالك عابرا في الوهم ، في الذكر الجميلة
أرنو إلى الأفق البعيد ، إلى مغانيك الظليلة

ولنتقل من هؤلاء الشعراء إلى صالح آدم ييلو الشاعر المستغرق في النشوة في
قصيدته « عصر المدنية » وسواها من روائع شعره ، يقول من هذه القصيدة :

هاهو العالم في بركانه يغلي اضطرابا
هاتف يهتف بالحرب اشتعالا وخرابا
من ترى الجاني ومن ذر على العقل الترابا
قلت : يا قوم تعالوا واسألوها المدنية
إن هذا الشرق مفتون بلفظ العبقرية

لم ينته بعد حديث هؤلاء الشعراء الواقعيين ، ولم تفرغ قصة هذه المدرسة العجيبة ،
التي خطت بالشعر السوداني المعاصر خطوات جبارة رائعة حقا . . فهناك شاعر آخر
هو « إبراهيم عبده شعراوي » ، الذي نلِس واقعته في قصيدته « كفاح كينيا » ،
وفي قصائده : « خوفو » ، « التأميم » ، « قصة البربري » ، و « وصية الشهيد »
وسواها من بديع شعره . . استمعوا إليه يقول من قصيدته (وصية الشهيد) :

وتساءلت وقد واجهتهم : وأنا ماعدي وكم عددي
لم أكن وحدي ، فقد كان معي أمل النصر وعزمي ويدي

أنا إن أمض فما كنت سوى خنجر في جنب باغ معتدى
 أنا إن أمض لحسبي أتى أزرع الورد ليحني ولدى
 وهو يتهم في قصيدته (رحماء) بمنتحلي صفة الرحمة والإنسانية من أغنيائنا
 ليستعبدوا باسمها الفقراء ، وينادى في قصيدته (التأميم) بتأميم كل شيء حتى الفن
 بل حتى السرور ، والفرحة ما بين الصدور .. واستمع إليه في قصيدته (كفاح كينيا)
 يقول :

كيف قام الزنجي بفرك عينيه وقد نام من قديم الدهور
 عاصر الذل منذ أن عرف الذل ، أحب الحياة في الديهور
 كيف يصحو ؟ بل كيف نام عن الزهر ، عن الغل ، عن جمال النور
 عاد « جومو » (١) ليفسل الذل عن وجه أبيه وأمه والصبية
 عاد جومو لإذن ليفرس في الأرض بذور الإباء والحرية
 وليروى تلك البذور بآمال كبار وبالدماء الزكية
 فإذا بالرصاص مرتعشا كالرمل يعضى إلى القلوب الفتية
 وإذا بالدماء تنقش في الأرض هميقا : تعيش إفريقية
 وهو في قصيدته « خوفو » يحتقر تسخير الشعب لبناء الأهرام ، ويصرخ قائلا
 يتحدث عن « خوفو » :

جمع الصخر والرمال بناء لموات ، ومجد الأوهاما
 ليت شاد مخزنا لجياح أو بناء تأوى إليه اليتامى
 الحياة الحياة تبسم حول وتنفى وأهيد الأصناما ؟
 ويبلغ شعراوى في قصيدته « قصة البربرى » غاية كبيرة من الإجادة الفنية ،
 والتصوير الواقعى الجميل .
 وننتقل إلى شاعر رقيق آخر من شعراء هذه المدرسة ، يجيد الوصف ، ويستغرق
 في نشوة روحية عميقة في الطبيعة الجميلة ، في الفجر الضاحك ، في مذهب الحب الذى
 آمن به ، وهو العوض الحسين ، الذى يقول :

أهلا بهذا الفجر مرحى بالصباح الباسم
 أهلا بمقدمك الكريم يزف أكرم قادم

(١) جومو قائد من قواد حركة التحرير فى كينيا .

يا لجر حيثك النفوس وكل قلب هاشم
ورنت إلى دنيا جمالك في شرود الساهم
أحيا بروحي في الجمال وفي الحقيقة والخواطر
الحب ديني في الوجود وهبته أسمى المشاعر
وهبته للكائنات وللسواجع والجآذر
للغابة المذراء ، والروض المفتوح ، والأزاهر
وأخى ، أخى الإنسان ، فى اليد أو بين الخواضر
وهذا الشاعر الغنائى الرقيق يمدق بعينه فى السكون ، يستقصى أسرار ، وهو
يقول من رباعيات له :

من أودع الفتنة هذا السحر من أكسب الرقة ذاك القمر
ما أجل العالم لولا النوى ورحلة مزعمها لا يعود
أما أحمد عبد الله المغربى فيسحره الجمال ويصيبه ، فيقف يشكوه وهو يقول :
حببت لى دنيا الهوى فطرقتها ودنوت منك فما ظفرت بنائل
وبسمت لى حتى إذا ازدهر المتى وشغلتنى منيتنى بالباطل
ويطرح الشاعر محمد زروق محمد شريف هذا الخيال والتأمل ، إلى الواقع فيصف
حياة طريد فى قصيدته الرائية الطويلة ، التى تمسك عن الاختيار منها لطولها وتلاحمها
وضيق المقام .

هذه هى قصة الشعر السودانى المعاصر ، بأعلامه وطبقاته ومذاهبه الفنية المتعددة ..
ومن الغريب أن الشعر والأدب السودانى لم يكتب عنهما إلا القليل النادر الذى
لا يفى بحاجة الباحث الأدبى ؛ وقد تكون هذه الصورة التى رسمتها أمامكم للشعر السودانى
المعاصر صورة دقيقة لم يرسمها أحد قبلى بهذا الوضوح والامتقضاء والتحليل .
ولأنى لأشكر لرابطة الأدب الحديث فضلها فى الدعوة إلى هذه الندوة الأدبية
مظهراً كريماً من مظاهر تعلقنا بالسودان الحبيب ، وحرصاً على تسجيل النهضة
الأدبية المعاصرة فى البلاد العربية عامة وفى السودان الشقيق خاصة ، وتقديراً لشعراء
السودان المجودين فى كل غرض ، المجيدون فى كل مذهب .

وهذه نماذج متنوعة من الشعر السودانى المعاصر ، توضيح بعض ما أجملته من
خصائص الشعر السودانى ومميزاته ، ،

١ - يقول الشاعر السوداني أبو القاسم عثمان من قصيدته : أيها العام ، :

أيها العام مرحبا بالطعان	مرحبا بالنزاع والطفيان
مرحبا بالصراع والزبد الدا	فق والعنف واللفى والدخان
مرحبا باللمبب والضرم الدا	وى ودنيا الأوجاع والأحزان
مرحبا بالظلام والحلك المطبق	والعير الوخيم المجاني
مرحبا بالخطوب تبلو سرانا	مرحبا بالصخور والكشبان
أيها العام أنت عبء جسيم	كالذى مر فى ركاب الزمان
لست ألقاك بالورود ولكن	سوف ألقاك بالظي والسنان
أنا ودعت فى الشباب طلاقا	تى وأترعت بالدموع دنانى
غيرت رسمى السنين اللواتى	شردت مهجتى وهزت كيانى
وأمان زودتها عزومات	أين منها عزائم الشيطان ؟
أورثتنى من الموم جبالا	ودهتنى بالجهد والأشجان
ها أنا أعبر القفار وحيدا	فى جفاف من المنى والحشان
ها أنا أعبر المهامه والبيد	وأشقى باليأس والحرمان
أين منى قياثرى وكؤوسى	وهتاف الرفاق والخلان ؟
وزمان كفنته بمضائى	وزمان يرمى إلى الأكفان ؟
أيها العام ما طلبنا جديدا	حسبنا من جديدا مانعانى
أيها العام مرحبا بالرزايا	فى سرانا . لامرحبا بالآمانى

٢ - ويقول ادريس جماع من قصيدته : النيل ، :

واد من السحر أم ماء وشيطان	أم حنة زفها للناس رضوان
كل الحياة ربيع مشرق نضر	فى جانبيه وكل العمر ريمان
تمشى الأصائل فى واديه حائلة	يحفها موكب بالمطر ريان
وللطبيعة شدو فى جوانبه	له صدى فى رحاب النفس مرنان
إذا العنادل حيا النيل صادحا	والليل ساج فصحت الليل آذان
حتى إذا ابتسم الفجر النضير لها	وبأكرته أهازيج وألحان
تهدر النور من آفاقه طربا	واستقبلته الروابي وهو نشوان
أقبلت من ربوة فيحاء ضاحكة	فى كل معنى بها للسحر إيوان
وسرت تنظر مأنوسا بمحبة	حياك من نبتها زهر وريحان

وفي حى جبل الرجاف ، محتلب
 إذا صحا الجبل المرهوب ربيع له
 فالوحش ما بين مدهول يصفده
 ماذا دهمى جبل الرجاف فاصطرعت
 هل ضاق حين رأى قيذا يسكب له
 والنيل مندفع كاللحن أرسله
 حتى إذا أبصر الخرطوم مشرقة
 بدا له الأزرق الصفاق وامتزجت
 وردد الموج في الشطين أغنية
 تهمدر النيل في البيداء يدفعه
 إذا الجنادل قامت دون مسربه
 ونشر الهول في الآفاق مندفعاً
 وحول الصخر ذرا في مدارجه
 عزيمة النيل تفتى الصخر حدثها
 مشى على الصخر موصل الخطامرحا
 فانساب يحلم في واد يظله
 بادی المأبة شماخ بمفرقه

لناظرين وللأهوال ميدان
 قلب الثرى وبدت الذعر ألوان
 يأس وآخر يعدو وهو حيران
 في جوفه حرق وارتيج صوان ؟
 على الثرى فتمشت فيه نيران ؟
 من المزامير إحساس ووجدان
 ونخالته اهتزازات وأشجان
 روحاهما فكللا النيلين ولهان
 طليقة مالها بحر وأوزان
 قلب بمصر شديد الخفق هيمان
 أرغى وأزبد فيها وهو غضبان
 جهم الهياج كأن الماء بركان
 فبات وهو على الشطين كسبان
 فكيف إن مسه بالضم إنسان ؟
 حتى انجلت من ستار الآفاق (أسوان)
 نخل تهدل في الشطين فينان
 كأنما هو للعلياء عنوان

٣ - ويقول الفيتورى من قصيدته : في طريق الأبدية :

.. ورحلت مصباحى أشق به الدجى
 أمشى على أرض معذبة الثرى
 ضفرت يد الاقدار تاج كآبى
 ومضت تخيط من الثلوج عباءتى
 فكأنتى بين المفاجع زورق
 وكان خلنى قوة جبارة
 وكان فوقى صخرة مصلوبة
 وكان تنقى هوة مسهورة
 وكان فى قلبى مناحة شاعر
 وكان فى أذنى لحن جنازة

شق السيول طريقهما فى الغاب
 مفروشة بالشوك والاحطاب
 من عشب أدغال وشوك شعاب
 وتحوك من قطع الدجى جلبابى
 يحتاجه الاعصار فوق عباب
 هيام ، تجذنى إلى الأعقاب
 قد أثقلت كتنى بالأوصاب
 جنت لها روحى وجف شبابى
 شبت ملاحها بهوف ربابى
 قامت قيامتها بخير حساب .. ا

وكان في عيني حسرة آدم وكان في شفتي لحن عذاب . . ا
 وصرخت كالجنون صرخة مارد متكبر الآمال والآراب . .
 يا أرض إني نعمة علوية هيات يخرسها طنين ذباب
 يا ليل إني قبة أبدية هيات يحجب ضوءها بحجاب
 يا صمت إني فكرة صوفية فوق القيود . . . وكل سجن كاب
 يا أيها القدر المقدس إني قدر . . وهذا الكون بعض كتاب
 يا أيها اليأس المعربد في دمي من قال إني يا تراب (ترابي ا)
 وحملت مصباحي أشق به الدجى شق السيول طريقها في الغاب . .

٤ - ويقول الشاعر مبارك المغربي في ديوانه (عصارة قاب) المطبوع في القاهرة
 عام ١٩٥٤ وذلك من قصيدة عنوانها (صدى الذكرى) ، ويبدو فيها روح
 الشاعر بابل زيدون :

يا مالكا مهجتي ظلما وإحساسى إن تنس عهدي فإن لست بالناسى
 وكيف أنساك يا من بات يشغلنى رغما من النفس عن صهي وجلاسى
 بددت صبرى حتى ضاق ذو ثقتى من الصحاب وحتى ضقت بالناس
 إن كنت تذكر ما ولى وتحفظه ما في صدودك يا دنياى من باس
 إياك أدعوك مفتونا فتصحبني جذلان تهرج في ود وإيناس

ه - ويقول يحيى الدين فارس من قصيدته (أحرار الباستيل) :

وقيل هنالك منى عجوز وأمعاه أتممت بالبشر
 على بابها الحجرى العتيق . . زبانية من بقايا العصر . .
 تغنى على صرخات الضحايا وترقص فوق اللظى المستعر
 ولسكنهم رغم نار السياط وزجيرة العاصف المكفر
 مضوا يعزفون نشيد الصباح ويستلمون الغد المنتظر ا ا
 وكان العميد حفاة . . عراة يساقون قسرا إلى المقصلة
 تهرجر أقدامها المتعبات وتعب أيامها القاحلة . . .
 وأجفانهم علقت بالفضاء مكنت بالأسى . . ذاهلة
 وجوه عراها اصفرار كئيب لحقت إنيبايمها الحافلة
 وتمضى الليالى بهم في وجوم كتهيدة في الدجى موهلة ا ا
 وفي حفرة غاب عنها الضياء مدى العمر . . جاثمة في جهود

ويلطم جدرانها المظلمات
 وأم هنالك عند الجدار
 وطفل يئن على صدرها
 وإن راح يصرخ ملء الظلام
 وعن كشب.. تحت مصباح ضوء
 تجمع أحرارنا الماجدون
 ورقتنا... ونخطا الامتحان
 فذاك يذاكر في صفحة
 وذاك... تهالك في مقعد
 ويارب شيخ براه الهزال
 على ظهره لائحات السياط
 أقاموه في حفرة كالبحيم
 تملل فوق حصير قديم
 كذلك يمضي قطيع الشعوب
 فياقلعة من حصون الظلام
 تطل.. فتذكي خبايا النفوس
 ولسكن غدا من فصول الزمان
 ونسحق أعداءنا المتخمين
 ونهدم مقبرة الأبرياء
 أخى في متهات سجن الحياة
 فبعد الغيوم يطل الصباح
 لنا في غد ثمرات الحياة
 أخى قد نفقت غبار السنين
 ورحلت! أعانق كل الشعوب
 فاحسست أحسست أنى أحب
 غدا تزدهى جنبات الحياة
 وتبنى الحياة.. حياة الجوع

سعال عنيف كقصف الرعود
 تطوقها حلق من حديد
 تشبث بالشدى واه عنيد
 تروجه صرخات الجنود
 شحيح.. تراعى كالمختضر
 على وحدة الألم المستعر
 تدق عثفاً.. شتيتو الذكر
 وذاك يللم خيط الفكر
 تهدم... يسعل ما يستقر
 وأقعد الزمن الأرعن
 توج لهيبا وما يذعن
 نسيم الحياة بها يأسن
 وطال به أرق مزمن
 ليمتصه ذلك المدفن
 تشاخ كبرا على أرضنا
 وتضرم نيران أحقادنا
 ستمحي روايات مأساتنا
 ومن دنسوا أرض أجدادنا
 ونطلق أنعام أفراننا
 تجلد... لتعبر ظلماءها
 فتكسو النضارات أرجاءها
 نغنى... وتبدع آلامها
 وواريت في الأرض أرزاءها
 وأدفن في النور ظلماءها
 أحب الحياة وأبناءها
 بأشراقة الأمل الباسم
 منغمة... حلوة... ناعمة

٦ - ويقول الفيتورى فى قصيدته « قدر » :

خلف هذا الجدار هذا الجدار الفخم هذى النوافذ الجراء
نصب هشة ساهدمها يوما بفأسى القوية الصماء
نصب بل هياكل أطلتها جبهة الضعف بل قوارير ماء
نصب تشمل الدماء لياليها ليالى لذاتها العمياء
نصب تأكل اللحوم لخدم الأدميين فى طباق الهناء
نصب ترتدى الريح وتمشى كبرياء على جبين السماء
نصب تسكن القصور قصورا بنيت من جماجم الفقراء
نصب تقتنى الضياع وما فيها من الميتين والأحياء
نصب لا تحس حتى طبول الرعد حتى ملاحم الأنواء
ولقد يشعر الجدار برعشات العرايا ، بالآلة الصغراء
ولقد يشعر الجدار فيرتج فيسبكي بجاعة الضعفاء
هى سكرى إلا عن القدر الذائب بين السيقان والأنداء
والشفاه المخمورة الرعشاء والعيون المسحورة الخضراء
وهى فى غفلة بشمونها الحقاء عن نمتى وعن بغضائى
واحتقارى لها احتقارى لهذا المجد ، هذه السعادة الجوفاء
ولقد تزدري بما فى يدي من خصل النار أو غصون الضياء
غير أنى يوما ساهوى عليها بخريفى بكل هول شتائى
فاسمى أياها المقادير يا أيتها الآفاق ، يا قوة الوجود ، دعائى
إننى ما خلقت إلا لكى أنى على هذه القبور سمائى
إننى ما خلقت إلا لكى أو قد نورى بهذه الأشلاء ١

٧ - ويقول فى قصيدته « لن أغنى » :

لن أغنى أبدا لن تسمى من فى غير هدير الألم ١
سوف أجتاز حياتى قلقا شاحب الانقاص حتى تبسمى
عندما افتح عيني على الشعب حر - اليد حر - القدم
وعلى الفلاح يحرق قطنه نخصب النفس شفيف النغم
وعلى الصانع فى مصنعه غير منبؤ ولا متهم
وعلى العامل فى معمله صافيا مثل مياه الدسم

وعلى آخر وجه أحر سرقته حرته لون دمي
وهو يمضى مظلما بمتقعا ساحبا أقدامه كالحرم
كاتبنا في قصة المختل آخر فصل من ليالي المآثم
فبنا تفتر أنغامى وتذهب آلامى ويصفو حلى
وهنا يسكننى النور هنا تمل الفرحة حتى قلبى
فاسمى الآن نشيدى إنه صرخات النسر فوق القمم
اسمىه لئن أنحت من أحاسيس من نار دمي
من جنون النهر المقتحم وانفعال العاصف المحتدم
من أناشيد الضحايا حينما يتحدثون جبال الضرم
يحصدون الأرض عظما ودما ويدوسون رقاب الظلم
ويسرون إلى الموت وقد حدثت شهوته بالرمم
وعلى أفواههم أنشودة نارها ملء فراخ الأعظم
مصر يامصر التى نمبدها لن تموت أبدا لن تهزم
نحن والدنيا طعام للردى أو تعيش حرة فى الأمم
ياجلادك جلاد المقادير جلاد النور الحوم
أحرق السبعين عاما عبنا كشموع أوقدت فى منجم
بذر الآلام فى أرضك فى منبت الشمس وحقل الانجم
صفد الأغلال فى كل يد سكب الظلمة فى كل قم
حشد الأسوار حتى لم يعد منك إلا باب قبو مظلم

٨ - ويقول فى قصيدته « لا يا أخى » :

ألن وجهى أسود ولأن وجهك أبيض سميتنى عبدا
ووطئت إنسانيتى وحقرت روحانيتى ، فصنعت لى قيدا
وشربت كرمى ظالما وأكلت بقل ناظما وتركت لى الحقدا
ولبست مانسجت خيوط مغازلى وتركت لى التهيد والسكدا
وسكنت جنات الفرديس التى بيدى نحت صنورها الصلدا
وأنا كم استلقيت فى كوخ الدجى أتلفع الظلمات والبردا
كالشاة أجتر السكابة عاقدا حولى دخان تفاهنى عقدا
حتى إذا انطلقت مصاييح السها وانساب نهر الفجر يمتدا

أيقظت ماشيتي الهذيلة وانطلقت أقودها لمراحها قودا
 فإذا سمع نعت أنت بلحمها ونبتت لي الأمعاء والجلدا
 لا يا أخى إن التهاب مشاعري هيات بعد اليوم أن يهدا
 هيات لم أخلق عليها بومة تقنات بالديدان أو قردا
 أنا كائن أمى وأملك طينة والنور ليس لأينسا جدا
 فالام تحرمنى حقوقى بينما تلقى الرغادة أنت والمجدا
 وإلام تستعلى بأنفك سيديا وأنا أطأطأ هامتى عبدا
 إني صحت، صحت من أمسى، وذى فأسى تهسد قبوره هدا
 سأكون نارا فالحياة تريدنى نارا وأرقص فوقها رعدا
 فأخلع براقع كبريائك إتنى أسكنت جيفة ذلقى لحدا
 واضمم يديك إلى يدي نشد معا صرح المحبة بيننا شيدا
 إني أخوك فلا تعق أخوتي فتزيد بركانيق وقدأ
 إياك لا تبذر بذور عداوتى فتروح تحصد شوكة حصدا
 إياك لا تزرع حقولك عوبجا إتنى زرعت حقولى الوردأ

٩ - ويقول فى قصيدته «الينا بيع الجديدة» :

اتخمت قيثارى بهذا الحب هذا الضعف هذى اللعنة السوداء
 واليوم يوم المحرقين دماءهم فى مذبح الحرية الحمراء
 لاتلهمينه غناء مائعا متناوحا متهاوت الأصدا
 اسكن أعاصيرا عمدة الذرى وحرائقا ممتدة الأرجاء
 فالويل كل الويل للشادين بين مآثم الأموات والأحياء
 الراقصين على الطريق مشيدا بجماجم التمساء والبؤساء
 والويل للتوشحين بنورهم وريبعهم فى ظلمة الفقراء
 الباسمين إلى الحياة وحولهم أمواج نهر الأدمع الخرساء
 والويل للتوسدين صباحهم ومساءهم فى حيرة الضعفاء
 الراقدين على الحرير وغيرهم متوسدون سواعد الظلماء
 لاتلهمينه غناء مائعا متخشا مترجرج الأصدا
 فالويل للفن الذى لم يستجب لمواجع البشرية الصغراء
 والويل للنسم الذى لم يحترق ليعود عاصفة من الأنواء

٣٣٧ -

والويل للنهر الوديع المستحم بضعفه من قوة الدأماء
والويل للسفح الجمال بالدجى من سخریات القمة الشباء
والويل للبيت الذى لم ينتفض فى قبره ليعود فى الأحياء
ثم ماذا؟ روحك الخالد لم يفن ، روح المبقرى الملهم
وتمرت وفى كفك شعلتك الحمراء لم تنهزم
عبثا تهدم شرفات الضحى كل فأس فى أيادى الظلم
عبثا تخنق أنفاس الشبذى الغض كف السارق المقتحم
عبثا حتى البلى - حتى الردى - لن ينالا من خلود الهرم
كنت يا مصر وكانت قصة الكون حلما فى خيال العدم
وعلى حجرك أغفى زمنا قبلنا تصحو جفون البرعم
وبعينيك رأى الله ، رأى نفسه فى ظلمات القدم
كنت يا مصر اوما آلم ان يصبح الواقع ذكرى ألم
فاحلى جرح الضحايا وابسعى . لا تنوحى خلفهم - لا تندى
انها ليست جراحا . انها ومضات الأمل المبتسم اا
ياأيا الشعب العظيم وإنما ادعو ألوهة روحك المتمرد
القيد قيدك أنت نار حديده لا صنع جبار ولا مستعبد
فإذا تشاء سحقته فتلقفت ذراته ریح الفناء الأسود
وإذا تشاء غصصت افواه الردى برمائى المعبود والمتعبد
فاهتف باشواق الحياة تجبك أصوات الحياة بقلها المتوقد
وازحف على ظلمات يومك ينبثق نور الغد القدسى من قبل الغد
تلك النباتات المدنسة التى كم عانقتك بشوكها المتجرد
لست الذى يثنيه شوك جذوعها لا كنت ان لم تقتلها باليد
أنا لن أنوح عليك لن أبكى على نيرانك المستغرقات الهمد
لازلت الملح فى رمادك قوة إن تنطلق تطفى صباح المعتدى
وأحس فى معنى سكونك رعدة ياويح أحلامى إذا لم ترعد
يارعشة الأشواق أشواقى إلى جيشان أرضك بالدم المتسعر
ولوائك الخضوب يخفق عاليًا بجناح لسر فى الأضائل مبحر

والأوجه السمرء في جبهاتها وعيونها إيماضة المتعجب
والأذرع المتجمدات وقد تعرقها انتقام المارد المتحدر
عقل من الثيران والدم صارخ بزوال مجد الغاصب المستعمر
وبناء إنسانية لم تحتقر ذل الضعيف ولا أنين المسر
لم تبين جنتها الجميلة بين آلام الأجير وضحكة المستاجر
لم تبتدع يوما رسوم سقوفها فرشاة مصدور ولا متكدر
لم تجر أنهرها وخلف سياجها تفق الألف من الهجير الأكر
لم تزه كرمها ويحن نخيلها والجوع يعصف بالجسوم الضمر
فهنالك يا شعبي ستنبث فرحتي في مهجتي وتعود رقة مزهري
ويعود يلهلك الجيل معطرا بفنائه قلب الريح الأخضر

هلي الجارم الشاعر

في يوم الثلاثاء الثامن من فبراير عام ١٩٤٩ توفي الشاعر هلي الجارم ؛ بعد
حياة أدبية زاخرة بالجد والطموح والأمل ، وأقيم له يوم الخميس الثالث والعشرين
من يونيو من العام نفسه حفل تأبين بمسرح حديقة الأزيكبة ، أبان فيه كثير من
أعلام الأدب رأيهم في الشاعر وشاعريته

ولقد ولد الشاعر في رشيد ، وتلقى دراسات دينية هياته لأن يلتحق بالازهر ،
ثم بدار العلوم ، ثم تخرج منها ، وسافر إلى إنجلترا . . وكان الشعر يجري على لسانه
وهو تلميذ صغير سهلا متفرقا ، فلما سافر إلى إنجلترا تفتحت عيناه على صور جديدة
كانت مادة لشاعريته . . كما أمده بيئة رشيد الساحرة بأوصاف جميلة للطبيعة .

وعمل الجارم في دار العلوم أستاذا ، ثم في وزارة المعارف مفتشا للغة العربية ،
ثم عميدا لتفتيش اللغة العربية ، وترك ديوانا ضخما في أربعة أجزاء يزخر بالكثير
من شعر الاجتماع والوطنية والحكمة ، كما ترك كتب عديدة ، منها : الشاعر الطموح ،
وما تف من الانداس ، و (شاعر ملك) و (البلاغة الواضحة) و (النحو الواضح)
بأجزائه . وسواها . . وله كثير من المقالات والدراسات الممتعة التي كان ينشرها
في الصحف والمجلات الأدبية

وشعره على العموم معارضة واحتذاء للقدايم ويفيض بنزعة كلاسيكية قوية .
وهو ثروة كبيرة للأدب العربي في عصرنا الراهن . فقد كان الجارم حجة في اللغة والبيان
والأدب ، وكان ذواقة للمعاني عارفا بأقدارها وصاحب ملكات قوية فياضة

يفاطب الجارم الشباب فيقول من قصيدة له :

أهبت بالشعر أن يعودا إلى الصبا ناعماً رغيداً
 يذكر مامر من عهد الله ما أنضر العهودا
 في كل يوم أرى فناء وهو يرى حوله خلودا
 طار حثيثاً بكل أفق لما مشت خطوتي وثيداً
 وصوحت دوحتي ومالت ولم يزل صادحاً غريداً
 يأخذ ما أبقت الليالي ويبغى فوقه مزيداً
 تجاربي الباكيات عادت تجري بأوتاره نشيداً
 في حكمة الشيب لي عزاء وكم وعيد حوى وعوداً
 كادت أياديه وهي بيض تنسى حل الشباب سوداً
 علوت طود الزمان حتى رأيت من فوقه الوجودا
 وبان بالم بين لغيري وكان عن عينه بعيداً
 كان شبابي رفيق عمري فعشت من بعده وحيداً
 غاب قلباً مضى وولي جعلت شمري له بريدا
 أنعت بالشوق كل يوم ويبعث الهجر والصدودا
 أين ورودي وأين كأسى ماذا دهي الكأس والورودا؟
 لم يبق مني سوى لسان يجيد ما شاء أن يجيدا
 وفكرة صورت نضاراً وحكمة نظمت عقودا
 فيما شباب البلاد صونوا شرح الصبا قبل أن يبيدا
 يعود في السكون كل شيء وذاهب العمر لن يعودا
 إن اشتكى النيل من ضيم فحرموا حوله الورودا
 تجارة الرق قد تولت فما لنا نلح القيودا؟
 قد ذهب العمر في جدال كنا لنيرانه وقودا
 لا يدرك السؤل غير عزم مثابر يقرع الحديد
 فأيقظوا مصر من جديد فإنها ملت الرقودا
 لا ترسموا للعلموح حداً فالجد لا يعرف الحدودا
 العلم أمضى من المواضي فجردوا نحوه الجهودا
 مصر تريد السماء وثباً وأول النجح أن تربدا

ويقول من قصيدته الزهراء في مولد محمد بن عبد الله ، وهي بما غنى به من شعره ،
وقد عارض بها همزية شوقي المشهورة ، قال الجارم :

تبسم ثغر الصبح عن مولد الهدى	فلأرض إشراق به وزها
وعادت به الصحراء وهي جدية	عليها من الدين الجديد رواء
ونافست الأرض السماء بكوكب	وضئ الحيا ماحوته سماء
تألق في الدنيا يزيع ظلامها	فزال عمى من حوله وعماء
ورد إلى العرب الحياة وقدمضى	عليهم زمان والامام وراء
حجاب طوى الاحداث والناس دونهم	فاظهر ما تجلو العيون خفاء
بنت أمم صرح الحضارة حولهم	واقنعهم إبل لهم وحداء
بدا في دجى الصحراء نور محمد	وبلجل في الصحراء منه تداء
نبي به ازدانت أباطح مكة	وعز به نور وتاء حراء
ينادى جرى الأصغر بن بدعوة	اكب لها الاضنام والزعماء
دعاهم لرب واحد جل شأنه	له الامر يولى الامر كيف يشاء
دعاهم إلى نبذ الفخار وأنهم	أمام إله العالمين سواء
دعاهم إلى ان ينهضوا بعفاتهم	كراما ، فطاح الفقر والفقراء
دعاهم إلى ان يفتحوا القلب كي ترى	بصيرته ما يبصر البصراء
دعاهم إلى القرآن نورا وحكمة	وفيه لأدواء الصدور شفاء
دعاهم إلى ان يهزموا الشرك طافيا	تسيل نفوس بحوله ودماء
دعاهم إلى ان يبتنوا الملك راسخا	له العدل أس والطموح بناء
دعاهم إلى ان الفتى صنع نفسه	وايس له من قومه شفعاء
دعاهم إلى ان يملكوا الأرض عنوة	مساميح ، لا كبر ولا خيلاء
قلباء من عليا معد غضافر	كفاة إذا اشتد الوجى شهداء
أشداء ما باهى الجهاد بمثلهم	وهم بينهم في أمرهم رجاء
أساءوا إلى الاسياف حتى تحطمت	وما مرة للاستجير أساءوا
وقد حملوا أرواحهم في أكفهم	وليس لهم إلا الخلود جزاء
فهل تعلم الصحراء أن رعاءها	حماة بآفاق البلاد رعاء ؟
وانهم ان زاولوا الحكم ساسة	وإن أرسلوا أحكامهم فقهاء ؟
لقد شربوا من منهل الدين نقية	مطهرة ، فالظالمون رواء

وقد لمحوا من نور طاه شعاعه
 نبى من الطهر المصطفى نجاره
 وصبر على الآواء ما لان عوده
 وزهد له الدنيا جناح بعوضة
 تراه لدى المحراب نسكا وخشية
 إذا صال لم يترك مصالا لصائل
 كلام من الله الميمى روجه
 كلام أرادته المقاويل فالتوى
 كلام هو السحر المبين وإن يكن
 عجيب من الأسمى علم وحكمة
 نبى الهدى قد حرق الأنفس الصدى
 أفضى علينا نفحة هاشمية
 فليس لنا إلا رضاك وسيلة
 حننا إلى مجد العروبة سامقا
 زمان لواء العرب يزهى بقومه
 زمان لنا فوق الممالك دولة
 نتاجيك هذى راية العرب فاحمها
 رمينا بكف أنك سددت رميها
 أعزنا بحق المصطفى منك قوة
 وكان الجارم عضوا فى المجمع اللغوى . وكانت له فى افتتاح
 كل دورة من دوراته قصيدة عصماء . ومن قصيدته فى افتتاح
 الدورة الثانية للمجمع :

ذكريات ردد الدهر صداها
 وصل العرب الغطاريف إلى
 وجروا صوب العلا فى طلق
 تقف الآوهم حارى دونه
 وعهود يحسد المسك شذاها
 غاية لا تبلغ الطير ذراها
 زاحم الأنجم واجتاز مداها
 لاهئات ، قصر الآين خطاها

من بالشمس فلم تشعر به
 أمة الصحرَاء أقوى جلدا
 صخرها أوحى إليها عزيمة
 وسكون البید فی رهبتها
 رب صدر نأفس الحلم به
 وخلال أنبت الجذب بها
 أبت الضیم فما مدت يدا
 تحفظ العرض مصونا ناصعا
 أمم إن يهلك المال فإن
 رددت أشعارها شمس الضحى
 آية من نفحة الله فار
 روضة قد لقبوها كلها
 كم حكيم أوتي الحكم فتي
 ترسل الأمثال تسرى شردا
 قف على الاطلال واذكر أمة
 بعث الله بها نور الهدى
 أشرق الصبح على الدنيا به
 وجرى في الأرض ينبوع هدى
 قلد الفصحى حلى قدسية
 وبيانا هاشميا لو رى
 أسهم من كلم مسنونة
 يزعم الشعر سفاها أنه
 نزل القرآن بالاضاد فلو
 حسبها أن صورت من آية
 وله قصيدة تصويرية بديعة . يصور فيها الأعمى . ويتحدث عن
 حياته . قال منها :

من يجيرى من حالكات الليالى ؟ نوب الدهر : ما لسن ومالى ؟

قد طواني الظلام حتى كائن في دياجي الوجود طيف خيال
 كل ليل له زوال ويلي دق أطنابه لاغير زوال
 لا أرى حينما أرى غير حظي حالك اللون عابس الآمال
 هو جب أعيش فيه حزينا كاسفت النفس دائم البلبال
 ما رأت بسمه الشموس زوايد اه ولا داعبت شعاع الهلال
 فإذا نمت فالظلام أمامي أو تيقظت فالسواد حيالي
 عبثاً ارسل الآنين من الجب ب إلى سا كنى القصور العوالي
 من لهذا الأعمى يمد عصاه عاصب البطن لم يبح بسؤال
 من رآه يرى خليطاً من البؤس هزيلا يسير في أسمال
 فقد الضوء والحياة ، وهل بعد مد ضياء العينين سلوى لسال
 مظلته الأيام والناس حقاً فقضى عيشه شهيد المطال
 أنقذوا العاجز الفقير وصونوا وجهه عن مذلة وابتذال
 علموه ، يطرق من العيش باباً وامنحوه مفاتيح الاتقال
 لاتضموا إلى أساه عمى الجب ل فيلق النسكال بعد النسكال
 كل شيء يطاق من نوب الايد سام إلا عماية الجبال
 علموه ، فالعلم مصباح دنيا ه ولا تكتفوا بصنع السلال
 بالأيادي الحسان يمجى دجى البؤس س ، وتسمو الشعوب نحو الكمال
 يذهب الفقر والثراء ويبقى مابقى الخيرون من أعمال

وهكذا كان الجارم ينظم الشعر ، وهكذا كان شعره مشرق البيان ، سمح العبارة
 قوى الأسلوب . مطبوعاً بطابع الجزالة ، يبدو عليه آثار القراءة الواسعة في آداب
 العرب وشعرهم . والاحتذاء الكثير لأشهر القصائد العربية القديمة

أحمد الزين وقصة حياته

يقول الشاعر أحمد الزين في جزالة وقوة وبلاغة أسلوب :

يا غلة الصدر من حر الجوى زیدی . أبى شفائك حتى بالمواعيد
 سحرية الفم لو مست بقبالتها فم العبي لحلت كل معقود
 تسكاد من رقة تغرى مقبلها أن يحتسبها رحيقاً غير مورود

قد صاغها الله لما أشركت أمم
 قل للبخیلة جودی لآلقت جوی
 وساعة تحت أفياء الهوى سلفت
 ماضر لو أنها في قبلة سنحت
 هل حاذرت حر شوق حين ألتها
 رحماك لليأس الممطول يقنعه
 ظمآن لا رشقات الماء صافية
 شفاؤه قبلة لو أن محتضرا
 فمكم أقبل ثغر الزهر من شبه
 عين من الخلد من ينهل بكوثرها
 صوت من القلب أمليه على فمها
 وللقلوب لغات ليس يدركها
 حديث شوق بلا حرف ولا كلم
 معنى من الحب يسمو أن أؤديه
 اللفظ يثقل بالترديد موقه
 دع الرسائل فيما لا تحيط به
 فلشفاه على أمثالها لغة
 أدت عن القلب ما يعيا اللسان به
 كم قبلة لا أرى الدنيا لها ثمننا
 به وقال اشهدوا برهان توحیدی
 إن كان يشفع لي قولي لها جودی
 ياساعة تحت أفياء الهوى عودی
 منت بوعد وإن ضنت بوعود
 أن تدبل الورد أنفاسي بتصيد
 من الوجود خبال غير موجود
 تروی صداد ولا بنت العنايد
 داوی بها الموت ردت غير مردود
 بثغرك العذب في حسن وتوريد
 ورد الحياة يفر منه بتخليد
 وتهد حب على الأيام محدود
 سوى فؤاد بنار الوجد معمود
 تغضي به شفقي للخذ والجيد
 بكل لفظ من الألفاظ محدود
 وتلك تعلم معانيها بترديد
 تلك اللغات ودع صوغ الأناشيد
 أحلى على السمع من مزار دوايد
 كنهات الطير غريد لغريد
 فلا تبس غير معدود بمعدود

من هذه القصيدة التي سماها الزين الشاعر ، القبلة الممنوعة ، وليس شخصاً من
 شاعرية الزين من الطرافة والروعة والفن الغنائي الجميل . وأقوى ما تبدو شاعرية
 الزين - كما تقول النافذة الدكتور بنت الشاطئ (١) - في اجتماعياته . إذ يصف حال
 مجتمعنا وصفاً بارعاً النسبة ، لاذع الفكاهة ، مرير السخرية ، فليس هناك ما يفوق
 شعر الزين الاجتماعي دقة تحليل ، وإلف حس ، وقوة انفعال ، وبساطة أداء .
 وقرأ من قصيدته « خدعة الثناء » :

كلهم في الهوى يزين دينه ألف مفت ومالك في المدينة
 كل من صاح بالنبوة فينا قام أوس وخزرج ينصرونه

ملأوا رأسه من الوهم حتى
ليس ذنب الدعي هذا ولكن
كل يوم يسكرون دعيا
ودعي في الدين، والدين يشكو
هو فيهم كالذئب بين دجاج
غاب المدعون في الفن حق
ويقول في قصيدته : الملق :

يا لسان الحق لا تنطلق
علونا يا أولى الصنعة ما
أو قدلونا على صناعه
ألبس الشمس ظلاما دامسا
يمنح الفطنة أغبي خلقه
لا تقل أفنيت عمري دائما
ليس للدائب حظ بينهم
تزن العمر وعمره مثله
لا تقل سهدي وجهدي عدتي
كم كفايات نفاه قوما
فأت عاياهم من بابها

فاز بالخطوة أهل الملق
قد علمتم من طلاء الخلق
نحتله ببقايا الرمق
وكسا الاظلام شمس المشرق
والذكاء المحض رأس الأحق
وبذلت الجهد جهد المرق
لا ولا الجهد سبيل المرتقى
لحظة تبذلها في الملق
إنما الجهد عتاد الأخرق
وجهود ألقيت في الطرق
لا تضع عمرك بين الورق

واقرا قصائده : د صرعى الأغراض ، والضمير ، وغربة النبوغ ، وفي دار
الكتب ، تجد فيها مثل هذا التشخيص الدقيق اللاذع لامراض ظلت أمدا تنخر في
جسم المجتمع حتى انهار أو كاد .
وللشاعر « الزين » إلى جانب براعته في الشعر الاجتماعي ، مقدرة ممتازة في الشعر
العاطفي الرقيق ، ومن قصائده العاطفية أغنان عذبة مؤثرة مثل قصيدة « معاودة الذكرى » ،
حيث يقول :

عاود القلب حنينه من على الشوق يعينه
ويح قلبي من غرام هاج بالذكرى أنينه
يا الخفاق إذا ما قر هزته شجونه
واصل من صد عنه صائن من لا يصونه

أو قصيدة ، العهود المعاوله ، إذ يقول :

علينا بالأماني وابغلي وعدينا بالتداني وامطلي
وإذا لم نسعدى الشاكي بما يرتجيه اسعدى بالامل
كم سألنا وقتعنا اننا نامل البذل وإن لم تبذل
فأسأله مرة : ماسقمه حسب من أسقمته أن تسأل
حسبه عليك عنه أنه مسه الحب بداء معضل
اخطري وهمك فيه مرة خطرة الشجو على بال الخلى

وأدع الأستاذ ، عبد المغنى المنشاوى ، الذى أعد ديوانه للنشر يتحدث عن صاحبه ، الزين ، فيقول : .. الزين شاعر موهوب عالج قرض الشعر وهو الصبى الحدث وكان مفتونا فى نشأته الأولى بمحاكاة لحول شعراء الجاهلية ومعارضتهم ، ولكنه ما كاد يخلع الصبا حتى خلع عن نفسه هذا الأسلوب الذى لا يوائم العصر فخرج شعره للناس فى هذه الصورة الحية ، التى تلمح فيها الأسلوب الواضح والخيال الرائع والحس الرقيق الدقيق .

ويقول الأستاذ عبد الجواد رمضان من دراسة له عن الزين نشرت فى مجلة الأزهري :
قرظ المغفور له اسماعيل صبرى كتاب « قلائد الحكمة » الذى ألفه الزين وهو لما يزل طالباً فى سن العشرين ، وقدم له الأستاذ محمد فريد وجدى بمقدمة فى فلسفة الأخلاق جاء فى ختامها : « هذا غيض من فيض أسوقه بين يدي ما أنا فيه الساعة من النظر فى أرجوزة الأخلاق الموسومة بقلائد الحكمة للشاعر المطبوع أحمد الزين ، فقد جمعت فى أقل من ألف بيت ، ما تشئت من شمل الكلم ، وتفرق من درر الحكم . . ولا غرو فقد نبغ الأستاذ الزين عبقرىاً بطبيعته ، كبيراً على حدائته ، مبرزاً وهو فى سن العشرين على لحول المعرفين . . ومن هذه القلائد فى آداب الأصدقاء :

أرى القطلا أسراباً فاطلب الأصحاباً
إن أصحاب عدة ذخيرة للشدة

وقد طبعت هذه القلائد سنة ١٩١٨ ؛ وكان قد سبقها إلى الوجود « القطوف الدانية » فطبعت سنة ١٩١٧ ، وهى « باكورة شعر الزين » ، جمع فيها طائفة من قصائده فى المدح والغزل ، وختمها بتخميسه لمعلقة امرئ القيس ، الذى نشره قبل ذلك على حدة . . وكان له فى آفاق الأزهري وخارج الأزهري صدى بعيد المدى ، وعلى

الرغم من قوة شعر الزين في هذه الباكورة الرائعة المبسكرة ، فقد طغت عليها محفوظاته الزاخرة ، فظهرت المحاكاة في مواضع منها ، قوية حيناً ، وضعيفة حيناً ، ولكنها على كل حال بواكير نابغة موهوب . فن غزله الرقيق :

أهاج الشوق من سلسى اذكار عشية خف بالركب القطار
وزار لها على الهجران طيف وهل أبقى الهوى بي ما يزار ؟
تردت من غداثرها بليل كذلك يرتدى الليل النهار
أترهب غرب سيفك أسد وج ويعيبك التجلد حين ساروا
تسائل أربعا بالجزع أقوت وعى رسمها ديم غزار
فما لطلوها تأبى جوابا وأنى تنطق الدمن القفار ؟
وقد حل البلى فيهن حتى كأن على معالمهن قار
كأن لم تغن بالسمار ليلا ولم توقد بها للضيف نار

وبما يبدو فيه المحاكاة ، قوله في الأستاذ محمد فريد وجدى معارضنا مروان بن أبي حفصة في قصيدته : « طرقتك زائرة ففى خيالها » :

قف بالربوع مسائلأ أطلالها أمست يجر بها الصبا أذيالها
دمن عفون وأصبحت عرصاتها تزجى بها قلص النعام رثالها
ولقد نعمت بها ودهرك مقبل بوعود خود ما خشيت مطالها
دار لبيضاء السوالف طفلة رود تزيى على الفراق خيالها
وكان بارق ثغرها إن حدثت هندية ضمن القيون صقالها
وكان فى فيها سلافا قرقفا تسقيك من بعد السكرى سلسالها
عمدى بها تصل الحبال ، فما لها قطعت حبالك بعد وصلك ، ما لها ؟
أرأت نذير الشيب لاح بفرقى أم قد أطاعت فى الهوى عذالها
لاتحسبى يا نعم شيبى كبرة لسكنها غير الخطوب ، فيالها !
بما حمى عيني كراها أنى فى أمة قد سودت جها لها
ما زال ليل الجهل فيها ضاربا حتى رأيتك يا فريد ، هلالها

فأما تخميس المعلة ، فقد أحدث — كما أسلفنا — ضجة ، كان بها خليقا ، فإن القوة تشيع فى أطرافه ، ويضعف الإعجاب به حداثة ناظمه ، بما طار بذكره ومهد له فى الأزهر وفى غير الأزهر ، وأثار فى نفوس كثيرين من لداته ومن غير لداته الحسد له ، والغيرة منه ، ويقول فيه :

بكيت على ربيع ورسم معطل يجود ثراه كل أنعم مسبل
 وقلت وقد حلت بفلج فأسل قفانك من ذكرى حبيب ومنزل
 بسقط اللوى بين الدخول شومل
 ربوع بعيد بالظعائن عليها ودار بذات الأثل أطفل رثما
 وأخرى يحزوى مثلها لاح وشما فتوضح فلامرأة لم يعف رسمها
 لما نسجتها من جنوب وشمال
 ويسير فيها على هذا النسج البارح ، حتى يختمها بقوله :
 وما زال طير الأيك يسجع بكرة ولم يدر أن قد هاج للقلب لوعة
 يحن وما تدرى له العين دمة كأن مكاكى الجواء غدية
 صبحن سلافا من رحيق مففل

ولقد أدركته حرفة الأدب ، منذ تخرجه سنة ١٩٢٥ فتركته يردد :
 فيالك بحرا لم أجد فيه مشربا على أن غيرى وابد فيه مسبحا
 وهكذا ، أحرام على بلابله الدوح ، حلال للطير من كل جنس ؟
 ثم دخل دار الكتب المصرية في سلك عمالها بالمياومة من سنة ١٩٢٦ ، وأخيرا
 رقى إلى الدرجة السادسة .

وقد غلب على الزين لقب « الشاعر الراوية » منذ حدائته ، لكثرة محفوظاته ،
 التي جرت في شعره أولا محاكاة وتقليدا ، ثم لما أخل سرت فيه جزالة ، وخامة وشدة
 أسر ورصانة قافية وحلاوة جرس ، وكان الزين جميل الالتقاء ، لا يتكاف ولا يتصنع
 بل كان يرسل الكلام على بجميته ، متغنيا مطبوعا ، فيخالب الألباب ، ويسحر النفوس
 ويستولى على القلوب .

وقد نشر الزين طائفة من المقالات الأدبية الممتعة في مجلة الثقافة بعنوان « من
 أحسن ما يروى » ، (١) تحدث فيها حديثا أدبيا جميلا عن عدة شعراء وأشهر آثارهم
 الشعرية الطريفة ، كما تحدث عن أغراض متعددة ، راويا ماقاله الشعراء في كل غرض
 منها ، مع الموازنة والتفضيل : كما نشر عدة مقالات نقدية في مجلة الرسالة بعنوان
 « النقد والمثال » ، وله كثير من الشعر الوجداني والاجتماعي الرقيق ، يقول من
 قصيدة في ذكرى حافظ إبراهيم نظمها عام ١٩٣٧ :

(١) راجع مجموعة السنة الأولى من مجلة ، الثقافة ابتداء من العدد ١٩

في كل حين وقفة إثر ذاهب
 اودع صبحي واحدا بعد واحد
 تساقط نفسي كل يوم فبعضها
 فيا دهر دع لي من فؤادي بقية
 ودع لي من ماء الجفون صباية
 وهل صبيخ قلبي أو ذخرت مدا معي
 فقارب أخاك الدهر والعيش مسعف
 حياة الفتى بعد الاخلاء زفرة
 رعى الله فتيانا وفوا حق شاعر
 وفي لمصر لم يدنس قريضه
 وفي وفاء الرسل بين معاشر
 يدورون بالامداح ييخون مآربا
 فبينما ترى حمدا ترى الذم بعده
 فدع عنك شعر الحمد والذم لاني
 وكن أمة لم تمن إلا بامة
 متى تخلص الاقلام للنيل وحده
 لقد فطدت مصر بفقدان حافظ
 بواتر صاغتها قريحة شاعر
 يرى شعره بين الصفوف محاربا

ويقف على قبر الشاعر محمد الهراوي الذي استأثرت به رحمة الله عام ١٩٢٩ ،

فيرثيه بقصيدته :

ذكرى إذا حال موت بيدنا نصل ماتنقضي لك حتى ينقضي الأجل (١)

وقصيدته العمود المطولة يقول في مطلعها :

علينا بالآمان وانخلي وعدينا بالتداني وامطلى (٢)

وللذين قصيدة مشهورة عنوانها : سحر الحديث ، يقول فيها

ماغناء الراح قد ظلت سنينا حداثينا تبغي النشو فينا

(١) الثقافة - العدد ١٨ - ٢ مايو ١٩٣٩ .

(٢) الثقافة - العدد ٤١ - ١٠ أكتوبر ١٩٣٩

فك السكاس فهاتي نصطبح من سلاف لذة للشاربين
 أسمعيننا نبرات أخجلت وتر العود حنانا وحنينا
 واهمسي في يابس النبت به تلبسيه نضرة لناظرينا
 ملك أنت فإن شك امرؤ حديثه يعد الشك يقينا
 ألهميه منك فرقان الهوى في حديث يجعل العبوة دينا
 توشك النسمة إذ تجعله تنك أن تعسد فيه السامعينا
 تتمنى العين فيه لو غدت أذا تعفلى ينفذ المذممين
 ومنى الآذان إذ تسمع عن مجتلى حسنك ، لو كانت عيوننا
 فنته جل الذي أودعها فيك لا تدركها إلا ظنوننا
 أرسلى سحرك في صوت إذا ماسرى في اليأس منى اليائسينا
 صاغه الله من الرفق كما صاغ ظل الخلد والفيض المعيننا
 ذاب حتى كاد يخنى رقة لست أدري أرئينا أم أنينا
 حديثنا وأعيدى ماضى من حديث واحسبى أنا نسينا
 وبعد فالزین شاعر مطبوع مجيد ، قل أن تعثر على ند له بين الشعراء الازهرين
 ويقول الزين من قصيدة له عنوانها : إلى الامام :

إلى الامام لاتي سابق ركاب الزمن
 نخل الهوينا لامرى أيامه في كفن
 إن الحياة فرص من لم يبادرها فنى
 دع المنى فانها كم أورثت من محن
 ستثنى عنك وتب بقی لوعة لا تنثنى
 والمجد في الدنيا سببا ق لا عطاء المسن
 ليس سوى الاقدام وال هزم له من ثمن
 أد الحياة ناهضا تؤد حق الوطن

شاعر من السودان

هذه الوحدة المقدسة بين شمال الوادى وجنوبه ، بين مصر والسودان ، ليست
 شيئا من صنع التاريخ ، ولسكنها حقيقة خالدة من صنع الله ، وشعور أبدي بروابط
 الفكر والروح والآمال والآلام ، وحنين متصل إلى الحرية والقوة والمجد ، كما يعبّر

عن ذلك شاعرنا ، لا بل شاعر السودان ، لا بل شاعر الوادي ، المرحوم التيجاني
بشير ، أبلغ تعبير ، فيقول من قصيدته « ثقافة مصر » :

عادني اليوم من حديثك يامص مر رثي ، وطوفت بي ذكرى
وهنا باسمك الفؤاد ولجت بسمت على الخواطر سكري
من أتى صخرة الوجود فقرا ها وأجرى منها الذي كان أجرى
هو من صاغنا على حرم النير ل وشطآنه دعاء وشكرا
إنما مهر والشقيق الأخ السو دان كانا لخافق النيل صدرا
حفظا مجده القديم وشادا منه صيتا ورفعا منه ذكرا
كلما أنكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعوا وفكرا

ويعبّر كذلك في قصيدته « رسل الشباب في مصر » عن هذه الوحدة المتينة ، وعن
مكانة مصر في قلوب الشباب السوداني ، فيقول :

مصر دين الشباب في الحضر الرا فه والبدو من قرى وبقاع
حبذا الموت في سبيلك يامص بر لنشء عن الحى دفاع
وهذا الشعور الملتهب في نفس الشاعر بوحدة الوادي ، ألهمه روائع الآيات في
« النيل » ، نهرنا الخالد ، الذي وثق عرى الاغاء بين الجنوب والشمال ، فنراه
يتحدث عن مجد النيل في التاريخ في قصيدته « في محراب النيل » حديثا بليغا ويقول
في آخرها :

إن عبدنا فيك الجلال فلما نقض حق الزياد عن محرابك
أو نعمنا بك الزمان فسلم نب ل بلاء الجدود في صون غابك
ولا ينسى شاعرنا النيل ، حق وهو يدير أحاديث الحسن والجمال ، فيشبهه حبيبته
بالنيل تشبيها جيدا ممتعا ، في قصيدته « أنت أم النيل ؟ » ، فيقول :
أنت يافاتني أم النيل زغا را ؟ بنفسى كليكما من شبيه
غننا السحر من شواطئه الخضر بر ، وغن الزمان من ماضيه
وادكر سالفا مجيداً على الدهر ر ، عزيزاً على كرام بنيه
ويركب الشاعر زورقا يسبح به في النيل ، فتقاذفه الأمواج ، حتى ليشرف به على
الهلاك ، فيقول الشاعر مخاطباً النيل :

رفقا بمن آواك إلهامه وصاغ في صدرك وحى الجبال
آماله يانيل أحلامه شبابه الغضب الوريث الظلال

ويكرر ذلك في قصيدته « الزورق الأخضر » ، التي وصف فيها رحلة في النيل مع أحبائه ، ويقول يخاطب النيل في بشر وحب وأمل :

الله في الزورق من غافل يا نيل لم يظفر برمان
شراعه الحب ومجداه قلبان طفلان غريان
احفظ صبييه وباركهما للحب يا نيل وألحاني

وهكذا كان يغرد التيجاني ، الشاعر المؤمن بوحدة الوادي ، والذي أذاب نفسه ألحانا ساحرة ، كان يبعث بها الحياة والعزم والقوة والامل ، في قلوب السودانيين والمصريين على السواء .. وهذه إحدى خصائص شاعرية التيجاني ، ابن النيل البكر وشاعر الوادي الخالد المجيد .

والتيجاني يمثل فكرة جديدة في الشعر السوداني الحديث فقد طفر الشعر في السودان على يديه من عهد الاناشيد العامة والمعارضات الأدبية للقدمات ، إلى طور الاستقلال والذاتية والنضوح الفني ، وأصبح الشعر السوداني - بفضل تبقيته - تعبيرا واضحا متميزا جليلا عن البيئة والمجتمع والشعب ، وحياة الامة وآمالها ، ونورتها في سبيل الحرية والعزة والاستقلال . . . وتلك خاصية ثانية لشاعرية الشاعر ، ومن ثم انتظم شعره النزعات الوطنية الحرة ، التي تمثلها قصيدته « الزاهد » ، وقصيدته « ثورة » ، وقد أعلن فيها ثورته العاصفة على الاستعمار والتأخر في بلاده ، وقصيدته الأخرى « أمل » ، والتي عبر فيها عن أمله في رؤية مصر ، والحياة بين معاهدها الناضرة . ومن شعره الوطني كذلك قصيدته (وحى المحامد) ، وقد عبر فيها عن تقديره لزعيم وطني في السودان ، هو السيد إسماعيل الأزهري ، مفتي السودان سابقا ، بمناسبة عودته من الحج ، وكذلك قصيدته « ملاحن فيها الهوى » ، وقد نظمها في صديقه وأستاذه الروحي ، السيد حسين منصور ، حين نزع إلى مصر ، وقصيدته في رثاء فقيد الصحافة والأدب السيد أبي بكر محمد عليم ، ومرثيته لفقيد البلاد الشيخ أبي القاسم أحمد هاشم . . كما انتظم شعره كثيرا من أوصاف الطبيعة والاستغراق الذهني في تصويرها والتبتل الصوفي في محرابها ، والتأمل العميق في مشاهد الجمال والسحر في السودان ، بما يتجلى في قصيدته الجميلة « الخرطوم » مدينة الشعر والجمال ، وفي قصيدته « توقي في الصباح » ، وهي من روائع شعره في الطبيعة ، وتوقي جزيرة مشهورة أمام الخرطوم ، وفي قصيدة ثالثة أخرى ، عنوانها « من أغوار القلب » ، وقد وصف فيها استقبال قلبه للربيع وجماله الأبدى ، وتحدث فيها كذلك عن حبه وأحبابه ، حديثا شيقا جميلا

وللتيجاني شعر وجد انى كثير ، يمثل نزعات نفسه وخلجات قلبه ، وأعمق مشاعره ووجداناته ، . وهذا الشعر الواجدانى يتمثل فى غزله وحبه وفى حديثه عن نفسه وآلامه وشقائه ولهوه وجدده .

أما شعره فى الحب والغزل فتصوره قصائد كثيرة فى ديوان الشاعر ، منها قصيدته « لوحة الشاعر » ، وقد تحدث فيها عن حب غامض له ، وقصيدته « كذلك الحب » ، التى يستعيد فيها صلات حب مهجور ، وقصائده : « على قبر حبيب » ، و « نظرة ساحر » ، و « من وراء النافذة » ، و « هوى قاصر » ، و « تعويذة » التى يعوذ بها حبيبته فى مرضه ، و « من هنا وهناك » التى وصف فيها روحاته وغدواته فى الحب فى أم درمان ، و « جراح واحدة » التى وصف فيها جراحه فى الحب ، و « زهى الحسن » ، وقد خاطب فيها حبيبته له ، و « المصير » ، و « نعيم الحب » ، و « فى الموحى » التى يصف فيها نشوته الروحية بساعات لقاء فى الظلام ، و « النائم المسحور » و (رجاء) ، وسواها . . . ومن أمتع شعره فى الغزل قصيدته القمر المجنون ، وقد تحدث فيها عن حبيبته له تسمى قرا ، أحبها وأحبته ، ثم تزوجت قسرا سواه ، فدفع بها الحب إلى الجنون ، والقصيدة يليغة الوصف والتصوير ، وقصيدته الأخرى « جمال وقلوب » ، هى رائعة حقا ، وتعبير ساحر عن مشاعر محب واهق ، وفيها يقول :

وعبدناك يا جمال ، وصفنا لك أنفاسنا هياما وحباً
ووهبنا لك الحياة وفجرنا بناييعها لعينيك قربى
من ترى وزع المفاتن يا حسـ ن ومن ذا أوحى لنا أن نحباً ؟

من ترى وثق العرى بين مسحو رين لإسماهما جمالا وقلبا
وأما شعره فى نفسه فكثير متصل فى الديوان ، ومنه قصائده : الخلوة ، وقد وصف فيها عهد شبابه النضير فى المكتب ، حيث كان يحفظ القرآن الكريم ، و « المعهد العلى » ويصور فيها حياته العلمية الأولى فى معهد أم درمان العلى ، وبعد ظهور نزعات الشك فى تفكيره ، و « دنياى » التى يقول فى مطلعها :

ما بى ثراؤك من دخر ولا مال فاستبق دنياك حسبي كنز آمالى
وكذلك قصيدته (قلب) وقد تحدث فيها عن قلبه ومنازعه وخطراته العميقة ، ويتحدث الشاعر عن فقره وهواه وصنيع دنياه معه ، فى قصيدته « هوى وفقر » التى يقول فيها :

غفرت لها أنى شقيت وأنها يصح بها مرضى النفوس وأعتل
ولى فى كنوز الروح سلوى ورغبة بحسبى لا خلف لديها ولا مغل
وكذلك صنع فى قصيدته الأخرى « دنيا الفقير » . ويؤلم الشاعر ضياع أدبه
وعبقريته فى وطنه ، فيشدو بقصيدته « الأدب الضائع » ، ويصف نفسه فى قصيدته
« نفسى » التى يقول منها متحدثا عن نفسه :

هى فى صفحة الشباب قوى تزخر بالحب أو تموج بسخط
هى قسطنطين من السماء ، فما أضربع فى العالم الترابى قسطنطين
ويمبر فيها عن قلقه فيقول :

أنا والنجم ساهران نعدا صبح نخطا من الشماع الخيط
ويصور أحاديث نفسه فى قصيدة جميلة ، عنوانها (إلى) ويقول فيها :
ويامبيض الجناح كم أمل تبغى ركن فى السماء تطلب
تود مصر الزمان وهى لما يأمل منها الشباب مطلب
ويكأثره غنى متكبر مترف ، فيظم قصيدته « قلب من ذهب » يرد عليه فيها ،
وهى رائعة حقا ، ويقول منها :

أينا يزحم الوجود حنا حية ، وتمشى الحياة بين ضميره
لى دنيا الفنون والوحى والإلهام من صدقه ومن مسحوره
وفى قصيدته « نفس » يصف نفسه الحرة الأبية ، فيقول :

سبحانك اللهم نفس كلها عطف ولين
وتر من الناس المقدس من بقايا المرسلين
من قدس داجية الشعور ، وطهر واضحة الجبين
من كل سحر فى الوحدانية ، وساحر فى العالمين
من مهبط الروح العزيز وعنصر الجسم المميز
صيفت فكانت حرة أبدا على مر السنين

ويمبر الشاعر عن عاطفة حزينة فى شعره ، الذى نظمها أشجانا وعبرات حرة ،
صورها فى قصيدته (قطرات) التى افتتح بها ديوانه . . . ويصف آلامه فى مرضه فى
قصيدته (على فراش الموت) ، التى يخاطب بها صديقا له شاعرا ، وشكره فيها وفاء
لصداقته . ، ويذكر الشاعر أنه من نسل علوى ، فيقول فى بعض قصائده (١) :

عجبا للجلال والحسن ما جفا في إطارين : فاطر وقوى
 ينسجان الهوى من الفجر بردا علويا لشاعر علوى
 وتسود شعره الوجدانى نزعة واضحة ، من القلق الفسكى والروحى ، ومن
 اضطرام ثورته النفسية ؛ مما يبدو واضحا في قصيدته « يؤلمنى شكى » ، ويقول فيها :
 ما كنت أوثر في دينى وتوحيدى خوادع الآل عن زادى ومورودى
 أشك يؤلمنى شكى وأبحث عن برد اليقين فيفنى فيه مجهودى
 أشك لأعن رضا منى ، ويطغى شكى ويدبل من وسواسه عودى
 وتبدو كذلك هذه الثورة في قصائده « ودعت أمس يقينى » و « حيرة » التى
 يقول في مطلعها :

بين اثنتين : أسر أم أبكى قيس اليقين وجدوة الشك
 ويقول من قصيدة أخرى :
 ومشت غائلة الشك إلى فجر يقينى
 ويقول :

برح الشك بالفؤاد فآمنه ، ولكن فى ريبة أو رياء
 ثم أيقنت مؤمنا ، ثم ما أد رى ، وكم ذا لديك من لأواء
 وأظهر خصائص التيجانى فى شعره نزعة الصوفية العميقة ، المشوبة بلون غنائى
 رائع مستمد من فنائه فى الله ، وإيمانه بالحق ، ونزوعه إلى الخير والطهر والجلال
 والجمال ، وقد قوى والده فيه هذه النزعة ، وكان الشاعر وأبوه ينتميان إلى « التيجانية »
 إحدى الطرق الصوفية الذائعة فى السودان ، ويصف الشاعر نزوعه إلى التصوف منذ
 طفولته ، فى قصيدته (الصبي العابد) التى يقول فيها :

كنت بين الصبا نعمت يارحمان رضى ، وأين عهد صبايا ؟
 فسلبت الهدى وعوجلت فى النو ر ، وقد كنت صادقا فى هدايا
 تاه منى الصبا ، وضلت سنون بعد فى منطق كثير القضايا
 ومضى الشك باليقين ، فله فؤاد تأكلته الرزايا
 والشاعر فى قصيدته « الصوفى المعذب » مؤمن عميق بالإيمان ، وحدة الوجود
 مذهبه ، وهداية السماء نبراسه ، وأسرار الكون شغله ، ويقول منها :
 الوجود الحق ما أو سع فى النفس مداه
 والسكون المحض ما أو ثق بالروح عراه

كل ما في الكون يمشى في حناياه الإله
هذه النملة في رقة تها رجح صداه
هو يحيا في حواشيه ها ، وتحيا في ثراه
وهي إن أسلت الروح ح تلتفتها يداه
لم تمت فيها حياة الله إن كنت تراه

وقصيدته (الله) كذلك من أروع ما نظم الشاعر ، وهي نعمة صوفية ، متصلة
بينابيع قلبه ، وقد تحدث فيها عن الله وذاته وجلاله ورسالته إلى الأرض ، حديثا
روحيا عميقا . . ويؤكد الشاعر نزعته إلى التصوف في قصيدته (قلب الفيلسوف)
التي تحدث فيها - في جمال أخاذ - عن نفسه ، ونزعته إلى الحق والخير ، بعد رحلة
صوفية عجيبة ، ويقول في آخرها :

في موضع السر من دنياى متسع للحق أقتا يرعاني وأرعاه
هنا الحقيقة في جنبي ، هنا قيس من السموات في قلبي ، هنا الله
وللتيجاني نزعات فلسفية عميقة في شعره ، فهو يذهب إلى أن العقل البشرى يشق
إن لم ينهل من ينابيع الأنبياء ، فيقول :

ظما في النفوس ، لارى إلا في ينابيعه إلى الأنبياء
يا لك الله من مشايعة الفسك ر ، وللحق من هوى الآراء
ويرى أن الأديان السماء تدفع الانسانية نحو الخير والمثل العليا ، فيقول :

كلها في الثرى دوافع خير بنت وهب شقيقة العذراء
ويرى ان المعركة الأبدية بين العلم والجهل نهايتها انتصار العلم ، مما يصوره في
قصيدته « اليقظة » التي يقول في آخرها :

فاليوم لامركب الضحى عسر ولا مراق السماء تمتعه
ضوء من العلم في مدارجه نسى ، وللعلم في الوجود سعه
ويؤكد ذلك في قصيدته « أنبياء الحقيقة » التي تحدث فيها عن أحرار الفكر ،
وعن العقل الإنسانى وقواه الجبارة في الحياة

وللتيجاني شعر وصفي ، من روائعه قصيدته « لجرفى صحراء » ، وقصيدته « قلم » ،
وقصيدته « رب ما أعظم الجمال وأجود » وقد وصف فيها صوت مغن ساهر ، وقصيدته
« طفل » التي يصف فيها قدرة الله الباهرة في خلق الإنسان

ومن أجمل قصائد الرثاء في شعر التيجاني قصيدته الطويلة « دمة هلى طفل » ،
ويقول فيها في استطراد بارع :

فرماك في العهد البرى بما رمى حظى به ، ودهى جسم خواطرى
لوددت أنى في الطفولة مائت لو كنت أسمع بالشباب العاثر

وبعد فإن شعر التيجاني يمثل عقلاً جباراً ، نفذ إلى أعماق الوجود والحياة ، وثقافة
واسعة استمدتها من اطلاعه على كتب التصوف والفلسفة . كما يمثل شخصية أدبية
مستقلة في التفكير والتعبير ومذهب الشعر والبيان ، وفي خيالات الشاعر وأسلوبه
ووحدة القصيدة في شعره .

واقعد قرأ الشاعر طويلاً في مصادر الأدب العربى ، القديم والحديث على السواء ،
قرا للجاهليين والاسلاميين والمحدثين والمولدين ، كما قرأ لشوقي وحافظ ومطران ،
وشكرى وأبى شادى ونابجى والصير فى وعلى محمود طه وشعراء المهجر وسواهم . .
ولكنه لم يقلد فى الشعر أحداً ، ولم يعارض فى قصائده شاعراً قديماً أو حديثاً أو
معاصراً ؛ وذلك ينم عن ملكات شعرية مطبوعة ، متصلة بينا يسع الإلهام الصادق
فى نفسه .

ولقد مهد التيجاني بشعره لمدرسة جديدة فى الشعر السودانى المعاصر ، يمثلها محمد
مفتاح الفيتورى ، وتاج السر ، وجيلى سيد عبد الرحمن ، وسواهم من الشعراء الشباب
من أبناء السودان .

وفى عمر الزهور ، وإشراقة الشباب ، مات شاعرنا عام ١٩٣٧ ، عن خمسة
وعشرين عاماً ، ولم يترك وراءه سوى مقالات قصيرة فى الأدب والنقد ، كانت تنشرها
له مجلة الفجر السودانية ، ومجلة الرسالة المصرية ، وسواهما ، وغير ديوانه الصغير
« إشراقة » ، الذى يحتوى على ست وستين قصيدة ، تمثل أروع الإلهامات الشعرية
وأجمل الآيات المعبرة عن شاعرية موهوبة ، لم يعرف السودان لها مثيلاً فى الشعر
السودانى الحديث . . .

قصة شاعر

لا تجزعوا للشاعر الملمم ما مات لكن صار فى الأنجم
ما كان إلا دائراً عابراً لآى سر جاء ؟ لم نعلم

(١٧ - قصص)

كان فراشا حائراً في الدنا في نورها أو نارها يرتقى
نعم ما مات ناجى ، فأدبه وشعره وموهبته خالدة لا تموت ، ولقد كان شاعراً
ملهماً ، وموهبة عبقرية ، وهبة من السماء ، وقبساً أضواء كما تضيء ذكاء ، ثم غاب وراء
الآفاق خلفاً ظلم المساء .

هذا الطيب النابه هو هو الشاعر المطبوع ، والطب والشعر يتصلان بالمعاطفة
الانسانية النبيلة في الرجل الممذوب ، يقول ناجى :

الناس تسأل والهوا جسامة طب وشعر كيف يتفقان ؟
الشعر مرحة النفوس وسره هبة السماء ومنحة الديان
والطب مرحة الجسوم ونبمه من ذلك الفيض العمل الشان
ومن الغمام ومن معين خلفه يمدان إلهاماً ويستقيان

ويؤمن إبراهيم ناجى بالنزعة الحرة الرائدة ، وبرسالة القلم الحر الطهور ، فيقول
لاخير في قلم إذا هو لم يكن حرّاً طهوراً كالشمع الهادي
ويجل الفن عن أن يمتن في سبيل أعراض الحياة ومآربها :

اكتب لوجه الفن لا تعدل به عرض الحياة ولا الخطام الفاني

وكان يشعر بالحياة شعوراً عميقاً ، وكان الشعر ينبع من أعماق قلبه . . وما من
ريب في أن شاعريته مصدرها الأول إشعاع الألم في نفسه ، لبحود العبقرية في وطنه ،
ونسيان المواهب في زمنه ، وفساد القيم والموازين في بيئته ، ولشقائه بحياته وأحلامه
وآماله ، بما أورثه قوة المعاطفة وصفاءها ، وسمو الروح ، وإشراق البيان ، ونعمة
صوفية حائرة ، فهو بحق شاعر الألم ، كما كان شاعر الحب والجمال والأمل ،
ويصف شعره فيقول :

هو آهات شاعر عرف الحب والألم

ويصور جحود البيئته لشاعريته فيقول :

فيا مصر ما فيك العشية سامر ولا فيك من مصغ لشاعر كالفرد
ويأنخص حياته في قوله :

أشترى الأحلام في سوق المنى وأبيع العمر في سوق الهموم

ومع ذلك فقد عاش معتزاً بعفته وصفاء أخلاقه :

عذبت أيامي بعفتها وقتلتها بصفاء أخلاق

وكان الشعر هو البلم الذي داوى به جراح نفسه عندما عز الأساة . . ومن

أجل ذلك أجاد ناجي في النجوى الرقيقة ، والشكوى الحزينة ، أستمع إليه يقول
من قصيدة طويلة :

يا حبيبي هدا الليل ولم يسهر سوانا
لا الدجى ضد جرحي لنا ولا الصبح شفانا
لا الهوى رق على الشاكى ، ولا قاسيه لانا

وكان مبرزاً في القصة والملحمة والغزل ، وفي الوطنية والاجتماع والتحليل النفسى العميق ، والأوصاف الجميلة المعبرة ، وفي الصوفية الحاملة ، والحكمة والفلسفة العميقة ، التى جماعها الألم والحيرة والبكاء لشقاء الناس والهمتاف بحياة حرة قوية كريمة للفرد والجماعة والأمة .

وناجي شاعر القومية المصرية بأجلى معانيها ، ويعبر عن نغره بوطنه فيقول :

أمتى أمة العلا وأبى الهول والهرم

وهو أصدق صورة للشاعرية فى مرحها وتفاؤلها وثقتها بالحياة ، وفى صندوق الشعور ورقة الاحساس وعمق التجربة . وكان دقيق الفهم لأصول الفن ومذاهبه ، ويعرف الفن بأنه ما حاكى الطبيعة ، ويؤمن بضرورة رجوع الشاعر إلى الطبيعة ، يأخذ عنها ويستلهمها ، لتوحى إليه بسرى المعانى وروائع الصور :

استلهم الأم الطبيعة وحدها كم فى الطبيعة من سرى معانى

وهو من رواد المذهب الفنى فى النقد الذى ينظر إلى الصياغة الفنية ، والتجربة الشعرية ، وكان يرى الشعر موهبة وطبعاً لا أثر للتكلف فيه .

وأشهد أن الشعر شيء مشى بنا مع الطبع ، جل الطبع أن يتكلفا وكان لا يعرف الزيف فى الشعور ، ولا التقليد فى العاطفة ولا المعارضة لأثار القدامى ، ولا يستمد إلهامه بالجمال من إحساس شاعر سواه . . ويعرف الشعر بأنه موسيقى وإقناع وخيال وصور فنية حية .

وناجي مجدد حقاً ، يعرف كيف ينظم قصيدته فى إجادة ، وكيف يملؤها بالصور التاطقة المعبرة ، ويختار لها روائع الأساليب وجديد الممانى والأخيلة ، وأشهد أنه ليس لأحد من المعاصرين رقة ناجي ولا سلامة طبعه . . وكان يدعو إلى محاربة الأغلال الفنية ، والانطلاق من قيود الصنعة والابتذال ، ويؤمن بالحرية فى الأداء ، وبالاطلاقة الفنية وبوحدة القصيدة ، ويتجه إلى الجانب العاطفى الغنائى التصويرى ، وهو فى طليعة شعراء المدرسة (الرومانسية) الحديثة فى الشعرى المصرى المعاصر ،

مع جلوح إلى النزعة الصوفية الانسانية ، وقصائده الخريف وملهمة الاطلال وليالى
القاهرة والسراب من أروع الأمثلة على شاعريته المجددة الموهوبة .
وبعد فتحة لناجى وذكره العاطرة ، ولأدبه الخالد ، وشعره المتحرر الممتلئ
بآيات الجمال والحكمة وأنغام الوطنية والحرية .

القومية فى شعر ناجى

رحم الله ناجى ، لقد كان ذا قلب كبير ، وخمير ثقى ، ونفس وديمة ؛ كانت
أخلاقه فى رقة الزهر ، وصفاء الماء فى المنحدر ، وكان يعيش للناس لانفسه ، ويحيا
لوطنه يمجده ويفديه ، ويهتف بحاضره وماضيه ، وينشد له القوة والكرامة والحرية ،
وناجى فى الطليعة من شعرائنا المجددين ، لم يكن اتباعى النزعة ، بل ابتداعياً .
يفيض شعره بالطلاقة والحياة والتجديد ، وينم عن أصالة وهبة . . . بلغ منزلة
رفيعة فى روحه الغنائى ، وشعره الوجدانى ، المتحرر من قيود الصنعة والابتذال
والتقليد ، الناطق عن تجربة عميقة ، ووحدة للقعيدة شاملة . ومن أجل هذه الطاقة
الفنية الفريدة استحق الذكر والخلود . . ومذهب القصص الغزلى الذى ابتدعه فى
أدبنا العربى امرؤ القيس ، وعمر بن أبى ربيعة ، والمخزومى ، وسواهم ، لا يكاد يدانى
منحى ناجى فى وجدانياته المستمدة من شاعرية غنية خصبة ، ثرية بالصور والأخيلة
والمعانى البديعة .

ومع انقطاع ناجى لشعره الوجدانى ، وتأملاته النفسية ، فإن له شعراً قومياً ،
يمثل نزعاته الرائدة ، وأماله الكبيرة فى حرية بلاده ونهضتها وتقدمها .
كان ناجى يؤمن بمصر إيماناً عميقاً ، وتنطوى جوائحه على أبلغ مشاعر الوفاء
لها ، ويمتز بتاريخها العريق التليد ، فى هتائه :

أمتى أمة العسلا وأبى الهول والهرم

ويشيد برمزها العربى ، ومنازلها الإسلامية ، الأزهر الشاى الرأس ، الباقى
على الأدهار :

مطلع (عبده) و (سعداً) ورهط الـ مجد والبأس والملا والفخار

كما يقول ناجى من قصيدة له ، فى تكريم الدكتور زكى مبارك ، رحمهما الله .
كان يحب بلاده حباً متأصلاً فى طوايا نفسه ، يعود إليها بعد رحلة فى أوروبا ،
وحين يرى شاطئ مصر الجميل يصبح هاتفاً :

هتفت وقد بدت مصر لعيني رفاقي . . تلك مصر ، يا رفاقي
 نار ناجي ، فصاح في الشباب ، يطالبهم بتحطيم قيود الاستعمار ، وأن يعملوا
 ويكافحوا لأجل سيادة الوطن ، ولتكون أمتهم فوق الأمم ، قائلا :

زعموكم أمة هائلة كذب الزاعم فيما قد زعم
 حطمو القيد الذي حطموكم واجعلوا أمتهم فوق الأمم
 وكان يصيح دائما في الشباب ، يحثهم على العمل والتضحية من أجل الوطن ، من
 أجل عزته ومجده ، لأنه كان نزاعاً دائما بفطرته إلى الحرية .

استمع إليه يقول ، من نداء له وجهه إلى الشباب :
 وطن دعا ، وقي أجاب بوركت يا عزم الشباب
 قل للشباب : اليوم يوكم الأغر المستطاب
 اليوم يبدو حب مصر ، فلا خفاء ولا حجاب
 هاتوا الفدا الغالي لمصر ، وأرخصوه كالتراب

وكان ناجي يرى الفقر والمرض والجهل ، تنهك ثلاثها جسم الأمة ، وتسكاد
 تقضى على مقوماتها وقوتها ، وتحول دون تقدمنا السياسي والاجتماعي والفكري ؛
 فيتألم ويشتد ألمه ، ويهيب بالشباب أن يعملوا ويكافحوا ، وينقذوا بلادهم من هذه
 الجرائم القاتلة . يقول من قصيدته : مصر (١) :

حلفنا نولي وجهنا شطر حبها	ونفد فيها الصبر والجهد والعمر
نبث بها روح الحياة قوية	ونقتل فيها الضنك والذل والفقر
نحطم أغلالا ، ونمو حوائلا	ونخلق فيها الفكر والعمل الحرا
سلاماً شباب النيل في كل موقف	على الدهر يحني المجد أو يجلب الفخر
تعالوا نشيد مصنعاً ، رب مصنع	يدر على صناعتنا المقيم الوفرا
تعالوا زهد ماجاً ، رب ماج	يضم حطام البؤس والأوجه الصفرا
تعالوا لنمحو الجهل والعلل التي	أحاطت بنا كالسيل تغمرنا غمرا
تعالوا نقل للصعب أهلا فإننا	شباب ألفنا الصعب والمطلب الوعرا

فترى دعوة حارة للتكاتف والجهاد من أجل محاربة أعداء الوطن : الجهل والفقر
 والمرض ، ومن أجل إشاعة روح النهضة ، وتحطيم الأغلال ، وخلق العمل الحر
 والفكر الحر ، وحب التقدم .

والفلاح المصري المكافح : ماشأنه وما خطبه ؟ لقد وقف ناجي يرثي لحاله ،
ويطالب بإنقاذه ، لأنه عماد الثروة الاقتصادية في مصر ، ويتألم المأساة شديداً لخيرات
الوطن ، التي تغدق على الواردين ، ويحرم منها صميم الشعب وطبقاته السكادحة فيقول :
صونوا البلاد وأدركوا فلاحكم كاد الحمى يغدر بغير عماد
حيران من مرض إلى بؤس إلى كرب تمر به بلا تعداد
ومن المصائب في زمانك أن ترى بلداً كثير مناهل الورد
والخير مدرارا عليه ، وربه جوعان محروم الرعاية ، صادى
ويزداد الشاعر المأساة وحسرة وإشفاقاً ، حين يرى أجسام مواطنيه المريضة ،
وعقولهم العليلة ، فيقول مخاطباً جراح مصر الكبير على إبراهيم :
نبي الطب أدركنا إذا ما تطلعت العيون إلى رسول
فكم في مصر أجسام مراض بأرواح كأشباح الطلول
وصدق ناجي فيما قال . . ويرى الشاعر التفرق والانانية وحب الذات وغيرها
من صفات هي المماول الهدامة في صرح نهضتنا ، فيقول في ألم مشوب بالحسرة :
كل يعيش لنفسه في أمة شقيت بطول تفرق الآباد
ويتلفت ناجي ، فيرى الخول في وطنه ، ويرى حرباً سافرة على النبوغ وإهمالا
مورياً لثروة لا تقدر بثمن ، ثروة فكرية وقومية كان ينتظر أن يكون لها أبعاد الآثار
في حياتنا ، فيثور ، ويطالب بتقدير النبوغ في بلاده ، قائلاً :
كرموا نابيكمو ، واعرفوهم فضياع النبوغ في الإنكار
ويقول :

واضياع النبوغ في مصر إن لم يك تخليده على الشعراء
ومن مظاهر حب الشاعر لوطنه وتقديره له ، كثرة حديثه عن النيل ، حتى
ليلوذ به ، ويشكو إليه همومه وأحزانه ، وينشد لديه الراحة والعلمانية والسلام
والصفاء ؛ يقول فيما يقول من شعره :

أقبلت للنيل المبارك شاكياً زمنى ، وقد كثرت على همومى
ومسحت كنى والجبين بمائه على أهدى ثورة المصوم

وناجي لم يكن تفوته غالباً مناسبة وطنية ؛ دون أن ينظم فيها شعراً يخلد لها ، فقد
رثى شهيد الوطن عبد الحكيم الجراحى ، حين مات في مظاهرة وطنية كبرى هام
١٩٣٩ برصاص أذئاب المستعمر ؛ ورثى شهيد الطيران المصري عام ١٩٣٤ بقصيدة

جميلة يقول منها :

وهلل السنين إذا هلت طلائعنا طلائع المجد من أبناء وادينا

ويقول منها :

يا أمتي كم دموع في مآقينا نبكي شهيدك أم نبكي أمانينا ؟

يا أمتي إن بكينا اليوم معذرة في الضعف بعض المآسى فوق أيدينا

ولقد رثي كثيراً من إخوانه الشعراء ، الذين لا قوا ربهم ، ومن بينهم المهشمى

والهياوى ، وشوقي . . يذكر (شوقياً) فيذكره بشاعر الحرية والداعى إلى الحق في

الوطن العربى الأكبر ، فيقول :

يا عاشق الحرية الشكلى أفق واهتف بشعرك في شباب الدار

يا من دعا للحق في أوطانه ومضى ليهتف في ديار الجار

عام مضى ، يا للزمان وطبه فينا ، ويا لسواخر الأقدار

شوقى نظمت فكنت براً خيراً في أمة ظمأى إلى الأخيار

أرسلت شعرك في المدائن هادياً شبه المنار يطوف بالآقطار

واشترك الشاعر في تكريم العاملين من أبناء الوطن ، ومن بينهم المرحوم على

إبراهيم ، جراح مصر الكبير ، والمرحوم زكى مبارك ، وأنطون الجليل ، وشاعرنا

عزيز أباطة ، وعميد مدرسة أبولو الشعرية الدكتور أحمد زكى أبو شادى رد الله

غريته ، وسواهم ، فوقف مع الواقفين يمجّد بطولة أبطالنا ، ويحيى العاملين من أبناء

الوادي ، ويذكر تراثنا الخالد ، والروح المصرى المتوثب الخلاق . . يقول في

بعض هؤلاء :

قد ينام التراث جيلاً فجيلاً غافياً في مجاهل خرساء

وتنام الروح العريقة في الحج د ، لتبدو في طاعة سمراء

فتراه مصرية السميت والقوة والعزم والحجاء والمضاء

ويؤكد أنه إنما يؤدى حق بلاده عليه ، بتكريم النبوغ ، والاشادة بالعبقريّة ،

فيقول يخاطب بعض من وقف يكرمهم :

أنا لا أوفى اليوم حقك وحده لكن أؤدى فيك حق بلادى

وينفى الشاعر أنه يقصد بما يقول ملقاً أو نقفاً أو رياء ، مؤكداً أنه يقول وهو

يعنى ما يقول ، وأنه إنما يكرم الأعمال في أشخاص بعض الرجال :

لم نكرمك للوزارة والمه صب والمجد والسنا والرواء

نحن قوم نهم بالرجل السكا مل يعضى للأمر دون التواء
وتكرم الهيئات الأدبية العالمية شاعرنا ، الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، فى
نيويورك ، فى الثلاثين من ابريل عام ١٩٥٠ ، بمناسبة ظهور ديوانه الرائع : « من
السماء » ، فيبحث ناجى بقصيدة ألقى فى هذا الحفل الأدبى الجامع يكرم فيها المبقرية
المصرية فى شخص « أبى شادى » ، وجاء فيها :

إن كرموك فكم قلب هنا غرد مكرم لك ، شاد ، بين أيديكا
ما أعظم الفن يسمو وهو مقرب وكيف نجزع بين الفن حاديكا
يا شاعر الفن غرد فى خياله وغن واسم ، وجدد فى مراميكا
أقول للفن : سبح ، ثم مل طربا أقسمت أن أبأ شادى لشاديكا
إن لم تكن أنت عين الخلدانية فانه لندى التخليد داعيكا
ويكرم ناجى مع لفيف من الشعراء الشاعر عزيزاً باطنة ، فيذكر له ما أداه للفصحى ،
وللعروبة ، فيقول :

جزيت عن لغة الفصحى وأمتها عمراً مديداً ، وتكريماً ، وإحساناً
وللشاعر شعر قليل فى الطبيعة المصرية ، والتأويه بحماها الساحر ، وأغلبه أوصاف
وجدانية ، يعبر فيها عن تأثر نفسه بحال الطبيعة وجلالها . وكان لناجى غرام بمدينتين
مصريتين ، يحبهما ويحب قضاء فراغه فى مدينة منهما : الإسكندرية والمنصورة . .
يتحدث عن المنصورة ويصفها فى قصيدة له ، يقول منها :

يا جنة من جنان الله أعبدما لن تبعدى ، ولدى السحر والمبق
وله فى ثغرنا الجبل ، وهصفنا الوديع : « الإسكندرية » قصيدة عنوانها « الثغر »
لم تظهر بعد فى ديوان ، ويتحدث فيها عن المصيف حديث الواقى المحب ، فيقول
فيما يقول :

سلاما يا عروس الماء لنى أحبك لا أمل بك المقاما
أسير إلى لقائك نضو شوق وأرجع عن وبوعك مستهما
بربك أيها الأنوار ماذا تركت بساهر ألف الظلاما
بربك أيها الأمواج ظلت على الشيطان ترتطم ارتظاما
عبابك فى دى ، وشذاك باق وهذا الصوت أسمعه دواما
فؤادى قم بنا لشكو فجانا لصخر فى جدار البحر قاما
تعال ، ولا تقل هذا جماد وكيف تروم بالصخر اعتصاما ؟

فكم في الحب من قلب أصم تجاهل أو تشكر أو تعامى
وكم صخر أحس بما صنانا وما عرف الحديث ولا الكلاما

هذه صور من القومية في شعر ناجى ، الذى يمثل لنا أجمل الصور ، ويجلو أروع
الذكريات ، ويجمع بين جمال الفن ودقة التصوير وعمق الثقافة والمعاني والأخيلة .
ولم يكن ناجى شاعر القومية بقدر ما كان شاعر الروح والوجدان ، ولقد أدى ناجى
رسالة كاملة في الحياة ، أداها نحو وطنه وبلاده وشعبه ، ونحو المجتمع الذى عاش
فيه وأحبه ، ونحو أصدقائه واللائذين به ، كما أداها بقوة ونبل نحو الكادحين والفقراء
من أبناء الشعب ، وترك آثاراً عديدة تدل عليه ، وترشد إليه ، وتنطق بأجل
الذكريات ، وأبلغ الآيات المعبرة عن شخصية الشاعر وشاعريته ، وعن جليل غايته
في الحياة وأهدافه ورسالته ، وسنظل نذكر (ناجيا) كلما ذكرناها ، نذكره في
الخالدين ، ونذكره في العبقرين الملهمين ، ونذكره في العاملين لخير شعب مصر .
شعبنا الحر الأبى .

أدب ناجى

في جلال الذكرى وروعها ، ومن أعماق الأبدية وصمتها ، وبين أطراف العبقرية
والمجد والخلود ، تطالعنا شخصية إبراهيم ناجى الشاعر الإنسان . وتطيف بنا في ألق
النور ، وابتسام الربيع ، وأريج الزهر ، وكأنها تتحدى الفناء ، وتهزأ بالحياة . .
تلك الحياة التى تحارب الأحرار ، وتعوق ركب التقدم ، وتهدم ما بناه الفكر الإنسانى
من صروح ، الحياة التى شق ناجى بها ، وثار عليها ، ووصفها في أبيات
له فقال :

عشت وامتدت حياتى لأرى فى الثرى ما كان قبلا فى القسم
انهيار المثل العليا ، وإنكار الكرامات ، وكفرا بالقيم
من يكن عض بنا نا ناقما فأنا قطعت لإبهام الندم

ولم يكن ناجى يحارب إلا من أجل عبقريته ومواهبه ، وكانت البيئة الجاحدة
للنبوغ ، والكافرة بالعبقرية ، هى التى تحاربه ، البيئة التى يحيلها الحسد إلى ذئب ضار
مفترس ، يلاتهم كل أثر لبنة الحياة وصانعها ، واتى يصفها ناجى فيقول :
ياديارا يومها من سحب وغيوم ، وضباب أفق غد
كل نبت عبقرى أطلعت جعلت منه طعاما للحسد

وكان ناجي يقيم فيها ، وهو يوقن أنه مفارقة لها مقارب ، حتى ليقول من قصيدته
« ظلام » ، وقد نظمها قبل وفاته بقليل (١) :

أدعى أني مقيم ، وغداً ركني المضي إلى الصحراء سائر
وإذا كان ناجي قد ودع هذه الحياة ومضى ، فإنه حتى بأدبه الخالد الباقي ما بقيت
الحياة والناس ، في مقاله والقصة والدراسة الأدبية والنقد والتحليل النفسي والقصيدة ..
وهو الذي يدعو في أدبه ، ويهتف في شعره ، بمبدأ الحب الإنساني الذي عاش بمجده
ويقول فيه :

إنه الحب الذي علني أن أحب الناس والدنيا جميعا
إنه الحب الذي صور من يجذب القفر لعيني ربيما

ومن ثم كان يحيا ملاكا كريما ، يوزع السعادة بين الناس ، ويفرح من الخير في
صحراء الحياة المقفرة من الخير . وكان يضعي بنفسه في سبيل هذا الحب الذي استبد
به وأرقه ، وتبتل في محرابه ، وتصوف فيه .. ثم خلق منه هذا الحب موهبة غنائية
فذة في طاقاتها ، بديمة في موسيقاها وألحانها ، تنطق عن طلاقة فنية ، وتجربة إنسانية
عميقة ، وإيمان بالتجديد والحرية ، موهبة كان يلهمها الجمال ، ويوحى إليها الحسن ،
بأجل النشيد ، وأهذب القصيد ، فتشده وترنم هاتفة تقول :

يا ككتاب الحسن جملت آية من جمال وكال وشباب
زعموا أني قد خلقتها بأغاني وألحاني العذاب
ما أنا شاد ولكن قارئ سورا من ذلك الحسن العجائب
لم أزل أقرأ حتى سجدوا وجعلت الحمد عنوان الكتاب

ولقد كان ناجي عميد الشعر الغنائي المعاصر ، بما أحدث فيه من تجديد ، وأضاف
إليه من نغمات ، وابتدع فيه من ألوان وفنون ، وهو - في شعره الغنائي هذا - قوى
التعبير عن تجاربه النفسية العميقة ، يرسم الصور الدقيقة لكل ما تأثرت به نفسه ،
واهتزت به مشاعره ، ويعبر عن عواطفه في صدق وإخلاص وبساطة وسحرية فنية
موهوبة . ولم يكن لناجي في هذا الفن شبيه من شعراء عصره ، وأعله كان فيه أكثر
الشعراء شبا بامر بن أبي ربيعة ، زعيم الشعر الغنائي القصصي في عصر بني أمية .
ولقد ترك ناجي ثروة كبيرة من المعاني والأخيلة والصور والموسيقى والتعابير ،

وترك قصائد جديدة في الشعر العربي المعاصر ، ودواوين جيدة : من وراء الغمام ، وليالي القاهرة ، والطائر الجريح .. وهي تفيض بالأصالة والملكة والحرية والجمال الفني ، بما يتخذه فيه شعراؤنا المعاصرون ، ويتأثرون به ، ويتخذون منه نهجا فنيا خالصا في نظم القصيدة . والتجديد فيها .

ويضيق الوقت عن دراسة آثاره في القصة والمقالة والدراسة الأدبية والنقد والتحليل النفسي ، وعن استيعابها وتحليلها ، والإفاضة في وصفها .. أي ناجي : .. هذه آثارك نذكرك كلما ذكرناها .

ونمجدك كلما طالعناها ورددناها .

وتجلى لنا شخصيتك قوية مهيمنة جبارة .

فسلام عليك في الخالدين .

وسلام عليك في الأحرار الرائدين .

وسلام على ذكراك .

ذكراك الخالدة على مر الأيام والسنين .

قصة نكبة فلسطين في ديوان « مع الغرباء »

عروبة فلسطين قضية يسلم بها التاريخ منذ عشرات القرون ، منذ أن انتهى عهد الرسالات السماوية التي نزلت على نبي إسرائيل .. ومن عهد المسيح حتى اليوم وفلسطين عربية بلغاتها ودماء سكانها ونزوح القبائل العربية إليها من كل مكان في جزيرة العرب .. وقد أيد هذه العروبة الفتح الإسلامي لفلسطين في عهد عمر بن الخطاب ، وصارت فلسطين العربية المسلمة من ذلك الحين أمة يعيش فيها المسيحيون واليهود في ظلال راية الإسلام وعدله وإخائه .

وفي التاريخ المعاصر نجد فلسطين وشرقي الأردن وسوريا ولبنان قطرا واحدا يحكمه الأتراك ، ويشرف على أجزاء منه الشريف حسين الهاشمي أمير مكة في ذلك الحين . وفي خلال الحرب العالمية الأولى وعد الانجليز عرب فلسطين والشام بالاستقلال التام ، ومع ذلك فقد أصدرت الحكومة الانجليزية ممثلة في شخص وزيرها الاستعماري اللورد بلفور وعدا مشثوما لليهود عرف بوعده بلفور ، وتعهدت فيه بريطانيا بالعمل على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، كسبا لليهودية العالمية لتقف بجوار الحلفاء في الحرب . وانتهت الحرب وعقد الصلح ، ولجأة أصبحت فلسطين قطرا تحكمه قوات

الانتداب الانجليزي الاستعمارية ، وكان اليهود حينئذ أقلية ضئيلة تبلغ نحو ٤ ٪ من مجموع السكان البالغ عددهم مليوناً ونصفاً .

وبتشجيع حكومة الانتداب الانجليزية في فلسطين اتسمت الهجرة اليهودية اليها ، وامتلك اليهود كثيراً من أراضي العرب بوسائل عديدة غير مشروعة ، وكونوا الجماعات العسكرية ، واتخذوا تل أبيب مركزاً لنشاطهم ، ولم تحدث ثورات العرب المشهورة عام ١٩٢٩ و ١٩٣٦ و ١٩٣٨ و ١٩٤٧ شيئاً ، لأن الانجليز كانوا يعملون لإفناء الشعب العربي في فلسطين وتسليم الوديعة إلى اليهود ، وقد قدم الانجليز إلى الدول العربية عدة حلول لحل قضية فلسطين ، أساسها منح اليهود وطناً داخل فلسطين ، ولكن الرأي العام العربي في كل مكان كان يقابل هذا بالرفض .

وفي عام ١٩٤٧ بدأنا نسمع أن الانجليز ينهون انتدابهم في فلسطين ونرى قواتهم تخرج منها ، ونجد فرق اليهود الحربية تقوم بأعمال عسكرية كبيرة للاستيلاء على المدن والقرى العربية ، مما أدى إلى دخول الجيوش العربية أرض فلسطين لتحريرها من اليهود ، وفي ١٥ مايو عام ١٩٤٨ أعلن حاييم وايز من زعيم الصهيونيين في فلسطين ميلاد دولة إسرائيل (المزعومة) .

واعترفت أمريكا وانجلترا بها إثر ميلادها ، وتنازلت الهزائم الحربية المصطنعة على الجيوش العربية بمناورات الاستعماريين والصهيونيين ودول الغرب وأمريكا الاستعمارية ، وأخذت أمريكا تلبس مسوح ملاك السلام ، فقرضت مشروعاً للهدنة بين العرب واليهود ، على أساس الاعتراف باليهود . وحكهم لرقعة واسعة من أرض فلسطين الخصبة الغنية ، وضم جزء قليل إلى الأردن ، وبقاء منطقة غزة وما حوالها تحت إشراف مصر .. ولم يوقع صلح رسمي بين العرب واليهود حتى اليوم .

ووضع اليهود بذلك أيديهم على مدن وقرى وأملاك العرب ، وأجلوهم عنها ، وقتلوا عشرات الألوف منهم ، وتفرق عرب فلسطين في جميع البلاد العربية تضمهم معسكرات من الخيام البالية ، ويفتك بهم الجوع والمرض ، ويخنون رؤوسهم لهذه العاصفة الهوجاء . أملاً في يوم البعث الجديد ، وفي العودة إلى الأراضي المقدسة التي تخرجوا عنها بقوة السيف والحديد والنار .

وهذا الديوان ، ديوان مع الغرباء ، تصوير لهذه الفترة الحالكة من تاريخ فلسطين ، ولحياة اللاجئين القاسية المعذبة تحت الخيام ، ولآمالهم في العودة إلى وطنهم وقرامهم ومدنهم العربية ، وحنين متصل إلى هذه المواطن العربية الخالدة ، من قرى

عزيزة ، ومدن سجلت ذكرياتها في صحائف التاريخ .

والشاعر هارون هاشم رشيد في ديوانه « مع الغرباء » ، يشعل عزائم اللاجئين ، وينفخ فيهم روح القوة والامل ، ويقف بهم على أبواب الأرض المقدسة هاتفا بأناشيد الحرية والمجد والوطنية ، صائحاً بملء فيه : لا بد من ميلاد أمة فلسطين العربية ومن هنا ندرك خطر هذا الديوان ، وأهميته في تاريخ فلسطين القومي بعد النكبة ، ولا شك أن ديوان « مع الغرباء » سيظل خالداً في قلب كل فلسطيني ، لأنه رمز لحاضر فلسطين الآليم ، والمستقبلها المنشود المرموق بالامل والحنين . . .

شاعر من ضفاف بردى

أنا الذى فى رياض الشام أنفجها بكل بيت له اهتزت نواديهـا
هناك فى جنة « العاصى » وفتنته مع البلابل أشدو فى روايهـا
لما ولدت رصعت الشعر فأنفجرت على لساني من الفصحى قوافيهـا
من كل تغريدة لما أفوه بها تصفى لنغمتها الدنيا لترويهـا
هذا هو شاعرنا الشاب ، « على دمر » ، كما يصور نفسه وشعره ، يتأمل الحياة بعقل الشاعر ، ويحيا فيها كالمزار فى الروض ، ويفنى بآماله وآلامه شعرا معطرا ، توحى به إليه بسمات الربيع ، ومفاتيح الطبيعة ، ومواكب الغيد ، وصبوات الهوى ، وذكريات الشباب . كما يوحى به إليه ضوء القمر ، وطيف الحبيب ، وصوت الجمال ، ودعوة الحرمان ، والحنين إلى الوطن المقدس على شواطئ « العاصى » و « بردى » ، حيث النور والجمال ، وذكريات التاريخ العريق فى المجد والكبرياء .

وكيف يرى الشاعر الجمال فى النهر والروض والزهر ، وفى السماء والأرض والشمس والقمر ، وفى العذارى نام فى أحداقهن السحر والشباب ، وفى الماضى المتشيع برداء المجد ، وفى ثورة الأحرار وبطولة الأبطال . كيف يرى الشاعر هذا كله ثم لا يشعر ، ولا يفنى ، ولا يذيب نفسه الحانا وأناشيد عذابا ؟ أيمشى بين الناس بلا عاطفة ؟ أيحيا لا ينظر بخياله إلى الصور والألوان والظلال ؟ أيصمت فلا يقول للناس شيئا ؟ لا فليس ذلك من طبيعة الشاعر ، الذى يرى الحياة وحدها من غير شعر عبثا ثقيل ، وعذابا لا يستطيع احتماله ، كما يقول :

كيف ألقى بواسم الزهر فى الإصـ باح تاهت بالعطر والأنداء
كيف ألقى الجمال من روعة السكو ن تبدى فى طالعة الحسناء
أفلا يستغفر ذلك شعري من ضلوعي ، ويستغفر غنائى

وشاعرنا « دمر » ينظم قصائده بطبع أصيل ، وإحساس فني عميق ، وخيال منطلق ، وموهبة شعرية متحررة . ومن ثم نجد يكره التكلف والابتذال والصنعة والادعاء ، كما يقول من قصيدته « نكبة الشعر » :

إنما الشعر ماتقجر بالإحساس وحيا ، وأرقص الأرواح
إنما الشعر كالنبوة لا يزاد فيها الكذب إلا افتضاها
قد أقننا للشعر سيرة نهر فلا تم من القذى الأقداحا
تعب المدعى ونحن تمينا ليله قد أراحنا واستراحا

و « دمر » شاعر يتألم ، ولكنه يخفى ألمه ليضحك للحياة ، ويتسم في وجه الأحداث ، وهو يردد :

الحياة ابتسامته وهناء ضل من يقطع الحياة كثيبا
ويقول من قصيدته « ذبول » :

كلما سددت قناة مصاب لفؤادي تحطمت بقناتي
وهو شبيه بقول أبي الطيب :

فصرت إذا أصابني سهام تسكرت اتصال على النصال
وفي غفوات عقل شاعرنا ، وانطلاق خياله ، لا ينسى أن يثبتنا بقصة حياته ، من بدئها لختامها ، فيقول في بيت مفرد رائع :

قد كان لي أمل يطل ويختفي فالآن قد ذبحنا هنا آمالي
ويصور معركة اليأس والأمل في نفسه ، فيقول :

أؤمل لكن حين يولد مأملي يموت ، فأبغى اليأس واليأس نافر
ويذكر معركته مع الحياة ، وهزيمته فيها ، في بيت آخر ، فيقول :

وعاركت أيامي عراك مغامر إلى أن نبأ سيني وجسمي تضرعنا

ويتحدث في قصيدته « نهر اليأس » عن نفسه وشاعريته المفردة للجمال في كل روض ، وعن أمانيه التي تذوي وهي في المهد ، فيقول :

أنا ذلك المصفور في الدنيا سري في كل روض للجمال بفرد
كم من أمان لي ذوت في مهدها كالطفل يولد أمسه إذ يولد

ويبتذل الشاعر من ضفاف « العاصي » إلى ضفاف النيل ، فيصور حياته القديمة والجديدة تصويرا جميلا في أبيات يخاطب بها النيل ، فيقول :

كم شاعر يا نيل جاءك شاكيا رتلت حلو نشيده ترتيلا
 قدفته أمواج الحياة إليك من أوكانه فتوى لديك نزيلا
 نسيته دنياه فأقبل شارحا ألما يكبل روحه تكييلا
 ذكرتني يا نيل أيام الهوى إذ في ربي (العاصي) أهيم طويلا
 (وحمة) لو خيرت بين ربوعها والنيل لم أرغب بها تبديلا
 روحى على العاصي تحوم فأننى من أجله أصبحت أهوى النيلا
 طابت ربي الوادى السعيد وطلاب من أمسوا لدى الوادى السعيد نزولا
 و (دمر) مع وطأة الأحداث على نفسه ينفيها من خياله بالأمل الضاحك ،
 والابتسامة الوديعه ، وبالثقة النفسية ، والشعور العميق بكبرياء الشاعر ، مما يصوزه
 في أبيات ثلاثة ، فيقول :

عشت في الطهر وعند ال ناس لاحت كثيرة هفواى
 غير أنى أراهمو تحت سفحى من صغار كالنمل في الفلوات
 فابسمى يامنأى في ليل عمرى لتضيئى حوالك الظلمات
 ويقول في بيت آخر :

أنا عصف اللبيب في حومة الهوى ل ، ولمع الصواعق الحمراء
 والشاعر يسير في نطاق التجديد والبساطة والغناء في شعره . . ووحدة القصيدة
 عنده تلوح في بعض قصائده ، وتختفى في بعضها الآخر . ومن أروع صور التجربة
 الشعرية العميقة في ديوانه الثانى « حنين الليالى » ، قصيدته التى جعل عنوانها « صورة »
 وتحدث فيها عن صورة وجدها معه لذكرى وصال قديم ، وأيام عزيزة عليه ، ويقول
 في القصيدة :

لم يبق من دنياك في خاطرى إلا خيال الزمن الغابر
 وأذكر الماضى الذى ضمنا كصفو عيش الروض للطائر
 كنا بدنيا من هناء ومن مر لدى المهجور والمهاجر
 قد كفنت أيامنا وانطوت وأصبحت في هدأة الذاكر

ومن قصائد الديوان البديعة كذلك قصيدته « دمة الحرمان » ، ويقول فيها :
 هنا قضينا زمان الحب والحنى عليه ما كان أهناى وأهناك
 دنياى لم ألقها من بعدك ابتسمت ياليت شعرى كيف الآن دنياك
 حرمت وصالك فى هذى الحياة فهل إن مت فى عالم الأرواح ألقاك ؟

وتطالعنا في الديوان قصيدة « إلى أم كلثان » ، وقصيدة « ولدى أنس » ، التي يقول فيها :

أنس وما أحلاه من نعم إذا نوديت يا أنس انتشت آذاني
لما ظهرت رأيك دهري باسمي ومشت مدام الأنس في أحزاني
وقصيدته (نشوة العمر) ، يتحدث فيها عن قصة حب له ، فيقول :
كانك بدر لست أمل نيله وهيات من لي بالصعود إلى البدر
إذا ما بدت أضواء وجهك في الدجا رأيت الدجى هيان في بسمة الفجر
سلام على أيامنا كيف أسرعت مضيا وكانت وحدها نشوة العمر
إذا ما سكرنا بالأحاديث والمثى درجنا نقص الذكريات لدى النهر
وصور الطبيعة وأوصافها عديدة في الديوان ، ومن أجملها قصيدته (عرس)
التي يصف فيها مواكب الربيع وجماله وبهجه وحسنه ، فيقول فيما يقول :
جل من لون الأزهير في الفجر ر ، وأبدى بها الجمال ضروبا
فكان الربيع عرس بديع كل شيء يلوح فيه عجيبا
تشرق الشمس في سماء عروساً ترتدى بالضياء ثوبا قشيبا
وقيان الأفنان تصدح بالدهن وتتلو للرقص فنا غريبا
ويتحدث الشاعر عن الصداقة والصديق ، فيقول من قصيدة له يذكر قصته مع
صديق وفي :

ولي صاحب أقات منه رجولة وصدا ومن سقى به أنطب
تقلب دهري والصحاب ولم يزل مقيا على الاخلاص لا يتقلب
إذا نزلت سودا الخطوب بساقي أزاح دجاما فأنجلي منه غيب
هذا هو (دمر) الشاعر الوجداني الغنائي المجيد في أوصاف الجمال إجادته في
وصف الطبيعة ، والذي ينجح بشعره إلى البساطة والسهولة والطبع ، تاركا التقليد
والتكلف في أحيان كثيرة .. وفي ديوانه قصائد عديدة بديعة رائعة حقا ، هي من
تخليق بخياله الشاعر ، وملسكاته المصورة ، وفيه كذلك صور يبدو عليها آثار من
التقليد والاحتذاء الفني المتكاف « ولكن شاعرية الشاعر وهو في رونق الشباب
تذنبنا بقصة شعره وشاعريته في المستقبل القريب المرموق ، وتدعنا تؤمن بأن (دمر)
ابن سوريا العزيزة ، سيصبح بإذن الله بعد قليل فتي سوريا المفرد ، وشاعرها المجيد ،
وما ديوانه الأول (رعشات) الذي ظهر في سوريا منذ سنوات ، وديوانه الثاني

الذى سيظهر عما قليل في مصر ، إلا شواهد قوية على شاعريته الموهوبة ، ومستقبله المنشود في القريض ، الذى بدأ حياته فيه مفتونا بشوق وعمر أبي ريشة وعلى محمود طه وإيليا أبي ماضى ، ثم عاد فركن إلى الاستقلال الفنى فى قصيده بعد أن بدأ حياته العالمية فى مصر .. وبعد : فالمجد لك يا سوريا .

المجد لك بشعرائك ، وبأبنائك العبقرين
والمجد للأدب والشعر فى ربوعك : بدمر ، وديوانه الجديد . . .

شاعر من الكويت

يعيش محمود شوقى الأيوبى الشاعر فى وطنه « إمارة الكويت » ، يقضى حياته بين القراءة والتعليم والتضوف : وهو اليوم ناظر مدرسة حولى بالكويت . . وقد تلقى منه منذ أمد قصيدته (مع القافلة) التى يقول الشاعر نفسه عنها :

« ألهمت هذه القصيدة بين ٢٢ - ٢٣ ربيع الأول ١٣٧٣ هـ ، وقد بقيت مسودتها عدة أيام لكثرة المشاغل المدرسية فى القرية . .

وفتح الله على أن أبيضها فى ليلة الأربعاء بعد الغروب : وقد نهضت فى سحر هذه الليلة نفسها وانتهيت عند شروق الشمس .

وأبعثها إلى دار السكنانة فى يوم الخميس ٣ ربيع الثانى سنة ١٣٧٣ هـ ، من الخليج العربى - الكويت - قرية حولى . .

وقد كتب الشاعر إهداء القصيدة لى فبعث لى معها برسالة يقول فيها : « سيدى : هذه إحدى ملامات فجر الشتاء ، أعرضها تحت إشعاع فكركم ، وأقدمها بين يديكم ، اعترافا بفضلكم ، ولشد مآهناات نفسى بتمامها مع وجدانكم الحر وهذه هى القصيدة :

مرانع الريم بين القفر والماء	ملهى العذارى ، ومغنى كل هيفاء
مشيت فيها وسحر الوجد يجذبني	لسكل مكرمة تسنو بحوباني
فكنت كالطيف منسلا بساحتها	فجرا . وتحنان قلبي فى السويداء
وشوقتي أغاريد مجنحة	رفرافة . بين أشداء وأضواء
لها قطعت . على قلبي - الظلام ولم	يجنح بى العزم عن تحبير إنشائي
حسبى من الأنس أنى لا أرى كرما	إلا سرى له فى عزم مضاء
هذى الرواى يذوب الطرف منطلقا	فيها يرأى مسحورا بأشياء

وهبتها الحب ا . لا تغنى مناقشة
حرية الروح اسمى في مبادئها
أصلتها في كناس الريم مرهفة
نقبت في كل ربيع عن جاذرها
دعوت قومي إلى المغنى وبهجته
لحن من الغيب هز الشائرين إلى
صغوا إليه فهبوا من مراقدهم
كانهم في ذرا الدنيا ملائكة
بعث تهللى من الأطلال مزدخرا
شاهد وجوه حماة الرجس يوم بدا
تذال الوعر للأحرار منبسطة
في الشرق والغرب السارين هممة
راع الآباة جنوح الغاصبين إلى
نفاصموا الجور إيماناً بحقهم
وزلزلوا كل طاغوت بوثبتهم
هبت (مراكش) يحدوها الرجاء إلى
فكانت الثورة الكبرى وقد أكلت
قادر العيل المفدى يوم غضبته
ألقى على الملاى الغربى يوم مضى
لطالما كافح الأحرار غاصبهم
رياض (تونس) غنتنا عنادها
لحنا يثير حيات وزممة
تجاوب السخر بين الدائدين بنا
وثار من (همر المختار) يوم غدا
قاموا ، ولحق صولات بجلة

في الحب ا . صورها مغرور دهما
من أن تذلل لأوغاد أذلاء
بين الأجلع في دل وإغراء
فقلت مالم أنله بين أبهاء (١)
ليشهدوا موكب الصيد الأهراء
مقاتن المز زغار بأصداء
مشمرين إلى عز وعليا
تسبح الله صبيحا بين قورا
مفجرا بين أنحاء وأرجاء
نور التحرر من عسف الأنحاء
سهلا بكل فقى - للمز - مشاء
تم عن عزة - في الروح - شماء
كبت النفوس وأشرىد الآلباء
ولم يناموا على ضمير وإغضاء
وروعوا أ كبد الزرق الآلداء
المز التليد بلا مظل وإبطاء
جيوش مفتصب في يوم هيجاء
(عبد الكريم) بأساد أشداء
درسا تشامخ عن طيش وأهواء
كفاحهم بين خضراء وجدباء
فوق الخنائل لحناً بين غناء
تبعثرت بين أوباء وأدواء
من ذمة الغرب في ديجور ظلواء
في جانب المجد أرهاط الأهلأ
بكل مستأنس - للوت - هداء

(١) الأبهاء : جمع بهو وهنا كناية عن القصور والابنية الفخمة

والموت أول فصل في عروبتنا
الموت فلسفة الايمان ينشده الـ
ذل الاذلون في ملهى الخنى وغدوا
المنرقون الوضيعون الالى وردوا
في (الكادلاك) مع العليجان رائد هم
باعوا الديار وما فيها لشهوتهم
يختال (قوادهم) تيه على الوطن
ولييا ما دهاها غير كارثة
أليس في (مصر) يمشى الظالمون على الـ
حر الجهاد وبذل الجهد من ملأ الـ
قراعن من رقيق الخائن مضموا
تعرم الكرب في الجنات مر تشفا
أيام (فاروق) أيام ملبدة
جريرة العصر فاروق الغشوم له
كم ثورة - أشعلتها مصر - صادقة
تفجرت بالدم الأزرى حقيقة تها
بكى على الوطن المظلوم مقتما
فسار بالشهداء الغائزين إلى
وأظهر الله في (دار الكنانة)
فوق الضفاف على (السودان) ألوية
يسمو عليها (الواء) المجتبي شرفا
وتنضوى تحته الأجداد زاخرة
ينساب حولهم النيل العزيز له
كانما هو يجرى في القلوب له
ماذا أحس ؟ . . . وقال الله خائنة

نلقيه درسا لآباء وأبناء (١)
فن الرفيع لتحرير وإحياء
عميد عبدان تهمل وأزياء
بين الصغار زعاق السقم والداء
أوهام كاس ، وقيثار ، وحمقاء
وعصموا الحيف في ريف ويبداء
المكروب في كذب القاب وأسماء
من لابسى الدجل تمويهالدى الرائي
أعناق ، مشى الأجاويد الأصحاء
أحرار ، أفضى أفاعيل الأرقاء
أنكى من السم في وادى الأحباء
دم الحياة ، وأجرى خبط عشواء
بظلة من لظى الويلات - سوداء
يصغى لى الكاس رهط شر اصغاء
من قبل جاءت (بزغلول وبناء) (١)
بكل مستشهد - للحق - بكاء
دمع العيون لإذكاء وإرواء
نار الختوف بلا تسويق إرجاء
للشعب الكريم زعيم الأسد لا الشاء
خضراء تنفخ عرا فوق خضراء
إلى المصب بإشراف ولآلاء
(بآدم) مشرق اللقيا و(سواء)
تهفو القلوب بميمون وحوراء
همس يعج بأنوار وأشذاء
يام مصر ! ترعاك أرواح الأخلاء

(١) ثورة عمر مختار البطل المغربى الشهيد ، وقد صارح الطليان صراعا تهفو له
نفوس الأحرار المغاوير .

(١) يريد بهما : سعد زغلول ، وحسين البنا .

لاني أرى في ظلال الخصب ناخسة
 لاني أرى السم لافازت ثعابه
 قد يفسر الداء إن لم يحقوا سحراً
 أذئاب مستعمري الأوطان قيمتهم
 يسرون للشر في جنح الظلام كما
 ماتت ضماثر . سحقاً الآلى مردوا
 يا مصر يا مصر سيري للملاخبيها
 وأول الوهن وهن الغافلين عن
 واحسرتاه ألم تقدم حجافلنا
 تبر اليهود ، وخوان ، وقارعة
 فنحن ، لاهم ، أحلنا ربنا غبراً
 سرنا على الطوع منا في صمناثرنا
 يا لعنة الدين والدنيا ألا انحدرى
 الأبرياء يذيب الهلك أ كبدهم
 كانوا أعزاء في أوطانهم وخذوا
 والسكاد حون بأغلال منضدة
 يارب عيسى ومغنى الفاتحين أرى
 لسوف توفد حرب لا نظير لها
 تأتي اليهود بتحريق وصاعقة
 لاني أرى في ضمير الغيب في هجر
 قبراً يضم يهود الأرض أجمعهم
 من الغرابة حتما أن نرى ملا
 غادون في حلال الديبا ج يسعفهم
 قال هلك (بنى صهيون) شمت له
 فما لقيناه درس في مرابعنا
 لينفض العرب بالسماح حسمهم
 وليسمعوا القدر السارى يعلمهم

من الجواسيس في ألوان حرباء
 يسرى خفياً بأرباب وأحياء
 على المباقرة النطس الأطباء
 صفراء تبر أنت من كف يرصاء
 تسرى الخبالات في أفكار عيلاء
 على النفاق بأوعار وبطحاء
 واستنضى الروح في شوق وإثماء
 - الربيع الشهيد : بتبديد وإقصاء
 يوم الجهاد على منهاج أخطاء
 من السياسات ، زجته بضرأ
 جهماء تأتي سراعاً بعد جهماء
 وسار من حولنا أطياف أرباء
 على الآلى أرمقوا المنفى بشكراء
 بين الفجاج بتجويع وإعراء
 في حماة الويل صرعى بين أتحاء
 ماضون في الرسف أسرى زمنى الداء
 فيك السلام معاداً بعد نكباء
 تأتي بدهية لاؤم دهباء
 من الدمار على الأوغاد - هوجاء
 العظام ، قبر آدوين القدس تلقائى
 في مريض الصمت موسوماً بأسواء
 الرهط اللثيم على أكناف فيحاء
 من جانب الغرب إمداد لإلحاء
 وميض برق هجيب بين أنواء
 ألقته أقدارنا من بعد إلقاء
 هذا الشقاق سرى بين الأشقاء
 علماً من الغيب تمنى خير نساء

إن لم يعوا فلهم رب يعاملهم
 الله يعلم ما تخفى ضمائرهم
 جهل، وفقير، وأستقام تعيث دجى
 تنخب في الظلم الدخياء (١) كاشحة
 إن الملوك بما ليك لشهوتهم
 لم تجدهم من صروف الدهر وعظة
 تغشى الانام بأقدار متنوعة
 أما ترى وطن البنزين كيف هوى
 ماذا أفاد الرعاة الشوس قومهم
 ران الخول بأبناء الجزيرة في
 هذى الدويلات لأعلم يسدها
 لاهون في غفلة كبرى على ترف
 مصفدون بعجب في مخائيلهم
 يبعثون كنوز الشعب في سفه
 ويدعون هوى الإسلام، حسبهم
 أين المروءات تصيينا منقحة
 أين المعاهد الإسلام مشرقة
 أين المصانع تدوى بالحديد لها
 أين التحرر من وهن ومن خور
 مضى الطويل طويل العمر حيث مضى
 غدا يتوج فينا بعده ملك
 هذى الجماهير تأتيه فتشده
 أقول : ماذا برى الخلق مدحهم
 أم جرجروا خلق الاسال واتجمعوا
 برحمة منه في عفو وإعفاء
 يا ويح من ضل يبغى ظهر عنقاء
 بكل نفس . عن الايمان - صماء
 بليلة - في خمار اللهو - حمراء
 ودون أن يخشعوا أشواك كاداء
 تمر في كل حين ذات أطواء
 مواعظيين ما وعر ومرداء (٢)
 في قبضة الجبل قهرا ، بعد إزراء
 هل أموا المجد حرا بعد تهواء (٣)
 أعضاءهم خدر في قلب صحراء
 إلى السمو ولا أجماد أكفاء
 وآخرون على نيران بأساء
 سكر الجود لدى مدح وإطراء
 من اللذائذ ، في حازات صهباء
 هذا الهراء بهذا المهمة الثنائى
 لعزة - فى سبيل المجد - عصماء
 تموج بالخير فى يمن وإرواء
 صنائع ذات إخراج وإنداء
 فى مشرق بالعلم وضاء
 إلى الخلود بكف جهد عزلاء
 رهن التقاليد لا سيرا بسمحاء
 من للفهايات مدحا قصد إسداء
 أحبروا النصيح فى أبيات غراء
 وعر الخسار لا حشاء وأمعاء

(١) الدخياء : الادخنة المتراكبة المظلمة

(٢) المرداء : الارض الرملية لآماء فيها ولا شجر

(٣) التهواء : الطائفة من الليل .

ما في الجزيرة في ربع السكنوز سوى
 ما في الجزيرة إلا كل نطفة
 رأيتها - ورأيت البائسين هم
 وقاحة في علالي الموسرين لها
 صفاقة في رحاب المالكين لها
 لم يتبعوا أمرهم شوري ولم يدعوا
 تمشي العروبة بالأسبال كاسفة
 بغداد تبكي على الأطلال نائمة
 وذى دمشق حماها الله من نوب
 وفي الخليج تؤدي كل ماكرة
 قتائل من خيوط الغاصبين ومن
 أعيد قومي وأهل من زخارفها
 وكان ما كان بما ظل في صف
 قصائد في رحاب النور خالدة
 حوادث تلقى جرسها علنا
 يستلهم الشعراء السائحون بها
 ويسبح الفكر في لججها شغفا
 وتطمئن قلوب بين أضلعها
 سور من النور بالأرواح ملتئم
 ما قيمة الشعر في أسى بلاغته
 ما قيمة الشعر إن لم يتخذ مثلا
 فلتشدون أناشيدى لمكرمة
 هذى خلاصة ما في النفس من شجن
 إلى همام بأرض النيل أبعثها
 أتت مفيضه الآمال عازقة
 بدو بجياح وخرارز ونواء (١)
 تحكي الانانية الشوها - شنعاء
 ما بين أنياب تنين ورقطاء
 جهر الذبول على أجزاء أشلاء
 على المساكين نيران الأثخساء
 للمعوز المتردى فضل إعطاء
 حزينه الروح من يخل الأشحاء
 بكاء تكلى بالأم وأرزاء
 بكل شهيم من الإذلال مستاء
 فروضها على كتمان وإخفاء
 صافاهم نسجت أبراد إغواء
 أعيد رائداهم من رأى خرقاء
 - التاريخ على لتحرير وشداء
 يشدو بها ثغر صنديد وغيداء
 غنى بها للتسامى قلب حذاء
 شعر الحياة بانشاء وإملاء
 بالمبقرية يجلو خير أنباء
 بالآمن راضية من بعد لاواء
 دوينه اتهاوى كل منوضاء
 إن لم يجر لانهاض وإعلاء
 عليا لتحرير حق بعد إغواء
 تلقى الحقائق بيضا بعد إلغاء
 جاءت كتر جميع قرى وورقاء
 من غير ما كلفة أو صنع إشداء (٢)
 عن الضنى بين إصباح وإمساء

(١) النواء : الذي يبيع نوى التمر

(٢) الإشداء : الإجداء في الغناء .

حسبي بأن يتلقى شذوها كرمًا قلب المفضل بين الروع والماء
إلى (الحفاجي) عطري الأريج رنت إلى مآثره العظمى بنجلاء
الأروع الروع الباري يراعه لخدمة العلم في أكتاف شجراء
في مصر صرح المعالي عزطارقها بحمية بالمغاوير الألباء
تحيتي ماصفا ليل الشتاء وما تلالاً النجم في أقطار زرقاء
تهدي إلى مصر مغنى الثاثرين على بجمالة من حمى الذوبان ، جهلاء
وقد ترجم الأستاذ أحمد الشرباصي في كتابه « أيام الكويت ، للشاعر ترجمة
طويلة (١) ، ذكر فيها هجرته إلى جاوة ورحلاته في البلاد الإسلامية ، وحياته في
وطنه وكثيراً من شعره .

ويقول عنه : إنه يحب المتنبي ، وشوقي ، وعلى محمود طه ، ومحمد مهدي الجواهري ،
والرافعي ، والعقاد والمازني ، من بين الأدباء والشعراء .
وقد أسعدني الحظ بكتابة رسالة إلى الشاعر ، فتلقيت منه بعد حين ردا عليها ،
لا أجد مفرا من تسجيله هنا ، لما يتضمنه من إلمام بدواوين الشاعر ، ولما يبدو فيه
من صور أدبية تزيدنا معرفة به ، وهو هذا الرد الذي أرخ في اليوم العاشر من
ربيع الثاني عام ١٣٧٣ :

حسبي بأنك في الظلام أغثتني برسالة قدسية الأشداء
سيدي : بعيد صلاة العشاء كنت قد تلوت سورة الرحمن وسورا أخرى ، بنغم
ذاب به قلبي ذوبان اللجين ، فغفوت غفوة أليفت لي بها كؤوس من النور فسكرت
ثم سكرت ، فاذا الصحو يفعم كل جارحة من جوارحي ، فلم أنهض إلا والنشوة في
أقصى عنفوانها ، وقت في أعماق الدجى أناجي رب الكائنات ، فانهمر الدمع
كالسيل الزخار ، فرجعت مع القافلة أتلو كلماتك الحلوة . . يا سيدي : تناولت
قلبي والليل والسحاب والنجوم في صراع ، وأهلي وأطفالي حولي كلهم يعبون من
كؤوس الأحلام ! فالليل هاديء ساج ، والسكون يرخم أغرودته الخالدة ، وقلبي
يخفق ويتوثب ويسير ثم يسير . . . إلى أين أيها القلب الشجي . . إلى أين أيتها
الروح الحائرة . . إلى أين أيها الفكر السخى السمع ؟ . إلى أين يا شاعر الحزن
والآسى ؟ . إلى أين أيتها العرائس الراقصة الوهلي في حدائق السكون الخفية . .
أيتها الأرواح المقدسة الطاهرة من وضر الهون والذل والجول . .

إليك ياسيدى زففت عروسى (مع القافلة) معطارة الأريج ، نائرة الروح
موهبة الفؤاد ، فاذا بك القلب الكبير الحنون ، وإذا بنفسك السامية السكرى
برحيق الحق والحب والجمال تنفخنى بنفحة من سلاقة الحب الخالد . . أيتها الروح
المحب العزيزة . . ها أنا ذا أناجيك من أعماق الدجى ، أنت فى مصر وأنا فى
الكويت فى الصحراء .

هذه رسالتى أبعثها إليك من أعماق الظلام ، ومن مراتب الظلام ، ومن
صحراء الظلام :

إيه دنيا مالى بها من نديم غير روح يرى وراء السديم
هائما منشدا نشيد النعيم كلما ازداد عشقه زاد فنا

وهذه ياسيدى دواوينى الشعرية التى نظمتها :

١ - الموازين وقد تم طبعه عام ١٩٥٣ بالقاهرة

٢ - الملاحم العربية

٣ - ديوان رحيق الأرواح

٤ - ديوان الينابيع ، وقد فقدنى دار رسالة (الزبات) وعندى منه بعض القصائد

٥ - المنابر وهو موجود عندى لم ينسخ بعد

٦ - ديوان أحلام الخليج وهو منسوخ كامل عندى

٧ - ديوان الأشواق وكله عند الأستاذ الشرباصى فى مجلدين وعندى منه نسخة

مبيضة

٨ - ديوان الأقاليم

٩ - قصائد مفرقة لم تجمع بعد وهى (ديوان الصباح)

١٠ - ديوان صغير اسمه (أغاني الحمى)

ودونك ياسيدى ابن أخى السيد عبيد الله زكريا الأنصارى ، فليديه الكثير

من شعرى والكثير جدا . عنده ديوان الملاحم العربية الجريئة وفى أوله تلك
المرثية أى رثاء الديوان نفسه .

وعندك الأستاذ الشرباصى ، فعنده لى ديوان كامل وهو ديوان « الأشواق » ،

وفيه الكثير من قصائد شتى .

وها أنا ذا أبعث اليكم سيدى بأربعة أجزاء من ديوان رحيق الأرواح ،

وهي : « المعصرات » ، « البرزخ » ، « البروج » ، « قيثاره الخلود » وسأبعث اليكم

شيدي بالأجزاء الثلاثة الأخيرة بعد أن يتم نسخها وهي : المرايا ، الغياهب ، الشريط ، .. وأحب ديوان إلى من شعري هو ديوان رحيق الأرواح ، لأنني كتبت به بدم قلبي ولم أتقيد بالعروض والقوافي ، لم أتقيد بشيء حيث الروح منطلقة في فضاء الله اللانهائي . . .

هذا نوع من الشعر الروحي المحض لعل أبناء العروبة لم يعرفوه . . . هذا كنز من كنوز الروح أقدمه بين يديك ، وقد كتبت في أيام محن لو نزلت على الحديد لأذابته .

ولي شعر كثير ضائع ، فقد مني في أيام الحرب في اندونيسيا ، وفي أيام الثورة بعضه فقد وضاع ، وبعضه أحرقته خوفاً من تفتيش الاستعمار .

* * *

ويقول الشاعر محمود شوقي عبد الله الايوبى (١) يشرح رسالة الدين في الشعوب :

ما الدين إلا السعى في طلب العلا	مقرونة بالله دون تردد
ما الدين إلا أن ترى لك رايـة	خفاقة في كل فج أبعد
ما الدين إلا أن ترى لك قوة	تسمو على هام السـمـاك الأـوحد
ما الدين إلا أن ترى لك أمة	مرهوبة يخشى حـامـها المعتدى
أرأيت ديناً في الوجود شعاره	دين الحياة ؟ . . فذاك دين محمد

ويقول يبين رأيه في فلسفة السعادة :

ضل من رام في الخطام هـناء	فارغاً من جمال حلو المعاني
إن هذا الكون الجميل يحيي	كل حي في كل حين وآن
مشرق ضاحك المحيا بشوش	يبعث الصوت مطرباً بالأغاني
كم رأينا بين القصور أناسا	رهن عيش مؤجج النيران
صاح نقب عن السعادة بين - الر	وح - والمقل - باحثا - والجنان
فاذا لم تفر بها بين هذى	فابحث عن كون - ان اسطعت ثاني
كيف تبكى والطبيعة صوت	عبقري السرور عذب المثاني
واهنن للحياة سلم عليها	بجميل الرجاء يوم الرهان
ثم حاول ما اسطعت جهداً بأن لا	ترك النفس طعمة الاشجان

إن أسنى الغايات عندى نعيم خالد مشرق الضياء غير فاني
فتقرب اليه في فكرة الروح لعمر من بعد موتك ثاني
ويشرح حقيقة القدر في فلسفة ، وإيمان قوى ، فيقول :

قف عند حدك لا تحسأ ول كشف أسرار القدر
مهما سميت فلن تنسأ ل سوى العماية والكدر
ذا باب غيب مطلق ضلت به كل الفكر
سسواك ربك عاقلا وحباك سمعك والبصر
فاذا دهيت بنسكة فابحث وقل في الأمر سر
وإذا أصابك نعمة فمن العزيز المقتدر
قد يتسلى البر التقي وينعم الطاغى الأشر
ولعل أسباب المصائب من أثامك في العمر
ارجع لنفسك وانها فالخطب منها منحدر
وتأدبن يا من يلوم الدهر فكر واعتبر
قف ذاكرأ ودع المباحث حول أسرار القدر ،

ويتحدث عن جمال النظام في الحياة في فلسفة جميلة ، فيقول :

كل شيء في السكون حتى يفنى كلم الصخر - صاح - والرمل حتى
تلك تنبيك عن معان جسام اصغ للحن تابعا كل الحن
رسخ الصوت في الجماد وغنى بنشيد المصور في كل وزن
عجبا .. هل نظرت هذى الدرارى ساجحات تهجرى بدون تان
زاخرات - ولا تصادم حيث الـ جاذب فيها ؛ والجذب أول عون
فقوام الحياة في السكون طرا بالنظام المعجيب ، بالحق ، مبنى
وأساس النظام في الناس هذا الـ مقل إن حاز فضل علم وفن
فساد النظام جهل وشر إن جهل الورى ضياع لآمن

ويرى أن للثورة جمالا ، فيشرح ذلك ، ويقول في ديوانه ، الموازين ، :

رسف الحق بأثقال القيود في حى الهون وأهلوه رقود
وإذا ما الساعة الكبرى أتت زلزلت من صرخة الحق النجود
فتثور الأسد في أدغالها بزئير يمسلا الدنيا رعود
لأن بطش الحق جبار فيا ويح أهل الجور من قتك مهيد

أورة الفكر وسام مشرق فوق صدر المجد في الجيش المجيد
ويذكر جمال السلم ويتحدث عنه ، فيقول :

لاسلم في السلم مادامت أبالسة الـ	ورى تعيث فسادا في حى الوطن
لاسلم مادامت الأخلاق فاجرة	تسيل حمانها بالفسق والفتن
لاشئ أجمل في الدنيا وزخرفها	من زينة السلم فى بحبوحة الدمن
بالدين والعلم والعقل السليم نرى	مباهج السلم بين المربع الحسن
وإن تضعضعت الأركان أربعة	أنذرني الأرض بالآفات والإحن

ويومىء إلى جمال الصراحة ، ويرى أنها عماد القوة ، فيقول :

صرح بقولك سرا	للحق فأنصر	وجهرأ
وإن رأيت ازوراراً	بين العباد	وكبرا
بأدر لكبح جراح الـ	بغاة لا تخش	ضرا
الحق يعلو إذا لم	ترد بفعلك	نخرا

ويذكر جمال الوقت ، فى حكمة أخاذا ، فيقول :

قل فى الحكمة ، إن الوقت من	ذهب ، لكن بهذى لا أدين
إن هذا العمر محدود فهل	يرجع اللحظة تبر . العالمين
إنما الوقت وعاء العمر فى	هذه الدنيا ، فما تغنى الميون ؟ .
حسرتا للوقت إن ضاع سدى	خيبة العمر ، وخسر العالمين
إنما اللحظة عمر واحد	فاذا ضاعت فقد ضاعت سنين
إنما الوقت كسيف صارم	إن تغافلتي برى منك الوتين
فاقتل الوقت بما يغنيك من	كسب خير ينفع العمر الثمين
قسم الوقت لساعات بها	تطمئن النفس فى كل الشؤون

وللنوم جمال فى رأى الشاعر ، ومن ثم يتحدث عنه فقال :

أشعل المصباح فالظلمة قد	فتحت للناس باب الملعب
سهروا جهلا بملهاة الخنى	بين عزف ساخر أو مشرب
ثم روالطرف من كأس الكرى	وتلذذ بالرحيق الأعذب
بكرن فى النوم وانهمض سحرا	وإلى ربك بأدر وارهب

- ٢٨٤ -

ودع الأغرار صرعى كلهم جيف السهد يلهو مسكرب
نعمة النوم بأعماق الدجى وإذا ماست ذكاه فانصب
ويذكر جمال العبرة وعظائنها ، فيقول :

آيات ربك بينات والدهر نخذ هذا وهات
هذا وليد قد أتى وأبوه صار إلى رفات
هذا يروح وذا ينحى والعمر بينهما فوات
هذا يزف إلى العرو س وذا إلى الأرض الموات
أنعم بشخص حازم منع الهوى عنه المعطات
نظر الحياة بمجهر عجب أراه المعجزات
فخطا هريثا للعلا والمجد في حال النجاة
إن الزهادة في هرو ر العيش معنى للحياة
أقدم هديت مبادراً للصالحات الباقيات

ويشرح جمال الطمانينة ، ويتحدث عنها في قوله :

واجه ظروف العيش بمما نوعت بدوء بال لا بطيش الآحق
فالعيش إما فرحة أو ترحة والمرء بينهما بأخرج مازق
قد يسلب الفرح الشديد حجا الفقى ويحمن من ترح فؤاد الأشرق
غافل كلاً الحالين حتى ينتهى تأير ماتلق بعقل مشرق
كن مطمئن البال عند حلول ما يأتي بحال مفرح أو مقلق
والحزم أن تأتى أمورك هادئاً من دون ماقلق بعقل مطلق
واستسهل الأهوال عند نزولها ببصيرة وتأمل وتألق
واعلم بأنك دائماً فى هذه الدنيا رهين توجع وتهمرق
فإذا أردت العيش حلوا دائماً فلقد بعدت عن اللذيد الشيق

ويفيض فى جمال الشباب شارحاً ومعللاً وذاكراً ، فيقول :

جل مشواك يا حياة الشباب يعشق العيش فيك بين الرحاب
مرح دائم بعزة مغنى وجهال بين الربا والشهاب
منعة المجد للرباع ترجى من شباب مثقف باللباب
ويخوض الأهوال خوفاً بوجه مشرق لايهاب شم الصعاب
فهو كالسكوكب البديع بريقاً وهو فى الحرب شعلة كالشهاب
وهو فى الدين راهب وبفن الـ ميس غيث يدر در الحلاب

وإذا ما هوى الشباب بسوء الـ خالق بشر بلاده بالخراب
وربيع العمر القصير شباب ضاحك الزهر أو عبوس الجنباب
فانتهر لحظة الربيع ففيها يضحك القلب للآمانى العذاب

هذه مقتطفات قليلة من شعر الأيوبي الشاعر ، كما يجالوه لنا ديوانه « الموازين »
الممتع ، وإنه من حظ الأدب العربي أن يصدر ديوان « الموازين » (١) ، صورة واضحة
لشاعرية موهوبة مطبوعة ، وعنواناً كريماً على نهضة الأدب والشعر في الكويت
العربية الفتية ، العريضة على كل إنسان يعيش في بلاد العروبة كافة ، ويزيد من أهمية
هذا الديوان أنه أضخم مجموعة تنشر من الشعر الكويتي الحديث ، فلمؤرخ والدارس
للأدب العربي المعاصر في الكويت لاغنى له عن قراءة هذا الديوان ، ودراسة مؤلفه
الشاعر محمود شوقي عبد الله الأيوبي .

وتستمد شاعرية الأيوبي عناصرها من ميراث عربي عريق في العروبة والبيان ،
تلقاه الشاعر عن آباءه وأسلافه ، ثم من حياته العربية التي قضى شطراً كبيراً منها في
جزيرة العرب متنقلاً بين الكويت والبحرين ونجد ، بما طبعه على البيان ، وفطره على
الشعر ، ومنحه مواهب جليلة من البلاغة الأدبية . . ويضاف إلى ذلك ملكات شعرية
صافية صفاء السماء الزرقاء ، عميقة عمق البحر الزاخر ، وقراءات مستمرة في مصادر
أدبنا العربي القديم وخاصة كتاب الأغاني لأبي الفرج .

وقد أكسبته رحلاته العديدة في العراق ومصر والشام وإيران ، ثم حياته نحواً
من عشرين عاماً في أندونيسيا ، عمقاً في التجربة ، وخصباً في الخيال ، ودقة في
الشعور ، وتحدد في الاحساس الغنى المتصل بينا يبع الإلهام الشعري الخالد ، وقد
قرأ الشاعر لأعلام الأدب القديم والحديث على السواء . . ويبدو في شعره أثر المتنبي
وإقبال وشوقي من بين الشعراء خاصة .

وللشاعر نحو من عشرة دواوين لاتزال مخطوطة ، من بينها : « ديوان رحيق
الأرواح » ، و « ديوان الأشواق » ، و « ديوان أحلام الخليج » : وله العديد من
القصائد التي تنشر في شتى الصحف والمجالات الأدبية في الكويت والعراق
وسوريا ومصر .

وجانب الفلسفة والحكمة في ديوانه « الموازين » أظهر من جوانب الغناء والفن
وطيوف الخيال ، وأعتقد أن أثر (إقبال) في هذا الديوان أكثر من أثر سواء
من الشعراء .

وشاعرية الأيوبي الثرة تجمع بين التفكير العميق والارتجال في نظم الشعر ،
وهذه موهبة يندر وجودها بين الكثير من الشعراء . ويظهر في شعر الأيوبي روح
الطبع أكثر من روح الصنعة ، فهو يكره التنقيح والتأنيب وتكلف التجويد الفني
المتعمد ، كراهته للأغراب والحوشية والابتذال .
والأيوبي شخصية أدبية متميزة السمات والخيوط والألوان . . إنه ليس مقلداً ،
وإن تأثر ببعض الشعراء ، تأثر الشاعر بالشاعر .
وقل أن تجد شاعرا يصدر ديوانا ضحكا ، ويقفه كله على الحكم والتأمل ، كالفعل
الأيوبي الشاعر ، ولا بأس أن تنقل لك صورا شعرية أخرى من هذا الديوان .
يتحدث الشاعر عن جمال الشورى ، فيقول :

تحميا المراجع بالدهاة الكمل	من مارسوا في الدهر حل المشكل
فالقوم هم وقفوا لتعزيز الحمى	بالعلم وافتة عابد متبتل
يفدون بالأرواح أمتهم إذا	بليت بخطب من قضاء مرسل
يأتون للشورى ثبات كلهم	روح تدرع بالولاء الأجهل
يتداولون الرأي على محبة	والكل يرجو عصمة للوئل
فكبيرهم كصغيرهم والفخر لا	رأي السيد ولو أتى من مهمل
فبنعمة الشورى يتم العدل في الـ	مفتى ويسمو الأمن بين النزل
فلسكم رأينا من شعوب مزقت	بضميف رأي المستبد الأجهل

ويتحدث الشاعر عن جمال الشعور ، فيقول :

تلوت قصيدة الروح المنير	فهزت للجمال ضحى شعورى
رأيت اللطف ينبوعا غزيرا	يسيل من الحجاب الخصب الكبير
به من شملة الحسنى ضياء	يفيض الأئس سيال السرور
يحيا فيه تبسم الأمانى	فتصبو نحوه مهج البدور
ألا هذب شعورك مستدرا	له أرج السكال من الزهور
وكن كالورد روحاً فيك أنس	مثار الكبير وللصغير
شعور المرء يسمو إن تزيلا	فتقى بالصبر والملم الغزير
وينمو بالصحاب إذا تغذوا	بخلق الحق في المفتى الطهور
ويزكو بالتفكر فى الدارى	وبين النبع والروض التنوير
ويشرق بالتقى فى كل وقت	وبالتفكير فى خلق القدير
فطاهر ما استطعت الحسن تسل	بمطاف اليتيم أو الفقير

ويذكر جمال الفقر ، في فلسفة وحكمة فيقول :

الفقر فقر النفس لا فقر الحطام هذا القياس الحق ما بين الكرام
إن القناعة والرضا كنزان لا يعروهما مس الفناء لدى الهمام
لم في الدنا بين الورى نظرية بجمالها لم ألق جوعاً أو أوام
لا أطمعن بمال غيري ، أو أرى في الفقر عيباً ، لا ألوم ولا ألام

ويرى الشاعر جمال الفرح ، ويتحدث عنه فيقول :

حى الحياة برائع الأفراح وتجنبن مواطن الاثراح
واصدح كقمرى الصباح مبكراً مترنماً بالواحد الفتحاح
فالحزم أن تلقى المصائب باسماً متحلياً بالصبر كل صباح
وتأملن مفكراً كى لا ترى عند المصائب ككريشة بريح
روض فؤادك بالحقائق واحبه حذب التجميل دائماً لنجاح
ونخلاصة الفرح السعيد بكل ما يرضى الإله بفعلك الوضاح
وعلى هذا النمط من الحكم العالية ، والآداب الرفيعة ، يمضى الشاعر فى ديوانه ،
الذى هو بحق « لزوميات » العصر الحديث . . .

ومن شعر الشاعر فى غير ديوانه « الموازين » قصيدته « شعلة الوطن » ، وفيها يقول :

كل شيء فيه الحياة تدب كل شيء ، من الحياة يعب
كل شيء أنواره تشادى فيغنى لها ، فؤاد ولب
أى خير فى أمة لم يطرز فى حماها ، للعلم والمجد ثوب
أى خير فى أمة تخفض الحر وتعلو من بين جنبيه ذئب
بين قلب (المعلم) المرح القلا ب ، وبين الحياة رحم وحب
وكأنى به وقد لقف النو ر وأسرى به إلى المجد ركب
هو فى الأرض بائس تنقيه كل نفس لها من اللؤم صخب
يتسامى بالبؤس حتى كأنه روح فيه لبرزخ النور جذب
ملك طائر يسبح فى الجو ويهفو إلى المعالى ويصبو
فارغ من حطامه فى عذاب كلها اكتظ جيبه انشق جيب
عشق الحق والجمال وغنى بنشيد أنواره ليس تنجو
وترقى يسقى الشبيبة علماً فيه يرقى شعب إذا ذل شعب
يارسول الحياة بشراك صبراً لك صرح فى جنة العز رحب

لك في جنة المرائس لمن مسكر في مسارح المجد وطب
 حصبتك الظنون في الناس ولكن سوف ياتي لها من العلم حصب
 سر بركب الحياة وانثر على النش اريج الهدى تنشيك سحب
 يا فتى العلم . . . أيها الملك الحي ام ، نقب ، ماشدت فالعلم حصب
 ودع الناس في التراب عليهم من معاني التراب في الربيع نسكب
 قد حملت الأعباء حتى رآك - الدهر تمشي إلى العلا وتخب
 أنا أدري بما تعانيه من قد قوة عيش فيه البلايا تدب
 أنا أدري بما بنفسك من حز ن فصبراً حتى يوافيك إرب
 سوف تلقى بعد الجهاد ماثرا لجمال الهدى ، ويحمد غيب

ويقول من قصيدته : الليلة الخالدة :

المسجد الأقصى يئن بلهفة تدع الحليم أمامها منحيرا
 إن كان ثم عروبة فلم الردي يمتال ما بين النفوس مكشرا ؟
 أو سكان دين يلقوى هذه ذكرى توثب من أفاق وسعرا
 أو كان خاق حسبنا من آسه شيم تعطر بالاشدى من بكرا
 أو كان حب للربوع فسكلنا في حب ربيع العرب لن تنأخرا
 إن السكويت من العروبة دوسة عذراء من إسلامها لن تدبرا
 فلم التخرص والشقاق ألم تروا أمأ عثي فيها الشقاق وخسرا ؟
 مدوا اليدين إلى اليمين وأدلجوا فاليل ليل والردي لمن افترى
 وتذكروا في ليلة (الاسراء) قد فاز الذي نحو التراحم قد جرى
 ربوا بآيات الوفاق قلوبكم وابنوا لكم يحيى الوفاق معسكرا
 وطن العروبة واحد وبنوه في عرف الحقيقة أمة لن تشكرا
 فأومسة وأبوة وعمومة ونخوة أضحى جميعا عنصرا

ويقول الأستاذ علي زكريا الأنصاري من دراسة له عن الديوان نشرت في

مجلة البعثة :

إن القاريء لابد أن يلاحظ هذه القدرة المعجبة - التي ينفرد بها شاعرنا الصوفي - على نسيان وجوده وكيانه لحظة من الزمان ، والانتقال إلى فردوسه الروحي حتى لكانه استحال إلى جزء صغير صغير ، من وجود وكيان هذا السكون الكبير الكبير ، هذه القدرة المعجبة التي لا تقف عند حد الحواس من بصروسمع وشم ، ولكنها تخترق

الحجب والأستار وهي غارقة في لجة الذهول ، ترى عجائب العالم الباقي الخفية التي يكل الخيال عن تصورها ويعجز التعبير عن وصفها . . . إنه البحث عن الحقيقة . . . لا الحقيقة الجزئية القريبة التي يحددها العلم بمقاييسه الجافة الناقصة ، ولكن الحقيقة الكبرى ، الحقيقة الكاملة ، الحقيقة المجردة ، التي تتركز في الفضيلة أو الجمال أو الله . . .

أنا ملهوف وملهوف وبني ظمأ للحق قاسٍ مورا . . . (١)
هو نائر للحق في الأكوان ينكر كل آثم (٢)
فوق الدار في السماوات العلى بالحق هائم

والطريق الوحيد الذي قد يعين الشاعر على تحقيق هذه الرغبة الشديدة الملحة في ارتياد الحق هو هذا الطريق . . . طريق التصوف . . . حيث تنام الحواس ، وتيقظ الروح ، وتتجلى الحقائق . . . فهل استطاع أن يطغى غليل هذه الرغبة المتمكنة في ارتياد الحق ؟ هل عثر على الحقيقة الكبرى ؟ . . . لنقرأ إذن « بدر السحر » التي تبدى في تصوير أطياف جميلة مثلت لروحه في الأحلام . . . ثم يتملبل من نومه ، ويطير السكري عن أجفانه ، وينذهله سحر البدر - في سكون الليل - وهو يسبح في قبته ، في بحر من نور ، فتتمثل له الآية الكبرى . . . وهذه هي القصيدة الخالدة :

ليلة ذقت بها عذب السكري	بعد لأي ولأحلامى سرى
جال روحى في ميادين الرؤى	فاذا بالروض مسكى الثرى
روضة وردية مسكية	نشرت في مرج روحى عنبرا
نشر النور عليها برده	بشعاع جاء سحراً مسفرا
فتجلى عن معانى ناهد	سكب الحسن عليها أسطرا
فرايت الحسن في آياته	لم يكيف بخيال أو يرى
ورأيت اللو في شيطانه	يقلب الظلة نوراً مفترى
ورأيت الجمل تمثالا به	من جمال الحسن قبح مزدرى
ورأيت الحكمة الكبرى لها	هيكل تحميه آساد الشرى
ورأيت الآية الكبرى لدى	آية الليل وقد ولى السكري

فتملكت وللإنعام في الـ جسم من روحي هيام سحرا
 فأسالى الهدير من لفته لفؤادى طيف أنس حبرا
 عبر الرؤيا بأحلى نغمة جعلتني نحوها مستشعرا
 أى سحر ياترى هذا الذى حل في روحي دجى مزدخرا
 آه يا هذا الذى خلق في الـ قبة الخضراء سحرى المرا
 أكفرت الحق؟ حاشاك ، فذى آية الشكر تغنى للورى
 أنت موسيقى ذكاء في الدنا جرسها العشق يمتاز الذى
 لم تزل تعكس الطاف الذى كون الابداع لطفاً مسكراً
 أسكرتني منك أنعام الهوى قهلت لها مستبشرا
 لم يسعنى غير نطق واحد من صميم الروح حلو قد جرى
 قلت: الله .. لدى هذا السنى فنقرفت وقلبي كبرا

رأيت؟ إنه لم يكده يقترب من الحقيقة الكبرى حتى يملأ الخشوع وتستولى عليه
 الرهبة ، ويرجع طرف روحه كليلاً حسيراً ولا يملك إلا أن يصبح من الأعماق :
 قلت الله ؟ ... لدى هذا السنا .. ولنض في تتبع بقية الآيات التي تصور هذه
 التجربة الروحية ، فإذا حدث له بعد ذلك ؟ ..

أنا أحسست بكلى هجمة كنت فيها وفؤادى زججرا
 وما دام ذكر الإحساس قد جرى على لسان الشاعر ، فإن معنى ذلك أنه عاد إلى
 عالمنا الأرضي ، بعد أن زال الذهول ، فاستمع إليه يصور أحاسيسه ونحوها طره ..

أيها الجاذب سخنى سحراً واحبني الجذب العظيم الأكبر
 أيها الجبار في عليائه جبرك اللهم قلبي كسراً
 أنا ملهوف وملهوف وبى ظمناً للحق قاس مورا
 أنت لاتعقل يا بدر السما ما بروحي منك في هذا الثرى
 غير أن الله قد أسبغ في جرمك الشكر الجليل الأعطرا
 ليت شعري هل رأيت الناس في بردك السحرى حيا مبصرا

والحياة المبصرة التي يشير إليها الشاعر هنا هي التي لاتعنيها الظواهر التي يصفها
 العلم من جبال وبراكين الخ .. الخ .. ولكنها الحياة الحققة ، اوسر الحياة الذي
 قصرت العقول في تفسيره ومعرفة كنهه ، لا لأنه ليس حقاً وإنما بهرود وهم باطل أم

زخرف خيال شاطح ، ولكن لأنه حقيقة بعيدة لانهاية لا يستطيع العقل العاجز أن
يسبر غورها ولو كان في قدرته أن يخترع القنبلة الذرية أو القنبلة الإيدروجينية ..
فوجودها إذن حق لامراء فيه ومعانيها تنطق حتى في أتفه الأشياء وأصغر أمور
هذه الحياة الفانية لأولى الأبواب .. إنها سر الحياة ، فهل هناك من ينكر بأن
للحياة سر آ ؟ :

فهرست الكتاب السابع

٢٠٧	مدرسة أبولو
٢١٥	الشعر السوداني المعاصر
٢٣٨	على الجارم
٢٤٣	أحمد الزين
٢٥٠	شاعر من السودان
٥٢٧	قصة شاعر
٢٦٠	القومية في شعر ناجي
٢٦٥	أدب ناجي
٢٦٧	نكبة فلسطين
٢٦٩	شاعر من صنف بردى
٢٧٣	شاعر من الكويت

دراسات نقدية

— ٢٩٣ —

— ١ —

رائد الشعر الحديث

دراسة للأستاذ أبو الوفا التفتازاني :

تقتضى دراسة أدبنا المعاصر أن يقف الباحث عند أهم الشخصيات التي ظهرت ولا تزال تظهر على مسرح الحياة الأدبية ، ليسجل نشاطها ومدى مشاركتها في النهضة الأدبية المعاصرة ، وليقدم عنها صورة آحية متعددة ، تكشف لنا عن جوانب هذه النهضة.

وقد لا يجد الباحث مادة دراسته لشخصية ما في سهولة ويسر ، فكثير من الشخصيات الأدبية المعاصرة قد يتسرب النسيان إليها وإلى ما خلفت من آثار ، لأن يد المؤرخ لا تسرع بتسجيل تاريخ حياتها ، ثم لا يعنى أحد بعد ذلك بجمع آثارها وتراثها الأدبي ، نثراً كان أم شعراً ، وفي هذا ظلم لهذه الشخصيات وللتاريخ معا .

لذلك سررنا حين أقدم الأستاذ الأديب محمد عبد المنعم خفاجي على دراسة منهجية لأحد كبار شعرائنا المعاصرين ، وأعنى به « الدكتور أحمد زكي أبوشادي » ، فقدم لنا كتابه « رائد الشعر الحديث » عن هذا الشاعر الكبير ، فأ نصف بذلك أدبنا المعاصر ، وقدم لمن يأتي بعد ذلك مادة سائغة للدراسة ، وكشف لنا بعد هذا وذاك عن شخصية كان لها ، ولا يزال ، أثر بعيد في الشعر العربي المعاصر.

والمواقف في هذا الكتاب يعرض لنا صوراً عامة عن أبي شادي ، فن كلام عن تاريخ حياته ، إلى كلام عن دعوته التجديدية ، إلى دراسة تحليلية عميقة لشعره ومذهبه ، ثم إلى دراسة لمذاهبه الفكرية والاجتماعية ، وهلم جرا . . . ، فالكتاب يعد بحق موسوعة شاملة عن أبي شادي للشاعر المصري المعاصر .

وعمل جليل كهذا ، يقدمه في تواضع جم الأستاذ خفاجي ، لا بد وأن يكون ثمرة مجهود متواصل شاق . أضف إلى ذلك أن التأريخ لأديب معاصر لا يزال على قيد الحياة ليس بالشئ الهين اليسير ، فالمؤرخ لا يأمن من أن يتأثر : بطريق مباشر أو غير مباشر ، بمن يؤرخ له ، بمعنى أن يجد في نفسه حرجاً في كثير من الأحيان حين ينتقد أو يعرض آراءه بصراحة تامة فيمن يعرض له بالتأريخ ، وقد يقوده هذا - على الرغم منه - إلى استرضاء من يؤرخ له على حساب الدراسة العلمية ، وهذا يعني

من الناحية المنهجية أن تكون هناك عوامل ذاتية تفسد عمل الباحث ما ينبغي لدراسته من موضوعية خالصة ..

ولكن الأستاذ خفاجي .. والحق يقال .. قد اصطنع لنفسه منهجاً علياً بالمعنى الصحيح ، أبان عنه حين قال في مقدمة بحثه : .. ولكنني صممت على كتابة هذه الدراسة ، وأنا أعتقد أني سأعرض لأرهاق غير يسير ، ولنغضب كبير من الدكتور نفسه ، ولكنني مؤمن بأنني لن أبعد عن الحقيقة فيما أكتب ، وأنني أخط خطوياً عامة يسير عليها من يأتي بعدي من الباحثين ، وبأنني لا أعتد على نفسي فيما أكتب ، فأنا أرجع إلى أبي شادي نفسه ، وإلى النقاد الذين نقدهم وإلى الآراء الكثيرة الذائعة في بيتنا الأدبية عنه ، وإلى أصدقاء الدكتور أيضاً أستمع بهم وأخذ عنهم (ص ٤ — ٥)

ونجده كذلك يقول في ختام كتابه عن منهجه أيضاً مانعه : .. وفي هذه الترجمة عن أبي شادي بالذات كنت حريصاً على البعد من كل المؤثرات النفسية والخارجية ، ذلك أن الشاعر يعيش خارج وطنه ، وليس لي مأرب شخصي من الكتابة عنه ، ولم أكتب هذا البحث لأرضاء أحد ، وإنما كتبت خدمة للبحث الأدبي الحر . والحقيقة وحدها دون أي اعتبار ، وأنا لا يعني أن أرضى أبا شادي ، وإنما الذي يعني هو إرضاء الحقائق الأدبية والتاريخ الفكري المعاصر ، (ص ٢٧٧ — ٢٧٨)

وليس أدل كذلك على أن المؤلف لم يسكن رائده من هذا البحث إلا الحقيقة التي تقصد لذاتها ، من أنه عرض للمؤلف بالنقد في كثير من المواضع ، وقد قال : .. ولا يصيرنا في هذا البحث أن نتناول أدب وشعر أبي شادي بالنقد ، لنحق المعرفة علينا أكبر من كل حق ، (ص ٢) .. وحسبنا أن تشير بهذا الصدد إلى دراسة الأستاذ المؤلف لشعر الشاعر ، وما تضمنته هذه الدراسة من نقد لمنهج أبي شادي وبيان لأخطائه الفنية في شعره ، ومخالفته لمذهبه الفني في الشعر ونظم القصيدة ، ومعارضة المؤلف له ، وما إلى ذلك من ضروب النقد الأدبي النزيه التي أظهرنا عليها المؤلف (ص ٢٦٢ من الكتاب وما بعدها) .

ودراسة تصطنع منهجاً كهذا هي دراسة عليية بالمعنى الصحيح ، ولا تهدف إلا إلى الوصول إلى الحقيقة دون أي اعتبار آخر .

هذا من ناحية المنهج الذي سار عليه الأستاذ المؤلف ، أما من ناحية الموضوع ، فإننا نعتقد أن الأستاذ خفاجي ، حين جمل من أبي شادي موضوعاً لدراسته ، قد

قدم من غير شك لدارسى الأدب المصرى المعاصر صورة سوية عن شاعر له مكانته الممتازة ، وعن صاحب مدرسة من أهم مدارس الشعر العربى الحديث ، وعن أستاذ من أساتذة الجيل تخرج على يديه فريق من الشعراء الموهوبين حين أتاح لهم فرصة إظهار مواهبهم على صفحات مجلته « أبولو » . فإذا كان ذلك كذلك فليس غريباً إذن أن يقترن اسم أبى شادى بالنهضة الأدبية المعاصرة ، وأن يرتبط اسمه بالتجديد فى الشعر المصرى الحديث .

ولكن بما يؤسف له أنه على الرغم من مكانة أبى شادى الأدبية ، فقد كثير من أبنائه وتلاميذه عن تسجيل مآثره والإشادة بفضله ومكانته ، فلم يتناولوا تاريخ حياته بالتسجيل ، ولم يعمدوا إلى آثاره بالدراسة والتحليل ، وفى هذا ظلم لأبى شادى وللتاريخ معا .

إلا أن الله سبحانه أراد أن يخرج الأستاذ خفاجى لقراء العربية عملاً جليلاً عن أبى شادى « رائد الشعر الحديث » ، فكان هذا العمل وضعاً للأمور فى نصابها ، وكان إلى جانب هذا آية من آيات الوفاء ، لا لأبى شادى الشاعر فحسب ، ولكن لأدبنا المعاصر .

وفى كتاب « رائد الشعر الحديث » يقدم لنا الأستاذ المؤلف صوراً مختلفة للشاعر : فيتحدث أولاً عن كيفية معرفته للشاعر ، ثم يعطينا فكرة واضحة عن كتابه من حيث موضوعه ومنهجه ، ثم يعرض بعد ذلك صورته الأولى التى رسمها للشاعر من خلال إنتاجه ودواوينه الشعرية ، وفى هذه الصورة يقدم لنا المؤلف تصنيفاً له قيمته لدواوين الشاعر وكتبه العلمية ، وقيمة هذه الكتب وتلك الدواوين .

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الصورة الثانية للشاعر من خلال حياته : فهو يدرس بيئة الشاعر الأدبية الأولى ، وميلاد الشاعر ونشأته ، والعوامل المختلفة التى كونت شاعريته ، وصلته بغيره من الشعراء ؛ ثم ماتعاقب على الشاعر من أحداث كان لها أثرها فى نفسه ، إلى غير ذلك من مكونات شخصية الشاعر .

وفى هذه الصورة الثانية أيضاً يتحدث الأستاذ المؤلف عن مجلة « أبولو » الشعرية ، وكيف كان الجو الأدبى فى مصر قبل ظهورها مقفراً من كل حركة ونشاط ، وأن أكثر المجلات الأدبية التى ظهرت قبلها كانت تحترف الأدب ، ولم يكن هناك مدرسة أدبية لها مبادئ معروفة فى الأدب والنقد ، حتى ظهرت هذه المجلة التى خص بها الدكتور أبو شادى الشعر فكانت الأولى من نوعها فى العالم العربى ، كما كانت

لسان حال جمعية « أبولو » التي كان هدفها السمو بالشعر العربي ، وتوجيه جهود الشعر توجيهاً شريفاً ، وترقية مستوى الشعر أدبياً واجتماعياً ومادياً ، ومناصرة النهضات الفنية في عالم الشعر

وفي الصورة الثالثة التي يعرضها المؤلف ، نراه يقدم إلينا الروايات من الدراسات النقدية المذهبية:

فهو يدرس مذهب الشاعر في الشعر ، وآراءه في النقد ، وطبقة الشاعر ، ومنزله بين المجددين والمحافظين ، وآراء بعض النقاد فيه ، واختلاف أدواقهم فيه ، وحرية الشاعر الفنية ، وفطنته بالمعاني ، وتقده الاجتماعي ، ثم يقدم لنا بعد هذا كله صورة عقلية من شعره ، إلى غير ذلك من ألوان الدراسات العميقة

ثم يقدم لنا المؤلف صورة رابعة للشاعر من خلال دعوته للتجديد والإصلاح في الأدب ، فيتحدث فيها عن الإخلاص في الأدب ، وخدمة الفكرة السامية التي لا يبلغ نضوج الأديب إلا بأن يستوحى دائماً ، ودعوة الشاعر إلى الأخاء الأدبي ، ودفاعه عن ديمقراطية الأدب ، وإيمانه بوحدة الأدب ، واهتمامه بإحياء التراث الأدبي ، وآرائه في التجربة الشعرية ، والتجديد في الشعر

ثم ينتقل المؤلف إلى رسم صورة خامسة للشاعر من خلال آرائه في الحياة والثقافة فيعرض آراء أبي شادي ونظرياته في شئون الدين والفكر والثقافة والاجتماع ، وما إلى ذلك مما يكون فلسفته في الحياة ، والمؤلف في هذه الصورة التي يرسمها للشاعر إنما يتناول أطرافاً من هذه الآراء والدعوات التي لم تنشر بعد

ويظهرنا الأستاذ خفاً في هذه الصورة أيضاً على أن أبا شادي كان داعية للتأخي الثقافي ، وداعية للمدالة الاجتماعية ، والحرية الفكرية ، وبين لنا آراءه في المرأة وحقوقها السياسية ، وفي العلم والدين ، وآراءه الأخلاقية في السلوك الاجتماعي السليم .

وفي الصورة السادسة من كتاب « رائد الشعر الحديث » يسوق إلينا المؤلف موضوعات شتى ، منها دراسة أبي شادي للأدب والشعر ، ورأيه في الأدب المعاصر ، ورأيه في الأدب المصري القديم ، وآراءه في شوقي ومطران وغيرهما من الشعراء المعاصرين ، وآراءه في الشعر المجازي والتجديد فيه ، وإيمانه بوجوب البحث الأدبي الجديد لخير الشرق ونهضته ، وجمهورية الأدب ، ثم نرى بعد هذا حديثاً عن الأدب المهجري وخصائصه في رأي الشاعر .

ويختتم المؤلف كتابه بصورة سابعة وأخيرة للشاعر أبي شادي ، ضمنها الروايات

مختلفة من شعره ، وقد أحسن صنماً بتقديمها للقارىء ، كما أنه كتب فصلاً شائقاً عن فن الشاعر الأدبي ، كما يبدو من خلال قصيدة للشاعر بعنوان «تونس الثائرة» ، نظمها بمناسبة الثورة على الاستعمار في تونس الشقيقة ، وهي بما نظمها الشاعر أخيراً ، ولقد درس المؤلف هذه القصيدة دراسة مستفيضة ، وتناول في دراسته تلك شاعرية الشاعر ومنهجه الفني ، وأخطائه الفنية ، وعرض لموضوع القصيدة ، وأغراضها الشعرية ، ووحدها ، ثم درس أبياتها دراسة تفصيلية وذلك من الناحيتين البلاغية واللغوية ، وهي دراسة لم يحاب فيها المؤلف الشاعر في شيء فجاءت دليلاً على ما أصطنعه من منهج علمي دقيق ، ثم ختم المؤلف هذه الصورة الأخيرة بكلامه عن الشاعر والشعر القومي .

كل هذه الصور التي قدمها المؤلف ، والتي يتألف من مجموعها كتابه : رائد الشعر الحديث ، أدلة حق وشواهد صدق على مبلغ ما بذل من جهد ، وما وفق في الوصول إليه من نتائج علمية لها خطرها وأثرها في دراسة أدبنا المعاصر .

ولما نرجو أن يمدنا الأستاذ المؤلف بين حين وآخر بمزيد من دراساته الأدبية العلمية ، التي كرس حياته لها ، والتي يخدم بها أدبنا العربي أجل الخدمات .

تحليل الأستاذ روكسى :

الأستاذ الخفاجي نشاط دائم ، وقلبه المتمر لا يعرف الملل ، ومن روائحه الخالدة حقاً كتاب اليوم «رائد الشعر الحديث» ، الكتاب الذي ظهرت فيه آيات الصدق والوفاء والانصاف العلمي ، لبطل من أبطالنا الذين عرف العرب قدرهم ، ونحن نحاول غمط حقهم وانكار فضائلهم جاهدين ، هو الدكتور أحمد زكي «أبي شادي» ، فقد تناول فيه حياته وكتبه العلمية ، ومجالاته وقصصه ومسرحياته ، وذكر حياته في أميركة وعناية أميركة بأدبه وبآثاره .

ثم تعرض لاثري خليل مطران في الشعر ، مستشهداً بما يقوله الدكتور نفسه : «ويشرفني أن أكون موضع اهتمامك ولو أني لا أتجاوز منزلة تلميذ من تلاميذ مطران شاعر العربية الابتداعى الأول مهما أقدمت وجددت بعد ذلك» .

يذكر هجرة الدكتور وأسبابها ، ومذهبه في الشعر ، وطبقته في الشعراء ، واختلاف الأذواق في شعره ، ويثبت مختارات من شعره تتم على ذوق مذهب زاق ، وعلى أصالة في النقد ، كما تدل هذه المختارات على منزلة الشاعر العالية ، وعلى رسالته

الأدبية والقومية ، فلقد قام بالأمانة خير قيام وهو يترجم لإحساساته وإحساسات شعبه .

والكتاب جملة معلة طريفة ، وهو خير ما يرجع إليه في البحث عن نواحي شاعرية الدكتور أبو شادي ، واني لوائق بأن كل من أراد أن يؤلف شيئا يخص الدكتور أحمد زكي أبو شادي لابد له من الرجوع إلى كتاب الأستاذ العلامة ، محمد عبد المنعم خفاجي ، : « رائد الشعر الحديث » ، للإفادة منه ، وبما يزيد في قيمة الكتاب أن المؤلف مخلص في أقواله أمين في أساسه كل الأمانة ، فهو لا يذكر رأيا إلا عززه بسنده ومرجعه الأمر الذي لا تبعده إلا عند الثقات من العلماء ، والخفاجي واحد منهم ، تلك الفئة التي تجردت للعلم ، وتطوعت لخدمة الحق ، فريد يهملها إلا العلم والحق وذلك بما يزيد في قيمة الكتاب وفي نفاسته ، لأنه جاء طبيعيا لا أثر فيه للتكلف ، يتم على خصب الأستاذ الخفاجي ، وعلى طواعية العلم لقلبه .

ولو كان لنا أن نقترح لاقتراحنا على المعارف المصرية أن تشتري نسخ هذا الكتاب وتوزعها على خزائن الكتب العامة والخاصة بمدارسها للإفادة من هذا السفر النفيس أما الأستاذ خفاجي فن حقه على مصر أن يشجع قلبه على الإنتاج فهو مهمة لا تقتر ، وعبقريه تستحق التحية والتهنئة .

دراسة للأستاذ أنور الجندي :

عندما يكتب الصديق ، مثل هذا الكتاب الذي أخرجه الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي عن الدكتور أبو شادي ، يقول الناس صديق أعجب بصديقه ، أما إذا جاء هذا المؤلف الذي لم ير الدكتور أبو شادي ، ولم يتصل به ، ولم يزر ندوة أبولو ، أو يحظى بقليل أو كثير من صلات الود أو التعارف مع الشاعر الكبير ، ثم يكتب عنه هذا الكتاب ، معتمدا على معلومات وآراء وصور جمعها من أصدقائه ومعارفه وعلى قصائده وكتبه ومؤلفاته ، فذلك هو الإيمان بالشاعر ، ذلك هو الأدب المجرد الخالص الذي لا تشوبه شائبة .

و « الشاعر » في هذا الكتاب الذي بلغ نيفا وثلاثمائة صفحة واضح الصورة في جده ولهوه ، وشبابه وشيخوخته ، وفنونه المختلفة في الشعر والطلب والنحل والنقد ، والحق أن تاريخ « أبي شادي » حافل وطويل ، وبعيد الجذور ، فهو ممتد منذ سنة ١٩٢٢ عندما عاد الشاعر إلى مصر وقد فقد أوراقه وأشعاره التي دونها خلال إقامة بلفست هشر سنين في إنجلترا ، فقد طفا نهر التايمز على مكتبته وأوراقه وما أنقذ منها صادرة

البوليس السياسى فى مصر عند عودته إليها .

ومنذ ذلك التاريخ والشاعر ينتج ويكتب فى غزارة وفى قوة ، ويراسل المجلات وينشئ الجمعيات .. والشاعر وفى لمطران . لا ينسى يذكره وينذكره فضلته الأدبى عليه . وتمتد حياة الشاعر ، حتى ينشئ « أبولو » فتجتمع حيثئذ لفيضا من الأدباء الشبان ، الذين هم الآن من شعراء مصر الواضحين .

ويمضى الشاعر فى جهاده إلى ١٤ أبريل ١٩٤٦ عندما يسافر إلى أمريكا مهاجرا ، ويظل هناك حتى يومنا هذا .

ومنذ أن وصل الشاعر إلى أمريكا وهو دائب العمل فى سبيل الشرق ، وفى سبيل الأدب ، وفى سبيل مصر ، وقد اشترك فى نشاط المهاجرين العرب اشتراكا فعالا ، وأسس رابطة منيرفا الشعرية ، وما زال يواصل دراساته وأبحاثه فى مختلف المجالات العربية والاذاعة هناك .

وقد فصل الأستاذ عبد المنعم خفاجى هذه الحياة الطويلة العامرة على أساس على ، من غير أن يجعل لعاطفته وحبه للشاعر أثرا فى تكوينها ، فكشف عن عبقرية ضخمة ، وشاعرية قوية ، وصور كفاح الشاعر مع المحافظين ، ونضاله مع الرجعيين .

وقدم صورا متعددة تصور مذهب الشاعر وفنه وآراءه .

ولا شك أن « كتاب رائد الشعر الحديث » خليف بآن يرضى القارىء الأديب ، فهو قد تناول - حين تناول تاريخ أبى شادى - الكثير عن الشعر العربى المعاصر منذ فجر ثورة ١٩١٩ حتى اليوم ، ولذلك فإن الأستاذ خفاجى خليف بالتهنئة والتقدير

كلمات أخرى :

١ - كتاب نقدى ضخيم ، فى ٣٢٠ صفحة من الحجم الكبير ، مؤلفه هو العلامة محمد عبد المنعم خفاجى الأستاذ فى كلية اللغة العربية ، وهو بحث مستفيض فى قصة الشعر الحديث وأعلامه ومذاهبه وحركات التجديد فيه ، وحياة الدكتور أحمد زكى أبو شادى وشاعريته وخصائص أدبه وآثاره فى النهضة الشعرية المعاصرة .

وقد ألفه المؤلف ببواعث أدبية شريفة ، حدث به إلى تصنيفه ، وهى أن يكون الحق الميزان الوحيد لمقاييس النقد ، ولا بد لنوره من أن يكتسح الظلمات ، ويظهر

الجو الأدبي من عوامل التزييف والتناقض ، تلك الأمور التي طالما أفسدت هلى الأديب الحق عمله فى إصلاح المجتمع الذى يعيش فيه .
وقد جاء الكتاب محققاً لتلك الآمال الغالية التى كثير آ ما جاشت بصدور المفكرين والأحرار ، وحالت الحوائل التى كانت قائمة وقتئذ دون الجهر بها وإخراجها إلى حيز الوجود ، إلى أن شاء الله ، لجعل تطهير الأدب ، بل المجتمع ، من تلك العلل ، على يدى المؤلف .

وفى كتابه هذا ، وما قام عليه من مثل العليا ، كل الكفاية للدلالة على أنه جهد به حقاً للأدب نهضته ، وحقق للأدباء الموهوبين مأمليهم العزيز ، فى تكافؤ الفرص وانفساح المجال أمامهم فى بلوغ الغاية التى يرومونها ، من إعلاء شأن أمتهم عن طريق الرسالة الأدبية .

ولئن قصر الجيل الحاضر فى إيفاء المؤلف حقه . شأنه فى ذلك شأنه مع جميع النوابغ ، الذين كرسوا جهودهم لخدمة الفكر والمجتمع ، فلسوف يذكره التاريخ والأجيال القادمة ، بما هو أهل له من الشكر والتقدير . . . كما أن جهده المضنى الذى بذله فى سبيل هذه الغاية الكبيرة لم يضع هباء ، بل سوف يجد فى راحة الضمير — على أن أدى واجبه كاملاً للأدب — خير الجزاء . . . وإنى لأقول للمؤلف ما يجب أن أقوله له :

جوامع من ثمين القول تثبتنا عن اللآلىء كم جالت بأذهان
نهضت فيها بأسلوب زواجره تروى المعاش وتروى قلب ظمان
بل رحت تنصف موهوباً وتدفعه إلى الأمام بدفعات لشجعان
فاهناً بما سطرت كفاك من درر فى كل سفر جليل ليس بالماني

عن مجلة — البعثة — من كلمة للشاعر : ب إبراهيم عوض

٢ — من أبرز وأشق مجهودات الأستاذ المفضل والمحقق الزيه محمد عبد المتعم خفاجى ، مجهوده الذى بذله فى إخراج كتاب « رائد الشعر الحديث » ، إذ من السهل — إلى حد ما — إخراج كتاب عن شاعر أو أديب أو قصاص توارى خلف التراب .
قد تطالع روحه — إن كانت أرواح الموتى تظل متصلة بالأحياء — ما يكتب عنه . .
ولكنه سيعنى الناقد من مواجهته بالشكر أو اللوم ، ومهما بلغ عمق استعداد القراء لانصاف الكاتب أو الناقد فإنهم لن يشعروا بما وراء الاحاسيس الأهيلة .

وأبو شادى خير مثل يقدم كرائد للشعر الحديث ، فهو بحق الشخصية الفذة الجديرة بالدراسة والكتابة ، وحياته بما فيها من تضحيات روحانية ، ومادية واقتمالات

شعرية وعقلية ، مجموعة اقاصيص لمجموعة رجال في قصة هذا الرجل . لذلك أحسن الكاتب في اختيار هذا الرائد . ومهمته كانت شاقة بلا ريب . لأن بطل قصته حي ومن حام حولهم واستشهد بهم أحياء ، فلو كانوا أمواتا لما بلغ ما بلغه ، وما سوف يبلغه من رضا أو غضب

بني أن تؤلّد للقراء أن كتاب - رائد الشعر الحديث أبو شادي - من أقوى مظاهر في التراجم الأدبية الحديثة ، فهو كما قلنا مجموعة قصص في قصة ومجموعة رجال في رجل . هو الدكتور الشاعر الملمم أحمد زكي أبو شادي - الأهداف عدد يونيو ١٩٥٣

٣ - نصف قرن يكاد ينقضي والشاعر القروي ينفت روحه ، في روح هذه الأمة المجاهدة الصابرة . نصف قرن والشاعر القروي يطلق زفرات قلبه ، وشظاياها أشعاراً وطنية خالدة اتهم من أجل بعضها بالكفر والإلحاد ، فماذا صنع له العرب ؟ لقد بلغ به العوز أن باع في يوم من أيام حاجته عوده ، الذي كان يلجأ إلى أناته ليشاطره أنات روحه وتأوهات قلبه الكبير ، فقدّر له بعض أنصار الفضيلة والخير من أبنائنا المقترين جهاده ، وجمعوا له مبلغاً من المال ساعده على طبع ديوانه في سفر نفيس ، نقلب صفحاته والإعجاب به يملأ أنفسنا ، والاعتزاز به ينطق قلبنا

وفي هذه اللحظة نذكر مع الشاعر القروي رجلاً آخر . جاء الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي أستاذ الأدب العربي في كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف يفيه بعض حقه الأدبي ، بأن كتب عليه الكتاب الذي عنوانه بـ « رائد الشعر الحديث » ، أعني بذلك الرجل الدكتور المجاهد بقلبه ولسانه أحمد زكي أبو شادي ، أستاذ الأدب العربي في معهد آسيا في نيويورك ، أبو شادي الذي لقي من العقوق والجحود والحرمان في بلاده ما لو منى به جبل لانهد ، وما لو أصيب به ولي من الأولياء لسكاد يفسكر في في سوء المصير ، ولسكاد يرجع من بعض الطريق .

هذان رجلان خالدان ترى ماذا صنعنا لهما ؟ والله لو أن نفقات ولية من هذه الولايات الصانحة الكاذبة نفقت في سبيل نشر مؤلفات هذين البطلين الخالدين ، لكانت كافية أن تضمن للأمة شرفاً ، ولشيخوخة الرجلين المجاهدين الرفاهية والاستقرار . لكننا أمة عقوف على كل ما فيها من عناصر الخير والنبل والفضيلة ، أمة يكاد يصدق فيها مع الأسف الشديد ما قاله الدكتور « شبلي شميل » لو علمت أن الشتيمة تنفعك لبخلت بها عليك . أمة لا يكاد يستيقظ ضميرها إلا بعد أن ترى أنهار الدماء ، وبعد

أن ترى المجاهدين من أبنائها يقومون صرعى في حومة الوضى ، وميادين الجهاد ، فتسرع إلى الولولة والنوح والتندب . وتكريم القبور يا كليل من الأزهار .

أنا لا أعجب إذا رأيت انصراف الكثيرين من أبناء هذه الأمة عن الميادين العامة وعن الخدمة المجاهدة الخاصة ، وهم يرون الحرمان يفتك بالمجاهدين المخلصين ، فماذا يتوقع الرجل بعد أن يرى أمثال القروى والدكتور أحمد زكى أبو شادى فى أيام الشيخوخة يخافان من الغد الظلم ، ويخافان على ذوب روحيهما من الضياع والتلف ، لعدم وجود المال لطبع ما انتجا ، وليس لهما فى الحياة إلا هذه السمعة المجيدة ، وهذا الصيت الأغر ، لكن القفص الذهبى والنفس الفضى لا يفتيان عن العصفور الجائع قليلاً ولا كثيراً

قرأت فى إحدى الصحف أنه تقرر فى مصر أن يمنح الأستاذ أحمد الريات مكافأة مالية محترمة ، فقلت : « الأستاذ الريات يستحق المكافأة » ، لكن أصبح أن مثل هذه المكافأة لم تكن ضرورية لرجل مثل الدكتور أحمد زكى أبو شادى أيضاً ؟ أنا أعتقد أنه ليس بن حملة الأقلام فى مصر من خدم بلاده فى كل ميدان من ميادين الحياة كما خدمها الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وإلى لوائق بأن مصر فى تاريخها المقبل ستشعر بالحنج إذا رأت أنها لم تنصف هذا العقل الجبار

بالأمس يصور أحد الرسامين أقواس النصر التى أقيمت بمناسبة الاحتفاء بتوقيع ملكة بريطانيا «اليزابث» ، فيمنح من أجل ذلك لقب سير ، وما يثلو هذا اللقب من تقدير مكافأة لفنه

ويسلخ الشاعر القروى من حياته نحو نصف قرن وهو يخدم أمته ، فلا يكافأ بلقب ولا بوسام ولا بهبة مالية

ويقضى الدكتور أحمد زكى نحو نصف قرن مجاهداً حائراً ، فلا تطيع مؤلفاته بنفقة وزارة المعارف ، ولا تشترك المفوضية المصرية فى تكريمه فى إبريل سنة ١٩٥٠ ، تنأى منها فى المقوق . حقاً إنها لفضيحة تدل على أن كل نبضة من نبضات ضمير الشرق تعطلت أو كادت ، إلا للبحاسيب

أما بن مصر البار الدكتور زكى أبو شادى فأعتقد أن خير مكافأة لجهاده و لجهوده فى سبيل سمعتها أن تتولى وزارة المعارف المصرية طبع آثاره بنفقتها الخاصة ، لأن فى ذلك تكفيراً عما لقي الرجل من سيئات العهد السابق ، وإبرازاً لحسنات العهد الجديد الذى أخشى أن يوصم بما وصمت به اليهود السابقة من حقوق ، مادام مصرضاً عن

البررة من أبنائه إلى الآن ، إنها نقشة مصدور نزيحها عن صدورنا أوحى بها إلينا :
ديوان الشاعر القروي ، ورائد الشعر الحديث ، روكس بن زائد العزيزي . . .

مذاهب الأدب

دراسة ونقد للدكتور الكبير أحمد زكي أبي شادي :

من الكتب ما يسد فراغاً ، ومنها ما هو تكرار وترديد ، ولنا في كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ العلامة محمد عبد المنعم خفاجي أستاذ الأدب العربي بالجامعة الأزهرية مثال للطراز الأول من التصانيف المفيدة ، فقد تحدث فيه عن مذاهب الأدب المقبولة لدى جبهة الأدباء العرب ، وعلى الأخص بالنسبة إلى الشعر ، وناقش هذه المذاهب مناقشة مستقلة حيناً ، ثم مطبقة على الإنتاج الشعري الحديث ، وعرض تراجم أدبية نافعة لشعراء معاصرين معروفين ، شملت : ناجي والتيجاني بشير وأبو القاسم الشابي والزهاوي والأشعر وحسن جاد وأحمد محرم وعلي محمود طه والصيرفي وعبد الله زكريا الانصاري ومحمد العامر الرميح ، وهذه عنايه يشكر عليها المؤلف أطيب الشكر ، كما يشكر على جمعه مواد عديدة للبحث كانت في حكم الضائعة ، وهو في هذا ينهج نهج السيوطي . . ويختتم كتابه بتعليقات قيمة على مواد هذا الكتاب وماشا كله من دراساته الأدبية ، أسهم فيها الاساتذة وديع فلسطين ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ومحمد رضوان أحمد ورضوان إبراهيم مصطفى .

وإذ يحدثنا المؤلف عن المذاهب الحديثة في الشعر يقتصر كلامه على المذهب الكلاسيكي والمذهب الرومانتيكي والمذهب الواقعي والمذهب الرمزي والمذهب السريالي والمذهب الوجودي ، ولكن ثمة مذاهب أخرى هامة جدية بالدرس والتحليل وضرب الأمثال لها ، وفي مقدمتها : المودرنزم ، والفوفزم ، والأورفزم ، والاستقبالية أو الفيوتشرزم ، والتجريدية أو الاستراكتزم . وقد تحدثنا من قبل عن المودرنزم والفوفزم في الأدب والفن ، وأتينا بمثال شعري عربي الصياغة لكل من المذهبين (١) ، وربما عالجنا المذاهب الأخرى المشار إليها في دراسات مستقلة مع نماذج شعرية لها ،

(١) مقدمة ديوان (من أناشيد الحياة) ومؤخرته - عام ١٩٥٣ م .

وقد أحسن الأستاذ السعرتي في تعقيبه النقدي البليغ بالتنبيه إلى التداخل في الأساليب الممثلة للذاهب الأدبية لدى كثيرين من الشعراء ، كما أحسن بالتعريف الأصح لهذه المذاهب ، وما نحن في أمريكا ذاتها المتفانية في الابتداع ، لازلنا نستقبل نماذج رائعة للشعر الكلاسيكي المجدد حتى من بعض شعراء الشباب ؛ ولعل ما قصد إليه الأستاذ خفاجي من اندثار الكلاسيكية في الغرب هو ما يقابل « البدوية » في شعرنا العربي ، تلك التي حاول أن يحياها في مصر محمد عبد المطلب وعبد الحكيم الجبني فلم يوفقا إلى ذلك ، على الرغم من شاعريتها المطبوعة ، وهو في هذا مصيب ، فالأساليب الحفرية لم يعد لها مجال في عالمنا الحاضر ، ثم إنه في حديثه عن الرومانتيكية قد يكون مصيباً في الاستشهاد ببعض الشعراء القدامى وابتداعيتهم لو أنه ذكر نماذج من شعرهم الوجداني الطليق على الرغم من تغلب الكلاسيكية عليهم ، حتى يستثير برأيه عامة القراء .

ومذكان كثيرون من الأدباء والمثاقدين لا يعرفون غير العربية ، فقد أحسن الأستاذ خفاجي بمراجعاته ومقارناته ونقده التي تناولت : الزعات الأدبية الحديثة ، وحركة التجديد في الشعر العربي المعاصر خاصة ، والشاعرية الملهمة وأثرها في التجديد الشعري ، ووجوب ملاءمة الشعر لحياتنا ، وحفظ الشعر من الخلود الفني ، وعمل الشاعر والناقد ، وكيف تنقد الشعر ، ومذاهب النقد ، والأسلوب وخصائصه ، وأهم المؤثرات في الأدب ، وعناصر الأثر الأدبي ، والدراسات الأدبية في القديم والحديث ، ومطراتنا ومذهبه في التجديد ، غير ما تناوله من الترجمة والنقد لطائفة من شعرائنا المعاصرين ، ووددنا لو كان بينهم بعض الشواعر النابهات مثيلات جميلة للعلايل ونازك الملائكة وقندوى طوقان ، وهذا ما نرجو أن نراه في أحد مؤلفاته المقبلة ، من حيث أن أفاق دراساته غير موقوفة على قطر بعينه .

ورعاية للدقة التي نعرف احترام مؤلفنا الجليل إياها نلاحظ أنه لا شأن بتاتنا لايليا أبي ماضى بالشعر المرسل الذي لم يمارسه يوماً ما ، فضلاً عن الشعر الحر ، كما لا شأن لخليل مطران بالشعر المرسل ولا الحر ولا بالشعر المتداخل أو المختلط الذين أدخلناهما في العربية منذ ثلاثين سنة ، ثم بجلارنا فيهما عدد من الشعراء فيما بعد ، وكان في مقدمتهم خليل شيبوب ، وهذه الضروب الثلاثة من النظم ليست من الكجاليات ، بل هي ضرورية في التأليف الدراي خاصة وفي التأليف القصصي والوصفي إلى حد كبير ، والشعر العربي هو الخامس ياهمالها ، لأنه بهذا الإهمال يحرم ذاته قوالب التعبير الكلامي أو السردى

الطبيعية والمتنوعة، حسب المواقف، والتي تداني النثر الفني، بينما تعلو عليه بموسيقاها المتعددة الألوان. ولا يمكن لأى ناقد أو أديب تجاهلها، فانها من الأسس القوية لشعر المستقبل (١)

ويرى المؤلف أن الحياة هدف الأدب، وأنه لا بد للشعر من مثالية لتكون له قيمة باقية. وهذا ما يدعو إلى التدقيق الشديد في التاريخ لهذه المثاليات، فكم من أدباء سلكوا سلوكاً منافياً للوطنية مثلاً، ثم راحوا ينشرون أو ينظمون ما يعد مواضيعاً إنشائية في باب الوطنية تضليلاً للجمهور، وجاء المؤرخون فيما بعد فاغترروا بالكلمة المكتوبة واكتفوا بها، وحسبنا أن نشير إلى على يوسف صنيعه الخديو عباس وقد ذاق الزعيم الوطني مصطفى كامل المر منهما، ومع ذلك يؤرخ له بعض الواهين أو المغرضين على أنه كان من أقطاب الوطنية المصرية، ومثال آخر، الشاعر ولي الدين يكن فقد كان من الأحرار الناقين على مظالم الاتراك، ولكنه في مصر كان شيئاً آخر إذ كان ضالماً مع الانجليز، وفي عهد الطغيان الغابر بمصر ابتليت البلاد وما تزال بطائفة من الأدباء الانتهازيين، ناشرين وناظمين، ومن كل صنف، كان همهم الجرى وراء رتبة أو وظيفة أو علاوة أو منفعة أخرى، وقد أنفقوا من أجل ذلك جهوداً كبيرة في استرضاء الحكام والتقرب إليهم، وفي تملق الأُمراء والباشاوات وغيرهم ممن نسكبت بهم البلاد، ثم يتظاهرون بعد ذلك بالوطنية الكلامية الجوفاء نثرًا ونظماً وهذا التاريخ أولى به من كانت حياتهم وأدبهم — لا أقوالهم أو بعضها فحسب — وطنية شريفة ناصعة فوق كل مساومة أمثال معروف الرصافي والجواهري وعمر وحافظ إبراهيم والسكاكي ورشيد سليم خوري والشاذي والصيرفي، وقد تحمل عدد منهم تنهجات جمّة في سبيل مبادئه من بينها النفي أو الاعتقال والخصاصة والتشريد لا كالأولئك الآكلين على كل مائدة، والمكتفين ذراً الرماد في عيون الجماهير بالتشديق بالأدب الوطني.

إن ارتباط الأدب بالحياة والمثالية الرفيعة ليس معناه السكفران بمذهب الأدب للأدب والفن للفن، كما أن هذه المثالية لا يمكن أن تخلق أدباً أوفناً عند غير ذي موهبة،

(١) مجلة صوت الشرق، عدد يناير سنة ١٩٥٤. ونلاحظ أن خليل مطران أنتج شعراً منشوراً، لا شعراً مرسلًا، أو شعراً حرّاً.

ولكن إذا اجتمع الأدب الرفيع والمثالية الرفيعة معاً في قرارة نفس نبيلة غيرة ،
تسبح هن كل ذلك أدب ممتاز ذو قيم خالدة .

ومن سنين بعيدة دارت معارك حول هذا الموضوع ، ولكنها في الحقيقة خلاف
على اتفاق - خلاف في النظرة واتفاق على تقديس الجمال حسب تقدير الناظر المعبر عنه
ومنذ فجر هذا القرن والنقد الأدبي الناصح يحفل أشد ما يحفل بالطاقة الفنية والأصالة
والابتداع ، وهي العناصر التقدمية التي دفعت بالأدب وبغير الأدب دائماً إلى الأمام ،
بل هي التي تمثل القوة العظيمة التي تزجي العالم إلى الأمام إتقاناً وتحميلاً وتلطيفاً ،
وهذا أمر لا جدال فيه كيفما قلبنا وجهات النظر علياً ودينياً وأديباً وفنياً الخ ، فمن
المغالطة لأنفسنا بعد ذلك أن نتوهم في الأسلوب مثلاً ما يغنى عن كل ما عداه من عناصر
السمو والتقدم ، ولتضرب بعض الأمثلة من الشعر المعاصر ذاته للتدليل على خلوه
الشعر الفني الأصيل ، مهما اختلفت موضوعاته ومذاهبه . فديوان (محمد الإسلام)
أو (الإلياذة الإسلامية) لأحمد محرم ذو طابع أصيل جداً متميز بتمده عاطفة متأججة
وثقافة إسلامية واسعة وشاعرية مطبوعة عظيمة وفن كلاسيكي قوي لا يجاري في عصرنا
هذا . فإذا انتقلنا إلى شاعر مسيحي كبير يمز مشاعره الموضوع ذاته وجدنا شعره
الأصيل المتميز هازاً للنفوس أعاداً بأصالة البديعة المشرقة . استمع إلى قوله :

من للزمان يمثل فضل (محمد)	وعدالة كمدالة (الخطاب)
رفع الرسول عماد أمة يعرب	وأعزها بالآل والأصحاب
خشت الفتوح وصفقت راياتها	في الشرق فوق أباطح ومضاب
وتغللت في الغرب طائفة على	أكتاف (صقر) جراح و (عقاب)
لولا تجلد (شرل مرتل) خيمت	في قلبه بسرادق وقباب
ولكان صار الغرب أندلساً به	(شوقي) يقول سواحراً وسواقي
سعى (الجزيرة) في مسارحها وما	في (الريف) من رى ومن إخصاب
واسمع - فديتك - نبرة مصرية	عربية في منطق غلاب
واستنشد (القرآن) قوما جودوا	منه بأي في النفوس عذاب
واقراً به فصحي اللغات مدلة	في المشرقين بجمهر الأحناب
أخذت (قریش) بجزلها وبكتبها	(غرناطة) في رقة وعتاب
لولا يد (الإسلام) لم تسلم بما	فيها من الأخلاق والآداب
ولو ارعوى من صددها زاهداً	متعللاً بمناصب الأسباب

من لم يضمن لغة الجهد ودفليس من قومية تنميه في الانساب
فاذا انتقلنا إلى بشاره الخورى وجدنا له روائع خلقتها أصالته الفنية الممتازة
نذكر منها على سبيل المثال قصائده « المسلول » و « رثاء جبران خليل جبران » و « على
ضفاف بردى » .

وهذه الأخيرة من شعره الغزلى الوصفى البديع ، وقد تناول فيها موضوعاً جده
مطروق ، ومع ذلك ارتفعت الحمية وأصالتها به ارتفاعاً مذهشاً ، حتى لنقرأ قصيدته
وكأنه غير مسبوق إليها إطلاقاً . استمع إلى هذا السحر الفريد :

فتن الجمال وثورة الأقداح	صبغت أساطير الهوى بجراحى
ولد الهوى والخنز ليلة مولدى	وسيحملان معى على الواحى
قد عشت بينهما على نغم الصبا	كفراشة علفت ندى أقاح
أشتف روحهما وأعطى مثلاً	روحاً وأسلم ليلتى لصباحى
للحب أكثرها ، وبعض كثيرها	لرقى الجمال ، وبعضها للراح
أنا لا أشيع بالدموع صبايتى	لكن ألف جناحها بجناحى
إلفان فى صيف الهوى وخريفه	عزاً على غير الزمان المساحى
دهنى وما زرع الزمان به فرق	ما كنت أدفن فى الثلوج صداحى
من كان من دنياه ينفض راحه	فأنا على دنياى أقبض راحى
إنى أفدى كل شمس أصيلة	حذر المغيب بألف شمس صباح
(بردى) نظمت لنا الزمان قصائداً	بيضاً وحمراً من ندى وصفاح
فى كل راية وكل حنية	عصماء تسطع بالشذا الفواح
كم وقفة لى فى ذراك وجولة	شعرية ، وهوى (الشأم) سلاحى
فديت ليلك والسكواكب فى يدي	ولثمت بدرك والضياء وشاحى
ليل حريرى النسيج كأنه	شكوى الهوى وصباية الملتاح
وعلى الضفاف إذا تموجت الضحى	لونان من أرج ومن تصداح
والنصن فى حوضن الرياض وسادة	نمت على عنقين من تفاح
متلازمين توجسا إثم الهوى	فتخوفا طرف الضحى اللباح
هل لى إلى تلك المناهل ربعة	فلقد سئمت الماء غير قراح
رجمى يعود بى الزمان كأنه	صهباء صارخة وليل صفاح

يا ذابح العنقود غضب كفه بدمائه بوركت من سفاح
 أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتاثوب الأقداح
 أدب الشراب إذا المدامة عربدت فى كأسها أن لا تكون الصاحى
 باكرتها والزهر يشرق بالندى فى قبة شم الأنوف صباح
 أهل الندى والبأس إن تنزل بهم تنزل على عرب هناك فصاح
 (الشام) منبهم ، وكم من كوكب هاد وكم من بلبل صداح
 وطن أعاد الخلد بعض فتونه وسقى المكارم فضلة الأقداح
 (لبنان) يا وله البيان إذا كر أم لست تذكر نيجدى وكفاحى؟
 قبلت باسمك كل جرح سائل ورزت بئدك عاليا فى الساح
 أنا إن حجبت فليس ذاك بضائرى وعلى الخواطر غدوتى ورواحى
 تتحجب الأرواح وهى خوالد وترى العيون زوائل الأشباح
 ولربما خدعتك صفحة هادىء منى ، وفى الأحشاء عصف رياح
 إنى إذا جنت رياح سفينى ذهب الجنون بحكمة الملاح
 ثم إذا انتقلنا إلى شاعر المهجر الأكر نسيب عريضة وجدنا له خوالد لامعة
 أبقتها مرددة ما فيها من لوعة وشاعرية وإنسانية منفردة ، وحسبنا من بينها قصيدته
 « يا نفس » التى يقول فى مطلعها :

يا نفس ، مالك والأتنين ؟ تأملين وتؤلمين ؟
 وقصيدته « ركب النفوس » ، وقصيدته « على قبرى » ، وقصيدته « ابن منى » ،
 التى تعد من أروع شعره الإنسانى .

فهؤلاء الشعراء - حتى فى الموضوعات المطروقة - تميزت أشعارهم لأنها جاءت
 مطبوعة بطابع شخصياتهم الفنية المتميزة المستكملة لعناصر الملوذ ، وليس مثلهم
 أولئك الذين ينظمون نكاكة فيسيثون إلى الألبصار والأسماع والأذهان بالقبح الفاتر
 من منظوماتهم التى لا تساند لها المواهب ولا حرارة الإيمان والعاطفة . وأمثال هذه
 المنظومات الغثة لأعدادها ، ويجب استثنائها من كتب المختارات الأدبية ، بل ومن
 المؤلفات النقدية فالأولى منها بالالتفات الإيجابي القصائد الرفيعة ذات القيم الباقية .
 يقول فرانثيسكو جبريل أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة روما (١) : « إن اللغة
 العربية - كاليونانية فى العصر الهليني ، وكاللاتينية فى الغرب الرومانى المسيحى - قد

(١) مجلة (المشرق) الإيطالية العربية ، روما ، العدد الأول ، السنة الأولى .

أصبحت لسان الثقافة لأقوام متعددة مندمجة في عقيدة واحدة ، وتنظمها ثقافة موحدة ، فاستعمل العربية أداة للكتابة الفرس والترك واليونان والقبط والآراميون والسريان إلى جانب العرب الخالص . وأصبحت عقيدة الإسلام تسمية مشتركة لجميع هذه الأقوام المختلفة ، وأصبحت اللغة العربية ترجعنا للتعبير ، ومن ثم فهي على هذا المداد ليست سوى ديباجة تنطوي تحتها مضامين ومحتويات من عديد المصادر المتفاوتة . وتصبح دراية المستعرب وسيلة لتفسير العالم الإسلامي وتمحيصه ، كما هي الغاية في علم الإسلاميات .. وقال أيضا : ولنا ، نحن الغربيين ، إذ نتناول الآداب العربية بالحكم والتقدير متزهين عن كل تعصب ، ولا حافز لنا سوى ظمأ البحث عن الحقيقة وحدها والافتتان بالجمال ، ليتجلى لنا أنه وإن كانت تلك الآداب لم تنشأ حق الآن ثمه ورائع كاملة خالدة على الإطلاق ، إلا أنها مع هذا حافلة بالطرائف الفنية والتاريخية الفريدة في نوعها وثرية بالحياة الفكرية الرفيعة ، وكثيرة الاختلاط بالمشربس أثر الحضارات . واللغة العربية هي التي صانت لنا التراث اليوناني أو جانباً منه على الأقل . وهي التي التمسها دين عالمي لتسكون لسانه الناطق . ومن جواهرها الغاليات صقل الشعر قصائده ، فهو تارة تتمشى فيه القوة والفحولة ، وطوراً يزهو في إهاب من الرقة والرشاقة . هي ما تزال تتداولها ألسنة فريق من شعوب قوية متوثبة ، كما كان شأنها في الشرق أيام القرون الوسطى . وهذا العالم يقدم كجائزة للباحث الذي كابد عناء فهم أسرار العربية . وكثيراً ما يساءلون المستعرب : أعسيرة هي اللغة العربية ؟ أجل إنها شاقة ، لالحروفها ، بل لانبساط مداهها في الزمان والمكان . فالتوافر عليها والتملؤ من غيرها يقتضى صديب العرق ، وانضالا لا يفتقر حتى بعد بذل عشرات السنين في الجهود . بيد أن ما يجنى من الأزهار والثمار خير عوض لما يصرف فيها من المشقة والعناء . وهو في موضع آخر من مقاله القيم ينوه بما كان للشعر العربي من التأثير والنفوذ على الآداب الغربية في القرون الوسطى ، وكذلك كان شأن القصص العربي ، ومنه قصة المعراج الإسلامية التي ربما انتهت إلى شعر دانتى عن طريق بعض الترجمات اللاتينية والفرنسية القديمة .

ولغة هذه منزلتها العالمية لا يجوز أن نفرط في حقوقها علينا وأن نقنع بإتقاننا الحاضر مباغين في تمجيده بدل زيادة تجويده ، متناسين المثاليات الرفيعة التي متى اقترنت بالفن الرفيع خلقت الآثار الخالدة التي تمتاز بها الآداب الغربية الحديثة ، والتي يجب أن نسايقها في مجالها إحساساً وتفسيراً وأسلوباً وغاية . وإذا كنا نحمد الأستاذ فخافجي

تتجلى هذه الاعتبارات الهامة فأملنا المثابرة على تدقيقه بل زيادته ، فإنه في منزلة الأستاذ المعلم الحصيف الواعي ، ولا أمل لنهضة الآداب العربية بغير هذه الدقة النقدية المرشدة التي أصبحت نادرة بيننا ، نكاد لا نجد لها إلا عند نفر ضئيل من النقاد المتسامين الفيورين أمثال السحرتي وطه حسين وسلامة موسى ومارون عبود وإبراهيم المصري وإسماعيل مظهر . وقد مر وقت في العهد البائد كان الأزهر معدوداً فيه رمز الجود والآن قد تبدل الحال في الأدب العربي على الأقل بدليل الآثار المصرية الممتعة التي يتحفنا بها أعلامه المستثيرون وفي طلبتهم الأستاذ خفاجي .

ننتقل بعد هذه النقطة الرئيسية الهامة إلى بعض نقاط أخرى نهينا إليها الأستاذ خفاجي بكتابه المفيد والأستاذ السحرتي بتعقيب السديد :

١ - فبدأ ، التجديد لا يتجزأ ، الذي يصر عليه الأستاذ السحرتي جدير باعتناق المؤلف إياه ، وهو هو الذي ارتضى رمزية بشرقارس على الرغم من تداخل أجزائها والتوائها وغموضها بحيث لا يلام من يرفضها مثالا للرمزية التي يقبلها الزمن الشعري السليم قياسا على رمزية ستيفن سبندر وقرلين ومالرميه وفاليري وأضربهم . فإذا أراد الأستاذ خفاجي أن يخدم الحركة التقدمية في الشعر كما نعلم أنه يريد ، وإنه لا أهل لهذه الخدمة ، فمن الضروري أن يروحن نفسه على الاهتمام القابل بأساليب النظم الجديدة التي أشرنا إليها آنفاً ، وإن يكن هو شاعراً غنائياً يتعلق بأساليب الشعر الغنائي وحده ، كما كان ولا يزال يصنع شعراؤنا الغنائيون وعلى رأسهم شوقي . ولكن الأستاذ خفاجي كناقذ ملزم إلزاماً باحترام أساليب الشعر المرسل والشعر الحر والشعر المتداخل أو المشترك ، والاهتمام بدرسها في العربية والمقارنة بينها وبين نظائرها في اللغات الأخرى الحية ، وأثر كل ذلك في خدمة الشعر ؛ والقول بأن شعراء الكلاسيكيين سابقا وحاضرا التزموا بحراً واحداً وأجادوا في التأليف الدرامي أو القصصي لا ينهض حجة على أن التشويح وإرسال الشاعر نفسه على بهيمتها في نظم الحوار أو الرواية لا يأتیان بما هو أجمل لقربه من الأساليب الطبيعية ، ولزيادة تمسكه من حرية التعبير

٢ - من الواجب دفعا للالتباس ومن أجل الانصاف التشويه بالشيخ نجيب الخداد رائداً للأدب الدرامي الشعري ، وأما إسهامنا الشخصى الرائد للشرح فقد كان في مجال الاوبرات (المعبرات) الشعرية ، وفي الروايات الرمزية والسريالية ومن رأينا زيادة الاهتمام بالشعر الرمزي لأنه عريق في العربية .

٣ - إن عدد الناطقين باللغة العربية في العالم يناهز خمسين مليون نسمة ، في حين

يتكلم بالإنجليزية مثلاً مائتان وخمسون مليون نسمة ، وسكان العالم يتكلمون نحو ثلاثة آلاف لغة . فإذا أردنا أن تكون للعربية مكانة مشرفة بين هذه اللغات وأن أن يقبل عليها أبناء الأمم الأخرى ، فن الواجب أن لانكتفى بجعلها لغة حية ، بل لابد من جعلها لغة ممتازة أيضاً في جميع أبواب الثقافة ، فتحشد فيها العلوم والآداب والفنون باستمرار على مستوى رفيع وتزدحم فيها آثار عبقریات شتى ، وتنشأ فيها جاذبيات جديدة علاوة على جاذبياتها القديمة . وسواء بعد ذلك أكتبت بالحروف العربية أم باللاتينية أم بغيرها ، فاللغة الأردنية - وحروفها بنت العربية - يتكلمها مائة وستون مليون شخص ، واللغة الصينية يتكلمها حوالي الأربعمائة والخمسين مليون نسمة وما تزال مستقبلية أجددتها الصعبة . ومن ثمة تقضى الغيرة على اللغة العربية برفع مستوى النقد الأدبي مساعدة على تجويد الانتاج الأدبي إلى أبعاد الغايات الممكنة ، دون أى تساهل أو مجاملة . والتساهل والمجاملة في النقد هما اللذان نزلا بمستوى الشعر المصري الحديث خاصة ، وما نزال حتى اليوم نقرأ العجب عن شعراء لارسالة لهم ولا حرارة في شعرهم تتم عن إخلاصهم ، إذ يوصفون بالطاقة الشعرية الممتازة ، والاصالة الفذة ، في حين أنهم غارقون إلى أذقانهم في السرقات المتنوعة وفي المحاكاة لمتقدميهم ومعاصريهم على السواء في العربية وغيرها ، وكل حظهم الايقاع الغنائى .. نسكتب هذه السطور وفي سماعنا ألحان رحمانينوف في (السكونشتر رقم ٢) وتمثل إلى جانبها جميع ذلك الشعر المفتعل ، وجميع الألحان العربية المنهوبة أو الملقوفة بخيوط العناكب ، كما تمثلناها من قبل إزاء آثار عالمية أخرى في الشعر والموسيقى ، فنهجب لغرور أبناء قومنا الذين لا يحسون بضعف مكاتتهم في عالم الادب والفن ، وقد جلبوا هذا الضعف لأنفسهم بتمائمهم عن الواقع الملوس ومجانيتهم عسلاج أنفسهم بأنفسهم :

٤ - يهنا الأستاذ خفاجي لما احتواه كتابه الجديد من صيحات واعية وملاحظات تقديمية نفيسة مثل فصوله عن الشاعرية الملهممة وأثرها في التجديد الشعري ، ووجوب ملائمة الشعر لحياتنا ، وكيف ننقد الشعر ، وأهم المؤثرات في الأدب ، وهى وغيرها زاخرة بموجبات كثيرة للتفكير والبحث الحر . ويهنا أن نقول إن المحسك الصحيح للطاقة الشعرية احتفاظ الشعر عند ترجمته إلى لغة أخرى بروعته الفنية من معان وأخيلة ومثالية لا تحتفى خلف رنين الالفاظ واللعب بها ، وهو شأن الشعراء المزمريين والصناعيين ..

دراسة للأستاذ روكس العزى :

في الوقت الذي تلتوى فيه مفاهيم الأدب ، وتهز مقوماته وقيمه ، وتكاد تنضج
 - في غمرة هذه الفوضى - الأحكام الصحيحة للنقد ، يظهر كتاب الأستاذ الفهامة محمد
 عبد المنعم الحفاجي ، أستاذ الأدب العربي في كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف ،
 والأستاذ الحفاجي واحد من هؤلاء الأفاضل الذين وقفوا على ماضي الأدب
 العربي وقوف فهم وتعمق دراسة ، ورافقوا بجديده فسكانوا من خيرة مجدديه ، لأن
 فكرته في التجديد فكرة نيرة حاذقة ، لذا جاءت أحكامه بحكمة تتميز بالعلمية ، فهو
 يجمع بين دقة العالم ، وصفاء ذهن الباحث وقدرة الكاتب المجيد وروح الشاعر المرهفة
 الحساسة ، يضاف إلى هذا أنه أستاذ في معهد كان وما زال أمينا على تراث هذه الأمة
 الأدبية والفكرية .

وبعد هذه الإمامة لا بد لي من الكلام على الكتاب نفسه فهو دراسة علمية عميقة
 لمذاهب الأدب ولا سيما الشعر ، فقد تناول الكتاب - بعد التصدير ودعوة الأدباء
 إلى الإيمان بالتجديد - تناول حركة التجديد في الشعر ، والنزعات الأدبية الجديدة
 الشعر المعاصر بين التجديد والتقليد ، لمحو التجديد في الشعر المعاصر ، المذاهب الحديثة
 في الشعر ، الشعرية وأثرها في التجديد ، ضرورة موافقة الشعر لحياتنا ، وقد حمل
 المؤلف الفاضل على الشعر الحر ، والشعر المرسل ، وأبدى استياءه من اختلاف
 محور الشعر في القصيدة الواحدة ، وقد دعا ذلك بجمع البحور ، قال لافض فوه :
 « ومن الدعاة من يدعو إلى التجديد في أوزان الشعر العربي وقافيته ، فأباحوا للشاعر
 أن يطلق الشعر من قيود القافية ، وينظم قصيدته دون الزام قافية خاصة ، وسموا ذلك
 الشعر المرسل .. وأباحوا له أن ينظم القصيدة من بحور مختلفة وأوزان متعددة وسموا
 ذلك بجمع البحور ، أو أن يتحرر من قيود الوزن كافة ، وسموا ذلك الشعر الحر .
 ولا شك أننا لا نؤمن بالفوضى لونا من ألوان التجديد ، ولا نستسيغ هذا الشعر
 الحر وما يسمونه بجمع البحور ، أو ما يطلقون عليه الشعر المرسل ، ونرى ذلك انحرافا
 عن طريق التجديد الواضحة الصحيحة »

فمثل هذا الرأي الجريء الصريح الذي يناقض فيه جمهوراً من حلبة أدباء العربية
 وشعرائها الجاهلين يستحق من أجله التهئة ، لأنه لم يقله لشهوة المعارضة وعشق الشهرة
 - شأن الكثيرين - ولا اقتضبه رأياً فطرياً لقصد المخالفة ، لكنه رأى أوحى
 له به الدرس العميق ، والفطرة العربية السليمة ، تلك الفطرة التي صقلها التهذيب ،

والتجربة ، ومدارسة الأدب قديمه والحديث منه .. لكن مع هذا كله ، فنحن لا ندري كم يستطيع أن يثبت رأيه هذا أمام التيار الجارف الذي ضرى به الأدباء والشعراء ، إنى لو اتق بأن موجة التجديد التي أخذت تحتاح الشعر أصولاً وفروعاً سوف تغير القصيدة العربية تغييراً يجعلها قصيدة غربية مكتوبة بحروف عربية !

ثم ذكر حظ الشعر من الخلود ، وعمل الشاعر والناقد ، وكيفية نقد الشعر ، وما قال : « إن الناقد الحر يستطيع أن يخلق نهضة حقيقية للشعر المعاصر إذا أقام منهجه في النقد على أصول التقدير الخالص للشعر ، ومهمة النقد في توجيهه ويقظته ، وبعثه من الخمول الذي يعيش فيه اليوم (١) »

ثم تسكلم عن مذاهب النقد ، وذكر دعوة بعض المعاصرين إلى الانسانية ، والعالمية في أدبهم ، ومثل على ذلك بقصيدة الشاعر الملهم أحمد زكي أبو شادي « اللاجئون » ، (٢) وذكر الأسلوب وخصائصه وأهم المؤثرات في الأدب ، فخصرها في :

١ - الحياة السياسية ٢ - الدين وما يتصل به من عادات وتقاليده

٣ - الاقليم والمناخ ٤ - الاستعداد الفطري

وذكر عناصر الأثر الأدبي ، والدراسات الأدبية في القديم والحديث . ثم تعرض لعصر مطران ولما ذهبه في التجديد ، فوقف في هذا الفصل وقفة متأملة طويلة وتعرض لبعض أعلام الشعر الحديث ، فمقد فصولاً لدراسة كل من : ناجي الشاعر ، أبي القاسم الشابي ، جميل صدقي الزهاوي ، الأسمر ، حسن جاد الشاعر ، أحمد محرم ، علي محمود طه ، الصيرفي الشاعر ، عبد الله زكريا الانصاري ، محمد العامر الرميح ، وقد كان الأستاذ مخلصاً في أقواله ، عميقاً في لفتاته ، وكان صريحاً إذ نبه على ما يحتاج إلى التنبيه ، وختم الكتاب بفصل وجيز دعاه « محنة الأدب المعاصر » .. وبما جاء في هذا الفصل قوله : قد يكون سبب ذلك كله « أي محنة الأدب ، الروح المادي الذي يحتاج البلاد العربية ويجعلها تؤمن بحاجاتها المادية دون مطالبتها الروحية ، وقد يكون السبب ضعف الأذواق الأدبية ، وقلة عناية الحكام بتشجيع الأدباء ، ولكن السبب الأكبر هو انصراف الجماهير عن الأدب وقلة عنايتهم بقراءته ، بتأثير طغيان العامة والمادية معا - مذاهب الأدب ص ٢٦٥

(١) مذاهب الأدب من ٦١

(٢) اذكر ان متأدياً هاجم هذه القصيدة ، فقلت له باسم : « قرأت القصيدة أم ذكرها لك آخرون ، وانت تردد رأيهم ؟ » فنجعل وانصرف - العزيزي .

والكتاب ذخيرة نفسية ، وهو ايس من الكتب التي تقرأ مرة واحدة وتطرح في إحدى الروايا من خزانة الكتب ، لكنه من الكتب الحية التي تصير طويلا لما يجد فيها القارىء من الفائدة واللذة كلما قرأه ، وأشهد بأنى على كل مشاهد ومشاغل التي تصرفنى في أيام عطلى عن الاكل في وقتها المعين ، أشهد أنى طالعت الكتاب مرتين ، وما زلت أحس في نفسى شوقا لقراءته ، فأنا أعود وأقرر ثانية ان هذا الكتاب الخصب في عقليته ، أعنى الأستاذ محمد عبد المنعم الحفاجى ، سوف يكون له شأن وادى شأن ، وان مصر لتتوقع منه شيئا كثيرا في عالم الادب والعلم واللغة وفي كل منحنى من مناحى حياتها .

ومن آراء المؤلف في الشعر المرسل قوله : « وبعد فالشعر المرسل في رأى بدعة جديدة من تقليد دعاة التجديد الغربيين ، ولا مكان له في الشعر العربى وتقدمه ، فهو نهج فنى لا تعرفه العربية في القديم ، والاستدلال ببعض آثار الشذوذ الفنى للقدماء لا مبرر له ، إذ لم ينظم من الشعر المرسل قصيدة في القديم ، ولم يعرفه الشعراء في عصورنا الأدبية المختلفة ، وهو لا يلائم فرقنا الأدبى ، ويخل بوحدة القصيدة ، وموسيقاها وتأثيرها - ص ٩ »

وقد أعجبتنا حملته على التشبيهات والاستعارات ، والأمثال التي لا تناسب ذوقنا وعصرنا ، وهى بالتالى بعيدة عن جوأبنائنا الفكرى ، وحبذا لو اتخذنا من الاستعارات والتشبيهات ما يلائم هونا الفكرى وعصرنا ، على أن تدرس الأمثال القديمة على أساس أنها جزء من التراث والتاريخ الأدبى .

ولد رأينا للأستاذ آراء تكاد تبدو غريبة كما ظهرت للأستاذ النقادة البصير السعرتى ، إذ اعتبر امرأ القيس وابن الرومى والمعرى من المجددين في الشعر العربى . ونحن نوافق الأستاذ الحفاجى ونخالف صديقنا السعرتى ، وإن كان امرؤ القيس وابن الرومى والمعرى من المؤمنين بالنسبة إلينا ، لكنهم بالنسبة إلى زمانهم كانوا من المجددين ، فتجديد امرئ القيس فى ابتداعه الأوصاف التي لما يألها عصره ، وتجديد ابن الرومى فى مبله إلى وحدة القصيدة ، وتجديد المعرى فى إخضاع الشعر للفلسفة ، وهى أمور لم يألها معاصروهم ومن حقها أن تعد تجديدا ، كما أننا لا ننكر تجديد عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة الشكلى إذ وقفوا القصيدة على الغزل بعد أن كان الغزل أسلوبا متبعاً فى بداية القصيدة (١) حتى رأينا أمثال البحترى مثلاً يقلدون

(١) نحن نعتقد أن الغزل فى بداية القصيدة العربية كان لفكرة دينية - المعري

الجاهلين كقوله :

سلام هليكم لاوفاء ولا عهد أما لكم من هجر أحبابكم بد
أما قول الأستاذ العليم السحرتي ان المذاهب الأدبية متداخلة فقول لاغبار عليه
لكن هذه المذاهب على تداخلها يظل لكل منها طابعه الخاص المميز له عن سواه .
وقد سرنا قول الأستاذ الخفاجي : « لاخير في الشعر إذا لم يوقظ النفوس ويحرك
المشاعر لتقف حياتها على محاربة أفكار الرجعية القديمة البالية التي تريد الناس عبيداً
وقد خلقهم الله أحراراً . مذاهب الأدب ص ٣٨
ونحن نشق على همة الأستاذ الخفاجي وعلى جهده المثمر ، ونتوقع أن يتمم بحثه
هذا بكتاب يتناول فيه تناولاً منفرداً مذاهب الأدب العربي في النثر ، وليس ذلك
على همته بعزير روكن بن زائد العزيزي

- ٣ -

فصول في النقد

للأستاذ روكن بن زائد العزيزي :

برزت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من المطبعة المنيرية بالأزهر سنة ١٩٥٣ ،
فاذا قدر لك أن تطلع على هذا السفر وجدت لذة وفائدة ، فن نظرات نقدية صائبة
سريعة - إلى دراسات عميقة إلى مناظرة منصفة غايتها خدمة الحقيقة والعلم ، إلى
ارشادات إلى وجوه الصواب في كثير من المواضع . والكتاب من قلم الأستاذ العليم
محمد عبد المنعم خفاجي أستاذ الأدب العربي في كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف ،
والذي عرف الأستاذ معرفتنا به يراه قيناً بكل مكرمة

لقد رأينا له في هذا الكتاب مناظرة للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل - وأكاد
اقول محاكمة أمام محكمة ضمير العلم والعلماء ، كان فيها الأستاذ الخفاجي مجلياً على الرغم
بما أحاط تلك القضية من غموض وإبهام في أول أمرها ، وقد تتبعنا سير هذه القضية
في مجلة الأديب وراعنا الفرق العظيم ، لابل هالنا الفرق العظيم بين اخلاق علمائنا
- الذين لا يهمهم إلا أشخاصهم - وبين علماء الغرب الذين تهتمهم الحقيقة المجردة
قبل أي اعتبار آخر

ثم رأينا ماشجر بينه وبين الأستاذ « عبد المتعال الصعيدي » فرأينا الأستاذ
الخفاجي يصحح للأستاذ الصعيدي أوها ما تردى في وهدتها ، ما كنا نظن أن الأستاذ

للمصيدى يتعرض لشيء منها ، لولا علمنا أن الشهرة تغرى الناس أحيانا بالهرولة حتى أصبح ما تنتجه بعض الافلام المشهورة هذيان محومين ، ولقد عرض لي مرة أن اطلعت على بحث لسكاتب كبير في افتتاحية من افتتاحيات الرسالة الشهيرة - قبل احتجاجها ، فرأيت ينادى في موضوع لم يقرأ سوى عنوانه فضحكت واسفت وقلت : ، إذا كان هذا شأن الكبار عندنا ، فما شأن الصغار ؟ ، ولم أعجب بعد هذا وأنا أرى كل أمر من أمورنا في الشرق يصح فيه قول الشاعر :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

اعجبني في هذه الفصول تحليله لقصيدة : ، صمت الشاعر ، وقصيدة : الربيع والشاعر ، ، وسررت بالدراسة المستفيضة لابن سنال ، وهي مائة حقاً ومع كل حسنات الكتاب ومافيه من طرافة وحسن توجيه لكل ناشئ وأديب لا يسعني إلا أن أرجو من أخى الأستاذ العليم أن يهم بطبع الكتاب في طبعته الثانية على ورق أفضل ، وأن يتحاشى أو هام الطباعة - التعليقات .. أقول هذا وأنا عالم كل العلم بما تتسع له ميزانية الأستاذ في الشرق ، إذا هو انكأ عليها في إبراز إنتاجه العلمي والأدبي

ويلن لي أن أوجه انظار المسؤولين في الشرق لتشجيع الاساتذة ، فقد جاء الوقت - على ما اعتقد - الذي تعدل فيه النظرة إلى المعلم . وقبل أن أعيد قلبي إلى قرابه ، أود أن أشكر الأستاذ الخفاجي غلى هديته الثمينة وأهنته بنظراته النقدية النزهة المميقة .

الإسلام وحقوق الإنسان

حينما يؤرخ جدياً للأدب المعاصر الخصب ستذكر بين الأسماء اللامعة : فرح أنطون وجميل صدقي الزهاوى ومحمود كامل المحامى وطه حسين ورثيف بخورى وسلامه موسى ومحمد عبد المنعم خفاجي كثل الألفية العميقة الإيمان برسالتها الانسانية المنجبة دون انقطاع إلى غاية ما تسمع به الحياة إنجاباً عظيمياً قوياً .

ولقد كثرت في الآونة الأخيرة المؤلفات العامة والمتخصصة في شؤون الاسلام واكثرها على ماراينا جمع ونقل وترديد لاخير فيه ، ولكن امامنا الآن كتابه

جديد للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي — أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية
بالجامعة الأزهرية — موضوعه (الإسلام وحقوق الإنسان) ، أصدرته « دار النشر
المصرية بالقاهرة » ، في أكثر من مائة وتسعين صفحة من القطع المتوسط ، وقد احتوى
بعد المقدمات ثمانية أبواب ، تناولت : أولا الإسلام ومبادئه الخالدة ، وثانيا الإسلام
وحقوق الإنسان ، وثالثا الإسلام ونظم الحكم ، ورابعا الإسلام والمجتمع ، وخامسا
الإسلام والأسرة ، وسادسا الإسلام والثروة ، وسابعا الإسلام والنظم الاقتصادية ،
وثامنا الإسلام ورسالة البشرية . وعلى الرغم من كبر حجم هذا الكتاب فقدماته
بدسامة بحوثه ، وتجرده عن الثثرة ، وجاء أهلا لأن يضاف إلى المكتبة الأدبية
الضخمة ، التي تنتسب إلى الأستاذ خفاجي ، وقد تناولت فنونا شتى من البحث
والدرس ، وأصبحت من المراجع المحترمة التي يركن إليها في موضوعاتها

يقول المؤلف العلامة في مقدمته : « ما أكثر ما نعرف عن الإسلام وما أقله في
وقت واحد . نعم ما أكثر ما نعرف عنه من ترهات وقشور ، وما أقل ما نعرفه نحن
المسلمين عنه من حقائق خالدة ومبادئ هالية ومذاهب مثلى رفعت مستوى الحياة
والمدينة وأنقذت الناس من ظلمات الحياة البدائية ، وجددت معاني الخلق الأمثل
والحرية النادرة والمساواة والإخاء والعدالة بين الأفراد والجماعات والشعوب . وفي
فصول الكتاب المتعددة يتقدم المؤلف بالحجج المؤيدة في نظره لهذه المبادئ الإسلامية
بأسلوبه المترسل الذي عرف به والذي لن يمل تلاوته المسلم وغير المسلم على السواء .
وفي إطلاعه الواسع لم يفت المؤلف في تمهيداته التحدث عن الأفكار والحركات
الجديدة التي اعترفت بحقوق الإنسان ، وفي طليعتها الثورة الفرنسية وهيئة الأمم
المتحدة وزعماء البشرية المصلحون . ولكننا نتمنى عليه في الطبعة الثانية لكتاب
النفيس أن يتناول بالدرس الجميل والتنويه الثورة الأمريكية وكبار الإنسانيين
الأمريكيين وعلى رأسهم أبراهام لنكولن ، ثم كبار الإنسانيين الشرقيين الذين بشروا
بحقوق الإنسان وضموا في سبيل الحرص عليها ، وعلى رأسهم المهاتما غاندي الذي وضع
بقلبه مقدمة لترجمة صفوة شاتقة من الأحاديث النبوية الشريفة في اللغة الإنجليزية ،
كلها تدور حول الحق والخير والجمال وكرامة البشرية . ولا ريب عندنا في أن هذا
الكتاب القيم في طبعاته المقبلة سيزداد قيمة على قيمة بما سيدعو إليه التوسع فيه على
صهوة البحوث الإنسانية الجديدة من تاريخية وعلمية واجتماعية ونفسانية وفلسفية
وقفية ، ومن بينها دراسة رثيف خوري لهذا الموضوع بالذات ، موضوع حقوق الإنسان .

وقد تناول المؤلف الفاضل في إيجاز غير يخل الجوانب المتعددة لموضوعه ، وفي لباقة جعلت من هذا الكتاب في آن واحد سفراً أدبيا ودينيا وتاريخيا يصلح للطالبة المدرسية العامة ، وللإستمتاع والفائدة .

ولنستعرض هنا على سبيل الأمثلة بعض الجواب التي تناولها الكتاب تعريفاً به ، وباتجاهات مؤلفه .

قال في موضوع أن الحكم في الإسلام أساسه مشيئة الشعوب (ص ٩١) : « الحكم في الإسلام دستوري . . . والقرآن الكريم يحقق كل أغراض الحكومة الدستورية الصالحة ، فقد قرض على الحاكم أن يستشير المسلمين ويرجع إلي رأيهم ولم يجعل أي امتياز لطبقة الحاكمين على المحكومين » .

ويقول أيضا (ص ٩٢) : « إن الإسلام يختلف الامتيازات الفردية والطاقاتية ويمحو ما بين الطبقات من الفروق في الحقوق والواجبات ، لافرق بين حاكم ومحكوم ولا يعترف بالنبلاء والسادة والأمراء ، إنما هم مثل غيرهم من باقي طبقات الشعب وفلاحيه وجمهوره ، نظام الحكم مقرون بالحرية والمساواة والعرف واحترام كرامة الفرد » . وقد برأ الشريعة الإسلامية من تحمل مسئولية المظالم والاضطرابات التي أحدثها الملوك من ذوى السياسة والاطماع الكثيرة بعد عصور الخلفاء الراشدين ، ونبه إلى أن الحكومة أساس تكوينها في الإسلام شورى ، ومشيئة الشعب هي التي توجهها وتسير بها إلى جادة الحق والخير العام والإصلاح . ومهدتها هي خدمة الشعب والتفاني في حفظ الأمن والنظام ، وضمان العدالة والحق والمساواة للجميع » .

وقال في موضوع تعدد الزوجات الإسلام (ص ١١٤) : « جاء الإسلام والحياة الزوجية في فوضى جامحة لا تقيد الناس بعدد محدود من الزوجات . فقد يجمعون بين عشرات الزوجات ويجهرون في معاملتهم ومعاشرتهم فكان بين خطتين : فاما أن يمنع تعدد الزوجات منعا باتا ، فيفرض الاقتصاد على واحدة ، وإما أن يخفف وعاء هذا التعدد الجامع وينظم تلك الفوضى العائلية باتخاذ طريق وسط ، فلا يحرم الرجل التمتع بأكثر من واحدة ويقطع التمس والمزوجة . وقد آثر الإسلام الاتجاه الثاني فأباح للمسلم الجمع بين أربع زوجات بشرط أن يعدل بينهن ولا يجهور في معاملتهن » . . . وعندنا أن الإسلام أكرم من هذا ، وأن القرآن الشريف الذي يقول صراحة « ولن تعدلوا » قد أخذ باليسرى ما أعطاه باليمين ، وأن النتيجة الفعلية هي تحريم تعدد الزوجات في الإسلام ، والفقهاء هم الذين أفتوا بالملكية المطلقة وباركوا ضد تعاليم

— ١٩٤ —

الاسلام للسامية . وهذا رأى قديم لنا أدلينا به واشهرناه وعززنا فيه قاضى قضاة مصر حينئذ الأستاذ عبد العزيز فهمى . وإن الاسلام لغير على كرامة المرأة فغيرته على كرامة الرجل والكرامة الانسانية عامة

وقال المؤلف فى موضوع الاسلام والرقى بعد أن أبان أن الرقى كان شائعاً قبل الرسالة المحمدية فى كل مكان حتى بين المسيحيين (ص ٨٣) : الاسلام ضيق حدود الرقى إلى أبعد حد ، وفتح أبواب العتق إلى أوسع مدى ، ، وحث السادة على عتق عبيدهم تقرباً لله ، نظير مال يكتبونهم عليه ، أو تسكفيرا عن بعض السيئات ، وجعل الدولة قوامه على تحرير الرقاب ، بسهم مما يجي من أموال الزكاة ،

وقال فى موضوع الاسلام والنظم الاقتصادية (ص ١٣٢) : « وهذا وغيره من مبادئ الاسلام الخالدة هو الاشتراكية بأجل معانيها وأروع أهدافها وأسمى غاياتها وألوانها ، اشتراكية تحارب الرأسمالية الجشعة المتشجرة ، وتحارب الشيوعية المتلصصة المتذبذبة ، وتحارب الماركسية المتطرفة الحمقاء ، وتحارب الفوضى فى المجتمع ، وتقتل بذور الشقاق والخلاف والعداوة بين الناس والطبقات ،

هذا ما يقوله مفكر أديب واسع الاطلاع من شيوخ الأزهر الاجلاء فى كتابه الذى ينشر باقبال عظيم عليه فى العالم الاسلامى . ونعتقد أنه يكون أكثر انصافاً للاسلام ، ونحن فى منتصف القرن العشرين ، إذا تحاشى التفرقة مستقبلاً بين ما تسمى المدنية الغربية وما تسمى المدنية الشرقية ، فإن الاسلام لم يعرف ، فى نهضته الامنية واحدة ، كيفما كانت مصادرها وينابيعها - ألاوهى المدنية العلمية الانسانية فحسب ..

— أحمد زكى أبو شادى — نقل عن الانذار عدد ١٧ - ١ - ١٩٥٤

— ٥ —

الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى

نرانا أمام نهضة جليلة فى الأدب العربى تناولت أعرق مدارس كدار العلوم والأزهر : فنرى فى الأولى جهوداً أصيلة موفقة داعية للاعجاب بها كتلك التى يقوم بها إبراهيم أنيس وحامد عبد القادر فى فقه اللغة وفلسفتها وعلم النفس الأدبى ، ونرى فى كلية اللغة العربية بالأزهر نظيرة لها لمثل عبد المنعم خفاجى الذى شغل بعلم الأدب وبالنقد الأدبى خاصة .

والأستاذ خفاجي ظاهرة فذة شائعة في الوراثة والاطلاع والاستقراء والانتاج فهو سبط الأديب الكبير الشيخ نافع الخفاجي ، وهو من أسرة بني خفاجة التي تنتمي إلى أصول عربية قديمة ، ومنها الأمراء الخفاجيون في إقليم الكوفة والأمراء الخفاجيون بحلب ومنهم الأمير ابن سنان الخفاجي الحلبي ، ومن أشهر النابغين في مصر من الخفاجيين الشهاب الخفاجي المصري .. وهذا الرجل الذي يعمل أهل شهادات الأزهر العلمية وهي شهادة الأستاذية في الأدب والبلاغة ، التي تسادل « الدكتوراه » من الجامعات السامية كالسوربون مثلاً ، والذي أخرج حتى الآن نحو ستين كتاباً في فنون الأدب .

من العسير أن يختار المرء كتاباً من كتبه للعرض في مجال الحديث عن الأدب العربي ، نظراً لكثرتها وتنوعها متناولة جميع فروع الأدب . والأستاذ خفاجي ليس لغوياً ولا أدبياً لحسب ، بل هو شاعر أيضاً ، شاعره في ذلك شأن الدكتور طه حسين ، ولذلك - إلى جانب ثقافته الواسعة التي نالها كل معرفة ميسورة - كان طابع كتابه شعرياً جميلاً مع الحرص على الدقة العلمية في الوقت ذاته ، ولذلك نالت تصانيفه احتراماً عاماً في جميع الأوساط الأدبية ببلاد العرب ، وفي دوائر الاستشراق بغض النظر عن موافقتنا على آرائه أو مخالفتها فيها .

وأمامنا الآن كتابه (الحياة الأدبية في العصر الجاهلي) ، وهو الحلقة الأولى من تاريخ الأدب العربي المشغول بإخراجه تباهاً . وقد صدق حين قال ابن تارخ الأدب العربي هو تاريخ لقومية الأمة العربية وأخلاقها وعاداتها وحياتها وآمالها وآلامها ، ولكل ما تأثرت به من مؤثرات حياتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والأدبية .. ثم استمع إلى قوله إن « تاريخ الأدب ليس علماً جافاً ، بل أساسه الذوق ودراسة الفنون الأدبية في الأمة دراسة واسعة » . فلي مؤرخ الأدب أن يدرس أسباب رقي الأدب وانحطاطه وتأثر الأدباء بها أو تأثيرهم فيها ، وأن يدرس صلات المحدثين بالقدماء : أدباء وشعراء وكتاباً وخطباء ونقاداً ، وأن يتعمق في فهم المذاهب والمدارس الأدبية العامة وصلاتها بعضها ببعض ، والعوامل التي أدت إلى قيام كل مدرسة وميزاتها وخصائصها ومدى تأثيرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس والمذاهب الأدبية العامة . فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دوراً هاماً ، ولها من الأهمية في دراسة تاريخ الآداب ما لا يقل شأنًا عن دراسات كثيرة في الأدب فتاريخ الأدب ليس سرداً لتعويض أدبية وتراجم عامة . وإنما يوضح لنا الصلات

بين المذاهب الأدبية، ويربط كاتباً بآخر، وجماعة بجماعة، ومدرسة بمدرسة، كما يدرس أسباب الانقلابات الأدبية المختلفة في عصور الأدب، وتأثير تحول الكتاب في نهضة الأدب والشعر، وفي توجيهها وجهة جديدة.

إن هذا الأسلوب المترسل الناصع الناقد لا نعرفه بين الأزهريين إلا في أفذاذ أدبائهم: كالمرصفي ومحمد عبده وعلى عبدالرازق ومصطفى عبدالرازق

وهذا الكتاب الضخم الذي أتى لنا بتحليل جديد عميق للحياة الأدبية في العصر الجاهلي هو أساس متين صالح للدارس الباحث في موضوعه، ولو أنه أساس قابل للتعديل حتماً في ضوء البحوث والكشوف والاستنباطات المستمرة. وليس مثل الأستاذ خفاجي والذي يتعالى على شيء من هذا، بل بالعكس نجده الحريص على الاستقصاء والتحقيق، وتعديل نظراته على ضوء العلم.

وهكذا سيكون كلامنا عن الحياة الأدبية في العصر الجاهلي قائماً على عمادين: أحدهما كتاب الأستاذ خفاجي إن لم نقل كتبه في هذا الموضوع الجليل، إذ له كتب أخرى مكملّة أو شارحة مثل (أعلام الشعر الجاهلي)، و(شعراء الجاهلية) وغيرهما. والآخر الكشوف العلمية الحديثة التي يجب على ضوءها حتماً تنقيح نظرياتنا القديمة وتعديلها. وبذلك نخدم تاريخ الأدب الجاهلي الخدمة الحقّة ونتمكن من حسن دراسة ذلك الأدب والاستمتاع الفني به. . . . أحمد زكي أبوشادي

فهرست الكتاب العام

صحيحة	د ح	مقدمة وتمهيد
١		الكتاب الأول قصة ليل الأخيالية الشاعرة
٤١	»	الثاني قصة عبد الميرز جاويز و جهاده
٨١	»	الثالث قصة ابن هانيء شاعر المعز
١٣٤	»	الرابع قصص من الحياة
١٥١	»	الخامس قصة حياة المتنبى
١٩٣	»	السادس قصص من الأدب
٢٠٧	»	السابع قصص من الشعر الحديث
٢٩٢	»	دراسات نقدية



من مطبوعات المؤلف

الذكر الحكيم
مذاهب الأدب
رائد الشعر الحديث
فصول في النقد
الحياة الأدبية في العصر الجاهلي
الهديع لابن المعتز
الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام
ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان
بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي - ٩ أجزاء
الإيضاح في البلاغة - ٦ أجزاء
فن الشعر - جزآن
الشعراء الجاهليون
عبد القاهر والبلاغة العربية
الإسلام وحقوق الإنسان
الإسلام رسالة الإصلاح والحرية
الشعر العربي : أوزانه وقوافيه
وحدة القصيدة في الشعر العربي
التشبيه في شعر ابن المعتز وابن الرومي
حكومة للقاضي الجرجاني في النقد
موقف النقاد من الشعر الجاهلي
مرشد البيان
تهذيب الأجرومية
فصيح ثعلب

— ٣٢٤ —

شفاء الغليل للشهاب الخفاجي
مقامات الحريري للشريشي - ٤ أجزاء
قواعد الشعر لشعلب
رسائل ابن المعتز
عجاز القرآن للباقلاني
أشعار الشعراء الجاهليين - جزآن
قصص من التاريخ
الصوفي المجدد
الحياة الأدبية في العصر العباسي

لليولف :

- ١ - أعلام الأدب في عصر بني أمية
- ٢ - الحياة الأدبية في العصر العباسي
- ٣ - الأزهر في ألف عام

